

آية الله العظمى تكاثر السيوف

تكملة الأعمال

شرح مختصر في شرح البحار

مؤلفه: آية الله العظمى
العلامة الشريفة السيد محمد باقر

الجزء السادس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٢٠	نفعات الولاية المجلد ٦
٢٠	اشارة
٢٠	الخطبة ١٥١
٢٠	اشارة
٢٠	نظرة إلى الخطبة
٢١	القسم الأول
٢١	الشرح والتفسير: الشمس التي أشرق في الظلام
٢٢	القسم الثاني
٢٣	الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة
٢٤	تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى
٢٤	القسم الثالث
٢٥	الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى
٢٧	القسم الرابع
٢٧	الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة
٢٨	الخطبة ١٥٢
٢٨	اشارة
٢٨	نظرة إلى الخطبة
٢٨	القسم الأول
٢٩	الشرح والتفسير: شمة من صفات الله الجمالية والجلالية
٣٢	القسم الثاني
٣٢	الشرح والتفسير: إنتظار الفرج
٣٥	الخطبة ١٥٣

٣٥	اشارة
٣٥	نطرة إلى الخطبة [٤٥]
٣٦	القسم الأول
٣٦	الشرح والتفسير
٣٦	القسم الثاني
٣٧	الشرح والتفسير: الموعظة البالغة
٣٨	القسم الثالث
٣٨	الشرح والتفسير: الحذر الحذر
٣٩	القسم الرابع
٤٠	الشرح والتفسير: الموبقات الخمس
٤١	الخطبة ١٥٤
٤١	اشارة
٤٢	نطرة إلى الخطبة
٤٢	القسم الأول
٤٢	الشرح والتفسير: أبواب علم النبي
٤٣	تأملان
٤٣	١. الفارق بين العجب والتعريف بالذات
٤٤	٢. الفضل ما شهدت به الاعداء
٤٤	القسم الثاني
٤٥	الشرح والتفسير: خصائص دعاء الحق
٤٦	القسم الثالث
٤٦	الشرح والتفسير: معرفة المحسن والمسيء
٤٨	الخطبة ١٥٥
٤٨	اشارة

٤٨	نظرة إلى الخطبة
٤٨	القسم الأول
٤٨	الشرح والتفسير: درس في معرفة الله
٤٩	القسم الثاني
٥٠	الشرح والتفسير: الطائر العجيب
٥١	القسم الثالث
٥١	الشرح والتفسير: عجائب الخفاش
٥٢	تأمل
٥٢	خلقة الخفاش العجيبة
٥٣	الخطبة ١٥٦
٥٣	اشارة
٥٣	نظرة إلى الخطبة
٥٤	القسم الأول
٥٤	الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهية
٥٤	القسم الثاني
٥٤	الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاة
٥٧	القسم الثالث
٥٧	الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة
٦٠	القسم الرابع
٦٠	الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى
٦٠	تأملان
٦٠	١. الرد على بعض الأسئلة
٦١	٢. الشهادة مفخرة لا مصيبة
٦١	القسم الخامس

- ٦٢ الشرح والتفسير: الحيل الشرعية فى استحلال المحرمات
- ٦٢ تأمل: الحرام لا يحلل بالزيف
- ٦٣ الخطبة ١٥٧
- ٦٣ اشارة
- ٦٣ نظرة إلى الخطبة
- ٦٤ القسم الأول
- ٦٤ الشرح والتفسير: انعطافه على المبدأ والمعاد
- ٦٥ تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه
- ٦٦ القسم الثانى
- ٦٦ الشرح والتفسير: تقلب الدنيا
- ٦٨ القسم الثالث
- ٦٨ الشرح والتفسير: حضور المحكمة الإلهية
- ٧١ تأملان
- ٧١ ١. الشهود على الأعمال
- ٧٢ ٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى
- ٧٢ الخطبة ١٥٨
- ٧٢ اشارة
- ٧٢ نظرة إلى الخطبة
- ٧٢ القسم الأول
- ٧٣ الشرح والتفسير: الكتاب الذى استوعب كل شىء
- ٧٤ القسم الثانى
- ٧٤ الشرح والتفسير: حكومة الظلم ودولة الطغيان
- ٧٥ تأملان
- ٧٦ ١. وظيفة الحاكم والرعية

٧٦	٢. فاجعة نهاية دولة بني امية
٧٦	الخطبة ١٥٩
٧٧	اشارة
٧٧	نظرة إلى الخطبة
٧٧	الشرح والتفسير
٧٧	الدعم المطلق
٧٨	الخطبة ١٦٠
٧٨	نظرة إلى الخطبة [٢١٨]
٧٩	القسم الأول
٧٩	الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمة الله
٨١	القسم الثاني
٨٢	الشرح والتفسير
٨٢	عبيد الدنيا
٨٣	تأمل
٨٣	الخوف والرجاء
٨٤	القسم الثالث
٨٤	الشرح والتفسير: التأسي بالنبي صلى الله عليه و آله
٨٥	القسم الرابع
٨٦	الشرح والتفسير: زهد الأنبياء
٨٧	تأملات
٨٧	١. مزامير داود
٨٨	٢. الصوت الداودي
٨٨	٣. زهد الأنبياء
٨٨	القسم الخامس

- ٨٩ الشرح والتفسير: سيرة النبي صلى الله عليه و آله إزاء عبدة الدنيا
- ٩٠ القسم السادس
- ٩٠ الشرح والتفسير
- ٩٠ زهد النبي صلى الله عليه و آله
- ٩١ القسم السابع
- ٩٢ الشرح والتفسير: لم التأسى بالنبي الأكرم صلى الله عليه و آله
- ٩٣ تأمل
- ٩٤ الخطبة ١٦١
- ٩٤ اشارة
- ٩٤ نظرة إلى الخطبة
- ٩٥ القسم الأول
- ٩٥ الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه و آله
- ٩٦ تأمل
- ٩٦ من قال أم ما قال؟
- ٩٧ القسم الثاني
- ٩٧ الشرح والتفسير: الاعتبار بالامم السابقة
- ٩٩ الخطبة ١٦٢
- ٩٩ اشارة
- ٩٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٠٠ القسم الأول
- ١٠٠ الشرح والتفسير: علة غضب الخلافة العلوية
- ١٠٢ القسم الثاني
- ١٠٢ الشرح والتفسير
- ١٠٣ تأملات

- ١٠٣ ١. حق السؤال
- ١٠٤ ٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبة
- ١٠٥ ٣. بنى امية ومؤامرة القضاء على الإسلام
- ١٠٦ الخطبة ١٦٣
- ١٠٦ نظرة إلى الخطبة [٣٤١]
- ١٠٦ القسم الأول
- ١٠٧ الشرح والتفسير: حادثة مهمة
- ١١٠ تأمل: الله حقيقة مطلقة
- ١١١ القسم الثانى
- ١١١ الشرح والتفسير: العلم الإلهى المطلق
- ١١٢ تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل
- ١١٢ القسم الثالث
- ١١٢ الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم
- ١١٤ تأمل
- ١١٤ الدورة الجينية المذهلة
- ١١٥ الخطبة ١٦٤
- ١١٥ اشارة
- ١١٥ نظرة إلى الخطبة
- ١١٥ القسم الأول
- ١١٥ الشرح والتفسير: إتمام الحجة على عثمان
- ١١٧ تأمل
- ١١٧ سئل نفوذ الكلام فى الآخرين
- ١١٧ القسم الثانى
- ١١٨ الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم

- ١٢٠ أضواء على حادثة قتل عثمان
- ١٢١ الخطبة ١٦٥
- ١٢١ اشارة
- ١٢١ نظرة إلى الخطبة
- ١٢١ القسم الأول
- ١٢٢ الشرح والتفسير: خلق الطيور
- ١٢٣ تأمل: عجائب عالم الطيور
- ١٢٥ القسم الثاني
- ١٢٥ الشرح والتفسير: أعجب طير في العالم
- ١٢٦ القسم الثالث
- ١٢٧ الشرح والتفسير: صورة رائعة لجناح الطاووس
- ١٢٨ القسم الرابع
- ١٢٨ الشرح والتفسير: صورة دقيقة عن جمال الطاووس
- ١٢٩ القسم الخامس
- ١٢٩ الشرح والتفسير: حيرة العقول في الوصف
- ١٣٠ تأمل
- ١٣٠ غرائب الطاووس
- ١٣٠ القسم السادس
- ١٣١ الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان
- ١٣١ تأمل: غيض من عجائب الحيتان والفيلة
- ١٣١ الحيتان
- ١٣٢ الفيلة
- ١٣٢ القسم السابع
- ١٣٢ الشرح والتفسير: نعم الجنة ومفاتها

- ١٣٤ تأمل: أيتها أجمل؟
- ١٣٥ الخطبة ١٦٦
- ١٣٥ نظرة إلى الخطبة [٥٤١]
- ١٣٥ القسم الأول
- ١٣٥ الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية
- ١٣٦ القسم الثاني
- ١٣٦ الشرح والتفسير: المصير الأسود لبنى أمية
- ١٣٧ تأمل: ثورات دامية ضد بنى أمية
- ١٣٨ القسم الثالث
- ١٣٨ الشرح والتفسير: عامل التخلف
- ١٣٩ تأمل: بنو اسرائيل
- ١٣٩ الخطبة ١٥٦
- ١٣٩ اشارة
- ١٣٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٠ القسم الأول
- ١٤٠ الشرح والتفسير: معرفة سبيل الحق
- ١٤١ القسم الثاني
- ١٤١ الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة
- ١٤٣ تأمل: سلامة البيئة وحماية الحيوانات فى الإسلام
- ١٤٣ الخطبة ١٦٨
- ١٤٣ اشارة
- ١٤٤ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٤ القسم الأول
- ١٤٤ الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبة قتلة عثمان

- ١٤٥ تأملان
- ١٤٦ ١. معوقات العدالة
- ١٤٦ ٢. إشكال الثوار
- ١٤٦ الخطبة ١٦٩
- ١٤٦ اشارة
- ١٤٦ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٧ القسم الأول
- ١٤٧ الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومة الإسلامية
- ١٤٨ القسم الثاني
- ١٤٨ الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة
- ١٤٩ الخطبة ١٧٠
- ١٤٩ اشارة
- ١٤٩ نظرة إلى الخطبة
- ١٤٩ القسم الأول
- ١٤٩ الشرح والتفسير: لماذا لا يتابع
- ١٥٠ تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام
- ١٥١ الخطبة ١٧١
- ١٥١ اشارة
- ١٥١ نظرة إلى الخطبة
- ١٥١ القسم الأول
- ١٥٢ الشرح والتفسير: الجنة أمامكم
- ١٥٣ تأمل
- ١٥٤ الخطبة ١٧٢
- ١٥٤ نظرة إلى الخطبة [٦٤٠]

١٥٤	القسم الأول
١٥٤	الشرح والتفسير: قريش والخلافة
١٥٤	تأملان
١٥٤	١. العيون المعصوبة ازاء الحقائق
١٥٧	٢. هل ينبغي التنازل عن بعض الحق
١٥٧	القسم الثاني
١٥٧	الشرح والتفسير
١٥٧	فضيحة أصحاب الجمل
١٥٩	سؤال آخر:
١٥٩	الخطبة ١٧٣
١٥٩	اشارة
١٥٩	نظرة إلى الخطبة
١٦٠	القسم الأول
١٦٠	الشرح والتفسير: أجدد الأفراد بزعامة الأمة
١٦٠	سؤال:
١٦١	الجواب:
١٦١	سؤال:
١٦٢	الجواب:
١٦٢	القسم الثاني
١٦٢	الشرح والتفسير
١٦٢	تعليمات عسكرية
١٦٣	تأمل: حوار مع عمار بن ياسر في صفين
١٦٤	القسم الثالث
١٦٤	الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم

١٦٦	الخطبة ١٧٤
١٦٦	اشارة
١٦٦	نظرة إلى الخطبة
١٦٦	القسم الأول
١٦٦	الشرح والتفسير: تناقض طلحة دليل فضيحة
١٦٨	الخطبة ١٧٥
١٦٨	اشارة
١٦٨	نظرة إلى الخطبة
١٦٨	القسم الأول
١٦٨	الشرح والتفسير: الغفلة التامة
١٦٩	القسم الثاني
١٦٩	الشرح والتفسير: علمنى رسول الله صلى الله عليه و آله كل شىء
١٧٠	الخطبة ١٧٦
١٧٠	اشارة
١٧٠	نظرة إلى الخطبة
١٧١	القسم الأول
١٧١	الشرح والتفسير: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات
١٧٢	تأمل: عشق الطاعة
١٧٢	القسم الثاني
١٧٣	الشرح والتفسير: نقد الذات
١٧٣	وصايا ضرورية
١٧٤	القسم الثالث
١٧٤	الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء
١٧٥	تأمل

١٧٥	القرآن والشفاء
١٧٥	القسم الرابع
١٧٥	الشرح والتفسير: القرآن شفيق القيامة
١٧٦	القسم الخامس
١٧٦	الشرح والتفسير: الدفاع المشروط
١٧٧	القسم السادس
١٧٧	الشرح والتفسير
١٧٨	تأمل: الإستقامة في مسار الولاية
١٧٩	القسم السابع
١٧٩	الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان
١٨١	تأملان
١٨١	١. اللسان اعجب اعضاء البدن
١٨٢	٢. رصيد الإنسان
١٨٢	القسم الثامن
١٨٣	الشرح والتفسير: أخطار البدع
١٨٤	تأمل
١٨٤	البدعة
١٨٥	القسم التاسع
١٨٥	الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم
١٨٦	القسم العاشر
١٨٧	الشرح والتفسير: إصلاح النفس
١٨٨	تأمل: العيش بصورة جماعية أم الإنزواء
١٩٠	الخطبة ١٧٧
١٩٠	إشارة

١٩٠ نظرة إلى الخطبة
١٩٠ القسم الأول
١٩٠ الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكمين
١٩١ تأمل: تولي الحكمين عن القرآن
١٩٢ الخطبة ١٧٨
١٩٢ اشارة
١٩٢ نظرة إلى الخطبة
١٩٢ القسم الأول
١٩٣ الشرح والتفسير: عظمة الله وكرامة نبته صلى الله عليه و آله
١٩٤ تأملان
١٩٤ ١. مشكلة الصفات
١٩٥ ٢. أهداف بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله
١٩٥ القسم الثاني
١٩٥ الشرح والتفسير: صدق النبي مع الله
١٩٧ الخطبة ١٧٩
١٩٧ اشارة
١٩٧ نظرة إلى الخطبة
١٩٧ القسم الأول
١٩٧ الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟
٢٠٠ الخطبة ١٨٠
٢٠٠ اشارة
٢٠٠ نظرة إلى الخطبة وسبب الورود
٢٠٠ القسم الأول
٢٠٠ الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

- ٢٠١ القسم الثاني
- ٢٠١ الشرح والتفسير
- ٢٠٣ تأملان
- ٢٠٣ ١. الفرق بين المعونة والعطاء
- ٢٠٣ ٢. الخدمات الثقافية الأربع للإمام عليه السلام
- ٢٣٨ تعريف مركز

نجمات الولاية المجلد ٦

إشارة

عنوان و نام پدیدآور : نجمات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغه/ ناصر مكارم شيرازى، بمساعدته مجموعه من الفضلاء؛ اعداد عبدالرحيم الحمدانى.

مشخصات نشر : قم : مدرسه الامام على ابن ابى طالب (ع) ، ١٤٢٦ق. = ١٣٨٤.

مشخصات ظاهرى : ج.

شابك : ٣٠٠٠٠ ريال : دوره ٩٥٨-٨١٣-٩٦٤-X؛ ج. ١ ٩٠٧-٨١٣-٩٦٤-٥؛ ج. ٢ ٩٠٨-٨١٣-٩٦٤-٣؛ ج. ٣ ٩١٣-٨١٣-٩٦٤-٣-٩١٧-٢

؛ ج. ٤ ٩١٨-٨١٣-٩٦٤-٠؛ ج. ٥ ٩٤١-٨١٣-٩٦٤-٥؛ ج. ٦ ٧٠٠٠٠ ريال: ج. ٧ ٧٠٠٠٠ ريال: ج. ٨ ٧٠٠٠٠ ريال: ج. ٩ ٧٩٧٨-

٩٦٤-٥٣٣-١٢١-٢؛ ج. ١٠ ٧٠٠٠٠ ريال: ج. ١١ ٨٩٧٨-٩٦٤-٥٣٣-١٢٢-٩؛ ج. ١٢ ٧٠٠٠٠ ريال: ج. ١٣ ٩٦٤-٩٦٤-٥٣٣-١٢٣-٦؛ ج. ١٤ ٧٠٠٠٠ ريال:

ج. ١٥ ٩٦٤-٥٣٣-١٢٤-٣:

يادداشت : عربى.

يادداشت : ج ١-٥ (چاپ دوم: ١٣٨٤).

يادداشت : ج. ٦-١٠ (چاپ اول: ١٤٣٢ق. = ١٣٩٠).

يادداشت : کتابنامه.

مندرجات : . ج. ٦. من خطبة ١٥١ الى ١٨٠ - ج. ٧. من خطبة ١٨١ الى ٢٠٠ - ج. ٨. من خطبة ٢٠١ الى ٢٤١ - ج. ٩. من رسالة ١ الى ٣١ - ج. ١٠. من رسالة ٣٢ الى ٥٣

موضوع : على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- خطبهها

موضوع : على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- كلمات قصار

موضوع : على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. -- نامهها

موضوع : على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. . نهج البلاغه -- نقد و تفسير

شناسه افزوده : حمرانى، عبدالرحيم

شناسه افزوده : على بن ابى طالب (ع)، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت - ٤٠ ق. . نهج البلاغه. شرح

شناسه افزوده : مدرسه الامام على بن ابى طالب (ع)

رده بندي كنگره : BP٣٨/٠٢ م/ ١٣٨٤٧

رده بندي ديويى : ٢٩٧/٩٥١٥

شماره كتابشناسى ملي : م ٨٤-٤٠٣٤٧

الخطبة ١٥١

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُحَذِّرُ مِنَ الْفِتَنِ [١]

نظرة إلى الخطبة

تتكوّن هذه الخطبة من أقسام ثلاثة:

أما القسم الأول: فهو حمد الله والثناء عليه، ومن ثم الشهادة بالرسالة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبعض صفاته الخاصة. حيث أشار الإمام عليه السلام في هذا القسم إلى الأوضاع المربكة التي كانت سائدة إبان الجاهلية ليقف المسلمون من خلال المقارنة على عظمة النعم التي أفاضها الله عليهم ببركة الإسلام.

أمّا القسم الثاني من الخطبة: فقد أخبر فيه الإمام عليه السلام عن ظهور الفتن في المستقبل والعودة القهقري إلى الجاهلية بأفكارها وممارساتها، كالفتن التي يقودها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦

الظلمة والتي تفعل فعلها في الوسط الإسلامي.

وأخيراً يختتم الخطبة بوصية الناس بالحذر من الظلمة وعدم الانخداع بفتنهم والاستجابة لتحقيق مآربهم، إلى جانب عدم اتباع خطوات الشيطان والسقوط في شركه، والإبتعاد عن تناول الحرام وتقوى الله على كل حال.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧

القسم الأول

وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاجِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيُّهُ وَصَفْوَتُهُ. لَا يُؤَاوِزِي فَضْلُهُ، وَلَا يُجْبِرُ فَقْدُهُ. أَضَاءَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْغَالِيَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ؛ وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَنْدِلُونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ!

الشرح والتفسير: الشمس التي أشرقت في الظلام

إنّ هذه الخطبة من خطب الملاحم التي تتعرض إلى جانب من الأحداث الخطيرة التي تقع في المستقبل وتحذر الناس من ضرورة التحلي باليقظة ومراقبة الذات بغية عدم التلوث بالظلم والفتن والفساد. فقد استهل الإمام عليه السلام خطبته بحمد الله والثناء عليه والاستعاذة بذاته المقدسة من شر الشياطين فقال:

«وَأَحْمَدُ اللَّهَ وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاجِرِ [٢] الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ [٣] وَالْإِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ [٤]»

، فالإمام عليه السلام يسأل الله تعالى في هاتين العبارتين التوفيق للطاعة والعبادة والاعتصام من الذنب والمعصية، فليس هنالك من وسيلة لابتعاد

«مداحر»

الشيطان و

«مزاجره»

سوى طاعة الله وامتنال أوامره، وليست

«حبائل»

الشيطان و

«مخاتله»

سوى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨

الذنوب والمعاصي.

ولا تبدو طاعة الله والاحترام من الذنب والمعصية ممكنة دون تسديد الله وتوفيقه، وذلك لأن طريق الطاعة واجتناب المعصية صعب ملبى بالمطبات والعوائق، ثم يقر لله بالوحدانية وللنبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالرسالة فيقول:

«وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيَّهُ وَصَفْوَتُهُ»

. وذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن

«نجيبه» و «صفوته»

بمعنى واحد هو الانتخاب والاصطفاء وكل منهما يؤكد الآخر، والصحيح أن هنالك فرقاً بين المفردتين. بالنظر إلى أن النجيب يعنى النفس، والمفردة الأولى فى الواقع ممهدة للمفردة الثانية؛ لأنّ الشىء يصطفى حين يكون نفيساً قيماً، ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالإشارة إلى صفتين من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَا يُؤَاوِى فُضْلُهُ، وَلَا يُجَبِّرُ فَقْدَهُ»

حقاً يتعذر تعويض الشىء الذى لا نظير له حين يفقد، كما أشار فى آخر صفة إلى آثار النبى صلى الله عليه وآله الوجودية فى تلك الظروف التى شهدها عصر الجاهلية حيث أشرقت بنور وجوده البلاد التى كانت غارقة فى لجج الضلالة والظلمة وقد استحوذ الجهل على أفكار أهلها فقسفت قلوبهم وطفحت بالجمود:

«أَصْأَتْ بِهِ الْبِلَادُ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَالْجَهَالَةِ الْعَالِيَةِ، وَالْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ [٥]»

. وذلك حين كان الناس يستحلون الحرمات ويحتقرون العلماء فى ظل الفترة وغياب أولياء الله وهم يموتون على الكفر ومجانبة الدين «وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ الْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ الْحَكِيمَ؛ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ!»

. فهذه الصفات السبع التى أوردها الإمام عليه السلام بعبارات مجملية بشأن عهد الجاهلية إنما تجسد صورة رائعة عن ذلك الزمان الذى اتسم بالضلال، والجهل، والقسوة، واستحلال الحرمات، والاستخفاف بالعلماء، وانعدام وجود القائد والمرشد، والموت على الكفر.

وقد بلغ ضلال القوم مرتبة من الفضاة إلى الحد الذى جعلهم يفخرون بجناياتهم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩

ويرون سفك الدماء وأد البنات دليلاً على الغيرة، والسلب والنهب شجاعة، كما تأصلت لديهم معانى الجهل والخرافة حتى جعلهم يصنعون آلهتهم بأيديهم تارة من الخشب وأخرى من الحجر وأخيراً من التمر، فإن جاعوا التهموها. وأما قساوة قلوبهم فقد تجذرت فى أعماقهم حتى توارثوا الحقد جيلاً عن جيل، فكانوا لا يأنسون بسفك الدماء وممارسة سائر المفاسد والانحرافات. وفى ظل هذه الظروف العصبية يمكن إدراك عظمة النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ومعطياته فى تلك الأجواء المتلفعة بالظلمة، حتى استطاع خلال تلك الفترة القصيرة من النهوض بذلك المجتمع الخرافى الجاهل والمتخلف ليضعه فى مصاف المجتمعات المتمدنة والمتحضرة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١

القسم الثانى

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدِ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَيِّكَرَاتِ النَّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ النَّقْمَةِ، وَتَبَتُّوا فِي قَتَامِ الْعِشْوَةِ، وَأَعْوَجَّاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا. تَبْدَأُ فِي مَدَارِجِ حَقِيَّتِهَا، وَتَوُولُ إِلَى فِطَاعَةِ جَلِيَّتِهَا. شَبَابُهَا كَشَابِ الْعُلَامِ،

وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السَّلَامِ، يَتَوَارَثُهَا الظَّلْمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوْلَهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِمْ؛ يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دُنْيَةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ. وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ مِنَ الْمُتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقْوَدِ، فَيَتَرَابَلُونَ بِالْبُغْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ».

الشرح والتفسير: الحذر من الفتنة

أخبر الإمام عليه السلام الناس في هذا المقطع من الخطبة بالفتن التي تنتظرهم إلى جانب تحذيرهم وإلفات نظرهم إلى خطورتها ليتحصنوا قدر المستطاع من ضربات تلك الفتن ويحدوا من الخسائر، حيث أشار الإمام عليه السلام بعبارات لطيفة إلى مصادر هذه الفتنة وكيفية تبلورها ومرورها بمختلف المراحل فقال:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعَشَرَ الْعَرَبِ أَعْرَاضُ بَلَايَا قَدْ اقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النُّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بَوَائِقَ [٦] النَّقْمَةِ»

. فقد ركز الإمام عليه السلام في هذه العبارة على عنصرين يقفان وراء الفتن؛ أحدهما سكرات النعمة، والآخر عقوبة الأعمال.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢

وبين نتيجة تلك الفتن التي يعصف بلاؤها بالناس. ثم أوصى الناس بالتحلي باليقظة والحذر بغية التقليل من الخسائر حين تهب رياح الحوادث المعتمة وتستفحل الفتن عند ظهور اجتنها وانتصاب محورها وحرارة رحاها

«وَتَتَبَّنُوا فِي قَتَامِ [٧] الْعِشْوَةِ [٨]، وَأَعْوِجَاجِ الْفِتْنَةِ عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَأَنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا»

. فالإمام عليه السلام يشبه الفتنة في هذه العبارة بالجنين الذي يترعرع بصورة خفية ويولد فجأة تارة، وتارة أخرى يعدها كالرحى التي يقام محورها بادئ الأمر ثم تدور حوله، وتشير الشواهد التاريخية إلى أن الفتن كذلك حقاً، فهي مراحل تتبلور أثر بعض العوامل الاجتماعية المختلفة لتنفجر فجأة ويطفو على السطح ما يعتمر في باطن المجتمع، ثم يتطرق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى الملامح الأخرى لتبلور الفتن على أنها تبدأ من مراحل خفية لتظهر في خاتمة المطاف بوجهها الخطير، وهي تنمو وتنتشر بسرعة على غرار نمو الشباب وتسدد ضرباتها الموجهة إلى جسد المجتمع

«تَبْدَأُ فِي مَدَارِجِ خَفِيَّتِهِ، وَتَوُولُ إِلَى فِطَاعِهِ جَلِيَّتِهِ. شَبَابُهَا كَشِبَابِ [٩] الْغُلَامِ، وَأَثَارُهَا كَأَثَارِ السَّلَامِ [١٠]».

هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة في الفتنة التي أشار إليها الإمام عليه السلام في هذه العبارة وحدد منها؛ ويبدو أن المراد بها فتنة بني أمية التي بدأت منذ عهد عثمان وبرزت بقتله ثم بلغت ذروتها إثر خلافة معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان ومن سار في فلکهم، وقد اتضحت هذه الفتنة وتجلت فضيحتها بشتم أمير المؤمنين على عليه السلام من على منابر المسلمين وتلك الضربات التي وجهت إلى الإسلام بحيث لو وضعت على جبل لتصدع.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣

ثم واصل حديثه بالإشارة إلى سائر خصائص هذه الفتنة

«يَتَوَارَثُهَا الظَّلْمَةُ بِالْعُهُودِ! أَوْلَهُمْ قَائِدٌ لِآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوْلِهِمْ»

. أجل ففادة الفتن على هذه الشاكلة يتوارثون فيما بينهم أسباب الفتنة ويسيرون جميعاً في خط واحد وبتأجه مشترك، ومن شأن هذا الانسجام والاتفاق والوراثه أن يضاعف أخطار الفتنة ويشعب آثارها السلبية، آنذاك أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الأصلي لقادة الفتن والظلمة في أنهم يتسابقون من أجل الظفر بهذه الدنيا الدنية ويتكالبون على حطامها كتهافت الكلاب على المزابيل النتنه، فالواقع هم متحدون في الظاهر وينطلقون معا في مسار واحد، غير أنهم يعيشون باطنيا حالة من الصراع والنزاع ويسعى كل فرد منهم لأن يكون رأس الفتنة ويقتفى آثاره الآخرون

«يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيْفَةٍ مُرِيحَةٍ [١١]».

ثم أشار عليه السلام بعبارة قصيرة وبلغته إلى عاقبتهم المريرة فقال:
«وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَّبِعُ التَّابِعَ مِنَ الْمُتَّبِعِ، وَالْقَائِدُ مِنَ الْمُقَوِّدِ، فَيَتَرَاتِلُونَ بِالْبَعْضَاءِ، وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»
لعل هذه العبارة إشارة إلى أصحاب الفتن من بنى العباس.

رغم أنهم اقتفوا آثار بنى أمية في سلوك هذا النفاق والتكالب على الدنيا وتوجيه الضربات إلى أهل البيت عليهم السلام زعماء الأمة الإسلامية وأئمتها، إلا أن الظاهر أنهم كانوا يلعنونهم ويتبرأون من أفعالهم، وكان شعارهم الذي أرادوا به خداع الناس «الرضا لآل محمد»، ففتكوا بفلول بنى أمية وسفكوا دماءهم حتى سالت أنهار من الدماء وقضوا على تراثهم ونهبوا أموالهم، وذهب البعض من شراح نهج البلاغة إلى أن المراد من العبارة
«وَيَتَلَاعَنُونَ عِنْدَ اللَّقَاءِ»

، لقاء الله ويوم القيامة، كما ورد في القرآن الكريم: «إِذِ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» [١٢]
كما ورد في القرآن الكريم بشأن براءة المشركين من أئمتهم: «وَيَوْمَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤

نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا
مُشْرِكِينَ» [١٣]. وعبارة
«وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيْفَةٍ مُرِيحَةٍ»

تشبه هذه الفئة الطاغية المتهافئة على الدنيا بالكلاب التي تهجم على الميتة العفنة وينهش كل منها ما في يد الآخر وفمه، وباله من تشبيه بليغ رائع!

تأمل: مميزات الحكام اتباع الهوى

يستفاد من العبارات المذكورة في خطبة الإمام عليه السلام أن الحكام الظلمة يتسمون ببعض المميزات التي يشهد بها التاريخ البشري، ومنها:

١. إثارة الفتن والبلابل بغية تحقيق الأهداف؛ الأمر الذي نشهده في استغلال بنى أمية لقضية المطالبة بدم عثمان.
٢. الاتحاد والتنسيق في الانطلاقة والتواطؤ في الخطط الهدامة وإثارة الفتن.
٣. اشتداد المنافسة حين الغلبة بحيث تبدو المجموعة وكأنها حفنة من الكلاب التي تتكالب على جيفة ليحوز كل حصته من الآخر.
٤. لعن كل طرف للآخر في خاتمة المطاف وتحمله المسؤولية ولعل التاريخ بماضيه وحاضره شاهد حي على كلام الإمام عليه السلام.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥

القسم الثالث

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَالْقَاصِمَةُ مِنَ الرَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبَ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالَ بَعْدَ سَلَامَةٍ؛ وَتَحْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَءَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا. مَنْ أَشْرَفَ لَهَا فَصَمَّتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادِمُونَ فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ فِي الْعَانَةِ! قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلْمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبُدُوِّ بِمَسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكُلْكِهَا يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحِيدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ؛ تَرْدُ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَيْطَ الدَّمَاءِ، وَتَتَلَمَّ مَتَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْمَدَ الْيَقِينِ. يَهْرَبُ مِنْهَا

الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِرْزَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَن سَاقٍ! تُقَطَّعُ فِيهَا الْأَرْحَامُ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!.

الشرح والتفسير: خصائص هذه الفتنة الكبرى

أشار الإمام عليه السلام- في هذا المقطع من الخطبة- إلى فتنة مهمة أخرى تنتظر المسلمين، فتنة مرعبة وكاسرة وردت تفاصيلها في عبارات الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، على أمل أن يتعرف عليها المسلمون فينأوا بأنفسهم بعيداً عنها ولإجتنب من فداحه أضرارها، فقال عليه السلام:

«ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ الْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ [١٤]،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦

وَالْقَاصِمَةُ [١٥] [الرُّجُوفِ ١٦]، فَتْرِيغٌ قُلُوبٍ بَعْدَ اسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلَامَةٍ؛ وَتَخْتَلِفُ الْأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الْأَرَءَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا [١٧].

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بهذه الفتنة هنا فتنة المغول والتاتار، ولم يذكروا حسب اطلاعنا احتمالاً آخر؛ إلا أن هذا الاحتمال يبدو بعيداً؛ لأن أهداف المغول لم تكن سوى نهب الأموال وخراب البلدان والسيطرة على الممالك الإسلامية؛ في حين أخبر الإمام عليه السلام بعبارات في هذه الخطبة عن فتنة تستهدف أفكار الناس ومعتقداتهم وتلقى بهم في غياهب الغنى والضلال والاختلافات الفكرية والدينية، وعليه يمكن أن يكون المراد بها فتنة بنى العباس التي أعقبت فتنة بنى أمية والتي أشارت إليها العبارات السابقة، والواقع هو أن بنى العباس وبنى أمية وإن كانوا وجهين لعملة واحدة وسياسة شيطانية واحدة، إلا أن بنى أمية وكما صرح زعيمهم معاوية كانوا لا يكتفون للصوم والصلاة وطقوس الناس الدينية، سوى- في المواقع- التي تصطدم بحكومتهم الغاشمة؛ بينما اخترق بنو العباس عقائد الأمية حتى ظهرت على عهدهم أغلب المدارس المنحرفة والمذاهب الفاسدة، كما اشتدت الاختلافات في بعض المسائل من قبيل «حدوث القرآن وقدمه» و «الجبر والتفويض» إلى جانب الخلافات بين «الأشاعرة والمعتزلة»، ومما لا شك فيه أن ذلك كان يجري وفق خطة مرسومة حتى أنهم كانوا يشجعون العلماء والمفكرين لإثارة مثل هذه المباحث بهدف الاستمرار في السلطة، طبعاً لا نزعاً أن بنى أمية تخلوا مطلقاً عن هذه الأمور، لكننا نقول ليس لمثل هذه المباحث من ظهور آنذاك كالذي أصبح عليه بنو العباس، كما يبدو، مستبعداً أيضاً، الاحتمال الآخر الذي ذكره بعض شراح نهج البلاغة من أن هذا الكلام إشارة إلى فتنة «الذجال» في آخر الزمان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧

الذي يضل فتنة من الناس.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى شدة تلك الفتنة قائلاً:

«مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ؛ يَتَكَادِمُونَ [١٨] فِيهَا تَكَادِمَ الْحُمْرِ [١٩] فِي الْعَانَةِ!»

وهذه العبارة تأكيد لما ذكر في الكلام السابق بشأن الفتنة الأولى من أن رؤوس الفتنة متحدون بادية الأمر، أنهم سرعان ما يسعون لطرد كل منهم الآخر عند الغلبة، ثم تطرق إلى أوضاع الناس الدينية والأخلاقية آنذاك فقال:

«قَدِ اضْطَرَبَ مَعْقُودُ الْحَبْلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ الْأَمْرِ. تَغِيضُ فِيهَا الْحِكْمَةَ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظُّلْمَةَ، وَتَدُقُّ أَهْلَ الْبُدُوِّ بِمِسْحَلِهَا [٢٠]،

وَتَرُضُّهُمْ [٢١] بِكَلْكَلِهَا [٢٢]»

. نعم، حين يغيب العلماء عن مسرح الأحداث تؤول الأمور إلى الظلمة ليقولوا ما يريدون ويحملوا الآخرين على فعل ما يشاؤون، آنذاك تعم الفتنة لتشمل البلاد بأسرها وتأتي على القرى الصغيرة والنائية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بشأن فضاغة أخطار هذه الفتنة (حيث يصبح الوضع بالشكل الذي) يضع في غبارها المشاء من

الأفراد وتهلك فيها الفرسان:

«يَضِيْعُ فِي غُبَارِهَا الْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ»

. إشارة إلى أن الفتنة على درجة من القوة بحيث يكفى غبارها لقمع المعارضين المتفردين، كما تعصف بالجمع الكثير منهم إن اعترضوا سبيلها، بالتالي ليس لأحد القدرة على مواجهتها والصمود بوجهها.

قال بعض شراح نهج البلاغة في تفسيرهم لهذه العبارة، إن المراد بـ

«الوحدان»

، العلماء والفضلاء الذين يتلون بغبار الشبهات ويضيعون الحق، والركبان كناية عن الفئات المقتدرة التي لا تقوى أيضاً على مقاومة رؤوس الفتنة وتهلك في مواجهتها؛

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨

إلا أن التفسير الأول أقرب، لأن

«الوحدان»

إشارة إلى الأفراد الوحيدين أو المشاء، و

«الركبان»

إلى الأفراد الأشداء أو الفرسان.

ثم قال عليه السلام:

«تَرُدُّ بِمَرِّ الْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُّ عَيْطَ [٢٣] الدَّمَاءِ، وَتَتَلَمُّ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ

عَقْدَ الْيَقِينِ. يَهْرَبُ مِنْهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُدْبِرُهَا الْأَرْجَاسُ»

، أجل حين ينحى الأكياس والحكماء ويتسلم الأراذل والأرجاس زمام الأمور تصدع عرى الإيمان وتفسخ عقد اليقين وتعرض أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم إلى الخطر.

ويختتم الإمام عليه السلام بيانه لخصائص هذه الفتنة العظيمة بالقول:

«مِرْعَادٌ [٢٤] مِبْرَاقٌ،

كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ! تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ، وَيُفَارِقُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامَ! بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!»

. و «مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ»، صفات كناية لشدة هول هذه الفتنة، لأن هذه العبارات عادة ما تستعمل بهذا المعنى، رغم أن بعض الشراح عدوا

ذلك إشارة إلى أصوات ضربات السيوف وبرقها، غير أن المعنى الأول أنسب. وعبارة

«كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ»

كناية عن شدة مشقتها؛ لأن الإنسان يشمر عن ذراعه وساقه عادة إن هم يأتیان عمل شاق. وعبارة

«تُقَطِّعُ فِيهَا الْأَرْحَامَ»

إشارة إلى أن رؤوس الفتنة لا يرعون في آخ وأب وأم وإلا ولا ذمة ويذبحون كل من يعترض طريقهم ولتحقق رغباتهم.

ومن الطبيعي أن تغيب التعاليم الإسلامية في ظل هذه الظروف، وأخيراً عبارة

«بَرِيئُهَا سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ!»

إشارة إلى أن الفتنة تطال حتى من يعتقد بأنه بعيد عن مخاطر هذه الفتنة، كما يقع فيها حتى من ظن باستطاعته الهرب منها، فهي فتنة

كاسرة قاصمة قل من ينجو منها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩

القسم الرابع

بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتَلُونَ بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ؛ فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ؛ وَالزَّمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ؛ وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ؛ وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ؛ وَلَا تَدْخُلُوا بُطُونَكُمْ لَعَقِ الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعِينٌ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح والتفسير: التكليف حين الفتنة

ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى عدم إرتباط هذا الجانب من الخطبة بما سبقه من كلام، وقد اختاره السيد الرضى جرياً على عادته في الاقتطاف ولم يذكر الكلام الذى سبقه؛ والحال هنالك ارتباط وثيق بين هذا المقطع من الخطبة وما سبقه من مقاطع، حيث تصدت المقاطع السابقة لبيان الفتن التى تنتظر الناس وأهم مميزاتها، وانتقلت هنا إلى نتائجها ووظيفته الأُمِّية فى ظلها، فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه هنا قائلاً:

«بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ [٢٥]، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ»

، ثم واصل كلامه بالقول:

«يَخْتَلُونَ [٢٦] بِعَقْدِ الْإِيمَانِ وَبِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ».

أجل فرأس الفتنة يتشبه بكل وسيلة لتحقيق مآربه الشيطانية من قبيل ممارسته

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠

القتل والقمع والتظاهر بالإيمان إن اقتضت الضرورة واعطاء الأمان لبعض الأفراد ومن ثم ضرب كل هذه الأمور عرض الحائط، ثم أشار الإمام عليه السلام إلى وظائف الناس فى ظل هذه الفتن والإرباكات فأورد خمس تعليمات لأصحاب الحق فقال فى وصيته الأولى:

«فَلَا تَكُونُوا أَنْصَابَ الْفِتَنِ، وَأَعْلَامَ الْبِدْعِ»

إشارة إلى اعتزال هذه المعركة الخطيرة دون التعاون مع رؤوس الفتنة وأصحاب البدعة.

والوصية الثانية:

«وَالزَّمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الْجَمَاعَةِ، وَبُنِيَ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ»

والزموا ما عقد عليه حبل الجماعة، وبنيت عليه أركان الطاعة إشارة إلى ضرورة الالتزام بالقوانين والتعاليم الشرعية التى تضمن طاعة الله وبقاء المجتمع الإسلامى ورعايتها قدر المستطاع فى ظل نشوب الفتن، ذلك لأنه إن كان هنالك من سبيل للنجاة من الفتنة إنما يتمثل فى الالتزام بهذه التعاليم، والكلام يشمل بالطبع التعاليم الإسلامية الواردة بهذا الخصوص من قبيل الجمعة والجماعة والحج والتكافل الاجتماعى، وهى الأمور التى تؤدى إلى النجاة من الفتنة.

وقال فى الوصية الثالثة:

«وَأَقْدَمُوا عَلَى اللَّهِ مَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ»

. طبعاً ليس مفهوم العبارة الاستسلام للظلم والاستجابة للظالم؛ فهذا الأمر منهى عنه فى الإسلام وهو نوع من إعانة الظالم على الظلم، لكن المراد إن خيرتم بين أمرين إمّا أن تهضم حقوقكم أو تهضموا حقوق الآخرين، فما عليكم إلّا أن تغضوا الطرف عن حقوقكم لكى لا تدنسوا أنفسكم بظلم الغير، ومثل هذا الأمر عادل ومرضى لله على ضوء قاعدة تقديم الأهم على المهم.

الوصية الرابعة:

«وَاتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ وَمَهَابِطَ الْعُدْوَانِ»

أى لا تقتربوا من الخطوط الحمراء (الظلم والفساد)، والتعبير ب

«المدارج»

و

«المهابط»

إشارة إلى نكته لطيفة، أى أن الشيطان يرفع الإنسان من سلم الطغيان، فإن بلغ القمة قذف به إلى الأسفل، وأحياناً يهوى به إلى أودية المعصية ليزل قدمه فتهدى به إلى أعماق الكبائر.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١

والوصية الخامسة والأخيرة:

«وَلَا تُدْخِلُوا بُطُونَكُمْ لَعَقَ [٢٧] الْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بَعَيْنٍ مِّنْ حَرِّمَ عَلَيْكُمُ الْمَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ»

. لا شك فى أن الأموال الحرام تزداد فى أيدى الناس فى ظل حكومة الظلمة و بروز الفتن والاستفاده من تلك الأموال تنعكس سلباً على الإنسان، فهى تسود القلب وتبعد الإنسان عن الله وتسوقه لاتباع خطوات الشيطان. فالإمام عليه السلام يحذر من الحرام ويلفت نظرهم إلى عدم غلق الرحمن لأبواب الطاعة والكسب الحلال قط، فالله يترك الباب مفتوحاً فى كل الظروف بوجه عباده لممارسة الطاعة والنجاه من الفتنه. قال العلامة مغنيه: «إن أفضل تفسير لهذه العبارة وما بعدها ما أورده الإمام عليه السلام فى الخطبة ١١٤ إِنَّ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ أَوْسَعُ مِنَ الَّذِي نُهِيْتُمْ عَنْهُ وَمَا أَحَلَّ لَكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ. فَذَرُّوا مَا قَلَّ لِمَا كَثُرَ، وَمَا ضَاقَ لِمَا اتَّسَعَ».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣

الخطبة ١٥٢

إشارة

وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَصِفَاتِ أئِمَّةِ الدِّينِ [٢٨]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة بصورة رئيسية من ثلاثة أقسام. أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول إلى بعض النقاط المهمة بشأن صفات الله التى صرح فيها بعض شراح نهج البلاغة بأنها لم ترد فى أى كتاب وهى أعظم من تلك المطالب التى ذكرها الفلاسفة والحكماء والعرفاء بشأن صفات الله، بينما أشار فى القسم الثانى إلى المنزلة الرفيعة لزعماء الدين وأئمة الهدى ومقامهم عند الله وموقعهم فى المجتمع البشرى، وتحدث الإمام عليه السلام فى القسم الثالث عن نعمه الله الكبرى أى الإسلام والقرآن، فذكر بعض النقاط الرقيقة بشأن هذا الكتاب السماوى ليقف المسلمون على عظمة الكتاب وينهلوا من فيضه العذب.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحَدَّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلَتَيْهِ؛ وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهَ لَهُ. لَاتَسْبِيحُ الْمَشَاعِرِ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ،

لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ؛ الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لِابْتِغَايِ حَرَكَتِهِ وَنَصَبِ، وَالسَّمِيعِ لِابْتِغَايِ، وَالْبَصِيرِ لِابْتِغَايِ آلِهِ، وَالشَّاهِدِ لِابْتِغَايِ، وَالْبَائِنِ لِابْتِغَايِ مَسَافَةِ، وَالظَّاهِرِ لِابْتِغَايِ، وَالْبَاطِنِ لِابْتِغَايِ. بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصِفَهُ فَقَدْ حَيَّدَهُ، وَمَنْ حَيَّدَهُ فَقَدْ عَيَّدَهُ، وَمَنْ عَيَّدَهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزْلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّرَهُ. عَالِمٌ إِذْ لَمْ يَلْمُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَمْ يَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمْ يَمَقْدُورٌ.

الشرح والتفسير: شمه من صفات الله الجمالية والجلالية

كما ذكر آنفاً فإن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد أن بايعته الأمة أشر نعمتها على عثمان وبطانته وقتلها إياه، استهمل الإمام عليه السلام الخطبة بمعرفة الله وبيان صفاته الجلالية والجمالية؛ كونها دعامة السعادة والفلاح والصلاح الفردي والاجتماعي. وقد ذكر ثمان صفات في عبارات قصيرة عميقة المعنى بما يعجز الفلاسفة والمتكلمون عن الوقوف على كنهها.

فقد قال عليه السلام:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّلَالُ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ»

أجل، حين نتأمل عجائب

نقمة الولاية، ج ٦، ص: ٢٦

الخلق إلى جانب الأسرار والنظم التي تكتنف خلق الأرض والسماء والإنسان والحيوان لا- نملك سوى التسليم بأن هنالك إرادة حكيمة وقادرة عالمه وراء كل تلك الآثار البديعة التي لا يسعها أن تكون وليدة هذه الطبيعة الصماء، وهذا هو برهان النظم الذي أشار إليه القرآن الكريم والروايات الإسلامية بفضله أدل دليل على معرفة الله.

ثم قال في بيان الصفة الثانية:

«وَبِمُحَدِّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِّيَّتِهِ»

والعبارة في الواقع إشارة إلى برهان الوجوب والإمكان؛ ذلك أن سلسلة المخلوقات التي ارتدت لباس الوجود خلف بعضها البعض لا يمكنها الاستمرار إلى مالانهاية فكل حادث مخلوق، لأن عدم تناهي المعلول يحتاج بالتالي إلى علته أزلية وغنية عن الخلق والتي يصطلح عليها بواجب الوجود.

وقال في الصفة الثالثة:

«وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَأَشْبَهُ لَهُ»

والسؤال الذي يطرح نفسه: كيف يكون تشابه المخلوقات دليلاً على عدم الشبيه لله؟ الجواب: أن هذا الشبه دليل على تركيب هذه المخلوقات، لأن لها قدراً مشتركاً من قبيل الزمان والمكان وبعض الأشكال والعوارض الظاهرية، كما هنالك بعض الجهات المختلفة التي تميزها عن بعضها. وبناءً على هذا فإن كل مخلوق مركب مما به الاشتراك وما به الامتياز (الجهات المشتركة والجهات المختلفة) ومن الطبيعي أن تكون هذه المخلوقات المركبة محتاجة (محتاجة إلى أجزائها ومن يركبها) ومن هنا نفهم أن لا شبيه لله وإلا للزم التركيب والحاجة على ذاته المقدسة.

وقال في الصفة الرابعة والخامسة:

«لَا تَسْتَلِمُهُ [٢٩] الْمَشَاعِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ،

لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ»

والدليل واضح على تعذر بلوغ مشاعر الإنسان بما فيها الحواس الظاهرية والباطنية والعقل كنه ذاته المقدسة؛ فهو وجود غير محدود ولامتناه من جميع الجهات، والعقل البشري

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧

محدود من جميع الجهات، وغير المحدود لا يسعه المحدود مطلقاً. من جانب آخر فقد ملأت آثار وجوده أركان العالم بأسره بحيث لا يسع شيء حجبها، فذاته خفية على الجميع وآثاره ظاهرة للجميع.

والعبارة

«لِإِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ...»

دليل على خفاء ذاته المقدسة وظهور آثاره، لاختلاف الخالق والمخلوق والحاد والمحدود والرب والمربوب. فالمصنوع الممكن الوجود لا- يمكنه إدراك الصانع الواجب الوجود، والمخلوقات المحدودة لا يسعها درك الخالق اللامحدود والموجودات الخاضعة لربوبية الرب يتعذر عليها إدراكه كما هو. جدير بالذكر أن طائفة من شراح نهج البلاغة ذهبوا إلى أن هذه استدلالات على جميع الصفات المذكورة سابقاً، إلا أن التفسير الأول يبدو أنسب.

وقال في بيانه للصفة السادسة والسابعة:

«الْأَحَدِ بِلَا تَأْوِيلٍ عَدَدٍ، وَالْخَالِقِ لَأَبْمَعْنَى حَرَكَهٍ وَنَصَبِ [٣٠]»

فحين يقال: الله واحد يتصور البعض أن مفهوم ذلك أنه واحد وليس بثنان، وهذا خطأ محض؛ لأن مفهوم هذا الكلام إمكانية تصور ثانٍ له ولكن لا- وجود له؛ والحال لا- يمكن تصور ثانٍ لذاته المقدسة، وهل يمكن تصور التعدد في الذات اللامحدودة من جميع الجهات؟! لو تصور التعدد لكان كلاهما محدوداً. وعليه فتوحيد الذات الإلهية ليس بمعنى الوحدة العددية، بل بمعنى الوحدة بالنسبة للشبيه والنظير وما شاكل ذلك، لا في الذهن ولا في الخارج. وحين يقال: قد يقتدح إلى ذهن البعض أن الخالق شمر عن ساقه ويديه وانطلق من هنا إلى هنالك واجهد نفسه لخلق الموجودات؛ على غرار ما نقوم به حين نصنع بعض الأشياء، كلا:

«إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٣١].

ثم تطرق إلى الصفة الثامنة والتاسعة فقال:

«وَالسَّمِيعِ لَأَبَادَاهِ، وَالْبَصِيرِ لَأَبْتَفْرِيقِ آلِهِ»

. والتوضيح الذي أورده الإمام عليه السلام منشأه ما يتوارد إلى الأذهان حين الحديث

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨

عن السمع والبصر وما شابه ذلك إلى سمعنا وبصرنا الذي يتم من خلال بعض الوسائل من قبيل الاذن والعين، والحال سمعه وبصره سبحانه ليس بأداة، بل بحضور ذاته المطلقة في كل مكان وفي ظاهر جميع الأشياء وباطنها. العبارة

«لَأَبْتَفْرِيقِ آلِهِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى نقطة وهي أن الإنسان إذا أراد رؤية صورة كاملة- بيت مثلاً- ينبغي له أن يركز بصره على مختلف جوانب ذلك البيت، ليرى أعلاه وأسفله وشرقه وغربه، وتنتقل عدده صور إلى الدماغ ليقوم بترتيبها للظفر بصورة صحيحة تامة عن البيت. وبناءً على هذا فوظيفة العين الأولى، التقاط الصور المستقلة، والثانية، تحويلها إلى الدماغ ليركبها مع بعضها. وهكذا بشأن مشاهدة حركة معينة- كحركة إنسان مثلاً- والعملية أشبه بالتقاط الأفلام والتصوير، حيث تلتقط العين كل لحظة صورة لشكل ذلك الإنسان وهيئته، ثم تنقلها إلى الدماغ ليركب هذه الصور واطهار الحركة.

قال في بيانه للصفة العاشرة والحادية عشرة:

«وَالشَّاهِدِ لَأَبْمَاسَّةٍ، وَالْبَائِنِ لَأَبْتَرَاحِي مَسَافَةٍ»

. إشارة إلى أن حضور الله في كل مكان لا بمعنى الحضور المكاني من خلال الاتصال بالأشياء، بل حضوره بمعنى احاطته الوجودية بكل شيء، كما أن مباينته عن الأشياء ليس على نحو المسافة المكانية أو الزمانية، بل بمعنى أن ذاته في ذروة الكمال وما سواه في

غاية النقص. لعل هنالك من يتصور تناقض هذه الصفات مع تلك التي ستأتى، فالبعد والقرب والعلو والدنو والظاهرة والباطنية من الصفات التي لا يسع تفكيرنا جمعها مع بعضها؛ والأمر كذلك بالنسبة لهذه الصفات أن استعملت بشأن المخلوقات المحدودة من حيث الزمان والمكان ومختلف الجهات، غير أن هذه الصفات المتضادة يمكن جمعها في الذات المقدسة اللامتناهية، فرغم حضوره المطلق في كافة الأمكنة (بمعنى إحاطته العلمية بجميع الأشياء) لكن ليس له حضور مكاني في أى مكان، ذلك لأنه ليس بجسم ليحتاج إلى مكان.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩

ثم خاض الإمام عليه السلام في بيان الصفة الثانية والثالثة عشرة فقال:

«وَالظَّاهِرِ لَأَبْرُؤِيَّةٍ، وَالْبَاطِنِ لَأَبْلَاطَافَةٍ»

أجل، فهو أظهر جميع الأشياء، فأثاره قد ملأت العالم بأسره فأصبح الوجود قبساً من صفات جلاله وجماله، وهو خفي لا على شاكلة الأشياء اللطيفة الغاية في الصغر كالهواء، بل بمعنى عجز العقول عن إدراك كنه ذاته. والصفة الرابعة عشرة:

«بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ»

أى إن قيل إن الله بائن عن كل شىء، فذلك لا يعنى أنه بعيد عنا، بل هو قريب منا بمقتضى الأدلة الفلسفية القطعية وصريح الآية القرآنية: «وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» [٣٢]، والمعنى أن قدرته قهرت كل شىء، فأين نحن من الله، وأين الثرى من الثريا؟ كما أن بينونة الأشياء عنه تعنى خضوع كل شىء لإرادته.

وقال في الصفة الخامسة عشرة التي تنزه الذات عن الوصف:

«مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ» فَقَدْ حَيَّرَهُ [٣٣].»

وتوضيح هذا الكلام: إننا كمخلوقات نعيش في عالم الممكنات إنما نقارن كل شىء بالنسبة لنا، ونصف الله في أغلب الأحيان بأوصافنا الناقصة والمحدودة فنضفى عليه بعض صفات الممكنات وهذا هو وادى التشبيه الخطير الذى حذرنا الآيات والروايات من السقوط فيه. ومن هنا قال الإمام عليه السلام من وصف الله بهذه الصفات فقد حده ومن حد الله فإنه سيتصور له شبيها لا محال وعليه سيجعله في قالب الأعداد فإن فعل ذلك أنكر عليه أزليته وأبديته، ذلك لأن هاتين الصفتين تترشحان من ذاته الغنية عن الحدود، كما أن من يسأل عن كيفية ذاته فقد نعتة بصفات المخلوقات، ومن سأل عن مكانه أو زمانه فقد افترضه جسماً يقع ضمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠

دائرة المكان والزمان. ولعل هنالك من يرى الوصف المذكور ليس بقوة الأوصاف السلبية الثلاث عدم الحدودية ونفى الكيفية ونفى المكان على الذات المقدسة.

أما الصفات السادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة، فقال في بيانها عليه السلام:

«عَالَمٌ إِذْ لَمْعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لَمْرُؤُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لَمْقَدُورٌ»

. إمّا أنه عالم إذ لا معلوم فذلك لأنه عالم بذاته وذاته مصدر جميع الموجودات، وعليه فالعلم بالذات هو فى الواقع علم بجميع الموجودات التى لبست ثوب الوجود تدريجياً فى العالم. وإمّا أنه ربّ قبل وجود الموجودات فذلك لأنّ القدرة على الربوبية وربوبية الموجودات عين ذاته المقدسة، على غرار قولنا: إن فلاناً مديراً ومديراً فى الوقت الذى لم يتسلّم فيه لحدّ الآن زمام الإدارة.

وأخيراً إن قيل هو قادر قبل وجود المقدور فإنما يستند ذلك أيضاً إلى أنّ قدرته عين ذاته، وهكذا كقولنا إن فلاناً قادر على القيام بالعمل الفلانى ولم يقم به لحدّ الآن. وزبدة الكلام فإن صفاته كالعلم والقدرة وجميع الصفات الثبوتية عين ذاته تبارك وتعالى، وعليه فقد كان كل شىء قبل أن يوجد أى شىء، ولو تمعنا قليلاً فهو الآن كل شىء وكل ما سواه لا شىء.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١

القسم الثاني

منها: «قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَاحَ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ؛ وَاسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا؛ وَانْتَظَرْنَا الْغَيْرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرِ. وَإِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قَوْمٌ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرْفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمٌ سَلَامَةٌ، وَجَمَاعٌ كَرَامَةٌ. اضْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكْمٍ. لَمَّا تَفَنَّى غَرَائِبُهُ، وَلَا تَنَقَّضَ عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ النَّعْمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلْمِ، لَا تُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ، وَلَا تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ. قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفَى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفَى».

الشرح والتفسير: انتظار الفرج

يعتقد البعض من شراح نهج البلاغة- كما ذكرنا سابقاً- بأن هذه الخطبة ولاسيما هذا المقطع منها يعالج مسائل الخلافة عقب مقتل عثمان ويبيعه الأمة للإمام عليه السلام بالخلافة، والشاهد على ذلك عباراتها وخاصة مايتعلق بأئمة المسلمين. على كل حال فإن الإمام عليه السلام أشار هنا بادیء الأمر إلى ظهور خلافة الحق فقال:

«قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لَامِعٌ، وَلَاحَ لَائِحٌ، وَاعْتَدَلَ مَائِلٌ»

تفيد هذه العبارات بما لا يقبل الشك أن عهد حكومة عثمان كان من العهود المظلمة في التاريخ الإسلامي، وذلك لأن بطانته وقرابته استأثرت بالسلطة وتسلطت على كافة المقامات المهمة في البلاد

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢

وجعلت بيت المال جزءاً من ملكيتها الشخصية فعمالت صرخات المحرومين إلى عنان السماء، ثم أشرقت من بعده شمس العدالة واحترقت سحب الظلم لتعود الحكومة إلى سابق عزها على عهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. جدير ذكره، هنالك خلاف بين شراح نهج البلاغة بشأن العبارات الثلاث الأولى، هل العطف فيها عطف تفسيري وأنها تبين مطلباً واحداً (بزوغ شمس ولاية الحق) بعدة عبارات، أم أن كل عبارة تشير إلى معنى معين. ويبدو الصحيح أن لكل عبارة معنى معين؛ لأن الشمس إنما تتجاز ثلاث مراحل حين البزوغ؛ الأولى: الخروج من الأفق، والثانية: نشر شعاعها على سطح الأرض، والثالثة: ارتفاع قرص الشمس وتوسطها للسماء وطلوعها للجميع. وكل عبارة من العبارات الثلاث تشير إلى مرحلة من هذه المراحل؛ أي أشرقت شمس الولاية وألقت بأشعتها على الأرض وبالتالي ارتفعت لتستقر في قلب السماء.

ثم واصل عليه السلام كلامه بالقول:

«وَاسْتَبَدَلَ اللَّهُ بِقَوْمٍ قَوْمًا، وَبِيَوْمٍ يَوْمًا؛ وَانْتَظَرْنَا الْغَيْرَ انْتِظَارَ الْمُجْدِبِ الْمَطَرِ»

. حيث تشير هذه العبارات بوضوح إلى أن الحوادث التي وقعت على عهد عثمان لم تكن بعيدة عن التوقع، فكل شخص عاقل كان يتكهن بأن مثل هذه الحكومة التي تتسلم فيها القرابة مقدرات البلاد دون رادع أو وازع سوف لن يكتب لها النجاح وأنها ترعرع نطفة الثورة في رحمها، وهذه سنة إلهية جارية طيلة التاريخ، ولعل من أشكل على علي عليه السلام ما ورد في هذه العبارة أنه كان ينتظر مقتل عثمان، قد غفل عما ذكرناه آنفاً من أن تلك الأحداث كانت متوقعة من قبل شخص فطن، بعبارة أخرى إنما كان ذلك نتيجة طبيعية لتلك الأعمال. أضف إلى ذلك فإن الإمام عليه السلام لم يكن راضياً بمقتل عثمان- بل ينتظر التغييرات على غرار من ينتظر المطر حين الجفاف؛ وياله من تعبير رائع! فالبلاد الإسلامية أصبحت إثر ظلم بطانه عثمان وكأنها صحراء مقفرة وقد أمطرتها السماء

بزوال عثمان وظهور حكومة العدل العلوي. وقد تعرض ابن أبي الحديد المعتزلي لهذه القضية من خلال

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣

إثارته لسؤال والإجابة عنه.

فقد سأل نفسه بادية الأمر: هل يصح حسب عقيدة المعتزلة أن ينتظر على عليه السلام قتل عثمان انتظار نزول المطر حين الجفاف؟ أو ليس هذا دليلاً على حقانية الشيعة؟

ثم قال ابن أبي الحديد في مقام الجواب عن هذا السؤال: إنَّ علياً عليه السلام لم يقل كُنَّا ننتظر قتله، بل كان ينتظر بعض التغييرات كعزله عن الخلافة، لأننا نعتقد أنه كان يرى أعماله توجب ضرورة عزله لا قتله، وهذا ينسجم مع عقيدتنا، كما تعرّض لسؤال آخر وهو: هل تعتقد المعتزلة أنَّ علياً عليه السلام كان يعتبر عثمان فاسقاً يجب عزله عن الخلافة؟ فيجيب: إنَّ المعتزلة لا ترى ذلك، بل تعتقد إنَّ علياً عليه السلام كان يرى عثمان شخصاً ضعيفاً لا يستطيع تدبير أمور المسلمين، وذلك لأنه قرب بطانته وسلطهم على بيت مال المسلمين حتى قاموا عليه [٣٤].

ثم تطرّق الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه إلى منزلة أئمة الهدى فقال:

«وَأِنَّمَا الْأَئِمَّةُ قَوَّامُ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرْفَاؤُهُ [٣٥] عَلَى عِبَادِهِ؛ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ. وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ»

. وهذه العبارة تفيد أنَّ نصب الإمام عليه السلام من قبل الله تعالى لا من قبل الناس وإن كانت هنالك من بيعه وإنتخاب فبغية تنسيق الأعمال والنهوض بمستوى الأمة وتطوير شؤونها، والمفردة «قَوَّامُ»

إشارة إلى تدبير شؤون الخلق والعرفاء جمع عريف إشارة إلى أنَّ هؤلاء الأئمة بفعل معرفتهم بالآخرين وعلمهم بالظروف الزمانية والمكانية وخبرتهم بمصالح الناس ومفاسدهم إنما يضعون كل فرد في موضعه المناسب ويباشرون كل عمل بموعده وفي وقته.

وأما العبارة

«وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ

...

وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ»

تأكيد لما قيل في العبارات السابقة؛ فلو سلّمنا أنَّهم نصبوا من قبل الله، فمن تبعهم وسار على نهجهم وقبلوا عمله كان من الداخلين إلى الجنة، ومن أنكرهم فقد أنكر في واقع الأمر أوامر الله،

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤

ومثل هذا الفرد يدخل النار. وطبعاً كل هذه العبارات تنسجم مع المدرسة الشيعية التي ترى نصب الإمام من قبل الله بواسطة النبي أو من سبقه من إمام، وتراه معيار الفرقان بين الحق والباطل، وتعتقد بعدم اتّصاف من يختاره الناس بهذه المقامات ولعله يسير فيهم بالخطأ والظلم والعدوان، ومن هنا ورد في الحديث الشريف:

«مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةَ الْجَاهِلِيَّةِ» [٣٦]

والغريب إصرار ابن أبي الحديد على أنَّ هذه العبارة صادقة على جميع الخلفاء من بعد النبي صلى الله عليه وآله والحال عرض الإمام عليه السلام في العبارات السابقة بالذم الشديد لحكومة عثمان؛ الأمر الذي يتناقض صراحة مع ما استنبطه ابن أبي الحديد. بل كيف يكون ذلك الخليفة الضعيف - الذي جعل كافة مناصب الدولة الإسلامية وبيت مال المسلمين ومقدّراتهم تحت تصرف قرابته الانتهازية الهزيلة من عبدة الأهواء حتى قامت ضدّهم جموع المسلمين وأباحوا دماءهم وقد صمت إزاء ذلك أغلب الصحابة - مصداقاً

لقول الإمام عليه السلام: قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده؟ ليدخل من أذعن له الجنة ومن أنكره النار؟! ورد في الحديث الشريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال لأمر المؤمنين على عليه السلام: «ثَلَاثَةٌ أَقْسِمُ أَنَّهُنَّ حَقٌّ، إِنَّكَ وَالْأَوْصِيَاءَ مِنْ بَعْدِكَ عُرَفَاءُ، لَا يَعْرِفُ اللَّهُ إِلَّا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِكُمْ، وَعُرَفَاءُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ عَرَفَكُمْ وَعَرَفْتُمُوهُ، وَعُرَفَاءُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا مَنْ أَنْكَرَكُمْ وَأَنْكَرْتُمُوهُ» [٣٧].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أعظم النعمة التي من الله بها على المسلمين: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِالْإِسْلَامِ، وَاسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ»
أجل، إن الله تعالى خصكم بهذه النعمة العظيمة وراكم أهلاً للذود عنه.
ثم أضاف:

«وَذَلِكَ لِأَنَّهُ اسْمُ سَلَامَةٍ، وَجَمَاعُ كَرَامَةٍ»

. ووضح ذلك بالقول:

«اصْطَفَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُجَهُ، وَبَيَّنَّ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حِكْمٍ»
لعل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥

الضمير في

«منهجه» و «حججه»

يعود إلى الله أو الإسلام والنتيجة واحدة لكليهما، والعبارة

«ظاهر علم»

إشارة إلى الأدلة العقلية التي تثبت حقانية الإسلام، كما أن العبارة

«باطن حكم»

إشارة إلى أسرار الأحكام الشرعية المبينة في الأدلة النقلية.

نعم، الإسلام دين السلامة وشرعه الكرامة، ودعوته أينما كان إلى الحب والسلام والوئام والتحذير من البغض والعنف والعداوة حيث يخاطب المؤمنين: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَمَا فَتَنَّا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» [٣٨]. أضاف إلى ذلك فإنه مصدر الكرامة الإنسانية وداعية العدل والمساواة والحرية وتنمية الفكر والبيان والورع والتقوى ومكارم الاخلاق. والحق أن المسلمين أفضل سند ودرع للذود عن الإسلام وقد ضحوا بالغالي والنفيس طيلة التاريخ من أجل إسلامهم وسعوا جاهدين لحفظ بيضته وكيانه، ولما كانت هذه العبارات تختزن إشارة واضحة إلى القرآن الكريم، فقد أردفها بيان خصائص هذا الكتاب السماوي بما يربو على عشر صفات فقال:

«لَمَّا تَقَنَّى عَرَائِبُهُ، وَلَمَّا تَنَفَّضَتْ عَجَائِبُهُ. فِيهِ مَرَابِيعُ [٣٩] النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لَاتُفْتَحُ الْخَيْرَاتُ إِلَّا بِمَفَاتِيحِهِ وَلَمَّا تَكشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلَّا بِمَصَابِيحِهِ»

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذه العبارات إلى ست صفات مهمة للقرآن الكريم كل واحدة منها أروع من الأخرى فذكر بادية الأمر أن غرائب القرآن (صفاته البارزة الفريدة) لا تفنى أبداً ولا يعترها غبار القدم فتتاكل، فهي غضة طرية على الدوام، وأشار في الصفة الثانية إلى التجدد والحيوية التي تبدو عليه كل يوم فقال: إنها لا تنقضي؛ وعليه فالفارق بين «الغرائب»

«العجائب» و «الفناء» و «الانقضاء»

أن الأولى إشارة الصفات البارزة التي كان وسيظل يتحلى بها القرآن، والثانية إشارة إلى نقاط مهمّة تظهر كل يوم من تقادم الزمان وكثرة القراءة، وهذا ما ورد في الحديث المروى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦

عن الإمام الصادق عليه السلام حين سئل:

«ما بال القرآن لايزداد على النّشر والدّرس إلّا غصاصة؟ قال: لأنّ الله تعالى لم يجعله لزمانٍ دون زمانٍ ولا لناسٍ دون ناسٍ فهو في كلّ زمانٍ جديدٍ وعند كلّ قومٍ غصٌّ إلى يومِ القيامة» [٤٠].

ثم شبّهه في الصفة الثالثة بالأرض المليئة بالنبات وتفيض بالنعم في فصل الربيع، ونعلم جميعاً ما عليه نبات الربيع من طراوة ولطافة وطعم عذب، كما شبّهه في الصفة الرابعة بمصابيح النور التي تخترق دهاليز الظلمة وتضيء بنورها كلّ شيء، بينما حصر في الصفتين الخامسة والسادسة سبل نيل الخيرات بالقرآن، إشارة إلى خطأ من يبحث عن مفاتيح الخير خارج القرآن ويستعين بغيره في ضياء عتمته القلب وظلمة المجتمع.

ثم اختتم كلامه بالإشارة إلى أربع صفات آخر في أنّ القرآن قد أوضح الحلال والحرام والمباح، فهو الشفاء لمن استشفاه والكفاية لمن استكفاه

«قَدْ أَحْمَى حِمَاءَ [٤١]، وَأَرْعَى [٤٢] مَرْعَاءَهُ. فِيهِ شِفَاءُ الْمُسْتَشْفَى، وَكِفَايَةُ الْمُكْتَفَى»

. فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الأوصاف إلى النظام القانوني القرآني حيث بين الأصول الكلية للحلال والحرام بصورة تامة وعرض سبل مواجهة الأمراض الأخلاقية والمفاسد الإجتماعية على عمق هذه العبارة ما لم يتعرف على القرآن. أجل إنّ علاج الأمراض الخلقية والانحرافات الفكرية والمشاكل الإجتماعية كافّة، في القرآن. ومن كان القرآن معه وكان مع القرآن فقد ظفر بكل شيء، كما

قال الإمام عليه السلام في خطبة أخرى

«وَأَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غَنَى» [٤٣]

. ومن هنا بلغ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧

ذلك المجتمع شبه الوحشى في الجاهلية تلك المنزل المرموقه في ظل تعاليم القرآن بعد أن كان يعيش منتهى الفقر الأخلاقي والإقتصادى والإجتماعى، وما يجدر ذكره أنّ بعض شراح نهج البلاغة يرى أنّ الصفات المذكورة تعود إلى الإسلام لا القرآن والضمائر كذلك، ولكن بالنظر إلى ورود مثل هذه العبارات في سائر خطب نهج البلاغة بشأن القرآن، يتضح أنّ المراد بتلك الأوصاف هو القرآن وإن لم ترد مفردة القرآن في نصوص العبارة، ناهيك عن عدم اختلاف النتيجة مهما كان المراد [٤٤].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩

الخطبة ١٥٣

إشارة

وَمِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

نظرة إلى الخطبة [٤٥]

هذه الخطبة قطوف مختارة من خطبة طويلة للإمام عليه السلام. يتحدث في القسم الأول عن صفات الأفراد الفاسدين والمفسدين ليتعرف عليهم الناس وليتعدوا عنهم.

وأشار في القسم الثاني إلى مميزات الغافلين الذين لا يفقهون إلّا حين ضياع الفرصة وفوات الأوان فيبتلون بشر أعمالهم. ويعرض في القسم الثالث بالوعظ والنصح لهم لينهضوا من سباتهم ويصلحوا أمر آخرتهم. وتطرق في الفصل الرابع إلى بعض الأمور الخطيرة التي تحبط الأعمال وتحول دون النجاة. ويختتم الخطبة في القسم الخامس بالمقارنة بين صفات البهائم والسباع والناس من أصحاب الدنيا والمؤمنين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١

القسم الأول

«وَهُوَ فِي مُهَلَّةٍ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ».

الشرح والتفسير

يعتقد بعض شراح نهج البلاغة - كما ذكرنا سابقاً - أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة أثناء حركته إلى البصرة للقضاء على فتنة طلحة والزبير وعائشة وضمّنها جانباً من الوعظ والنصح والإرشاد. تحدّث عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإنسان الضال - والذي يتجلى نموذجاً في مشعل فتيل معركة الجمل - على ضوء أربع صفات تميّزه، فقد منحه الله الفرصة في عمره لياشر الأعمال الصالحة من أجل الظفر بالسعادة الأبدية، ولكنه لا ينفك عن ملازمة الغافلين والمذنبين الذين يسلكون به مهوى الردى، دون أن يسير على الحق ويقتدى بزعيم حق

«وَهُوَ فِي مُهَلَّةٍ مِنَ اللَّهِ يَهْوَى [٤٦] مَعَ الْغَافِلِينَ، وَيَعْدُو مَعَ الْمُذْنِبِينَ، بِلَا سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلَا إِمَامٍ قَائِدٍ»

. نعم أنّ أسباب بؤسه وشقائه تكمن في أربعة أمور؛ ملازمة الغافلين والآثمين، وعدم السير على طريق الحق إلى جانب عدم الإقتداء بالإمام الصالح.

ولعلّ العبارة

«إِمَامٌ قَائِدٌ»

إشارة إلى الإمام المعصوم عليه السلام أو كلّ عالم صالح من أتباع المعصومين عليهم السلام وعلى كلّ حال فإنّ الإمام عليه السلام

يفصح عن دور القائد الصالح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢

في هداية الناس ونجاتهم، كما يوضح دور ملازمة أهل الغفلة والمعصية في بؤس الإنسان وسقوطه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣

القسم الثاني

منها: «حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلَبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ».

إِنِّي أَحَدٌ دَرَكْتُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ. فَلْيَنْتَفِعْ امْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَأَنْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ حَيْدًا

وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي، وَالضَّلَالَ فِي الْمَعَاوِي وَلَمَّا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ بِتَعَسُّفٍ فِي حَقِّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ».

الشرح والتفسير: الموعظة البالغة

لما أشار الإمام عليه السلام إلى غفلة أصحاب الدنيا أوردتها بعدم ديمومتها وطرحتها قريباً حين يصفعهم الموت ويخرجهم من غفلتهم، وعليه فمدى هذه الغفلة

«حَتَّى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَاسْتَحْرَجَهُمْ مِنْ جَلَابِيبِ [٤٧] غَفْلَتِهِمْ اسْتَقْبَلُوا مُدْبِرًا، وَاسْتَدْبَرُوا مُقْبِلًا»

أجل، عمر الدنيا قصير فإن أشرف الإنسان على الموت وأزيلت عن عينه البرزخية حجب الغفلة ورأى أعماله آنذاك عندئذ يتغير كل شيء ويواجه حقيقة الموقف. ومن هنا يخلص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة

«فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا أَدْرَكُوا مِنْ طَلَبَتِهِمْ، وَلَا بِمَا قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ [٤٨]»

. قد ظن هؤلاء بخلودهم في الدنيا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤

بما جنوا من تلك الأموال الطائلة والقصور الفارهة والبساتين الواسعة والخدم والحشم لكنهم ودّعوها في الحال وأصبحوا تحت التراب.

كأن العبارة الأولى تشير إلى أولئك الأفراد الذين لم ينتفعوا قط بإمكاناتهم (مثلاً سيّدوا قصرًا فلم يتنعموا به حتى أتاهم الأجل). والعبارة الثانية إشارة إلى أولئك الذين تمتعوا قليلاً بإمكاناتهم ثم حال بينهم وبينها الموت من قبيل ذلك الذي بنى قصرًا، وما أن حلّ فيه حتى أخرجته الموت منه.

ثم استطرد الإمام عليه السلام ليسدى بعض النصائح والمواعظ التي تقود إلى السعادة والفلاح بعد أن حذر من الحياة العصبية التي يعيشها أهل الغفلة

«إِنِّي أَحْذَرُكُمْ، وَنَفْسِي، هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ»

. ثم بين أثر ذلك، سبيل النجاة من هذه الغفلة القاتلة من خلال خمسة تعاليم فقال:

«فَلْيَنْتَفِعِ امْتَرُؤُ بِنَفْسِهِ، فَإِنَّمَا الْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَانْتَفَعَ بِالْعَبْرِ، ثُمَّ سَلَكَ حَيْدًا [٤٩] وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي الْمَهَاوِي [٥٠]،

وَالضَّلَالَ فِي الْمَعَاوِي [٥١]»

فالإمام عليه السلام يخاطب نفسه والآخرين بادىء الأمر ليأخذ النصح موضعه من قلوب الآخرين، وذلك لأن المستمع إنما يتفاعل مع الواعظ الذي يمزج القول بالعمل ولا يترفع عن الآخرين. ثم يحذر الجميع من أن الله أسبغ عليهم ما لا يوحى من النعم وأودعهم مختلف الاستعدادات والقبليات بغية استثمارها والانتفاع بها من خلال تفعيل السمع بالأذن والنظر بالعين والانتفاع على تجارب الآخرين وسلوك السبيل القويم الذي يجنبهم الانحراف والضلال.

وأخيراً يحذر الإمام عليه السلام من تمكين الغواة من النفس:

«وَلَا يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ الْغَوَاةَ [٥٢] بِتَعَسُّفٍ [٥٣] فِي حَقِّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ»

. إشارة إلى أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥

البعض من الأفراد الضعاف النفوس والذين يميلون إلى الدعة والراحة حين يواجهون الغواية من الأفراد يسعون إلى التغاضي عن بعض الحقائق أو المداهنة في بيان الحق أو الخشية من الصدق والصراحة بهدف الحد من معارضتهم وهذا ما يؤدي إلى تسلط أولئك الغواة وتفاقم جرأتهم بما يجعل من المتعذر الوقوف بوجههم. وعليه لابد من اعتماد الصراحة المفعمة بالأدب والشفقة في بيان الحقائق والإبتعاد عن الخشية، فالغواة عادة ما يتراجعون وينكسرون إزاء المواقف الشجاعة، وقد دلت بعض النماذج التي حفل بها التاريخ على أن الأفراد الذين يحرفون الحقائق ويكتمون الواقع إنما أسهموا في مضاعفة المشاكل التي جرّت عليهم وعلى مجتمعاتهم الويلات. فقصه قرية الحوآب المعروفة في معركة الجمل معروفة. حيث سمعت عائشة من النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لها:

«فِيكَرُّ مَنْ تَبَّحَهَا كِلَابُ الْحَوَابِّ»

. وحين انطلق أصحاب الجمل إلى البصرة وبلغوا الحوآب سمعت عائشة ذلك النبأ، فسألت عن اسم الموضع فقيل لها: الحوآب. فعزمت على العودة إلى المدينة، فاعترضها محمد بن طلحة وقال لها: هذه ليست الحوآب، ثم أتى ببعض الأفراد وشهدوا لها زوراً، فواصلت مسيرها.

وما أكثر القصص من هذا القبيل في الماضي والحاضر [٥٤].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٧

القسم الثالث

«فَأَفَقَ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظَ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرَ مَنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَأَبَدٌ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ؛ وَضَعَفَ فِخْرَكَ، وَاحْطَطَ كِبْرَكَ، وَأَذْكَرَ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمْرَكَ، وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدُمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَاْمَهْدُ لِقَدَمِكَ، وَقَدَّمَ لِيَوْمِكَ. فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْعَاقِلُ! «وَلَا يُبْنِكُ مِثْلَ خَبِيرٍ»».

الشرح والتفسير: الحذر الحذر

خاض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بعد تلك التحذيرات السابقة في إسداء الوعظ والنصح بعبارة قصيرة عميقة المعنى فخطب مستمعه قائلاً:

«فَأَفَقَ [٥٥]

أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَاسْتَيْقِظَ مَنْ غَفَلَتِكَ، وَاخْتَصِرَ مَنْ عَجَلَتِكَ»

. إشارة إلى أن زخرف الدنيا والمال والمقام والشهرة تسكر الإنسان وتقذفه في سبات الغفلة وتضطره للعجلة دون التروي والترث، وتورث هذه الأمور مختلف المعاصي والذنوب والأخطاء، وهل يرتجى من السكران سوى الخطأ والزلل؟

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنْعِمِ الْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ [٥٦] - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٨

وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِمَّا لَأَبَدٌ مِنْهُ وَلَا مَحِيصَ عَنْهُ؛ وَخَالَفَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ وَدَعَا وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ»

فقد دعى بادية الأمر إلى الاتباع التام للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله، فما يقوله عليه السلام هو الوحي السماوي الذي يهدف إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. ثم يوصي عليه السلام بمخالفة من يخالف ذلك مهما كثر عدد المخالفين واتباع الحق دون أدنى شك وريبة أو إكتراث للآخرين.

وواصل عليه السلام نصحه قائلاً:

«وَضَعُ فَخْرَكَ، وَاحْطُطْ [٥٧] كِبْرَكَ، وَأَذْكُرْ قَبْرَكَ»

فقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الوصايا الثلاث إلى أساس الشر والفساد الذي يتمثل في الفخر والكبر التي لن تجعل الإنسان يذوق طعم السعادة ما لم يطرحها جانباً، وسيكون مصيره مصير الشيطان الذي قاده نحو فخره وكبره. وتطرق عليه السلام بعد ذلك إلى القبر الذي يسوق نسيانه الإنسان إلى طول الأمل والانغماس في الدنيا، وهو الموضع الذي يتساوى فيه الجميع وهذا ما ورد في الكلمة القصيرة رقم ٣٩٨ من قصار الكلمات وهذا يدل على أن السيد الرضى كان يقتطف أحياناً الكلمات القصار من بعض الخطب الطويلة.

ثم أورد عليه السلام ثلاث نصائح أخرى منسجمة مع بعضها، فقال:

«وَكَمَا تَدِينُ تَدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ الْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غَدًا، فَاْمَهْدُ [٥٨] لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمُ لِيَوْمِكَ».

كيف ينتظر الإنسان من الله أن يعفو عن سيئاته ويجازيه بالاحسان وهو يظلم الآخرين ويقابل الاحسان بالإساءة؟ أم كيف ينتظر الورد من يزرع الشوك؟! الواقع

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٩

هو أن هذه النصائح مستقاة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فالله: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» وفي الحديث: «الدُّنْيَا مَرْرَةٌ الْآخِرَةُ»

والآية الشريفة: «وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ» [٥٩] والآية الكريمة: «وَمَا تَقْدُمُوا لِنَفْسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ» [٦٠]. ثم يعود الإمام عليه السلام في ختام الخطبة الى ذات المطلب الذي ابتدأ به ليوقظ الغافلين ثانياً من سباتهم ويسوقهم إلى الجد والاجتهاد فيقول:

«فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ! وَالْجِدَّ الْجِدَّ أَيُّهَا الْعَافِلُ!

«وَلَا يُبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ»». العبارة الأخيرة المقتبسة من الآية ١٤ من سورة فاطر إشارة إلى أن أى شخص لا يضاهاى القائل فى بيانه لحقيقة الموت والحياة وحاضر الإنسان وغده ومصيره فى المستقبل وعاقبته فى الآخرة.

وقد قال أحد شراح نهج البلاغة: إن من يتأمل خطب أمير المؤمنين عليه السلام ورسائله وقصار كلماته يكتشف بوضوح أن أحداً لا يسعه التحدث بهذه الدقة والرقّة عن الدنيا وماهيتها وبنهايتها ونهايتها.

قال الشاعر بشأن النصائح الأخيرة فى الخطبة:

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمَلِّ فِيهَا حَذَارٍ حَذَارٍ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي

فَلَا يَغْرُرُكُمْ حَسَنُ ائْتِسَامِي فَقُولِي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبِكٌ [٦١]

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥١

القسم الرابع

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذُّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثَبِّبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَأَقْبَابًا رَبُّهُ بِخَصْمَلِهِ مِنْ هَذِهِ الْخَصَالِ لَمْ يَثْبُ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفَى غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعْرِى بِأَمْرِ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِيهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِعَوْجِهِنَّ، أَوْ يَمِشَى فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَثَلَ دَلِيلٌ عَلَى شَبِيهِهِ.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمَّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السِّيَاحَ هَمُّهَا الْعِيدُونَ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ

مُسْتَكِينُونَ.

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

الشرح والتفسير: المواقف الخمس

حذر الإمام عليه السلام مخاطبيه في المقطع السابق من الخطبة من سبات الغفلة وحثهم على الجهد والاجتهاد، ليشير هنا إلى خمسة من الذنوب الكبيرة الخطيرة التي لا يقبل عمل العبد دون التوبة منها، فقال:

«إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُنْتَبِ وَيُعَاقَبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، إِنَّهُ لَيَنْفَعُ عَبْدًا- وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ- أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا، لَأَقِيًّا رَبَّهُ بِخِصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتَّبِ مِنْهَا»

. العبارة

«وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ»

- مع العلم، يتعذر الإخلاص في العمل لمن اتصف بهذه الخصال

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٢

السيئة- تبدو إشارة إلى الإخلاص المرحلي والآني حين ينسى في لحظة كل هذه المساويء من قبيل التصديق في سبيل الله ومد العون للفقير، إلّا أنّ هذا الإخلاص لا يدوم حتى يحل محله الشرك والنفاق والبدعة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح هذه الخصال المتمثلة بالشرك وقتل النفس والتهمة والبدعة والنفاق حيث بين كل واحدة منها بعبارة قصيرة فقال:

«أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلَاكِ نَفْسٍ، أَوْ يُعَرِّ [٦٢] بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَشْتَرِي حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بَدْعِهِ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْسِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَثَلَ دَلِيلٌ عَلَى شَبْهِهِ»

. وعلى هذا الضوء فإنّ أول كبيرة هي الشرك. في عبودية الله؛ وهي الكبيرة التي مالم يتب عنها العبد لن ينال عفو الله ومغفرته «إِنَّ اللَّهَ لَيَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» [٦٣].

والكبيرة الأخرى اطفاء الإنسان لغضبه بسفك دم الآخرين، حيث ورد في القرآن: «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا» [٦٤]. ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ العبارة تشمل الانتحار وقتل النفس أيضاً، إلّا أنّ المعنى الأول هو المراد من ظاهر الآية. على كل حال فإنّ البعض اعتبر الآية دليلاً على أنّ قتل النفس البريئة يؤدي بالقاتل إلى الموت على الكفر، لأنّ الخلود في جهنم يختص بالكافرين، أمّا بالنسبة للخصلة الثالثة، اتهام الأفراد بما لم يقارفوا من أعمال هو في الواقع قتل لشخصية الآخرين وإراقه ماء وجوههم. الأمر الذي تعدّه بعض الروايات بمثابة إراقه الدم.

وأما الخصلة الرابعة أي البدعة في الدين بهدف نيل المال والمقام فيكفي في ذمها ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«أَهْلُ الْبِدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، أَهْلُ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٣

الْبِدْعِ كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ» [٦٥].

وأخيراً خصلة النفاق التي قال بشأنها القرآن الكريم: «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ» [٦٦] وقد صرحت ما بعدها من آيات أنّ الإحباط هو نصيب عمل هؤلاء المنافقين الذين لن يهديهم الله.

حقاً أنّ المجتمع البشري إذا طهر من دنس هذه الرذائل الخمس لعاش الأمن والسلام والوئام ولحفظت فيه الأموال والأَنْفُس

والأعراض، ولتكتاف الجميع على الحبّ والمودة وسارعوا على مدارج السمو والكمال والإبتعاد عن البدعة والشرك، ذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد بالعبارة

«أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ»

معنى معين، وبالعبارة

«أَوْ يَمْسِي فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ»

معنى آخر؛ فالأول يشير إلى نفاقه بالنسبة لنفسه، والآخر إلى النفاق بالنسبة للآخرين. ومن هنا جعلوا الصفات المذكورة ستاً، لكن يبدو أن كليهما من آثار النفاق، أحدهما باللسان والآخر بالوجه، وعليه فالأفضل جمعهما في عنوان واحد. القضية الجديدة بالاهتمام ما أورده بعض شراح نهج البلاغة من أن هذه الخطبة وإن وردت أثناء المسير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل إلى أنها تشير إلى أن الصفات المذكورة موجودة في أصحاب الجمل؛ ذلك لأنهم حكموا أهواءهم بدلاً من الله من جانب، ومن جانب آخر فإنهم يسعون لإطفاء غضبهم على على عليه السلام بسفك دماء الأبرياء، كما نسبوا لعلى عليه السلام تهمة قتل عثمان الذي قتل على أيديهم بتحريض الآخرين، كما أنكروا إمامة على عليه السلام ونسبته من رسول الله صلى الله عليه وآله فابتدعوا في الدين ما ليس منه، وأخيراً منعوا الناس من التعرض لقتل عثمان من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يتآمرون على قتله خفية. والعبارة

«اغْقِلْ ذَلِكَ»

إشارة إلى هذا المعنى [٦٧]. قال الإمام عليه السلام إثر طرحه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٤

لهذه الأمور

«اغْقِلْ ذَلِكَ»

، وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن هذه العبارة إشارة إلى مطلب سيرد لاحقاً، إلّا أن هذا خلاف التعبير (ذلك).

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى بعض النقاط المهمة التي لا تبدو بمعزل عن قضية معركة الجمل فقال:

«إِنَّ الْبُهَائِمَ هُمُّهَا بَطُونُهَا؛ وَإِنَّ السَّبَاعَ هُمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا؛ وَإِنَّ النَّسَاءَ هُمُّهُنَّ زِينَةُ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا؛ إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْتَكِيُونَ [٦٨]. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ».

أجل فالمؤمنون الصالحون العاملون خائفون من الله وخائفون من خلق الله، إمّا خوفهم من الله بدليل تكاليفهم ووظائفهم تجاهه، وإمّا خوفهم من خلق الله حذراً من هضم حقوق فرد من الأفراد، خلافاً للسباع الذين لا يفكرون سوى في بطونهم والعدوان على الآخرين. فالواقع هو أن الإمام عليه السلام يوجز المظاهر الدنيوية في ثلاثة أشياء؛ الاهتمام بالطن والنزعة السبعية والاهتمام بالزينة، فأسند أحدهما إلى البهائم والأخرى إلى السباع إشارة إلى قادة معركة الجمل الذين ساقتهم هذه العناصر إلى تأجيج نار حرب الجمل فسفكوا تلك الدماء ولم يظفروا بأهدافهم (لابدّ من الالتفات إلى أن الإمام عليه السلام على ضوء بعض الروايات أورد هذه الخطبة حين سار إلى قتال أصحاب الجمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٥

الخطبة ١٥٤

إشارة

يَذْكُرُ فِيهَا فَضَائِلَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ [٦٩]

نظرة إلى الخطبة

تدور مطالب هذه الخطبة بصورة رئيسية حول ثلاثة محاور:

١. فضائل أهل البيت عليهم السلام وعلومهم ومعارفهم الخارقة ووصية الناس باتبعاهم.
 ٢. بحث بشأن ارتباط الظاهر بالباطن وأن طهارة الباطن عادة ما تؤدي إلى طهارة الظاهر لأعمال الإنسان، ومن كان ملوثاً باطنياً غالباً ما يكون ملوثاً ظاهرياً.
 ٣. لا بد من الرجوع إلى الجذور في ممارسة إصلاح كل شيء والانطلاق من الأساس والبنية التحتية في الإصلاحات.
- نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٥٧

القسم الأول

«وَنَاطِرُ قَلْبِ اللَّيْبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ عَوْرَهُ وَنَجْدَهُ دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي. فَصَدَّ حَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ. وَأَرَزَّ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ. نَحْنُ الشُّعْرَارُ وَالْأَضْيَاعُ، وَالْحَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقًا».

الشرح والتفسير: أبواب علم النبي

إن الأبحاث المتنوعة لهذه الخطبة تفيد جري المرحوم السيد الرضى على عادته في اقتطاف هذه المقاطع من خطبة طويلة، ولذلك يبدو هنالك نوع من التعقيد في ترابط مقاطع هذه الخطبة. يورد الإمام عليه السلام مقدمة لبيان فضائل أهل البيت عليهم السلام فيتحدث عن صفات المهتدين والضالين فيقول:

«وَنَاطِرُ [٧٠] قَلْبِ اللَّيْبِ [٧١] بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ عَوْرَهُ وَنَجْدَهُ [٧٢]»

إشارة إلى أن الإنسان العاقل لا يقنع بظواهر الأمور، بل يسعى إلى الوقوف على ملبساتها وتفصيلها وما يمكن أن تؤول إليه عاقبتها فلا يسلك مساره جزافاً ويواجه بعض المطبات والمخاطر.

ثم قال عليه السلام:

«دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِي»

من

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٥٨

الواضح أن المراد بالداعي نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذي أرسى دعائم الدين، والمقصود بالراعي الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الذي تزعم الأمة الإسلامية بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله.

فالكلام يشير إلى هذا الأمر: أنكم إن نظرتهم بحكمه لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وآله وخليفته بالحق، وبموجب هذه المعرفة سوف لن يكون لديكم أدنى شك وريبة في اجابته دعوته واقتفاء آثار خليفته.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى الفئة الأخرى التي تقابل الفئة المذكورة وهي الفئة المعادية للحق التي خاضت في بحار الفتن وابتدعت في الدين حتى انتهى الأمر إلى اقضاء المؤمنين فخدمت أصواتهم ولم تصدح سوى اصوات الضالين المكذبين المنحرفين

«قَدْ خَاضُوا بِحَارِ الْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ الشَّنَنِ. وَأَرَزَّ [٧٣] الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَدَّبُونَ».

فالعبارة إشارة إلى تلك الفئة المنحرفة التي غصبت الخلافة عقب رحيل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حتى انتهت إلى بنى أمية بزعامه معاوية ويزيد وآل مروان. أجل لم يكن هم تلك الفئة سوى إثارة الفتن من قبيل فتنه الجمل وصفين والنهروان واستغلالها لصالحها إلى جانب ايجاد البدع في دين الله وهجران سنن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، الأمر الذي اتضح بجلاء على عهد خليفة بنى أمية الثالث، بعد ذلك خاض الإمام عليه السلام في صفات وفضائل أهل البيت عليهم السلام فقال:

«نَحْنُ الشُّعَارُ وَالْأَصْحَابُ، وَالْخَزَنَةُ وَالْأَبْوَابُ؛ وَلَا تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلَّا مِنْ أَبْوَابِهَا؛ فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سَمِيَ سَارِقًا»

. إشارة إلى أننا أقرب الجميع للنبي صلى الله عليه وآله (لابد من الالتفات هنا إلى أن الشعار يعنى مايلى البدن من الثياب) وقد ورثنا علم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وكل من أراد نيل تعاليمه صلى الله عليه وآله والافتداء بهديه عليه أن يمر من خلالنا. والواقع هو أن هذه العبارات قد اقتبست من روايات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن أهل

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٥٩

البيت عليهم السلام عموماً وعلى عليه السلام على وجه الخصوص. ومن ذلك حديث الثقلين الذي أزم المسلمون بالتمسك بالقرآن وأهل البيت إلى يوم القيامة وحديث:

«أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بِأَبْهَا فَمَنْ أَرَادَ الْعِلْمَ فَلْيَأْتِ الْبَابَ» [٧٤]

. جدير بالذكر أن شارح نهج البلاغة ابن أبي الحديد حين بلغ هذا الموضوع من الخطبة صرح بأن ما أشار إليه على عليه السلام في هذه الخطبة لا- يتضمن سوى عشر الفضائل التي صرحت بها العديد من الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله بشأن على عليه السلام. ثم أضاف: لا- اقصد الروايات التي استدلت بها الإمامية على إمامة على عليه السلام، بل مرادى الروايات التي رواها كبار محدثي العامة في مصادرهم عن فضائل على عليه السلام وأذكر هنا بعضها، ثم يذكر أربعاً وعشرين رواية معتبرة في فضائل على عليه السلام سنشير في البحث القادم إلى جانب منها إن شاء الله.

تأملان

١. الفارق بين العجب والتعريف بالذات

يتساءل بعض المغرضين هنا: لماذا خاض الإمام عليه السلام في مدح ذاته والتعريف بها؟ أليس هذا الأمر دون شأن الإمام عليه السلام؟ وقد روى ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة أن البعض أشار على عمر بتأثير على عليه السلام على الجند. فقال: إن علياً عليه السلام يرى نفسه أرفع شأناً من ذلك.

ولكن يبدو أن مثل هذه الإشكالات إنما يفرزها الجهل والحسد الذي لا يصمد أمام منطق العقل، وذلك أن أغلب الناس قد لا يقفون على عظمة شخص وعمق مكانته فلا يكادون يفتحون على أفكاره ومشاريعه وخططه التربوية والإصلاحية، ونقول هنا: ألا ينبغي لهذا الشخص أن يعرف الآخرين بذاته وإمكاناته؟ ولعل هذا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٠

الأمر أشبه بذلك الطبيب الماهر والمتخصص بمختلف الأمراض والذي نصب لوحة كبيرة على باب عيادته ليبيّن عليها شهاداته وخبرته الطبية والعلمية حتى يتعرف عليها الآخرون فيقبلون على عيادته، فهل هذا العمل من العجب ومدح الذات أم التعريف بالنفس في مقابل الجهال؟

ناهيك عما سبق، فإن إحدى مراحل شكر النعم التحدث بها. قال الله تبارك وتعالى في قرآنه الكريم بهذا الشأن: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» [٧٥].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة أنه قال:

«حدث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك» [٧٦]

. ومن هنا ورد في بعض الروايات أن علياً عليه السلام حين سئل عن بعض فضائله، أجاب بأن الثناء على النفس مذموم؛ لكنتي أجيئك عن هذه الفضائل على أساس ما ورد في القرآن الكريم: «وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» ثم بين عدداً من فضائله ومناقبه.

٢. الفضل ما شهدت به الأعداء

كما أشرنا سابقاً فإن ابن أبي الحديد حين بلغ في شرحه لنهج البلاغة هذه الخطبة، نقل أكثر من أربع وعشرين رواية روتها مصادر العامة في فضائل علي عليه السلام وصرح بأن هذه الروايات غير تلك الأحاديث التي تمسكت بها الشيعة الإمامية في مقام اثبات ولاية وإمامة علي عليه السلام. ومن الضروري بمكان أن نشير هنا إلى بعض تلك الروايات العظيمة المضمون:

١. قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«يا علي إن الله قد زينتك بزينة لم يزّن العباد بزينة أحب إليه منها هي زينة الأبرار عند الله تعالى الرّهْدُ في الدنيا جعلك لا تزوء من الدنيا شيئاً، ولا تزوء الدنيا منك شيئاً وهب لك حبّ المساكين فجعلك ترضى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦١

بهم أتباعاً ويروضون بك إماماً» [٧٧].

٢. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن الله عهد إليّ في عليّ عهداً، فقلت: ياربّ بيته لى.

قال: إسمع أن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين من أحبّه فقد أحببني ومن أطاعه فقد أطاعني فبشره بذلك» [٧٨].

٣. قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«من سيره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنّة عدن التي غرسها ربّي فليوال علياً من بعدى وليوال ولّيته وليفتد بالأئمة من بعدى فإنهم عترتي خلّقوا من طيبتى ورزقوا فهماً وعلماً فويل للمكذّبين من أمّتي القاطعين فيهم صلتى لأأنالهم الله شفاعتى» [٧٩].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٣

القسم الثاني

منها: «فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن. إن نطقوا صدقوا، وإن صمتوا لم يسبقوا. فليصدق رائد أهله، وليحضر عقله، وليكن من أبناء الآخرة، فإنه منها قدم، وإليها ينقلب.

فالنّاظر بالقلب، العامّل بالبصير، يكون مبتدأ عمله أن يعلم: أعلمه عليه أم له؟! فإن كان له مضي فيه، وإن كان عليه وقف عنه. فإن العامّل بغير علم كالسائر على غير طريق. فلا يزيدُه بُعدُه عن الطريق الواضح إلا بُعيداً من حاجته. والعامّل بالعلم كالسائر على الطريق الواضح. فلينظر ناظر:

أسائر هو أم راجع؟!».

الشرح والتفسير: خصائص دعاء الحق

تعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة بالإشارة إلى غيظ من فيض فضائل أهل البيت عليهم السلام بهدف إحباط الدعايات المغرضة لأجهزة بنى أمية ضد أهل البيت عليهم السلام والعناصر التي تأمرت عليهم من بعض العملاء الذين تجلببوا بثياب رواة الحديث، فقال:

«فِيهِمْ كَرَائِمٌ [٨٠] الْقُرْآنِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ. إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا،
وَإِنْ صَمَّتُوا لَمْ يُسْتَبْقُوا»

. العبارة

«فِيهِمْ كَرَائِمٌ الْقُرْآنِ»

يمكن أن تكون إشارة إلى المعنى المذكور أو تعنى عندهم آيات القرآن الكريم، والعبارة «كُنُوزٌ»

إشارة إلى أن عندهم أحكام الله وتعاليم السماء؛ لأن الأشياء النفيسة عادة ما تحفظ في الكنز.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٤

والعبارة

«إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا»

تتضمن إحدى صفات أهل البيت عليهم السلام وهي الصدق في الكلام التي تنسجم والآية الشريفة: «كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» [٨١].

والعبارة

«وَإِنْ صَمَّتُوا لَمْ

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٦٤

يُسْتَبْقُوا»

إشارة واضحة إلى أن صمتهم عليهم السلام لا يعنى عجزهم عن الإجابة قط، بل صمتهم على ضوء الحكمة والمصلحة، وعليه فلا يسع أحد أن يسبقتهم. أو معنى ذلك أن هيبتهم تحول دون قدرة الآخرين على الكلام حين صمتهم. على كل حال فإن هذه الصفات الأربع في أهل البيت عليهم السلام تميز مقامهم عن الآخرين وتكشف عن علو منزلتهم ومكانتهم العلمية، ثم قال تأكيداً لهذا المطلب في أن الهدف ليس المدح والثناء على الذات:

«فَلْيَصِدُقْ رَائِدٌ [٨٢] أَهْلَهُ، وَلْيَحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَوْلَادِ الْآخِرَةِ،

فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ».

تعنى كلمه

«رَائِدٌ»

في الأصل، الشخص الذي يتقدم القافلة ويبحث عن الماء والمرعى. فلو كان مثل هذا الشخص كاذباً لعرض أهل القافلة أنفسهم إلى الخطر.

فاختيار هذه الكلمة يشير إلى لطيفه مؤداها أني إن شرحت لكم خصائص أهل البيت عليهم السلام فذلك لأنني بمنزلة ذلك الشخص الذي يوفر لاتباعه ضروريات وسائل العيش. ولعل العبارة

«فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ»

تشير مفهوم الآيه الشريفه: «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». أو بعبارة أخرى أن الآخرة تعنى هنا ما وراء الطبيعة. نعم ذهب بعض شراح نهج البلاغه إلى أن المراد بالعبارة أننا خلقنا للآخرة، كما ورد ذلك في قصار كلمات الإمام:

«أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ» [٨٣].

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بالنظر إلى ما ورد قبيل ذلك بشأن أهل البيت عليهم السلام
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٥

ليحذر الآخرين من ضرورة مراقبه أعمالهم وأن يلحقوا بتلك الكنوز أى الأئمة العارفين بالقرآن ويحذوا حذوهم ويسيروا على هديهم
وأن يفكروا فى بداية كل عمل بعاقبته ويعزمون عليه:

«فَالنَّاطِرُ بِالْقَلْبِ، الْعَامِلُ بِالْبَصْرِ، يَكُونُ مُبْتَدَأَ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعْمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ؟! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ»
. والواقع هو أن الإمام عليه السلام يرى توقف النجاح على ثلاثة أمور تتفرع جميعها من العلم والمعرفة؛ التفكير فى أصل العمل،
والعمل على أساس البصيرة ودراسة وتأمل نتيجة ذلك العمل نافعاً له أم مضرة؟

ثم خاض فى بيان دليل ذلك وقد استعان بتشبيه رائع ليوضح الفارق بين العالم والجاهل فقال:

«فَإِنَّ الْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ. فَلَا يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِلَّا بُعْدًا مِنْ حَاجَتِهِ. وَالْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ».

يا له من تشبيه رائع! فالعالم والجاهل كلاهما يسعى، إلا أن العالم حيث يسير على الطريق الصحيح فإنه يقترب من هدفه كل آن، أما
الجاهل حيث يسير على غير هدى وعلى غير الطريق فإنه يتبعد عن هدفه كل آن؛ بعبارة أخرى فإن سعيه لن يؤدى إلا إلى النتائج
المعكوسة.

روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعبير رائع بهذا الشأن حيث قال:

«مَنْ عَمِلَ عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ» [٨٤].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«الْعَامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ لِأَنَّهُ لَيَزِيدُهُ سُرْعَةَ السَّيْرِ إِلَّا بُعْدًا» [٨٥].

ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرًا: أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ؟!»

. فالعبارة تشير إلى أن الجهال من الأفراد ليسوا فقط لا يبلغون الهدف بسعيهم وجهدهم، بل أحياناً يخطون بذلك الجهد إلى ما
يخالفه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٧

القسم الثالث

«وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ. وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ».

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنَى بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سَيِّقِيَّتُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سَيِّقِيَّتُهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ».

كشف الإمام عليه السلام هنا- مواصلة لما أورده سابقاً- سبيل معرفة المحسن من المسيئ فقال:

«وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِنًا عَلَى مِثَالِهِ، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ طَابَ بَاطِنُهُ وَمَا خَبِثَ ظَاهِرُهُ خَبِثَ بَاطِنُهُ»

. فهذه قاعدة كلية من شأنها تمهيد السبيل أمام الإنسان لمعرفة الأفراد والمجتمعات البشرية ومختلف التنظيمات الاجتماعية والسياسية والعقائدية (وإن كانت لها على غرار كل قاعدة كلية شواذ) لأن أعمال الإنسان عادة ما تكون انعكاساً لأفكاره وأخلاقه وصفاته الباطنية، وظاهره ما يترشح عن باطنه، على غرار ما ورد في المثل المعروف: الظرف ينضح بما فيه.

وعلى هذا الأساس فإن شككنا في باطن شخص كان لابد لنا من التوقف عند أعماله لننظر من خلالها إلى باطنه. وقد أيد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدة آيات فقال بشأن المنافقين: «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٨

أَكْبَرُ» [٨٦]. وقال في موضع آخر: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتُمُوهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» [٨٧]. كما قال في آية أخرى «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَأَيْخُرُجُ إِلَّا نَكِدًا» [٨٨] كما ورد هذا الأمر في الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السلام:

«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتٍ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ» [٨٩]

. وصرح الفقهاء في مبحث العدالة: أن حسن الظاهر والعمل بالتكاليف الشرعية يفيد وجود ملكة العدالة في الباطن. الغريب في عصرنا الراهن أن العلماء توصلوا إلى صنع جهاز من شأنه التعرف على كذب المقابل من صدقه في موضوع ما من خلال نبض قلبه وضغط دمه وما شاكل ذلك. وكما أشرنا سابقاً أن لهذه القاعدة كما لسائر القواعد الكلية شواذ؛ فهناك بعض الأفراد الذين يعيشون حالة من التعقيد بحيث لا يمكن التعرف عليهم من خلال أعمالهم بسهولة، كما يمكن لبعض المرائين والمنافقين أن يخدعوا العقلاء، ومن هنا واصل الإمام عليه السلام كلامه ليقول:

«وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ، وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ الْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»

. فافتراق الظاهر عن الباطن والعمل عن العقيدة في بعض الحالات يعزى إلى بعض العوامل التي تحدث وتبعد الشخص عن ذلك الأصل الكلي؛ من قبيل مجالسة الصالحين والطالحين والتواجد في الأوساط الطاهرة والفاصلة إلى جانب التعصب والبغض والحقد والحسد والدعاية المسمومة والفقر المدقع وما شاكل ذلك من الأمور التي تقدر أحياناً بانسجام الظاهر مع الباطن. آثار المرحوم العلامة الخوئي شارح نهج البلاغة مطلباً آخر في شرحه لهذه العبارة، فقد قال- بعد تلك الإشارة إلى تناقض صدر هذا القسم

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٦٩

من الخطبة وذيلها- إنه تدبر وفكر لأنيام وتوسل بجده أمير المؤمنين عليه السلام ليخلص إلى هذه النتيجة وهي أن الإمام عليه السلام أراد أن يشير بالاستناد إلى حديث النبي صلى الله عليه وآله إلى أن الشخص إن رأى عدم انسجام ظاهره وباطنه عليه أن يسعى لإصلاح نفسه، يعني، إن كان باطنه حسناً وعمله سيئاً يسعى لأن يصلح عمله، وإن كان عمله حسناً وباطنه سيئاً يسعى لإصلاح باطنه [٩٠]. وهذا الكلام وإن كان صحيحاً إلا أن استفادة هذا المعنى من العبارة المذكورة لا يخلو من إشكال، ويبدو التفسير الأول أنسب.

ثم اختتم الخطبة في إطار اتمام عبارته السابقة في مجال انسجام الظاهر والباطن ولزوم تطهير الباطن بهدف تطهير الظاهر بالقول: «وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتًا. وَكُلُّ نَبَاتٍ لَأَغْنِي بِهِ عَنِ الْمَاءِ، وَالْمِيَاءُ مُخْتَلِفَةٌ؛ فَمَا طَابَ سِقْمِيُّهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَّتْ ثَمْرَتُهُ، وَمَا خَبِثَ سِقْمِيُّهُ، خَبِثَ غَرْسُهُ وَأَمْرَتْ ثَمْرَتُهُ»

. فقد شبه الإمام عليه السلام الإنسان وأعماله بالنبات وثمره، فكما أن النبات لا غنى به عن الماء لسقيه ونموه، فإن الإنسان لا يستغنى عن التعليم والتربية والإرشاد. فمن عكف على التعليم والتربية والإرشاد الصحيح ظهرت أعماله سالحة، بينما تسي وتخبت أعمال ذلك الذي لاحظ له من الإرشاد والتربية. بعبارة أخرى فإن قيمة ثمرة النبات تنشأ في الواقع من ثلاثة عوامل: البذرة الطيبة والأرض الخصبة

والماء الوفير. والحق أن بذرة الإنسان على ضوء الفطرة التي أودعها إياه الله، طيبة؛ كما أن عوامل البيئة الوراثية بمثابة الأرض، والتعليم والتربية بمنزلة الماء، فإن طهرت وطابت هذه الأمور، كانت ثمرة وجود الإنسان طيبة وطاهرة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧١

الخطبة ١٥٥

إشارة

يَذْكُرُ فِيهَا بَدِيحَ خَلْقَةِ الْخُفَاشِ [٩١]

نظرة إلى الخطبة

تعتبر هذه الخطبة من خطب نهج البلاغة التوحيدية المهمة وتتألف من قسمين. يتعرض القسم الأول لحمد الله والثناء عليه وبيان عظمته التي حيرت العقول إلى جانب قدرته في الخلق دون الاستناد إلى فكرة مسبقة حيث يختزن كل مخلوق عجائب الاسرار. اما القسم الثاني فقد ركز على الخفاش وعجائب خلقته، فيتعرض الإمام عليه السلام إلى تفاصيل خلقه وكأنه استغرق سنوات في دراسة هذا المخلوق العجيب حتى وقف على اسراره.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٣

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعَيْونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدِ فَيْكُونَ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرِ فَيْكُونَ مُمَثَّلًا. خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةٍ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِبَاعْتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ».

الشرح والتفسير: درس في معرفة الله

ذكرنا آنفاً أن الإمام عليه السلام استهل هذه الخطبة بحمد الذات الإلهية المطلقة وبيان صفاتها الجمالية والجلالية، فأشار بادية ذي بدء إلى معرفة كنه ذات الله فقال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ [٩٢] الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ، فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا [٩٣] إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ! [٩٤]».

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا عجزت الاوصاف عن معرفة كنه الذات

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٤

الإلهية؟ ذلك لأن جميع الألفاظ الموضوعية لبيان الأوصاف إنما ترتبط بصفات المخلوقين وهي صفات محدودة ومخلوقة. وبعبارة أخرى فإن ذات الله المطلقة واللامتناهية من جميع الجهات متعذرة الإدراك من قبل عقولنا المحدودة ولا يسع ألفاظنا وأفكارنا بيانها والوقوف عليها، وهذا ما أذهل العقول البشرية وحال دون ظفرها بالسبيل إلى معرفة تلك الذات، طبعاً هذا لا يعني أننا نقول باستحالة معرفة البشر بالله، أو بعبارة أخرى أننا لانقول بتعطيل المعرفة، بل المراد أن حظنا من العلم بتلك الذات المطلقة من جميع الجهات هو

العلم الإجمالى الذى يسعنا الإشارة إليه من خلال آثاره وليس لدينا من علم تفصيلى بهذا الشأن. ولا تبدو هذه القضية عجيبة، فعظمة الله ممّا لا نقاش فيها. بل هنالك الكثير من مخلوقات عالم الإمكان التى تؤمن بها وتبدو واضحة لنا كالشمس، غير أننا نجعل كنهها، على سبيل المثال أننا نؤمن بوجود الروح، ووجود الجاذبية والزمان والمكان، لكن ما حقيقة كنه هذه الأمور؟ إن هذه الأمور تعدّ من الأبحاث التى حظيت باهتمام الفلاسفة والحكماء وعلماء العلوم الطبيعية ولم يتفقوا لحد الآن على نقطة مشتركة، بل أبعد من ذلك إننا لأقرب إلى أنفسنا من كل شىء ولكن ما زلنا نجعل الكثير من أسرار وجودنا، حتى انبرى العالم الغربى «ألكسيس كارل» ليكتب كتابه «الإنسان ذلك المجهول».

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه ببيان صفة أخرى من صفات الله - وهى تأكيد لما سبق - فقال
 «هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبِينُ مِمَّا تَرَى الْعَيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونُ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونُ مُمَثَّلًا»
 . نعم، فوجوده أظهر الأشياء وكنهه فى غاية الخفاء وما تاره العين قد يكون خطأ الباصرة - الذى ذكر له العلماء عدّة أنواع - ولكن العلم بوجود الله لأخطأ فيه. وإننا نشعر بحضوره فى كل زمان وكل مكان وكل حال، مع ذلك نحن حيارى فى إدراك حقيقة ذاته، وكلما تقدمنا خطوة فى هذه المرحلة رجعنا خطوات إلى الوراء، كما قال الشاعر:

كَلَّمَا قَدَّمَ فِكْرِي فِيكَ شَيْراً فَرَّ مِيلاً

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٥

نَاكِصاً يَخْبِطُ فِي عَمِيَاءٍ لَا يَهْدِي سَبِيلًا

كأنّ هذا الموضوع أشبه بذلك الإنسان الذى يبصر مصدراً شديداً للنور يخطف الأبصار فيقترب منه ببطء فإذا النور يهزه فجأة ويدفع به خائفاً إلى الخلف. حقاً يبدو أننا سنقع لا محال فى الخطأ إن حاولنا تشبيه أى من صفات وكنه الذات المقدسة، ذلك لأننا نشبهه بمخلوقاته فنصاب بنوع من الشرك.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى خلقه سبحانه وتعالى للخلق فقال:

«خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ، وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ، وَلَا مَعُونَةٍ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقَهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ [٩٥] لِبَطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَأَنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ»

جدير ذكره أنّ كل ابداعات الإنسان إنما تستند إلى برامج مسبقه وخطط معدة بشأن عالم الطبيعة. فأحياناً يستفيدها بعينها وأخرى يضيف لها بعض أفكاره، إلّا أنّ آية فكرة ليست جديدة فى الواقع، على العكس من ذلك فإنّ نظرننا إلى عالم الوجود سنرى ملايين الأنواع من النباتات والحيوانات الصحراوية والبحرية والطيور وسائر الكائنات التى يتسم كل واحد منها ببعض الخصائص المميزة له، كلها تدين لخالقها تبارك وتعالى.

وأخيراً فإنّ الإمام عليه السلام قد أشار فى هذا المقطع من الخطبة إلى ثلاثة مواضع مهمّة؟ عجز الإنسان عن إدراك كنه الذات الإلهية، وظهور وجوده تعالى، وأخيراً إبداعه الفريد فى عالم الخلق.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٧

القسم الثانى

«وَمِنْ لَطَائِفِ صِدْقَتِهِ، وَعَجَائِبِ خَلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ؛ وَكَيْفَ عَشِيَّتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيءِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مِزَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَانِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِنَلْؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيءِ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الدَّهَابِ فِي بُلُجِ انْتِلَاقِهَا، فَهِيَ

مُسَدَلَةٌ الْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلُهُ اللَّيْلِ سَرَجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أُرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِعَسَقِ دُجْنَتِهِ. فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ فِي وَجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا قِيَهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيْالِيهَا. فَمُسْبِحَانِ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَارًا وَمَعَاشًا، وَالنَّهَارَ سَكْنًا وَقَرَارًا!.

الشرح والتفسير: الطائر العجيب

ما أن فرغ الإمام عليه السلام من بيانه العام والجامع بشأن خلق العالم حتى ركز هنا على أعجب وأظرف مخلوقات الله، ألا- وهو الخفاش الفريد في خلقه من كل النواحي، وإن كانت جميع المخلوقات عجيبة لو أجلنا التفكير بصورة صحيحة. فقد أشار عليه السلام إلى جانبين فريدين في خلقه هذا الحيوان؛ عينه وجناحيه، فقال:

«وَمِنْ لَطَائِفِ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٨

صُنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خَلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ عَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْخَفَافِشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضُّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسِطُهَا الظَّلَامُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ».

ثم يردفها بالعبارة:

«وَكَيْفَ عَشِيَتْ [٩٦] أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيَّتِ

نُورًا تَهْتَدِي بِهِ فِي مِزَادِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلَائِيهِ بُرْهَانَ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا. وَرَدَّعَهَا بِتَأَلُّوَضِ يَأْتِيهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُوحَاتِ [٩٧] إِشْرَاقِهَا، وَأَكْنَفَهَا [٩٨] فِي مَكَامِنِهَا [٩٩] عَنِ الدَّهَابِ

فِي بُلْجِ [١٠٠] ائْتِلَاقِهَا [١٠١]»

. النقطة الجديرة بالتأمل، إن الإمام عليه السلام أشار إلى ثلاث نقاط مختلفة بثلاث عبارات إلى التأثير السلبي لضيء الشمس عليها، فقال: إن ضياء الشمس لم يدعها تلمس طريقها وإن أشعة الشمس تمنعها من بلوغ مقاصدها في هذه الطرق (كالطعمه والحجر) وأخيراً أنها لو سلكت طريقاً وطلعت عليها الشمس فجاءة لصدتها عن مواصلة السير.

وبالنتيجة، ليس لها سوى الاختباء في الحجور المظلمة لتأمن أشعة الشمس، وعلى هذا الأساس فإن ضياء الشمس الذي ينير كل شيء ويساعد جميع الكائنات الحية لأن تعرف طريقها وتواصل حركتها نحو غايتها، لا يبدو كذلك بالنسبة لهذا الطائر «الخفاش» فأثاره سلبية عليه، وعلى العكس من ذلك فهو يستفيد من الظلمة التي تسوق كل ما سواه إلى السكون، ليبدأ بالنشاط والحركة.

ومن هنا واصل كلامه فقال:

«فَهِيَ مُسَدَلَةٌ [١٠٢] الْجُفُونِ [١٠٣] بِالنَّهَارِ عَلَى

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٧٩

حِدَاقِهَا [١٠٤]، وَجَاعِلُهُ اللَّيْلِ سَرَجًا تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي التَّمَاسِ أُرْزَاقِهَا؛ فَلَا يَرُدُّ أَبْصَارَهَا

إِسْدَافُ [١٠٥] ظُلْمَتِهِ، وَلَا تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِعَسَقِ [١٠٦] دُجْنَتِهِ [١٠٧].

ثم تطرق إلى وضع الخفاش حين شروق الشمس وارسالها لأشعتها على الجبال والصحارى فقال:

«فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ [١٠٨] نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ

إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَى الضُّبَابِ [١٠٩] فِي وَجَارِهَا [١١٠]، أَطْبَقَتِ الْأَجْفَانَ عَلَى مَا قِيَهَا [١١١]، وَتَبَلَّغَتْ [١١٢]

بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلْمِ لَيْالِيهَا».

ياله من تشبيه لطيف! فقد شبه الشمس منتصف الليل بالمرأة التي تلتفت بخمارها وحين الشروق طرحته جانباً وقد أشرق ضياء وجه

هذه الأم الحنون على مهد أولادها. العبارة الرائعة الأخرى أنه قال: إن إشراق ذلك النور والضياء بلغ جحور الضباب المعروفة بشغفها بطلوع الشمس وقد أخرج آنذاك راسه من جحره ليستقبل ضياء الشمس. وهي إشارة أيضاً إلى أن الخفافيش تحتفظ بما اصطادته في الليل لنهارها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٠

ثم يخلص إلى نتيجة ليقول بعبارة قصيرة:

«فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَارًا وَمَعَاشًا، وَالنَّهَارَ سَكْنًا وَقَرَارًا!»

فهذا الكائن الفريد، وخلافاً للكائنات الحية كافة- ولاسيما الإنسان- التي تفتت في النهار وتستريح وتسكن في الليل «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا» وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا [١١٣]، إنما يستريح في النهار ويكّد من أجل المعاش في الليل لتعلم الخليقة أن قدرة الله لامتناهية وكل ما يريده سبحانه يكون.

وستكلم في آخر الخطبة إن شاء الله عن عجائب خلقه الخفاش ولاسيما خلقه عينيه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨١

القسم الثالث

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا الْأَذَانِ غَيْرِ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيْنَهُ أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقُّمَا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لِمَاصِقُ بِهَا لَمَاجِيءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُّ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَمَّا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ. فَسُبْحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!».

الشرح والتفسير: عجائب الخفاش

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى أمرين من عجائب خلقه الخفاش (جناحه وتربيته لفرخه)، فقال:

«وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى الطَّيْرَانِ، كَأَنَّهَا شَطَايَا [١١٤] الْأَذَانِ غَيْرِ ذَوَاتِ رِيشٍ [١١٥] وَلَا قَصَبٍ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيْنَهُ

أَعْلَامًا. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقًا فَيَنْشَقُّمَا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلَا»

. حقاً إن هذا لمن عجائب الخلق، فاجنحة جميع الطيور تتكون من الريش الذي يتوسطه شيء يشبه القصب، ونظراً لخفته فإن الطيور تستطيع الطيران بواسطته بسهولة، أما الخفاش المعروف بطيرانه السريع فهو يختلف تماماً عن جميع الطيور، فجناحه قطعاً من اللحم يتوسطها عظام نحيفة أشبه بالغضاريف. وهذه القطعة رغم نحافتها إلا أنها شديدة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٢

المقاومة، كما أنها خفيفة وصامدة على الدوام وهي تشبه صفحة إذن الإنسان.

والغريب أننا لو نظرنا إليه إزاء ضوء الشمس أو المصباح لشاهدنا مجموعة من الأنابيب الظرفية والواسعة والمعقدة من العروق الدموية التي تغذيه والتي يشتد نشاطها حين يطير لتوصل المواد الغذائية اللازمة إلى الأجنحة بهدف السرعة في الحركة.

ثم أشار إلى قضية عجيبة أخرى في خلقه هذا الطائر والتي تتعلق بتربيته لولده فقال:

«تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لِمَاصِقُ بِهَا لَمَاجِيءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُّ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لَمَّا يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلُهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفُ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ»

. معروف أن لهذا الحيوان دورة شهرية كسائر (الثدييات) وهو يحمل ويضع الحمل، خلافاً لسائر الطيور البيوضة وتفقيس فراخها في بيوضها. وينفرد الخفاش بحمله لفرخه معه حين الطيران والهبوط ليعلّمه الطيران وكيفية الحصول على الغذاء وصيد الحشرات والخروج والرجوع إلى العش والحجر، ولعل سرّ حمله لفرخه معه خلافاً لعادة جميع الطيور أنه يمارس الطيران ليلاً فيضطر لحمله معه. على أزيه حال فإن كل شيء عجيب في هذا الطائر، وهذا بدوره أحد عجائب الخليفة التي تعرف الإنسان على تنوع المخلوقات وقدره الخالق.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته الشريفة بالخشوع أمام عظمة الله وقال:

«فَسُبْحَانَ الْبَارِيءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَيَّ غَيْرِ مِثَالِ خَلَا مِنْ غَيْرِهِ!»

وكما استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه فقد اختتمها بتسبيحه وتنزيه ذاته المقدسة.

تأمل

خلقة الخفاش العجيبة

تحدث الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن بديع خلقة الخفاش الذي يختلف في كل شيء تقريباً عن سائر الطيور، حتى صرحت بعض المصادر العلمية أنّ الخفاش

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٣

ليس من فصيلة الطيور، بل جزء من الثدييات وذلك لما يلي:

١. للخفاش أسنان، بينما للطيور منقار.

٢. بدن الخفاش مغطى بالشعر، بينما للطيور ريش.

٣. تتكون أجنحة الخفاش من قطعة لحمية رقيقة وليست الطيور كذلك.

٤. للخفاش يدان ورجلان ويمشي على الأرض على يديه ورجليه وليست الطيور كذلك.

٥. الخفافيش ولودة، بينما الطيور بيوضة.

٦. ترضع الخفافيش صغارها، بينما توفر الطيور الغذاء المناسب لفراخها.

٧. معاش الخفافيش ليلاً، والطيور نهاراً.

٨. تنام الخفافيش نهاراً وتطير عقب الغروب وتتعلق حين النوم بأرجلها على الأشجار والسقوف، بينما ليست الطيور كذلك.

٩. تتغذى الخفافيش على الحشرات وتفتح أفواهها حين تطير وتبتلع عشرات أو مئات الحشرات ولعل هذا سبب رائحتها الكريهة، ولعل

هذا العمل من الخفافيش هو الذي يسهم في تنقية أجواء البيئة من الحشرات، ومن هنا فقد عمد الناس إلى بناء الأبراج لتربية الخفافيش

في المناطق التي تكثر فيها الحشرات. جدير بالذكر، وخلافاً لما يتصوره البعض من ضعف بصر الخفاش حتى راح يضرب به المثل أنّ

الشخص الفلاني أعمى كالخفاش، فإنّ باصرة الخفاش حادة جداً، إلّا أنّ عينه حساسة للضوء ولا يطيق تحمله. والخفاش يطير بسرعة

ومهارة في الليل حتى حين شدة الظلمة، ولا يستعين الخفاش في طيرانه الليلي بعينه فقط، بل يتمتع بجهاز صوتي يشبه الرادار. فالخفاش

حين الطيران يُخرج صوتاً من أنفه وليست لدينا القدرة على سماعه، إلّا أنّ هذا الصوت يصطدم بكل شيء يعترض طريقه وينعكس

إليه، ويلتقط هذا الصوت المنعكس بأذنه الكبيرة فيقف على الأشياء التي تقف في طريقه فيغيّر مساره، ومن هنا قيل: الخفاش يرى

بأذنه. عادة ما يتغذى الخفاش على

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٤

الحشرات، إلّا أنّ بعض الخفافيش تتناول الفاكهة، وبعضها الآخر وحشية خطيرة، ويبدو أنّ عددها قليل جداً. وهي تهجم على الإنسان حين النوم فتغرس أسنانها بكل هدوء في بعض المواضع التي تفتقر إلى الأعصاب والحساسية من قبيل شحمة الأذن فتمتص الدم، كما تتأتى خطورتها من إمكانية حملها لبعض الميكروبات القاتلة من قبيل الحمى الصفراء. والخفاش يقترب من الماء حين الطيران ليرتشف الماء كالمقط بلسانه. ويضع الخفاش القليل الوزن ما يقارب من أربعة فراخ يحملها معه حين الطيران، أمّا تلك الثقيلة الوزن والتي تشبه القطعة أحياناً، فلا تلد أكثر من فرخ، أضف إلى ذلك فهناك بعض الخفافيش التي لاتزن أكثر من الدرهم [١١٦].

وقد وردت في كتاب التوحيد للمفضل بعض العبارات القصيرة والعميقة المعنى بشأن خلقه الخفاش حيث إنّ الله خلقه وسطاً بين الطيور والأنعام (الثدييات) ذلك أنّ له أذنين طويلتين وأسناناً وهو يلد ويرضع وليده ويمشى على يديه ورجليه، وكل ذلك خلافاً للطيور، كما يطير في الليل ويتغذى على الحشرات الطائرة في الهواء، ويعتقد البعض أنّه لا يتغذى سوى على الهواء، وهذا باطل، وذلك أولاً: لخروج البول والغائط منه وهذا غير ممكن دون غذاء، وثانياً: إنّ له أسناناً وليس لهذه الأسنان من معنى إن لم يتغذى ونعلم أنّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً [١١٧]. على كل حال فكلما أمعنا النظر في الخفاش أدركنا عمق الأسرار المركبة فيه، وهنا نقف على عظمة ما أورده الإمام عليه السلام في أنّ الله كأنه خلق هذا المخلوق للتعريف بعظمة قدرته بعرضه أحد بدائع خلقه الذي انطوى على العديد من العجائب والغرائب.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٥

الخطبة ١٥٦

إشارة

خَاطَبَ بِهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ عَلَى جِهَةِ اقْتِصَاصِ الْمَلَاحِمِ [١١٨]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى مسائل مختلفة مرتبطة مع بعضها البعض رغم استقلالية كل منها، وتدور هذه الخطبة حول عدّة محاور هي:

الأول: أنّ الإمام عليه السلام حثّ الناس على طاعته وقد كشف لهم النقاب عن سبيل الجنة المليء بالمتاعب والمشقات.
الثاني: إشار الإمام عليه السلام إلى دوافع عائشة في إثارة فتنة الجمل حتى لا يظن الآخرين بأنّ خروجها للمعركة يضيف شرعية على ممارسات طلحة والزبير.

الثالث: يتحدث عن القيامة والمعاد ويعدّ الناس لذلك بالتزود من التقوى والعمل الصالح وكسب الفضائل ومكارم الأخلاق.

الرابع: أشار فيه إلى كيفية بعث الموتى من القبور وحضورهم في المحشر.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٦

الخامس: الحديث عن ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما يخالف ظن البعض من المشاكل المترتبة عليها في الحياة الدنيا والآخرة.

السادس: إشارة إلى أهمية القرآن ودوره في إصلاح الفرد والمجتمع.

السابع: الرد على سؤال طرحه شخص بشأن الفتنة وهل سأل الإمام عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، إلى جانب

إخبارهم عن شهادته.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٧

القسم الأول

فَمَنْ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَسَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ. وَأَمَّا فَلَانَةٌ فَأَذْرِكُهَا رَأَى النِّسَاءِ، وَضِعْنُ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمَرْجَلِ الْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

الشرح والتفسير: ظهور الاحقاد بذرائع واهية

ذكرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة بعد موقعه الجمل حيث تفيد العبارات الواردة في طليعتها إشارة الإمام عليه السلام قبل ذلك إلى الفتن التي تنتظر الناس ويحذرهم أنّ فتنه الجمل ليست الأولى والأخيرة فقال:

«فَمَنْ اسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَفْعَلْ. فَإِنْ أَطَعْتُمُونِي فَإِنِّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَسَقَّةٍ شَدِيدَةٍ وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ» [١١٩]

. مفهوم العبارة

«أَنْ

يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ»

– بالنظر إلى أن يعتقل من مادة عقل بمعنى المنع – اقتصار النفس على طاعة أوامر الله التي تمثل أرفع درجات الطاعة والعبودية.

والعبارة

«وَإِنْ كَانَ ذَا مَسَقَّةٍ»

إشارة إلى أنّ الإنسان لا ينال الجنة والسعادة بالهين، وعلى الفرد الذي يبغى الجنة أن يعد لها عدتها؛ وذلك لأنّ جهاد النفس ولجم هواها شاق كمواجهه العدو.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٨

وقد عبر الإمام عليه السلام عن هذا المعنى في الخطبة ١٧٦ بما رواه عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ وَإِنَّ النَّارَ حُقَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى الدافع الذي ساق عائشة إلى الجمل – الفتنة التي عمت العالم الإسلامي آنذاك – وقد تطرق إلى التفاصيل بخمس عبارات عميقة المعاني فقال:

«وَأَمَّا فَلَانَةٌ فَأَذْرِكُهَا رَأَى النِّسَاءِ، وَضِعْنُ غَلَا فِي صَدْرِهَا كَمَرْجَلِ الْقَيْنِ [١٢٠] [١٢١]،

وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ، لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا الْأُولَى وَالْحِسَابُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى

. لا شك في أنّ المراد من فلانة في العبارة المذكورة عائشة، وحيث إنّ الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة بعد موقعه الجمل، يبدو أنّ الهدف هو الرد على بعض الشبهات، واحدى الشبهات، لو لم تكن هذه المعركة شرعية كيف تشترك فيها عائشة لتلعب ذلك الدور الحساس؟ وقد أشار الإمام عليه السلام في رده على هذه الشبهة إلى دافعين يكمنان وراء مساندة عائشة لطلحة والزبير:

الأول: آراؤها الضعيفة كامرأة والتي يستطيع طلحة والزبير اختراقها وضمها إلى جانبهما، ويؤيد ذلك، الأخبار التي صرحت بندم عائشة

على فعلتها وتوبتها.

والآخر، الحقد الدفين الذي كانت تكنه لعلى عليه السلام والذي فاق الحدود بحيث لم يدعها تفكر في عواقب فعلتها وبوجه من تقف ولحساب من، وكيف ستكون نتيجة المعركة؟ وقد أسهب شراح نهج البلاغة في بيانهم للعوامل التي تقف وراء ذلك الحقد والبغض؛ إلّا أنّ الشرح الوافي ما ذكره ابن أبي الحديد عن استاذة أبي يعقوب، ونشير إلى جانب من ذلك:

١. على عليه السلام زوج الزهراء عليها السلام والزهراء بنت خديجة وقد شحنت التواريخ المعروفة بالأخبار التي تتحدث عن حساسية عائشة من خديجة حتى بعد وفاتها.

٢. منزلة فاطمة الزهراء عليها السلام لدى رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تكشف عن شخصيتها عليها السلام
نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٨٩

وأته كان يوليها منتهى الحب والاحترام حتى صرحت بعض الروايات المعتبرة أنه اطلق عليها «سيدة نساء العالمين» وقال:
«فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي وَمَنْ أَغْضَبَهَا فَقَدْ أَغْضَبَنِي» [١٢٢]

. وهذا ما أثار حفيظة عائشة حيث كانت ترى أنها تستحق هذه الألقاب لا غيرها، ولذلك حملت الحقد على على عليه السلام.

٣. منزلة على عليه السلام لدى النبي صلى الله عليه وآله ومدى حب النبي صلى الله عليه وآله له وحديثه عن فضائله ومناقبه، وكانت ترى أحقية أبيها بكر بتلك الفضائل.

٤. كون نسل رسول الله صلى الله عليه وآله من فاطمة عليها السلام وعلى، وحبه للحسن والحسين عليهما السلام بينما لم تكن عائشة ولودة.

٥. إغلاق النبي صلى الله عليه وآله كافه أبواب الصحابة في المسجد حتى باب بيت أبي بكر سوى باب دار على عليه السلام. أضف إلى ذلك فهناك عدّة عوامل أخرى لا يسع المجال ذكرها [١٢٣].

جدير بالذكر أن ابن أبي الحديد روى عن استاذة أبي يعقوب قال: «ثم بايع على أباهـ/ عائشةـ/ فسّرت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثرُوا واستمرّت الأمور على هذا مدّة خلاف أبيها وخلافه عمر وعثمان، والقلوب تغلى، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلّما طال الزمان على علىّ تضاعفت همومه وغمومه، وباح بما في نفسه إلى أن قتل عثمان، وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليياً وتحريضاً، فقالت:

أبعده الله! لَمَّا سمعت قتله، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة، فتعود الإمرة تيمية، كما كانت أولاً، فعدل الناس عنه إلى علىّ بن أبي طالب، فلمّا سمعت ذلك صرخت:

واعثماناه! قتل عثمان ظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده» [١٢٤].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٠

والغريب في الأمر أن بعض العلماء رغم اعترافهم بخطأ عائشة وارتكابها المعصية في معركة الجمل، يزعمون أنها تابت وقد عفا الله عنها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل سفك دماء سبعة عشر ألفاً وفي رواية عشرين ألف مسلم في الجمل بالإضافة إلى تلك المصائب التي طالت العالم الإسلامي بسبب تلك المعركة وما زالت آثارها عالقة، يُغفر بمجرد قول: «استغفر الله»؟ وهل يتجاوز الله عن هذا الحق بهذه السهولة؟ ذكر ابن عبد ربه في عقده الفريد أن امرأة تدعى أم أوفى دخلت على عائشة بعد الجمل وسألته: يا أم المؤمنين ما تقولين في من قتل ولده الصغير؟ قالت عائشة: وجبت له نار جهنم؟ ثم سألتها: فما تقولين فيمن قتل عشرين ألفاً من ولدها؟ أدركت عائشة أنها المعنية بهذا السؤال لما فعلته في الجمل فردت: عليكم بعدوه الله هذه [١٢٥].

وأما عبارة الإمام عليه السلام: (ولو دعيت لئنال من غيري ما أتت إليّ، لم تفعل) إشارة إلى أن هذه المرأة لم تكن لتطالب بدم عثمان، بل هدفها تأليب الناس على. وأما عبارته (ولها بعد حرمتها الاولى) ذلك انها كانت زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وقد غض

النظر عن عقابها في الدنيا حرمة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولذلك أردفها بالعبارة (والحساب على الله تعالى في أن الله سوف لن يعفو عن هذه المعصية. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر في الآية الكريمة ٣٠ من سورة الأحزاب: «يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩١

القسم الثاني

منها: سَبِيلُ أُنْبُلُجِ الْمُنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ، فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخَلْقَ لَأَمَقْصِرَ لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُزْقَلِينَ فِي مِصْمَارِهَا إِلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى

الشرح والتفسير: السبيل إلى النجاة

تحدث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة عن الإيمان ثم آثاره- العمل الصالح والعلم والمعرفة وخوف العقاب والاستعداد للسفر الشاق وبالتالي نيل الجنة- فقال:

«سَبِيلُ أُنْبُلُجِ [١٢٦] الْمُنْهَاجِ، أَنْوَرُ السَّرَاجِ»

. شبه الإمام عليه السلام الإيمان بالسبيل الواضح الخالي من العقبات نهاراً والمليء بالمصايح ليلاً، كما يحتمل أن يكون المراد من السراج، العلامات والألواح التي تنصب على جوانب الطرق بغية إرشاد المسافر إلى الهدف، أى أن الإيمان طريقه واضح وعلاماته جلية.

ثم قال عليه السلام:

«فَبِالْإِيْمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الْإِيْمَانِ، وَبِالْإِيْمَانِ يُعْمَرُ الْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُزْهَبُ الْمَوْتُ» [١٢٧]

. قطعاً أن معنى الإيمان في

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٢

العبارتين هو الاعتقاد الباطني؛ و (يستدل) في العبارة الأولى، يعطى معنى العلية وفي العبارة الثانية، الكاشفية، أى أن الإيمان سبب العمل الصالح، والعمل الصالح كاشف عن الإيمان، مع ذلك ربما تكون العلية هي المرادة من (يستدل) في المعنيين، أى كما أن الإيمان سبب العمل الصالح فإن العمل الصالح سبب قوة الإيمان. وقوله عليه السلام (وبالإيمان يعمر العلم) إشارة إلى أمرين: الأول: إن الإنسان إن آمن بالخالق العالم والحكيم وانفتح على الهدف الذى ينطوى عليه الخلق سيوقن بان ليس هنالك شىء خلق عبثاً فى هذا العالم فيسعى أثر ذلك للوقوف على علل الأشياء وأسرار الظواهر. حيث صرح أحد علماء العلوم الطبيعية بأن العنصر الذى دفع بكبار العلماء للسعى من أجل كشف أسرار الطبيعة ولسنين مديدة إيمانهم بالهدفية التى تحكم عالم الخليقة وأن ليس هنالك من سبيل للعبث فى خلق أى شىء.

الثانى: إن أحد موانع العلم والمعرفة هو التعصب الأعمى والغرور، لكن إن حل الإيمان زالت كل هذه الموانع وتمهد السبيل أمام بلوغ منابع العلوم والمعارف. أضف إلى ذلك فإن العلم دون عمل هو علم هدام يستبطن الجهل، والعنصر الذى يقرون العلم بالعمل هو الإيمان، كما ورد ذلك فى الحديث المروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنه قال:

«إِنَّ الْعِلْمَ يَهْتَفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ عَنْهُ» [١٢٨]

. وقوله عليه السلام: إن الإنسان بسبب العلم يهرب الموت فى أنه لا يرى الموت نهاية الحياة، بل يراه بداية حياة جديدة يعيشها على

ضوء ما أسلف من أعمال.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه بذكره للعلّة والمعلول واللازم والملزوم فقال:

«وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ الدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ الآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَّفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٩٣

الْجَحِيمِ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ الْخُلُقَ لَأَمْتَصَّرَ [١٢٩] لَهُمْ عَنِ الْقِيَامَةِ، مُرْقَلِينَ [١٣٠] فِي مِصْمَارِهَا إِلَى
الْغَايَةِ الْقُصْوَى

. نعم، الموت نهاية الحياة الدنيوية وانطلاقة الحياة الأبدية، وصحيفة الأعمال تطوى بالموت؛ ذلك أن مزرعة الآخرة هي الدنيا، وليس في القيامة سوى الجنة والسعادة الأبدية أو النار والعذاب الأبدى، وكل إنسان دون استثناء آيل إلى أحدهما. لا يستبعد أن يكون ذكره لهذه العبارة بعيد موقعة الجمل أن أولئك النفر الضال لو كان إيمانهم قوى لما انساقوا إلى تلك الفتنة والمعركة القاتلة. فالإيمان يدعو العلم والمعرفة وترجيح الدار الباقية على تلك الفانية؛ ولكن من المؤسف أن حجاب الهوى يحول دون إدراك العقل لهذه الحقائق رغم أن الطريق واضح والمعالم جلية.

أما العبارة

«وَبِالْقِيَامَةِ تُزَلَّفُ الْجَنَّةُ، وَتُبْرَزُ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ»

مقتبسة من سورة الشعراء، الآية ٩١ - ٩٠: «وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ».

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٩٥

القسم الثالث

منها: قَدْ شَخَّصُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ.

لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا.

وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانِ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يُنْقَصَانِ مِنْ رِزْقٍ. وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ، وَالتُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّبِّيُّ النَّافِعُ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَمَّا يَعْجُجُ فَيَقَامُ، وَلَا يَزِيغُ فَيَسْتَعْتَبُ، «وَلَا تُخْلِفُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ»، وَوُلُوجُ السَّمْعِ. «مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ».

الشرح والتفسير: عوامل النجاة في القيامة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة عقب العبارات السابقة- التي تحدث فيها عن الموت والجنة والنار- في مسألة الحشر والنشر يوم القيامة ثم تطرق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأهميته القرآن الكريم، كونها تشكل العناصر المحورية في النجاة يوم القيامة فقال:

«قَدْ شَخَّصُوا [١٣١] مِنْ مُسْتَقَرِّ الْأَجْدَاثِ [١٣٢]،

وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ الْغَايَاتِ. لِكُلِّ دَارٍ أَهْلُهَا، لَا يَسْتَبْدِلُونَ بِهَا وَلَا يُنْقَلُونَ عَنْهَا»

. فأشار بادىء الأمر إلى أن الجميع ينهضون من القبر كما ورد ذلك كراراً في القرآن

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٩٦

الكريم: «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً» [١٣٣] ويستفاد من العبارة أن ذرات البدن التي تحولت إلى تراب تعود إلى القبر أينما كانت لتتحيا ثانية وتنفض عنها التراب.

وهنا يرد هذا السؤال: إن آيات القرآن صريحة في أن الدنيا ستنتهي بزلزلة عظيمة تحطم كل شيء فكيف ستبقى القبور ويخرج الموتى منها إلى الحساب؟ أوردنا الاجابة عن هذا السؤال في الجزء الثالث من الأنوار العلوية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى عدم استبدال دور الجنة والنار وسيقيم كل شخص على ضوء أعماله في الجنة أو النار؛ والمراد أن الثواب والعقاب في الآخرة للمؤمن والكافر أبديان، لا يمكن استبداله ولا نقله. والحق أن تلك الدار على قدر من النظام والدقة الذي ينسجم مع العقيدة والعمل وكان كل مكان يبحث عن شخص لا العكس. ثم أشار الإمام عليه السلام إلى قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أن معركة الجمل كانت من النماذج البارزة لهذا المفهوم، فقال:

«وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَخُلُقَانٍ مِنْ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ؛ وَإِنَّهُمَا لَا يُقْرَبَانِ مِنْ أَجْلِ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ»

. على غرار ما جاء في القرآن الكريم: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ». ويرى بعض شراح نهج البلاغة أن التعبير (بالخلق) عن الله هو تعبير مجازي (مجاز في الكلمة أو مجاز في النسبة)، لأن الخلق ملكة نفسانية تنبعث من الأعمال الصالحة والسيئة، والله منزّه عن هذه العوارض والحالات، إما أن اعتبرنا الخلق بمعنى الوصف فليست هنالك من مشكلة سواء أريد به الحالة النفسانية أو الوصف عين الذات الذي يطلق على الله. على كل حال فإن الوظائف التي عينها الإسلام للناس تكون أحياناً متعلقة بالإنسان مثل العبادات وأغلب المحرمات، لكن هنالك أمور واسعة جداً تصدق حتى على الله، كالعادلة وترك الظلم وإرشاد الجاهل وتبنيه الغافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن أساس نزول الكتب السماوية وبعث الأنبياء على ضوء

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٧

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو إرشاد الجاهل، وبناءً على هذا، كفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهميته أنه محور انطلاقة جميع الأنشطة للأنبياء والرسل. وما قاله الإمام عليه السلام من أنهما لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، إشارة إلى أن أغلب الناس من ذوى النظرة الضيقة والآفاق المحدودة يعتقدون بأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى الاشتباك مع أهل المعاصي، وهذا ما يؤدي بدوره إلى القتل تارة وأخرى انفراج الناس عن هذا الإنسان وبالتالي قلته رزقه.

ولكن إن جرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق الأسلوب الصحيح والمعقول وجانب الافراط والتفريط فإن الله يحفظ الإنسان الذي يمارس هذه الوظيفة ولا يبخل عليه في رزقه. وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، شرائط، منها: احتمال التأثير وعدم الضرر، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوعان؛ عام، وهو وظيفة كافة الناس (عن طريق القلب واللسان، وخاص، وهو وظيفة الحكومة الإسلامية (من خلال الإجراءات العملية). فلو راعى الإنسان هذه الأمور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى جانب الأدب والاحترام فسوف يحظى بحب الآخرين واحترامهم لا انفراجهم عنه ونفرتهم، فإن عرضت له بعض المكافه يفرجها الله تعالى. وزبده الكلام إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أساس ودعامة نظام المجتمع وقدسيته ونهضته وتطوره، والعكس بالعكس، فإن المجتمع الذي يموت فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستفحل فيه التنصل عن المسؤولية وترتكب فيه الذنوب والمعاصي ويجهر فيه بالفسوق حتى يغط المجتمع في وحل الانحراف والفساد.

ولما كان سبيل نيل السعادة وحل المشاكل الفردية والاجتماعية يتمثل بالعودة إلى القرآن فإن الإمام عليه السلام يتطرق هنا إلى أهمية القرآن ليوضحها بعبارات حية عميقة المعاني وتشبيهات لطيفة ضمن إحدى عشرة جملة- تشير كل جملة منها إلى ميزة من مزايا القرآن- قال

«وَعَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٨

كأن البشرية قبل التعليم والتربية مستغرقة في وحل الطبيعة ولا بد لها من التمسك بحبل بغيه النجاة. وينبغي أن يكون هذا الحبل متيناً

كى لا يتركها منتصف الطريق.

ومن هنا يعبر عن القرآن بالحبل المتين، الوسيلة الفضلى فى النجاة، وبالنظر إلى أن سلوك الطريق فى الظلمات يؤدى إلى الضلال والسقوط فى المستنقعات فقد شبه القرآن بالنور المبين الذى يحف الإنسان حتى يبلغ الهدف.

وقال فى صفته الثالثة والرابعة بالنسبة للقرآن:

«وَالشَّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّىُّ [١٣٤] النَّافِعُ [١٣٥]»

، فالصفات الذميمة والردائل الأخلاقية سواء تلك التى يتسم بها الفرد أو الجماعة كالأمرض المعضلة وربما القاتلة وقد ورد علاجها فى ظلال القرآن الكريم، وطالما كان أهم عوامل الحياة وديمومتها هو الماء فإن القرآن الكريم يلعب دور الماء فى حياة الإنسان المعنوية، ومن هنا عدّه الإمام عليه السلام وسيلة رى عطاشى الحق.

ثم قال فى الميزة الخامسة والسادسة:

«وَالعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاهُ لِلْمُتَعَلِّقِ»

فالإنسان عادة ما يتعرض فى مسيرته نحو الصلاح والسعادة إلى بعض المطبات ولا بد له من التمسك بما يعونه من الوقوع فى تلك المطبات. وقال فى الميزة السابعة والثامنة

«لَا يَعْوجُّ فَيْقَامًا، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ [١٣٦]»

. قطعاً أن كلام الله الذى يستند إلى علمه المطلق ليس من سبيل للخلاف والخطأ والانحراف إليه، ذلك لأن الخطأ إنما يقارفه من كان علمه محدوداً وقدرته بسيطة، لا تلك الذات المطلقة العلم والقدرة، ونعلم جميعاً أن احدى ملامح اعجاز القرآن، عدم وجود التضاد والاختلاف فى آياته:

«وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» [١٣٧]

كما

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٩٩

ورد فى سورة الكهف: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْنَا عِبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا» [١٣٨].

ثم قال فى الصفة التاسعة:

«وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ»

. أجل فطراوة القرآن وحلاوته ودوره التربوى يسمو على القراءة والتكرار، ذلك لأن القرآن كلام الله وكلامه كذاته غير متناه وكما تدبر الإنسان فيه اكتشف حقيقة جديدة وكلما تطور العلم البشرى كلما تكشفنا أبعاد جديدة منه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله

: «لَا تُحْصَى عَجَائِبُهُ وَلَا تُبْلَى غَرَائِبُهُ» [١٣٩]

أو كما ورد عن الإمام الرضا عليه السلام حين سأله شخص عن تسامى القرآن على التلاوة والتكرار فقال عليه السلام:

«لَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِمَا زَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [١٤٠].

وأخيراً قال فى الميزة العاشرة والحادية عشرة:

«مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ.»

إشارة إلى أن القرآن معيار الحق والباطل والنصر والهزيمة، ومن تحدث على ضوء القرآن كان كلامه عين الحقيقة ومن التزم بالقرآن عملاً نال السعادة، ولاغرو فليس من سبيل للخطأ إلى القرآن وهذا ما يجعل الملتزم به قريباً من الحق فى منطقته وسلوكه.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠١

القسم الرابع

وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟ فقال عليه السلام: إِنَّهُ لَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ: «الم* أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا أَنْزَلَ بِنَا وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ:

يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتَشْهِدَ مِنْ اسْتَشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبَشِّرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

الشرح والتفسير: الفتنة الكبرى

جاء في متابعة الخطبة:

«وقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عنها؟» فالعبارة تشير إلى أن أذهان الناس كانت تساورها وقوع الفتنة، وأراد السائل أن يعرف هل ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله شيء بشأن هذه الفتنة الخطيرة. فأجابه الإمام عليه السلام:

«إِنَّهُ لَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، قَوْلَهُ:

«الم* أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» [١٤١]

عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَمَّا أَنْزَلَ بِنَا

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ١٠٢

وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا؟ فَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ مِنْ بَعْدِي»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْلَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ اسْتَشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ [١٤٢] عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتَ لِي: «أَبَشِّرْ، فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» [١٤٣] فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَنْ؟» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ.

تأملان

١. الرد على بعض الأسئلة

تفيد العبارة الواردة في الخطبة أن الآية: «الم* أَحْسِبَ النَّاسَ...» أنها نزلت في المدينة بعد موقعه أحد، في حين يتفق المفسرون على أن سورة العنكبوت مكية، حيث لم يكن آنذاك شيء عن الجهاد.

قيل في الجواب عن هذا السؤال: إن مكية سورة معينة يعنى نزول السورة بجميع آياتها في مكة، بل لا يمنع أن تكون أغلب آياتها نزلت في مكة كما نزلت آية أو أكثر، منها في المدينة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بوضع هذه الآية في السورة، على غرار

إجماع المفسرين على مكية سورة النحل مع العلم اليقين بنزول ثلاث آيات منها بعد موقعة أحد.

السؤال الثاني: من أين علم على عليه السلام بعد نزول الآية المذكورة أن الفتنة لا تقع على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله بينما لم تشر الآية إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد؟

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٣

والجواب واضح في أن المراد من الفتنة خطر الانحراف عن أصول الدين وفروعه والذي يهدد كيان الأمة الإسلامية وليس لمثل هذا الانحراف أن يقع طالما كان النبي صلى الله عليه وآله بين ظهرانيهم، ولكن ما أن تغيب شمس النبي صلى الله عليه وآله حتى يستغل المنافقون الفرصة وتبرز الخلافات.

السؤال الثالث: ما تلك الفتنة التي أشار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في هذه الخطبة إلى وقوعها بعده؟ فقد ورد في رواية عن النبي صلى الله عليه وآله تعرض للتفاصيل أكثر من رواية نهج البلاغة، أنه قال:

«إن أمتي ستفتن من بعدى فتأول القرآن وتعمل بالرأى وتستحل الخمر بالنبيذ [١٤٤] والسحت بالهدية والربا بالبيع وتحرف الكتاب عن مواضعه وتغلب كلمة الضلال فكن جليس بيتك حتى تقلدها، فإذا قلدها جاشت عليك الصدور وقلبت لك الأمور» [١٤٥]. فهذا الحديث الذي ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة يبين تلك الفتنة الكبرى [١٤٦].

السؤال الرابع والأخير:

لماذا سأل على عليه السلام بشأن شهادته؟ فهل أشار النبي صلى الله عليه وآله إلى شهادته حين تحدث عن تلك الفتنة؟ والحال لم يرد في الخطبة ما يشير إلى هذا الأمر؟ والجواب كما أسلفنا أن المرحوم السيد الرضى (ره) قد أوجز الخطبة. وقد ورد في الروايات المفصلة أن علياً عليه السلام لما سمع من النبي صلى الله عليه وآله وقوع هذه الفتنة قال: يارسول الله لقد وعدتني بالشهادة فاسأل الله أن يعجل لي بين يديك. قال صلى الله عليه وآله: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين؟ أما أنى وعدتك الشهادة وستشهد تضرب على هذه فتخضب هذه [١٤٧].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٤

٢. الشهادة مفخرة لا مصيبة

القضية الجديرة بالذكر في هذا المقطع من الخطبة ما ورد من حوار بين النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، حيث تطرق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى مفهوم الصبر الذي يكشف عن ذروة الإيمان وقيمة الإيثار والتضحية في سبيل الله والقيم الإسلامية التي لم تنقل عن شخص آخر على غرار ما هي عليه بالنسبة لعلي عليه السلام، ولعلنا نلمس امتدادات ذلك في صرخته التي اطلقها عليه السلام حين ضرب في محراب عبادته وخضب بدمه،

«فُرْتُ وَرَبُّ الكَعْبَةِ».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٥

القسم الخامس

وَقَالَ: «يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَتَمَنُّونَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَيِّطَوْتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيدِ، وَالسُّحْتَ بِالْهَدْيَةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلْتَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أِبْمَنْزِلَةِ رِدِّهِ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَتِهِ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةِ فِتْنَتِهِ».

الشرح والتفسير: الحيل الشرعية في استحلال المحرمات

قال الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذي يمثل آخرها ومواصلة لنقل كلام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بخصوص الفتنة التي تقع من بعده:

«وَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ الْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ، وَيَمُنُّونَ رَحْمَتَهُ، وَيَأْمَنُونَ سَيِّطَوْتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ الْخَمْرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحْتِ [١٤٨] بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ».

فقد ركز رسول الله صلى الله عليه وآله على تفاصيل هذه الفتنة الكبرى وأشار إلى خمس صفات من صفات الفئة التي تعيش ذلك الاختبار. فصرح قبل كل شيء بافتنانهم بأموالهم في إشارة إلى أن المال من المحاور الرئيسية في الاختبار والامتحان، كما نرى أن الأمر كذلك في كل عصر ومصر، والآخر، أنهم يعيشون حالة من الغرور

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٦

الزائف، ذلك أنهم يتناولون على الناس بإسلامهم وكأنهم يمتنون على الله، ويظنون رغم كل آثامهم بنيل رحمة الله والأمان من عذابه، وهذه هي الحالة التي تستحوذ عادة على جميع الاثمين المغرورين الراضين عن أنفسهم.

قال القرآن الكريم بشأن بعض الأعراب الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً واتسموا بتلك الصفات: «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [١٤٩].

الميزة الأخرى لهؤلاء أنهم يحاولون التغطية على أعمالهم السيئة بغية خداع الآخرين وربما خداع أنفسهم. فهم على سبيل المثال يتناولون الخمر وحين يشكل عليهم بأنّها من المحرمات، قالوا: بل هذا النبيذ الذي كان يشربه رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه، في حين لم يكن ذلك النبيذ مسكراً ولا حراماً، وقضية ذلك النبيذ أن أصحابه بعد أن قدموا إلى المدينة وشكوا من طبيعة الماء، أشار عليهم بقذف عدّة تيمرات في ظرف كبير من الماء. ولم يكن ذلك الماء مضافاً، كما لم تكن التيمرات بالحد الذي يؤدّي إلى السكر، فكانوا يشربون من ذلك الماء ويتوضؤون به، إلّا أنّ بعض المغرضين استغل هذه القضية وقذف المزيد من التمر وعرضها للحرارة حتى تخمرت وتحولت إلى مسكر، فكانوا يتعاطونه باسم النبيذ [١٥٠]. على غرار الكثير من الأشخاص ضعاف الإيمان في الماضي والحاضر الذين يصطلحون على الرشوة بالهدية، كما يمارسون الربا في معاملاتهم باسم البيع. طبعاً يسعى الآثمون في الأوساط الدينية التي لا يخفى فيها الإثم ويؤدّي إلى بعض المشاكل بالنسبة لمن يقارفه إلى ممارسة الحرمات من خلال بعض المظاهر الزائفة، وهذا ما تناولته الأخبار الواردة بشأن الفتنة.

ثم اختتم الإمام عليه السلام خطبته في حديثه مع الرسول الله صلى الله عليه وآله:

«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٧

فَبِأَيِّ الْمَنَازِلِ أَنْزَلْتَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةٍ رَدَّةٍ [١٥١]، أَمْ بِمَنْزِلَةٍ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: «بِمَنْزِلَةٍ فِتْنَةٍ»

. يبدو أن هؤلاء الأفراد يقرون بالتوحيد والنبوة وكان انحرافهم في القضايا العملية، ولم يكونوا منكرين حتى لضروريات الدين وكانوا يسعون لتمويه ما يقترفون من محرمات بغطاء الحلال، وعليه لا يجري عليهم حكم الارتداد، ولم يعاملهم الإمام عليه السلام كمرتدين.

تأمل: الحرام لا يحلل بالزيف

ما أورده النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بشأن الفتنة لا يقتصر على عهد على عليه السلام بل يمتد ليشمل كل العصور بما فيها عصرنا الراهن. فهناك العديد من الأفراد الذي يظنون أنهم في ركب المؤمنين حين يجري الكلام عن الأموال والثروة غير المشروعة وكأنهم

يمنون على الله بإسلامهم ويطمعون بعفوه ورحمته. والأسوأ من ذلك ارتكاب الكبائر في إطار بعض العناوين المباحة والمزيفة، بعبارة أخرى يرتكبون هذه المخالفات من خلال التحايل على القانون واستغلال بعض فقراته المرنة. ولعلنا نشاهد اليوم أغلب المرابين الذين يتشبثون بمختلف الحيل، تارة باسم تبديل العملات النقدية بأخرى وتارة أخرى عن طريق «ضم الضميمة» أي أنهم يضمون إلى المعاملة شيئاً زهيد القيمة فيبيعونه بقيمة فادحة، وأحياناً باسم تقاضى الأجور وأخرى ببيع الشروط الكاذبة أو حق العمل وذريعته التضخم وسائر العناوين الكاذبة والزائفة لإضفاء الحلية على الربا، حتى عدنا نلمس بوضوح ما قاله النبي صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص

«يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرَّبَا فَإِنَّ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ» [١٥٢]

. حقاً أن هذا النوع من المخالفة للقوانين الشرعية هو أسوأ وأخطر من

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٨

المخالفة الصريحة؛ لأنها قد تستشري سريعاً في أوساط المجتمع دون أن تصطدم ببعض الموانع، والحال ليست المعاصي الصريحة بهذا الشكل والتي تصطدم بالكثير من العقوبات في المجتمعات الدينية. أضف إلى ذلك فإن هذا الهروب من القانون يعد جريمة مضاعفة؛ فهو ينطوي على معصية الربا إلى جانب الرياء والتلاعب بأحكام الدين. بعبارة أخرى، لا يبقى من القانون والحكم الشرعي في الهروب سوى صورته الظاهرية مع اسقاط مضمونه وفلسفته؛ فتحريم الربا مثلاً يستند إلى مفسدة العديدة على النظام الاقتصادي للمجتمع وإثارة السلبية في خلق الطبقة البغيضة وبروز الطبقة المعدمة إلى جانب تلك المرفهة، ومن هنا عدته بعض الروايات أسوأ من الزنا بالمحارم وأنه بمثابة محاربة الله، وذكرت سبعاً من مفسده أوضحناها في بحث الربا [١٥٣]. ولنا أن نتساءل: هل تزول هذه المفسدات بممارسة بعض الأمور الظاهرية من قبيل إضافة علبه كبريت أو مقدار من النبات إلى تلك المعاملة الثقيلة؟ كلا. وهل يكمن جوهر المشكلة في كلمة السحت والربا كما قال المرحوم وحيد البهبهاني وأن جميع مساويء الربا إنما تعود إلى هذه الألفاظ، أم أن هنالك حكماً في هذا الحكم لا ينبغي الغفلة عنها؟!

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٠٩

الخطبة ١٥٧

إشارة

يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى التَّقْوَى [١٥٤]

نظرة إلى الخطبة

استهل الإمام عليه السلام هذه الخطبة كسائر خطب نهج البلاغة بحمد الله والثناء عليه، ثم خاض في بعض الأمور الحساسة. تطرق في القسم الأول إلى الاعتبار بالماضين - الذين نشترك معهم في المصير - ليأخذ بأيدينا إلى أعماق التاريخ لننظر بوضوح لمصيرنا فنظفر بالسعادة.

وأشار في القسم الثاني إلى أهمية الورع والتقوى والتزود من الدنيا للآخرة، وحذر من أن نهاية الحياة الدنيا ليست معلومة لأي فرد فلا ينبغي الغفلة. وتحدث في القسم الثالث عن المراصد التي تتابع أعمال الإنسان بما فيها الملائكة والحفظة وحتى جوارح الإنسان وأعضائه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٠

وخاض في القسم الأخير في نهاية الحياة وعالم القبر والوحشة هنالك وفناء الدنيا والقيامة من خلال عبارات قصيرة تهز الإنسان وتحته على اغتنام الفرصة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١١

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ.
عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَزِيهِ بِالْمَاضِينَ؛ لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ.
آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حِدَّ وَالزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ: فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي
الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ فِي الْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيْطَانِيَّتُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفْرَطِينَ.

الشرح والتفسير: انعطافاً على المبدأ والمعاد

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله بعبارات جديدة فقال:

«الْحَمْدُ [١٥٥] لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ

الْحَمْدَ مِفْتَاحًا لِذِكْرِهِ، وَسَبَبًا لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلًا عَلَى آلَائِهِ وَعَظَمَتِهِ»

. أمّا بشأن الذكر الوارد في العبارة، فقد قيل: المراد به القرآن الكريم حسب بعض الآيات التي عبرت عنه بالذكر، وذلك لأن سورة الحمد بداية القرآن (بناءً على أن سورة الحمد أول سورة نزلت على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأن القرآن جمع بهذا الشكل على عهد

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٢

النبي صلى الله عليه وآله وأمه وأمه وقد صدر بسورة الحمد [١٥٦]. أو أنها إشارة إلى بعض السور القرآنية التي تصدرت بالحمد كسورة الحمد والأنعام والكهف وسبأ وفاطر. أو أن الذكر مطلق ذكر الله كما ورد في الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

«كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجزم» [١٥٧]

. ومن هنا نشاهد أغلب خطب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام تستهل بحمد الله والثناء عليه. والعبارة (سبباً للمزيد من فضله) إشارة للآية الكريمة:

«لَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ» [١٥٨]

وهنا لابد من الالتفات إلى أن الحمد ورد في أغلب الآيات القرآنية بمعنى الشكر. والعبارة (دليلاً على عظمته وآلائه) إشارة إلى أننا حين نحمد الله ونشكره فإننا نكون قد توجهنا إلى نعمه وآلائه إلى جانب التفاتنا لمقام عظمته.

ثم خاطب الإمام عليه السلام عباد الله ليحذروهم من تقلب الدنيا ويوصيهم بالاعتبار بمن سبقهم من الماضين فقال:

«عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّ الدَّهْرَ [١٥٩] يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَزِيهِ بِالْمَاضِينَ»

. والعبارة تشير إلى موضوع معروف في أن التاريخ يعيد نفسه وأن حوادث اليوم هي حوادث الأمس بتغيير طفيف. ويقول موضحاً ذلك

«لَا يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلَا يَبْقَى سَرْمَدًا مَا فِيهِ، آخِرُ فَعَالِهِ، كَأَوَّلِهِ. مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلَامُهُ».

أجل، لو تمعنا قليلاً لعرفنا أن سلسله من الأصول تحكم تاريخ البشرية وأنها تبرز كل يوم بصيغته الجديدة، ومن هنا يستطيع كل فرد

الوقوف على مستقبله من خلال دراسة تاريخ الماضين، ذلك أن تاريخ الأمم مرآة عاكسة لأحداث اليوم. فهناك على الدوام فئة تمسك بزمام الأمور وتسيطر على كل شيء ولا تمضي عليها مدّة حتى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٣

يدب فيها الضعف والعجز وتتخلى عن تلك السلطة مختارة أو مرغمة إلى الآخرين «فإذا حياءً أجلهم لا يشأخزون ساعة ولا يشيئقدون»، كما جرت العادة على أن يولد الفرد طفلاً ثم يصبح شاباً يافعاً وبالتالي يسير إلى الشيخوخة والهرم لينتظر أجله فيلتحق بقافلة الموتى ويتوسد التراب.

وما أن يفرغ الإمام عليه السلام من هذا الأمر حتى يسدى نصائحه ومواعظه

«فَكَانَكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ [١٦٠] حَدْوُ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ»

. وبالنظر إلى أن الزاجر تطلق على من يسوق الجمال بسرعة، والشوال جمع شائلة التي تطلق على الجمال الخفيف، أي التي مضت مدّة على وضعها لحملها وقد جف ثدياها وبالطبع لا يلتفت إليها الراعى، نستنتج أن الدهر يسوق الناس سراعاً إلى الفناء. فما أسرع الليالي والأيام والسنوات والأشهر، إلى جانب الحوادث المفاجئة والأمراض وسائر الأمور التي تستهدف حياة الإنسان.

ثم يلفت عليه السلام الانتباه بعد ذلك التحذير إلى هذه الحقيقة:

«فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَارْتَبَكَ [١٦١] فِي الهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُعْيَانِهِ،

وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّئَ أَعْمَالِهِ»

. فكل إنسان ينطوي على بعض المناقص والمثالب ونقاط الضعف وليس له من سبيل سوى إصلاحها ليتدرج في المسيرة نحو الإنسان الكامل فيستحق قرب الله وخلافته، أمّا من صوب نظره خارج ذاته وانهمك بسائر قضايا الناس كالمال والثروة والجاه فلا مناص أنه سيعيش الحيرة والارباك، والأسوأ من ذلك أن الشياطين تتخطف هذا الإنسان الغافل فتسوقه إلى الطغيان وتزين له سوء أعماله حتى يراها من مواطن قوته فيفخر بها، ومن الطبيعي أن مثل هذا الإنسان لا سبيل لديه إلى النجاة. صرح القرآن بشأن مثل هذا الفرد: «كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [١٦٢].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٤

وأشار عليه السلام في ختام هذا القسم من الخطبة إلى مصير هذا العمل فقال:

«فَالجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفْرَطِينَ»

والمراد طبعاً من السابقين، السابقين في ميدان طاعة الله وهدفهم الجنة، على غرار ماورد في القرآن الكريم: «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا» [١٦٣] العبارة (والنار غاية المفرطين) إشارة إلى الأفراد الذين تؤول أمورهم إلى النار بفعل تقصيرهم وعدم استغلالهم الفرص؛ حيث يقول القرآن الكريم بشأن مثل هؤلاء الأفراد: «قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا» [١٦٤].

تأمل: كيف يعيد التاريخ نفسه

تاريخ البشرية سلسلة من الأحداث الجمّة المتنوعة والمختلفة، ولكن ما أن نأملها بدقه حتى نستطيع التوصل إلى خصائص تلك الأحداث المختلفة وتقولبها في فئات معينة وعناوين خاصة، وبعض تلك الخصائص كما يلي:

١. الزوال السريع للنعم والسلطات: نعم، فالنعم والسلطة تأتي بسرعة وتزول كذلك وتنتقل من طرف لآخر.

٢. التقلب: التقلب هو احد مميزات حوادث هذا العالم فما أن يتعلق الإنسان بشيء حتى يفقده، وما أن يذوب في شخص حتى يفتح

٣. غدر الدنيا: وقد ضرب المثل بهذا الشأن حتى قيل (لمن صفت الدنيا لتصفو لنا).

٤. النصر والهزيمة: ما زالت ذاكرة التاريخ حافلة بالكثير من الأفراد والطوائف

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٥

الذين عاشوا الانتصار وغروره ولكنهم ما لبثوا أن تجرعوا غصص الذل والهوان ومرغت انوفهم بوحل الهزيمة.

٥. استبدال الود بالعداء والعكس: فأقرب مقربى الإنسان اليوم قد يصبح عدوه فى الغد كما أن أعداء أمس قد يصبحون أصدقاء

اليوم، الأمر الذى نلاحظه بجلاء فى حياة الساسة والحكام.

٦. الترحم واللعن: الذى يبقى فعلا ويدعو إلى الذكر الحسن لدى الناس هو أعمال الخير والبر والمروءة والاخلاص، والعكس صحيح،

فليس للظلم والطغيان سوى اللعن.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٧

القسم الثانى

اعلموا، عباد الله، أن التقوى دار حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَمَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ
الْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى

عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أَعَزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِدْقُهُ لَازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!
فَتَرَوُودُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دَلَّلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأَمَرْتُمْ بِالظَّنَنِ، وَحَسِبْتُمْ عَلَى الْمَسِيرِ؛ فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ وَقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى

يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلَّبُهُ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ تَبَعْتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْعَبٌ.

عِبَادَ اللَّهِ، اخْذَرُوا يَوْمًا تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْتُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشِيبُ فِيهِ الْأَطْفَالُ.

الشرح والتفسير: ثقل الدنيا

قال الإمام عليه السلام هنا- بعد أن خاض فى ثقل أحوال الدنيا واعد المخاطبين لاستماع المواعظ والإرشادات:

«اعلموا، عباد الله، أن التقوى دار حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَالْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لَمَا يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلَا يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ»

. إشارة إلى أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٨

التقوى ملكة باطنية قوية تحول دون مقارفة الإنسان للذنب وهذا ما يؤدى بدوره إلى الاحتراز من انعكاسات الذنب الخطيرة فى الدنيا

والآخرة، بعكس الأفراد المجانين للورع والتقوى والذين يصبحون عرضة لنفوذ الشياطين وأهواء النفس وبالتالي السقوط فى مستنقع

الذنب والفضيحة فى الدنيا وسوء العذاب فى الآخرة.

ثم تطرق عليه السلام إلى آثار التقوى فقال:

«أَلَا وَبِالتَّقْوَى تُقَطَّعُ حُمَةُ [١٦٥] الْخَطَايَا،

وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى

فالإمام عليه السلام يشبه سطوة الذنوب بالحشرات السامة كالحية والعقرب. نعم، فالتقوى هى التى تمنح الإنسان الحياة، ولما كانت

التقوى واليقين لازماً وملزوماً لبعضهما البعض فقد صرح الإمام عليه السلام بأن من ينطق باليقين يبلغ الهدف، والتقوى تزيل عقبات

الطريق ولا يفرز عدم التقوى سوى ضعف اليقين.

فهل يسع من يوقن بهذه الآية:

«إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا» [١٦٦]

أن يأكل مال اليتيم؟ وهل يسعك أن تجد شخصاً يتناول قطعة من النار ويضعها في فمه؟! ثم قال في اطار حث الآخرين على التزود من الدنيا للآخرة:

«عِبَادَ اللَّهِ، اللَّهُ اللَّهُ فِي أعزِّ الْأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ»

. قطعاً المراد من (أعز الأنفس) في هذه العبارة نفس الإنسان، ذلك لأن حب الذات مسألة طبيعية لدى الإنسان وإن تعلق بشخص أو شيء ففي ظل غريزة حب الذات (بغض النظر عن أولئك الذين تجاوزوا ذواتهم ولم يعودوا يروا سوى الله وذاته المطلقة ولا يرومون سواه. على كل حال، فالمراد: إن لم ترحموا أحداً فعلى الأقل ارحموا أنفسكم وإن غفلتم عن مصالح الآخرين فلا تغفلوا عن مصالحكم، فهذا الأمر مودع في فطرتكم.

ثم حذر قائلاً:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقِهِ. فَشِقْوَةٌ لَّازِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ!»

. وخاض أخيراً في بيان أسباب نيل السعادة الدائمة واجتناب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١١٩

الشقوة الدائمة فقال:

«فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ الْفَنَاءِ لِأَيَّامِ الْبَقَاءِ. قَدْ دَلَّلْتُمْ عَلَى الزَّادِ، وَأَمَرْتُمْ بِالظُّعْنِ [١٦٧]، وَحَثَّيْتُمْ [١٦٨] عَلَى الْمَسِيرِ»

. جدير ذكره أن المراد من الزاد: التقوى والعمل الصالح الذي أشار إليه القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى [١٦٩]. والعبارة (أمرتم بالظعن ...) يمكن أن تكون إشارة إلى أمر تشريعي ورد في الآيات المرتبطة بفناء الدنيا وأن كل شخص سيدوق في خاتمة المطاف طعم الموت على ضوء الدلالة الالتزامية، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أمر تكويني؛ لأن الله خلق أسباب الحركة بحيث يسرع الطفل نحو الشباب والشباب إلى الكهولة وحث الخطى نحو دار البقاء، وقد أصدر أمره ببحث الحركة نحو أسباب العفو والمغفرة: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» [١٧٠]. كما ورد في الخطبة ٣١ من نهج البلاغة في وصية الإمام عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام: «يابني من كانت مطيته الليل والنهار، فإنه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان مقيماً وادعاً».

ثم واصل كلامه بتشبيه بليغ فقال:

«فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكِبٍ [١٧١] وَقُوفٍ، لَا يَدْرُونَ مَتَى

يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ»

. لعل هنالك من يتساءل كيف التوفيق بين عبارة الإمام عليه السلام وقوله (أمرتم بالظعن) التي اردفها بالعبارة (لا يدرون متى يؤمرون بالسير)؟ وإن أدنى تأمل يفيد أن العبارة الأولى إشارة إلى الحركة في الدنيا نحو الكمال والمسارعة في أعداد عناصر العفو والمغفرة، أما العبارة الثانية فهي تشير الحركة من الدنيا إلى الآخرة.

على كل حال فقد ورد هذا التشبيه في سائر مواضع نهج البلاغة ومنها الكلمات القصار حيث قال عليه السلام:

«أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكِبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ» [١٧٢]

وهذا النوم هو الغفلة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٠

التي يعيشها أغلب الناس. ثم قال في توضيح هذه الحقيقة:

«أَلَا فَمَا يَصْنَعُ بِالْدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلْآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسَلَّبُهُ، وَتَبَقَى عَلَيْهِ تَبَعْتُهُ [١٧٣]

وَحِسَابُهُ!»

. إن كانت دارنا الأصلية هي دار الآخرة والدار الدنيا ليست سوى ممر فما معنى تعلقنا بهذه الدنيا؟ وما معنى كل هذا السعي والجهد من أجل جنى الأموال ولو عن طريق مزج الحلال بالحرام وهي ليست سوى وديعة لدينا وإن يوماً سنفارقها ونحاسب عليها؟ ثم استعان الإمام عليه السلام في اطار حثه الآخرين على الخير والإحسان واجتناب الشر والسوء بمنطقتين مؤثرتين؛ الأول الذي قال فيه: «عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الْخَيْرِ مَتْرُكٌ، وَلَا فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ» . إشارة إلى أن من أمر ونهى ووعد بالثواب وتوعد بالعقاب ليس فرداً عادياً يمكن الريبة في كلامه. والثاني الذي قال فيه:

«عِبَادَ اللَّهِ، اخْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزَّلْزَالُ وَتَشِيبُ [١٧٤] فِيهِ الْأَطْفَالُ»

. ففي ذلك اليوم ستخضع جميع الأعمال مهما كانت صغيرة لدراسة دقيقة، كما قال القرآن الكريم: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صِيحْرِهِ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» [١٧٥]، والمراد من كثرة الزلازل في ذلك اليوم زلزلة الافكار وارتعاد القلوب من هول المحشر وخوف نتيجة الأعمال. صحيح أن نهاية العالم ستشهد زلزلة بمعناها الحقيقي والتي تقلب كل شيء رأساً على عقب، وما ورد في العبارة إشارة إلى الزلزلة الفكرية والاضطراب الذي يعانیه الإنسان في ساحة الحشر. والعبارة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢١

«تشيب فيه الأطفال»

كناية عن عمق وشدة ذلك المشهد وهو التعبير السائد لدينا في المكالمات اليومية حين نقول: إن تلك الحادثة مثلاً تشيب الإنسان، كما ورد في القرآن الكريم: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا» [١٧٦] نعم، ذهب البعض إلى أن شيب الأطفال هنالك بالمعنى الحقيقي لا- الكنائي، إلّا أنّ هذا الاحتمال بعيد، فليس هنالك ما يشير إلى أن الطفل الذي يتلقى العذاب يشيب بفعل هول العذاب.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٣

القسم الثالث

اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعَيْوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحِفَاطَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لَاتَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا يَكْنُكُمُ مِنْهُمْ بَابُ ذُورِتَاجٍ وَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْعُدُ لَأَحْقَابِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنْرِلَ وَحِيدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَا لَهُ مِنْ بَيْتٍ وَحِيدَةٍ، وَمَنْزِلٍ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدٍ غُرْبَةٍ! وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ زَاخَتْ عَنْكُمْ الْأَبْطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعِلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَعَطُّوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ.

الشرح والتفسير: حضور المحكمة الإلهية

أشار الإمام عليه السلام اتماماً لمواظبه السابقة إلى ثلاثة أمور مهمة؛ الأول، بشأن حفظه الأعمال، والثاني، الموت والقبر، والثالث، الحساب يوم القيامة والتي من شأنها تنبيه الغافل ويقظته من سبات الغفلة، فقال في الأمر الأول: «اعْلَمُوا، عِبَادَ اللَّهِ، أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصِيداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعَيْوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحِفَاطَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ». ثم وضع طبيعته هؤلاء المراقبين فقال:

«لَا تَشْتُرْكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةٌ لَيْلٍ ذَاكِ [١٧٧]، وَلَا

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٤

يُكِنُّكُمْ [١٧٨] مِنْهُمْ بَابٌ ذُورِتَاجٍ [١٧٩]»

. العبارة

«أَنَّ عَلَيَكُمْ رَصَدًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ»

إشارة إلى شهادة أعضاء بدن الإنسان وجوارحه وجلده يوم القيامة، كما عبر عن ذلك القرآن الكريم: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [١٨٠] ثم قال:

«شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِيُجَازِدَهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ» [١٨١]. بالنظر أن معنى «الرصد» الرقيب، و «عيون» بمعنى الاطلاع فإن المفردتين من قبيل الإجمال والتفصيل؛ أى أن مراقبى أعمال الإنسان فى الدرجة الأولى أعضاؤه وجوارحه التى تنطق يوم القيامة وتشهد على جميع أعماله. أما ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من أن «الرصد» يعنى وجدان الإنسان الذى يلومه على الأعمال السيئة، فليس بصحيح؛ لأن الوجدان قاضى الباطن لا المراقب والشاهد الكامن فى مفهوم الرصد. وهل هذه الشهادة بلسان القول والنطق المتعارف أم بلسان الحال وشهادة الآثار؟ الاحتمالان واردان؛ لأن أى عمل يقوم به الإنسان تنعكس آثاره على جميع أعضائه وستظهر هذه الآثار يوم القيامة لتفصح عن جميع أعماله التى أتى بها طيلة عمره، كما يمكن تبديلها إلى أمواج صوتية يسمعها الجميع. والعبارة «وَحَفَاطَ صِدْقٍ»

إشارة إلى الملائكة الموكلة بضبط أعمال الإنسان، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ» [١٨٢] وهنا يرد هذا السؤال المعروف: ما حاجة الله إلى هؤلاء الملائكة رغم علمه الذى أحاط بكل شىء وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد؟ وتتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلى هذه النقطة

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ١٢٥

وهى أن الإنسان كائن مادى وليس له من معرفة عميقة بعالم ماوراء المادة ولا يشعر بقرب الله منه؛ إلا أنه يدرك هذا المطلب تماماً حين يقال له إن أعضاء بدنك ستشهد عليك يوم القيامة، كما يعبر هذا الموضوع أهمية كبرى إن قيل له: عليك ملكان يكتبان كل أعمالك، وهذا بدوره يمثل عنصراً مهماً فى ردعه عن ارتكاب الذنوب والمعاصى. فالله سبحانه وتعالى أراد بكل وسيلة أن يصد عباده عن الذنوب، وشهادة الأعضاء والملائكة واحدة من هذه الوسائل.

الغريب فى الأمر أن هؤلاء الحفظة يحصون على الإنسان حتى عدد أنفاسه ولا يحتاجون فى كتابتهم لأعمالنا لأدنى سراج ومصباح، فهم يكتبون حتى فى عتمة الظلمة المطلقة، ولكن ما كيفية هذه الكتابة؟ قطعاً ليس ذلك من قبيل كتابتنا وإن لم نحط علماً بتفاصيل ذلك.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه عن الموت والقبر الذى يهز الغافل بعنف فقال:

«وَإِنَّ غَدًا مِنَ الْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ الْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ الْعُدَّ لَأَحِقًّا بِهِ»

. المراد من

«الغد»

قرب نهاية العمر والموت الذى إن غفل عنه الإنسان يهوى فى مستنقع الغفلة فإن رآه قريباً راقب أعماله وقام بوظيفته وتاب من ذنوبه. حقاً أن نهاية العمر ليست بعيدة مهما عمّر الإنسان، ذلك أن الأشهر والسنين تمرّ بسرعة إلى جانب الحوادث غير المتوقعة والأمراض التى تهجم على الإنسان فجأة وتقضى عليه. وذهب بعض الشراح لنهج البلاغة إلى أن المراد ب

«الغد»

في العبارة المذكورة غد القيامة، وهذا المعنى وإن كان قريباً إلا أن المعنى الأول وبالاستناد إلى العبارات القادمة التي تحدثت عن القبر أنسب.

ثم ذكر الجميع بوحشه القبر فقال:

«فَكَأَنَّ كُلَّ امْرِئٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْأَرْضِ مَنَزِلَ وَحَدَّتِهِ، وَمَخَطَ [١٨٣] حُفْرَتِهِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ بَيْتِ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلٍ وَحَشَةٍ، وَمُفْرَدٍ غُرْبَةٍ!».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٦

أجل، فالإنسان الذي لا يتحمل الوحدة لساعة ويعيش دائماً بين صحبه وقرابته وأهله، لا يكاد يغمض عينيه عن هذه الدنيا حتى يفارق الجميع وإلى الأبد فينزل حفرة مظلمة ومرعبة في وحدة وغربة مطلقة، فيالها من غربه أليمة صعبة، اللهم إلا أن يظفر بأصحاب جدد من أعماله الصالحة فتجعل الملائكة قبره روضة من رياض الجنة، لا حفرة من حفر النار.

قال الإمام الصادق عليه السلام

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ١٢٦

«إِنَّ لِلْقَبْرِ كَلَاماً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقُولُ: أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ، أَنَا بَيْتُ الْوَحْشَةِ، أَنَا بَيْتُ الدُّوْدِ، أَنَا الْقَبْرِ، أَنَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ» [١٨٤].

وأخيراً ما أن يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الموت والقبر حتى يتجه صوب القيامة ومحكمة العدل الإلهي ليحذر الجميع قائلاً:

«وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ، قَدْ رَاحَتْ عَنْكُمْ الْأَبَاطِيلُ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْكُمْ الْعُلَلُ، وَاسْتَحَقَّتْ بِكُمْ الْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ مَصَادِرَهَا» .
«وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ» .

، في العبارة، إشارة إلى صيحة القيامة التي توظف جميع الموتى وتنشرهم من قبورهم وتدفعهم إلى الحساب. يستفاد من الآيات والروايات أن العالم ينتهي بصيحة عظيمة يقال لها نفخة الصور الأولى ثم تتبعها صيحة عظيمة أخرى تدعى نفخة الصور الثانية، وما ورد في الخطبة بقرينه ما بعدها من عبارات، إشارة إلى النفخة الثانية. والتعبير بالساعة، إشارة إلى القيامة، لأن الساعة تعني في الأصل، برهه من الزمان أو لحظة عابرة، ولما كان قيام الساعة سريعاً والحساب أيضاً سريعاً لاستناده للسرعة الحساب فقد عبر عن القيامة بالساعة.

«لِفَضْلِ الْقَضَاءِ»

، القضاء الذي يفصل الحق من الباطل وزوال الأباطيل واضمحلال العلل، إشارة إلى خلو القيامة من الكذب والاعذار الواهية والحجج الجوفاء وكل ما هنالك هو الحق والحقيقة. والعبارة

«وَصَدَرَتْ بِكُمْ الْأُمُورُ»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٧

مَصَادِرَهَا،

إشارة إلى أن كل شخص يرى نتيجة عمله وكل يحل في مكانه الأصلي هنالك. والإمام عليه السلام يرى القيامة قريبة إلى الحد الذي جعله يقول بأن كل شيء كأنه قد وقع ونفخ في الصور وقامت القيامة وخرج الموتى للحشر من قبورهم ونصبت موازين العدل وحصلت نتيجة الأعمال، وكل ذلك يشير إلى مدى قصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة.

وقد عبر القرآن الكريم عن القيامة فقال:

«يَوْمٌ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» [١٨٥]

كما عبر عنها بيوم الفصل الذى يفصل الحق عن الباطل وعبر عنها بسرعة الحساب، وقال فى موضع آخر:

«وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ» [١٨٦]

و

«يَوْمٌ هُمْ

بَارِزُونَ» [١٨٧]

و

«يَوْمٌ تُبْلَى السَّرَائِرُ» [١٨٨].

واختتمها بالقول:

«فَاتَّعَظُوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّذْرِ»

و.

«عبر»

جمع عبرة، إشارة إلى الحوادث الجديرة بالاعتبار والتي عادة ما يحفل بها تاريخ الإنسان وسيشهدا فى حياته، و

«غير»

جمع غيره بمعنى التغيير، إشارة تغيير النعم ونزول البلاء وتقلب الدهر، و

«نذر»

جمع نذير، والتي تشمل الأنبياء والأوصياء والآيات والروايات وحوادث الدهر.

تأملان

١. الشهود على الأعمال

رغم أن الله شاهد وناظر لأعمالنا فى كل حال وزمان ومكان وعلمه الذى أحاط بكل شىء الكافى فى عدم شرود أدنى صغيرة

وكبيرة، إلا أنه وللمبالغة فى الحجة ولفت أنظار المحسنين والمسيئين إلى مراقبة أعمالهم، فقد وكل بنا إضافة لذلك،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٨

العديد من الشهود ومنها:

١. أعضاء البدن وجوارحه حتى الجلود على ضوء ما ورد فى الآيات. والغريب فى الأمر اتضح هذه الحقيقة بعد طرح قضية الإنسان

الشبه من أن كل ذرة من ذرات بدن الإنسان استبطنت إنساناً كاملاً، والأغرب، الاستفادة من جلد الإنسان فى هذا الموضوع.

٢.

«الحفظة»

و

«الكتاب»

أى الملائكة الموكلة بثبت الأعمال.

٣. الأرض التى نعيش عليها هى الشاهد الآخر، جاء فى القرآن: «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» [١٨٩].

٤. الزمان الذي نعيش فيه من الشهود علينا يوم القيامة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يَمُرُّ عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا قَالَ لَهُ ذَلِكَ الْيَوْمُ: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا يَوْمٌ جَدِيدٌ وَأَنَا عَلَيْكَ شَهِيدٌ فَقُلْ فِي خَيْرٍ وَأَعْمَلْ فِي خَيْرٍ أَشْهَدُ لَكَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [١٩٠].

٥. شهادة الأنبياء أعظم من كل ذلك، لنص القرآن الكريم في شهادة كل نبي على أعمال أمته يوم القيامة وشهادة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على الجميع: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [١٩١] هكذا يخضع الإنسان طيلة عمره لهؤلاء الشهود ومن الجهات الست، وحق لمن آمن بحقيقته هؤلاء الشهود أن يراقب أعماله ويتحفظ عن الأخطاء.

٢. ثلاث عبارات عميقة المعنى

العبارة

«فَاتَعَطُّوا بِالْعَبْرِ، وَاعْتَبِرُوا بِالْغَيْرِ، وَانْتَفِعُوا بِالنُّدْرِ»

، تنطوي على ثلاثة مفاهيم تكفي لايقاظ الإنسان من نوم الغفلة حيث تشير كل واحدة إلى حقيقة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٢٩

مستقلة. فالعبارة الأولى ترى كفاية العبر في الموعظة، وتشمل هذه المفردة كافة الحوادث الخطيرة في الماضي والحاضر، بل حتى الحوادث الطبيعية. من قبيل الذهاب والإياب والليل والنهار يمكنها أن تكون عبرة لمن اعتبر: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ» [١٩٢]. والعبارة الثانية تشير إلى الوعظ في التغييرات التي تطال حياة الإنسان والعالم. فأعزة الأمس أذلة اليوم، وأذلة الأمس أعزة اليوم، ما أسرع ما يحكم الحاكم ويعتلى المحكوم سدة الحكم، والشباب آيل الكهولة والعجز، والطفل الضعيف سرعان ما يشب ويهرم، ما كان غضاً بالأمس أصبح اليوم تحت التراب في المقابر المهجورة، وهذا الضجيج المرتفع اليوم سيخمد بعد سنوات، يالها من دروس وعبر!؟ العبارة الثالثة أن السن الأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء والآيات كلها مشرعة بالتحذير وهي تنادي الحذر الحذر والعمل والعمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣١

الخطبة ١٥٨

إشارة

يُنَبِّئُ فِيهَا عَلَى فَضْلِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَفَضْلِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ حَالِ دَوْلِهِ بَنَى أُمَّيَّةً [١٩٣]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من قسمين: يؤكد الإمام عليه السلام في القسم الأول على رسم صورة عن عصر البعثة وأهميته القرآن وعظمته وأنه الدواء لكل داء والعلم المتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل. أما في القسم الثاني فيشير إلى فتنة بنى أمية ومدى ظلمهم وطغيانهم وسعة حجمه، إلا أنه يواصل كلامه بأن هذه الحكومة لن تدوم طويلاً وستولى إلى غير رجعة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٣

القسم الأول

أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ؛ فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ. ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ: أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح والتفسير: الكتاب الذي استوعب كل شيء

أشار الإمام عليه السلام في مطلع الخطبة إلى الوضع على عهد الجاهلية والذي تزامن مع بعثته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ [١٩٤] مِنَ الْأُمَمِ، وَانْتِقَاضِ مِنَ الْمُبْرَمِ [١٩٥]»

. ومضمون هذه العبارات من قبيل العلة والمعلول.

فالفترة التي توسطت عصر ظهور الأنبياء السابقين وخاتمهم كان سبب نوم الغفلة الذي غطت فيه الأمم وهذه الغفلة أدت إلى ذلك الانتقاض المبرم، بمعنى تقطع وشائج الحقائق ونظام الحياة البشرية التي وقعت في وحل المعصية والظلمة. ثم تطرق عليه السلام إلى بعثته النبي الخاتم والكتاب الذي جاء به مصداقاً لما بين يديه من الكتب السماوية:

«فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ الْمُقْتَدَى بِهِ»

. فقد قام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بمهمتين؛ إنه بين للناس المعارف والأحكام التي تنسجم مع الأصول الكلية لمعارف وأحكام من مضي من الأنبياء، والأخرى حملة لمشعل الهداية الذي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٤

أضاء ظلمات الجهل والضلال. ثم خاض عليه السلام في بيان هذا النور المتمثل بالقرآن:

«ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ»

. لقد شبهت أغلب الآيات القرآن بالنور، ومنها ما ورد في سورة المائدة: «قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ» [١٩٦]، وسورة الاعراف: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [١٩٧]، وكما يضيئ النور أجواء الحياة ويحول دون تعثر الإنسان في الظلمة والضلال وينمي النباتات ويرعى جميع الكائنات الحية، فللقرآن مثل هذه المهام في حياة الإنسان المادية والمعنوية.

المراد من

«بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ»

وبالنظر إلى أن بين يديه تعنى هنا ما قبل ليس تصديق التوراة والانجيل الذين طالهما التحريف، بل هي إشارة إلى تلك الكتب السماوية التي نزلت على موسى وعيسى عليهما السلام كما لا- يعني هذا التصديق أن الإسلام يتفق مع هاتين الديانتين في جميع التفاصيل، بل المراد الأصول الكلية التي تشكل المحور المشترك لكافة الأديان السماوية، وإن طبقها الإسلام على مستوى أرفع وأوسع.

والعبارة

«وَلَنْ يَنْطِقَ»

لا تعنى أن القرآن لا يفتح على أي شخص (سوى الأئمة المعصومين عليهم السلام)، وذلك لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ومنطق واضح جلي وقد أمر الجميع بالتدبر فيه والاصغاء إلى مواعظه ليعيشوا الرجاء من خلال آيات البشارة والخوف من خلال آيات الوعيد والانداز. وعليه فالمراد من

«وَلَنْ يَنْطِقَ»

فيما يتعلق ببطون القرآن والأسرار الكامنة فيها، فهذه البطون من اختصاص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين عليهم السلام.

ومن هنا قال:

«أَلَا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»

. فالعبارة

«عِلْمَ مَا يَأْتِي»

كما أوردها بعض شراح نهج البلاغة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٥

إشارة إلى المسائل المرتبطة بالآخرة من قبيل الحساب والكتاب والصراف والجنّة والنار، ولكن يبدو أنها إشارة إلى الحوادث المستقبلية لهذا العالم والكامنة في بطون هذا القرآن والتي يعلم بها المعصومين عليهم السلام بقرينة العبارة القادمة «وَالْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي»

، التي تشير إلى الأمم السابقة وشرح سيرتها، كما قيل: هي إشارة إلى بداية الخليقة والعصور الأولى لخلق هذا العالم. والعبارة «وَدَوَاءَ دَائِكُمْ»

إشارة إلى التعاليم والمفاهيم التي تعالج كافة أنواع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية «وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [١٩٨].

والعبارة الأخيرة:

«وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ»

، إشارة إلى جميع القوانين التي تنظم شؤون المجتمع البشري وتزيل العوائق وتنشر الأمن والاستقرار وبسط العدل والقسط في ربوع البلاد.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٧

القسم الثاني

ومنها: فَعِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا بَقِيَ بَيْتٌ مِدْرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً. فَيَوْمَئِذٍ لَأَيُّقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَازِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيِّئْتُمْ اللَّهَ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا بِمَا كَلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ، وَمَسَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الْأَثَامِ. فَأُقْسِمُ، ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنَحْمَنَهَا أُمِّيَّةً مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفِظُ النُّخَامَةَ، ثُمَّ لَاتُدْوِقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!

الشرح والتفسير: حكومة الظلم ودولة الطغيان

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى فتنه بنى أمية الشاملة والتي تلقى بظلامها على جميع المسلمين دون أن تغادر مسلماً إلّا وجرعته غصص ظلمها وطغيانها، إلى جانب تعذر الفرار من تلك الفتنه، وهي ليست سوى نتيجة طبيعية لأعمال الناس، فقال:

«فَعِنْدَ ذَلِكَ لَأَيُّقَى بَيْتٌ مِدْرٍ [١٩٩] وَلَا وَبَرٍ [٢٠٠] إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظَّلْمَةُ تَرْحَةً [٢٠١]، وَأَوْلَجُوا فِيهِ

نِقْمَةً»

يمكن أن يرد الهم والغم بيتاً دون أن يرد الظلم، أما ظلم بنى أمية فقد بلغ درجة بحيث عمّ الهم والغم كل مكان، إلى جانب البلاء

والمصائب، وذلك لأنّ ولاية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٨

بنى أمية كانوا جميعاً من بطانتهم الذين سادتهم روح الظلم والانتقام بغية الاحتفاظ بسلطتهم لأقصى مدّة ممكنة.
ثم قال عليه السلام:

«فِيَوْمِئِذٍ لَا يَنْتَقِي لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»

ونفهم من هذه العبارة أنّها تخاطب أولئك الذين صمتوا إزاء الظلم والطغيان بعد أن قصرُوا في أداء مسؤولياتهم، والدليل على ذلك العبارة

«أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ»

؟ وجاء مثل هذا المعنى في الخطبة ١٩٢ التي قال فيها:

«وَإِنَّكُمْ إِنْ لَجَأْتُمْ إِلَى غَيْرِهِ حَارَبَكُمْ أَهْلُ الْكُفْرِ ثُمَّ لَجِبْرَائِيلُ وَلَا مِيكَائِيلُ وَلَا مُهَاجِرُونَ وَلَا أَنْصَارٌ يَنْصُرُونَكُمْ»

وليس من الصواب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من أنّ المخاطب بالعبارة المذكورة هم الحكام الظلمة والذي يتابع فيه كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم السيئة:

«وَسَيَبْنِتُهُمُ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّمَا بِمَا كَلَّلِ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ [٢٠٢]، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ [٢٠٣] وَالْمَقْرِ [٢٠٤]، وَلِبَاسِ شِعَارِ الْخَوْفِ، وَدِنَارِ السَّيْفِ.

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا [٢٠٥] الْخَطِيئَاتِ وَرَوَامِلُ [٢٠٦] الْأَثَامِ»

. إشارة إلى أنّ الله سيجرعهم كل بلاء يصوبه على الناس وسيذيقهم مرارة الذلّة إزاء كل لذة حصلوا عليها من مناصبهم، وقد شهروا سيوفهم على رقاب الناس، وسيسلط الله عليهم من يضع السيف في أعناقهم. وقد ثبت وقوع كل هذه الأحداث كما أخبر عنها الإمام عليه السلام وقد انتقم الله من بنى أمية شر انتقام بحيث دبّ الرعب والهلع في صفوف من تبقى منهم حتى فروا إلى المناطق النائية ولم يخلفوا لأنفسهم سوى الفضيحة والعار واللعنة الأبدية.

والعبارة:

وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ»

تشبيه لطيف ورائع. فقد شبههم بالحيوانات

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٣٩

حيث باءوا بخطايا الناس إثر جهلهم وافتقارهم للعقل والشعور، على غرار ما وصف به القرآن الكريم تلك الطائفة من الكفار: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتُرُونَ» [٢٠٧].

ثم اختتم الخطبة بنبوءة حاسمة أخرى بشأن مصير بنى أمية فقال:

«فَأَقْسِمُ، ثُمَّ أَقْسِمُ، لَتَنْحَمَنَّهَا [٢٠٨] أُمِيَّةٌ مِنْ بَعْدِي كَمَا تَلْفُظُ النَّخَامَةُ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعَمُ بِطَعْمِهَا

أَبَدًا مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ!»

. فقد أورد الإمام عليه السلام عبارة عجيبة بشأن دولة بنى أمية على أنّهم شابوا الحكومة الإسلامية بالارجاس والأدناس والقذارة والظلم والفساد فأصبحت كالمواد المخاطية التي يدفعها الصدر والرأس، بحيث سينتهي الأمر إلى ما لا يطيقونه أنفسهم على غرار ذلك الذي يهيم بطرح تلك المواد، فسيفقدون تلك السلطة ولا يظفرون سوى بلعنات الناس.

١. وظيفة الحاكم والرعية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى مسألتين مهمتين تتعلقان بحوادث التاريخ المريرة؛ الأولى وظيفة ومسؤولية الحاكم، والأخرى مسؤولية الرعية.

فالإمام عليه السلام لا يقتصر بإلقاء المسؤولية على الحاكم في ممارساته الظالمة، بل يحمل الأمة المستسلمة والراضية بهذا الظلم جزءاً من تلك المسؤولية. فالحكام ومرزقتهم إنما يمثلون فئة معينة، ولو مارست الأمة وظيفتها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم الرضا والسكوت إزاء الظلم لما سهل على مثل هؤلاء الأفراد الأخذ بزمام الأمور ليعيشوا في الأرض الفساد ويهلكوا البلاد والعباد. فالإمام عليه السلام يحمل الأمة وأعمالها ما صب عليها من البلاء على أيدي حكومة بنى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٠

أمية الظالمة، فأنتم الذين أسهمت في توطيد دعائم هذه الحكومة، وأنتم الذين سلمتم مقاليد الدولة لغير أصحابها، وأنتم الذين تصمتون اليوم إزاء هذه الجرائم، ولعل هذا من الألفاظ الإلهية بغية العودة إلى أنفسكم وسلوك طريق الحق «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [٢٠٩]. طبعاً تحميل الأمة مسؤولية تجاوز الحكام الظلمة لا يعنى سلب تلك المسؤولية عن أولئك الحكام، ومن هنا تطرق الإمام عليه السلام العذاب الشديد الذي ينتظرهم، فيبين بعبارة قصيرة عميقة المعنى مصيرهم الأسود ونهايتهم الأليمة.

٢. فاجعة نهاية دولة بنى أمية

نعلم أن دولة بنى أمية استغرقت أكثر من ثمانين سنة لتحكم من قبل ١٤ حاكماً من حكام بنى أمية وقد حكم البعض منهم لأقل من شهرين، إلا أن التاريخ لم يشهد مثيلاً لظلمهم الذي طال الناس عامة ولا سيما أهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وبنى هاشم. وبالطبع فإن بنى أمية لم يشهدوا الأمان والراحة طيلة مدة حكمهم حيث كانت تتوالى عليهم الثورات والنهضات، فكانوا يقمعونها بقوة الحديد والنار وسفك المزيد من الدماء، حتى قامت عليهم الأمة بأسرها دفاعاً عن آل محمد إثر الشعار الذي رفع آنذاك «الرضا لآل محمد» [٢١٠]

والذي لم تكن نتيجته سوى مجى بنى العباس. أصدر الخليفة العباسي أوامره بقتل جميع بنى أمية فوقع فيهم القتل بما لا يحصى، حتى نبشوا القبور وأحرقوا من كان فيها منهم (من أراد المزيد فليراجع آخر الخطبة ١٠٦ الجزء الرابع والخطبة ٩٣ الجزء الأول والجزء الثالث). وذكر المرحوم العلامة التستري في الجزء السادس من شرحه لنهج البلاغة أنه حين قتل مروان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤١

آخر خلفاء بنى أمية مروان، هجم عامر بن إسماعيل على داره وكان فيها ونسائه.

فغلقوا الأبواب وتعالصت الصرخات. فأمسك عامر برجله وسأله عن عائله مروان.

قال أمرنى مروان إن قتلت فاقتل جميع بناتى (حتى لا يقعن فى أيدي الآخرين) لكنى لم أفعل. وهنا احضروا له اثنتين من بناته، فأمر بوضع رأس مروان فى حجر بنته البكر وقال لها: معذرة، هذا ما فعلتموه برأس يحيى بن زيد حين وضعتم رأسه فى حجر أمه، وكنتم أول من فعل ذلك والبادىء أظلم، ثم أمر بقتلهم جميعاً [٢١١].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٣

إشارة

يُبَيِّنُ فِيهَا حُسْنَ مُعَامَلَتِهِ لِرُعِيَّتِهِ [٢١٢]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلى قضية لطيفة في أنه عاملهم قدر المستطاع بالرفق والاحسان على ما بدر منهم من حسن التصرف والسلوك رغم قلته وكثرة إساءة التصرف فعفى عن كثير ظلمهم وما يكونون من العداوة والبغضاء.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٥

وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جَوَارِكُمْ، وَأَحْطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ. وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّ الذُّلِّ، وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْرًا مِنِّي لِلِّبِ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا عَمَّا أَدْرَكَهُ الْبَصْرُ، وَشَهْدَهُ الْبَدَنُ، مِنْ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ.

الشرح والتفسير

الدعم المطلق

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة القصيرة إلى أياديه الكريمة وخدماته للمسلمين والتابعين لحكومته وأجزها في أربع عبارات فقال:

«وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جَوَارِكُمْ»

المراد من حسن الجوار أن يعتمد الإنسان حالة التعايش السلمى المقرون بالأدب والاحترام وحسن التصرف تجاه الوسط الآخر من الأصدقاء وتحمل مساوئهم بحيث بشعرون بالارتياح لتواجده بينهم. وسيرة الإمام عليه السلام لاسيما إبان عهد حكومته تفيد أنه كان يعامل الآخرين بالعطف والمحبة، حتى كان يتفقد اليتامى والأرامل ليلاً ويحمل لهم الطعام ويلبى حاجاتهم، كما كان يداعب الأطفال ويسهر على راحتهم، ويواسى المهمومين ويدارى المخالفين ويسعى جهده للترويح عن الموالين والمحبين. على العكس تماماً من عهد حكومة عثمان الذى بالغ وولاته فى إيذاء الناس، ولم يسلم منهم حتى كبار الصحابة كأبى ذر وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود، فكان أن نفى الصحابى الجليل أبا ذر إلى تلك الأرض القاحلة الجرداء حتى مات فيها، كما اندفعت بطانته لتتال من عمار بذلك الأسلوب الهمجى البشع لمجرد اعتراضه على بعض الممارسات، فكسرت أسنانه وأشبعوه ركلاً ورفساً، كما شددوا على عبد الله بن مسعود حتى قيل إنه فارق الحياة إثر التعذيب. وإن ساوى على عليه السلام

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٦

بين عقيل وسائر المسلمين فى العطاء من بيت المال، فإن قرابة عثمان تهافتت على بيت المال حتى عدت العراق بستان قريش وبنى أمية [٢١٣].

ثم قال:

«وَأَحْطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ»

. أى أنى حفظتكم من وساوس شياطين الجن والانس فى مسيرة طاعة الله وعبوديته، ودفعت عنكم شر الأعداء. وأشار إلى دوره فى عتقهم من قيود الذل والظلم والأسر فقال:

«وَأَعْتَقْتُكُمْ مِنْ رَبِّ الذُّلِّ، [٢١٤]

وَحَلَقَ [٢١٥] الضَّيْمِ [٢١٦]»

. وذلك لأن عهد عثمان وحكومة بنى أمية وبنى مروان وسيطرتهم على مقدرات المسلمين شهدت اتساع رقعة الظلم والجور الذى وصل إلى كل مكان، ولم يكن هنالك من اعتبار سوى لأولئك الأفراد المتعاونين مع السلطة والمستبدين؛ وقد أنقذهم أمير المؤمنين على عليه السلام من هذه الحكومة القبلية وحررهم من أيدي شرار بنى أمية وبنى مروان.

ثم اختتم خطبته بالإشارة إلى دوافعه من تلك الأعمال الحسنه تجاههم والتي لا تنبعث من اقرارهم بحقه وفضله بل:

«شُكْرًا مِّنِّي لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ وَإِطْرَاقًا [٢١٧] عَمَّا أَدْرَكَهُ

الْبَصَرُ، وَشَهَادَةُ الْبَدَنِ، مِّنَ الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»

. فالواقع مراد الإمام عليه السلام أنكم لم تسدوا إلى معروفنا لأكافئكم عليه، بل ما أكثر الخطوب والمحن التي خلفتموها على، فإن أسديت لكم معروفًا ففى سبيل الله وأداء الوظيفة الشرعية. وعلى ضوء هذا التفسير فإن «الْمُنْكَرِ الْكَثِيرِ»

فى هذه العبارة إشارة إلى تمرد الناس وغدرهم بالإمام عليه السلام، بينما فسرها البعض من الشراح بالمنكرات بهذا الحجم على عهد الإمام عليه السلام ولم ينهاتهم ويردعهم عنها؟ فأجابوا: لم يكن بوسع الإمام عليه السلام الحيلولة دون بعض نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٧

المنكرات المتجذرة، أو لو أراد منعها لآل الأمر إلى مفسده أعظم. لكن كما ذكرنا فإن المراد من المنكر ليس ما ذهب إليه أولئك الشراح ليرد ذلك الإشكال وضروره دفعه. والمراد المساوىء التي مارسوها بحق الإمام عليه السلام والدليل على ذلك العبارة السابقة: «لِلْبِرِّ الْقَلِيلِ».

هذا، وقد ورد مثل هذا المعنى فى سائر خطب نهج البلاغه كالخطبة ٩٧ التي قال فيها:

«وَلَقَدْ أَصْبَحْتُ الْأُمِّ تَخَافُ ظُلْمَ رَعَاتِهَا وَأَصْبَحْتُ أَخَافُ ظُلْمَ رَعِيَّتِي».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٤٩

الخطبة ١٦٠

نظرة إلى الخطبة [٢١٨]

أشار الإمام عليه السلام فى هذه الخطبة إلى مطالب متعددة تشكل بعض التعاليم القيمة بشأن تهذيب النفس ومعرفة الله حيث يمكن خصرها فى خمسة أقسام:

القسم الأول: تحدث فيه عن عظمة الله وحمده والثناء عليه بذكر أسمائه وصفاته.

القسم الثانى: جرى الكلام فيه عن حقيقة الرجاء بصفته أحد أركان السعادة الإنسانية.

القسم الثالث: تطرق فيه الإمام عليه السلام إلى جانب من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وأفعاله وأقواله التي ينبغى التأسى بها من قبل الجميع إلى جانب سائر صفات الأنبياء كموسى وداود وعيس عليه السلام.

القسم الرابع: عودة إلى صفات النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وهى الصفات التي ينبغى أن يتحلى بها الجميع.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٠

القسم الخامس: أشار فيه الإمام عليه السلام إلى تواضعه واختتمه بالمثل الرائع

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يُحَمَدُ الْقَوْمُ الشُّرَى .

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥١

القسم الأول

أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.
اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي؛ حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلُّ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ. حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يَقْصِرُ دُونَكَ.
حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدْدُهُ، وَلَا يَفْنَى مَدْدُهُ، فَلَسِيْنَا نَعْلَمُ كُنْهُ عَظَمَتِكَ إِلَّا أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ «حَيُّ قَيُّومٌ، لَا تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ». لَمْ يَنْتَه إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِ كَيْفَ بَصَرٌ.

أَدْرَكَتِ الْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ «بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ». وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجِبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِيْفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَعَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصِيْرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَأَنْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سِتُورُ الْعُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمَ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرَفُهُ حَسِيرًا، وَعَقْلُهُ مَبْهُورًا، وَسَمْعُهُ وَالْهَاءُ، وَفِكْرُهُ حَائِرًا.

الشرح والتفسير: عجز العقول امام عظمة الله

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى أربعة مواضع فقال:
«أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ»

أى يستند أمره إلى الحكمة رغم قاطعيته على العكس من المستبدين والمقتدرين الذين يصدرون الأوامر الصارمة دون أدنى حكمة. ولمفردة (أمره) في

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٢

العبارة معنى واسع يشمل الأوامر التكوينية: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [٢١٩] والأوامر التشريعية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى [٢٢٠].

والحكمة واضحة في كلا الأمرين تتضمن مصالح العباد والبلاد.

ثم قال:

«وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ»

يمكن أن يرضى الناس عن فرد ويأمنوه، إلّا أنّ أمانهم مشوب بالخوف والرهبه، بينما لا- ينطوي أمان الله سوى على الرحمة، كما تحدث في العبارة التالية عن قضاء الله، فقال:

«يَقْضِي بِعِلْمٍ»

خلافاً لقضاء الإنسان الذي يمتزج عادة الجهل وعدم العلم.

ثم قال في المقطع الرابع:

«وَيَعْفُو بِحِلْمٍ»

. نعم، عفوه بحلم ومن يعفو عنه لا يؤاخذه ولا يعاقبه، بخلاف البعض الذين يسعون لعقاب الآخرين حين يعفون عنهم لإطفاء غضبهم، كما هنالك من يعفو عن الآخرين لطفاً ورحمة. ثم أتجه الإمام عليه السلام صوب حمد الله والثناء عليه وقد تكرر هذا الحمد ثمان مرات في هذا الجانب من الخطبة حيث أورد صفة خاصة لكل مرحلة، ثم خاض في هذا الحمد والثناء بأسلوب بليغ وفصيح فقال:

«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي»

أى أحمدك وأثنى عليك في كل الاحوال، ذلك لأن الخير والسعادة منك، فإن أفضت نعمه فتلك كرامه وإن سلبتها كان ذلك عن عناية. وإن منحت الصحة والعافية فتلك سعادة وإن أمرضت وابتليت فعن مصلحة، فلا تفعل إلا بالحكمة وكل ما يأتي منك رحمة.

ثم خاض الإمام عليه السلام في صفات هذا الحمد ليجزها في ستة أوصاف ليجعله حمداً جامعاً شاملاً من جميع النواحي فقال:

«حَمْدًا يَكُونُ أَرْضَى الْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ الْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ الْحَمْدِ عِنْدَكَ. حَمْدًا يَمَلَأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ.

حَمْدًا لَا يُحْجِبُ عَنْكَ، وَلَا يُقْصِرُ دُونَكَ. حَمْدًا لَا يَنْقَطِعُ عَدُّهُ، وَلَا يَفْنَى مَدَدُهُ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٣

فهذا الحمد جامع شامل يتجاوز الزمان والمكان والعدد والقصور والحجاب.

أضف إلى ذلك فهو حمد على العافية والبلاء والأخذ والعطاء فهو حمد على كل شيء وفي كل زمان ومكان وعلى كل حال. ثم خاض عليه السلام في صفات الجلال والجمال ليورد أوصافاً بليغة أعرب فيها عن العجز عن إدراك عظمة الله، فقال:

«فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ»

ذلك لأن الله وجود مطلق ولا-متناه من جميع الجهات، وهل من نصيب للإنسان المحدود مهما كان هذا الإنسان سوى العجز عن إدراك غير المحدود. إلا أن الإمام عليه السلام وبغية دفع التصور الخاطيء من أن هذا الكلام ربما يعنى عدم إمكان معرفة الله وتعطيل صفاته تطرق مباشرة إلى المعرفة الإجمالية من خلال بيان ثمان صفات من صفاته الثبوتية والسلبية على أننا وإن عجزنا عن إدراك كنه

ذاتك المقدسة

«إِلَّا أَنَا نَعْلَمُ أَنَّكَ

«حَتَّى قِيَوْمٍ، لَأَتَأْخُذَكَ سِنَّهُ وَلَا نَوْمٍ».

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصْرٌ. أَدْرَكَتْ الْأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتِ الْأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ

«بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ».. طبعاً وصف الله بالحياة ليس المراد منه الحياة الواقعية بمعنى العلم المطلق والقدرة التامة على جميع الوجود.

والقيوم القائم بذاته والذي يقوم به غيره، لأنه واجب الوجود، وواجب الوجود غنى عن الغير ولكل محتاج إليه. والعبارة

«لَا تَأْخُذُكَ سِنَّهُ وَلَا نَوْمٌ»

إشارة إلى أن علمه ولطفه دائم على العباد، لا أنه يلتفت أحياناً ويحف عباده بالعناية وأخرى ينام فينساهم. والعبارة

«لَمْ يَنْتَهَ إِلَيْكَ نَظْرٌ...»

إشارة إلى أن علم الإنسان لا يسعه الاحاطة بذاته المقدسة- لأن ذاته مطلقة- كما لا يسع البصر الظاهر رؤيته، لأنه ليس بجسم وليس له

جهة ولا لون، بينما يدرك سبحانه حركات العيون ويحاسب على أدنى الأعمال. والمراد من

«بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ»

- بالنظر إلى أن النواصي جمع ناصية بمعنى شعر مقدمة الرأس والأقدام جمع قدم- قدرة الله وغلبته لكل شيء، ذلك أن الإنسان متى

أخذ منه ناصيته أو قيدت رجلاه سلب القدرة تماماً.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٤

ثم خاض الإمام عليه السلام في عالم الخلق وعظمته لإثبات تلك الصفات الجمالية والجلالية من خلال عبارات عميقة وورصينة تفيد

أن العالم الذي نراه وندرکه رغم عظمته لا يشكل بالنسبة لما لا نراه وندرکه سوى قطرة إلى بحر فقال:

«وَمَا الَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْبُدُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُ لَهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا نَعْبُدُ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصِيرَتِ أَبْصَارِنَا عَنْهُ، وَانْتَهَتْ

عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سُبُورُ الْعُيُوبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَعْظَمُ»

. نعم، ما نراه اليوم رغم اتساع العلوم والمعارف بشكل مذهل بشأن عالم الخلق - لغيض من فيض ما لا نراه وندركه. والعلماء المعاصرون يتحدثون اليوم عن عوالم لا تكون كرتنا الأرضية بالنسبة لها سوى نقطة في كتاب ضخمة!! كما يتكلمون عن كرات عظيمة في هذا الكون تفوق كرتنا الأرضية بثلاثين ملياراً! وأجرام سماوية عملاقة تفوق الشمس بثلاثة مليارات مرة (وهي الأجرام التي تجذب كل شيء من حولها حتى النور الذي ينعكس حين اصطدامه ببعض الأجسام)، ومن هنا لا نراها سوى قطع سوداء متناثرة هنا وهناك في السماء، وتضم كرتنا الأرضية رغم صغرها ملايين النباتات والحيوانات التي تغوص في أعماق البحار والغابات والتي لم يتعرف عليها العلماء لحد الآن ولا يمكن رؤيتها بالعيون المجردة. أجل، فعالم الملك والملكوت على قدر من السعة بما تعجز العقول عن إدراكه وتحير الأفكار في عظمتها فضلاً عن عظمته الله في خلقه، وهذا بدوره أعظم درس في التوحيد ومعرفة الله.

ورد في الرواية عن الإمام السجاد على بن الحسين عليه السلام أنه قال:

«لَوْ اجْتَمَعَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَصِفُوا اللَّهَ بِعَظَمَتِهِ لَمْ يَقْدِرُوا» [٢٢١].

ثم قال عليه السلام مواصلاً خطبته:

«فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ [٢٢٢] خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي السَّمَاءِ سَمَائِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٥

عَلَى مَوْرِ [٢٢٣] الْمَاءِ أَرْضَكَ، رَجَعَ طَرْفُهُ [٢٢٤] حَسِيرًا [٢٢٥]، وَعَقَلَهُ مَبْهُورًا [٢٢٦]، وَسَمِعَهُ وَالِهًا، وَفِكْرَهُ حَائِرًا»

. فقد ركز الإمام عليه السلام بهذه العبارات اللطيفة العميقة المعنى على أربعة أمور بشأن عظمة الخلق؛ إقامة العرش، وبداية الخلق، وتعليق الكرات في السماء، وظهور الأرض من تحت الماء، وكل واحدة أعجب من الأخرى ثم أشار عقبها إلى آثار هذه الحيرة من قبيل تعب العين وعجزها، وبهت العقول، ووله السمع، وحيرة الفكر. أمّا بشأن تفسير العرش فهناك كلام كثير، والمستفاد من آية الكرسي أن العرش عالم فوق السماء والأرض، حيث ورد في القرآن بشأنه: «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ». جدير ذكره أن الملوك القدماء كان لهم عرشان؛ عرش صغير يطلق عليه الكرسي يستعملونه في الأيام الاعتيادية، وآخر مرتفع يسمى العرش يعتلونه في الأعياد والمناسبات الرسمية، ثم أصبح هذان التعبير أن كناية عن مختلف درجات العظمة، والقرآن يعد السماوات والأرض التي نراها كرسى الله، وعليه فعرشه أرفع من ذلك. ومن هنا ربما يكون العرش إشارة إلى عالم ما وراء الطبيعة، أي عالم الملائكة والكرويين [٢٢٧] أوعالم المادة الذي ليس لدينا من سبيل إليه.

والعبارة

«وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ»

يمكن أن يكون إشارة إلى دحو الأرض وظهور اليابسة من المياه؛ لأن المياه عمت بادىء الأمر الكرة الأرضية برمتها، ثم تخللت فجوات الأرض وشقوقها بالتدرج حتى ظهرت اليابسة. أجل لا يمتلك الإنسان سوى الحيرة والذهول أن فكر بشأن عالم الخلق وما ينطوي عليه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٦

من عجائب وغرائب وأسرار، وهي الحيرة التي تلفت نظرنا إلى عظمة الخالق وضرورة معرفته وتنزيهه عن سواه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٧

منها: يَدْعِي بَرَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُن رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ. وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَيْدُخُولٌ وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ، إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطَى الْعَبْدَ مَا لَمْ يُعْطَى الرَّبَّ! فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصِّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تَكُونَ لَاتِرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعًا؟ وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عِبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَمْ يُعْطَى رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضَمَارًا وَوَعْدًا. وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْجِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا.

الشرح والتفسير

عبيد الدنيا

بعد أن أشار الإمام عليه السلام إلى عظمة الله وحمده وأثنى عليه وتطرق إلى علامات ذاته المقدسة في عالم الوجود، خاض في وعظ الغافلين وإرشادهم وركز على مسألة من أهم المسائل وهي الخوف حيث كشف حقيقته وشرح تفاصيله وفضح الكاذبين في دعواهم إياه فقال:

«يَدْعِي بَرَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو اللَّهَ، كَذَبَ وَالْعَظِيمِ! [٢٢٨]»

. ثم خاض في ذكر الدليل فقال:

«مَا بَالُهُ لَا يَتَّبِعُن رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ؟ فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٨

رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ»

. فهذا دليل واضح فالفلاح الذي يرجو جنى ثمار مزرعته ينهمك في سقيها ودفع الآفات عنها وتوفر كافة مقدمات الانبات والأثمار، فإن ادعى مزارع الرجاء لكنه جلس في بيته ولم يقدم على أي عمل فسوف يتفق الجميع على أن رجاءه كاذب فهو يتخيل الرجاء دون واقعيته لذلك الخيال، فالرجاء الصادق المقرون بطاعة الله والسير على سبيله والفوز برضاه. قيل للإمام الصادق عليه السلام أن جماعة يرتكبون الذنوب ويرجون عفو الله ورحمته فقال:

«كَذَّبُوا لَيْسُوا بِرَاجِينَ أَنْ مَنْ رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ وَمَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ» [٢٢٩].

ثم خاض عليه السلام في تفاصيل ذلك الخوف والرجاء فقال:

«وَكُلُّ رَجَاءٍ - إِلَّا رَجَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ [٢٣٠] وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ [٢٣١] إِلَّا خَوْفَ اللَّهِ».

يبدو دليل ذلك واضحاً فليس هنالك من مبدأ للخير سوى الله وكل من قدر على الإتيان بالخير فبمعونته (لا مؤثر في الوجود إلا الله). وعليه فلا ينبغي التعلق سوى بالله والرجاء لما عنده، فالذي ينفع ويضر ويشب ويعاقب هو الله وحده وليس للآخرين من ذلك شيء كما ورد في القرآن الكريم: «وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» [٢٣٢]. صحيح أن الله ترك للعبد قدرة الإتيان بالأعمال، إلا أن ذلك لا يعنى سلب القدرة عن ذاته المقدسة. ولذلك لا بد من حصر الرجاء في تلك الذات والخوف من مخالفتها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٥٩

ثم أشار عليه السلام إلى قضية مهمة تكمن في تضاد أعمال الناس بخصوص موضوع الخوف والرجاء. فلو أمل شخص شخصاً آخر في مسألة لا بد له من الخضوع والخشوع، وإن خاف شيئاً أيضاً حسب له ألف حساب، بينما لا يبدي مثل هذه الحساسية تجاه الله تبارك وتعالى سواء على مستوى الرجاء والأمل أو الخوف وحتى في القضايا المهمة، فهناك تواضع يديه لسائر العباد يفوق نظيره لله تعالى:

«فَإِنَّهُ مَغْلُوبٌ يَرْجُو اللَّهَ فِي الْكَبِيرِ، وَيَرْجُو الْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي الْعَبْدَ مَا لَا يُعْطِي الرَّبَّ!».

ثم واصل كلامه عليه السلام بالإشارة إلى سبب ذلك فقال:

«فَمَا بَالُ اللَّهِ جَلَّ تَنَاؤُهُ يُقْصَرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ؟ أَتَخَافُ أَنْ تُكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِبًا؟ أَوْ تُكُونَ لَاتِرًا لِلرَّجَاءِ مُؤْضِعًا؟»

حقاً أن الإنسان الذي يؤمن بالله وأنه قادر على كل شيء ويؤمن برحمانيته ورحيميته وفضله وكرمه، لا يمكن أن يكون أمله بالله كاذباً، أو أن لا يراه أهلاً للأمل. لو تأملنا قليلاً هذه الأفكار لأدركنا بما لا يقبل الشك أصل الانحراف عن التوحيد ومعرفة الله. فالحقيقة أن عصاره كلام الإمام عليه السلام هي أننا نرى أن بعض الأفراد يتجهون البعض الآخر لحاجة صغيرة فيبدون لهم صنوف الاحترام والاجلال، بينما لا تشاهد منهم هذه الأمور حين يقصدون الله لحاجاتهم الكبرى، وليس هنالك من تفسير لهذه القضية سوى ضعف مثل هؤلاء الأفراد وعجزهم عن معرفة الله والوقوف على صفاته الجلالية والجمالية.

ثم انتقل الإمام عليه السلام من الرجاء إلى الخوف وقارن بين خوف الله وخوف العبد، فقال:

«وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لَا يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ الْعِبَادِ نَقْدًا، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِعْمًا [٢٣٣] وَوَعْدًا».

قطعاً أن سبب هذا الازدواج يعزى إلى ضعف الإيمان، ذلك لأن قدرة العباد هشة مقارنة بقدرة الله، فلو فرضنا جميع قدراتهم، ومضه، لكانت قدرة الله بحاراً من

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٠

النيران بالنسبة لتلك الومضة، فكيف يتعرف الإنسان على هذين الميدانين للخوف فيخاف الومضة ولا يخاف بحار النار؟! طبعاً يمكن أن يكون منشأ هذا التفاوت، الأمل المفرط بلطف الله وكرمه والذي تفرزه بالطبع الغفلة، لأنه أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة. ولما كان هذا التعامل الازدواجي تجاه الله والعباد ناشئ من ضعف المعرفة وضيق الافق، فقد خاض الإمام عليه السلام في اختتامه لهذا الكلام في هذا التعامل الازدواجي للإنسان حيال الدنيا والآخرة، فقال:

«وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا».

أجل، أن عبيد الدنيا عديمو المعرفة لا يرون سوى متاع الدنيا الزائل وحطامها الفاني ويغفلون عن نعيم الآخرة الدائم، وهذا ما يدعوهم لا يشار الدنيا على الآخرة وتقديم رضا المخلوق على الخالق. على العكس من عباد الله من أهل الورع والتقوى الذين وصفهم الإمام عليه السلام في خطبة المتقين:

«عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ».

العبارة

«فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْدًا لَهَا»

إشارة إلى حقيقة هي أن طلاب الدنيا عادة ما ينتهي بهم الأمر إلى الخروج عن عبودية الله والاشتغال بعبودية الدنيا وطاعة النفس والهوى والشيطان، وبالتالي الخروج من معسكر التوحيد وعبودية الله إلى معسكر الشرك وعبودية الدنيا. أجل عاقبة أمرهم ما آل إليه أمر عمر بن سعد حيث لم ير شيئاً سوى الدنيا متمثلة بملك الري وغفل عن عذاب جهنم ونعيم الجنة فاختر ذلك الموقف:

ألا إنما الدنيا لخيرٍ معجلٍ فما عاقلٌ باعَ الوُجُودَ بِدَيْنِ [٢٣٤]

تأمل

الخوف والرجاء

إن أقوى دافع نحو الحركة باتجاه الورع والتقوى يتمثل بالخوف من عقاب الله والرجاء لرحمته وبعفه. وليس لأحد أن يخلق في سماء الحق ويقترب من ساحة القدس الرباني دون العنصرين المذكورين. فعلى غرار التلميذ الذي يأمل تذوق طعم النجاح من خلال رجائه الموقية والحصول على الدرجات العالية إلى جانب الخوف من الرسوب في الامتحان، فيجد ويجتهد ويجند طاقاته من أجل العلوم والمعارف، يبدو لابد من هذا الرجاء والخوف في الجانب المعنوي أيضاً.

ورد في الحديث الشريف أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال:

«أَعْلَى النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ أَخَوْفُهُمْ مِنْهُ» [٢٣٥].

وقال الصادق عليه السلام:

«لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَكُونَ خَائِفًا رَاجِيًا، وَلَا يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا لِمَا يَخَافُ وَيَرْجُو» [٢٣٦]

. والإنسان لا يمكنه الاستفادة من هذين المفهومين، الخوف والرجاء أن زعمهما كذباً، والتأكيد من عدم الكذب بهذا الشأن يكمن في الموازنة والعمل على أساسهما، إلا أن المؤسف له هو أن أغلب الناس صادقون في رجائهم وخوفهم بالنسبة لأموال الدنيا، لكنهم ليسوا كذلك بالنسبة للآخرة. لقد ظهر الآن مرض شديد هو مرض ذات الرئة: «والذي يطلق عليه الالتهاب الرئوي اللانمطي» القاتل حيث بلغ عدد الوفيات ستة بالمئة بالنسبة للمصابين بهذا المرض، ويبدو وأن طرق الوقاية التي اتخذت بهذا الشأن تفوق التصور، فقد عمدوا إلى رش السموم في المناطق الملوثة، والجميع يرتدى الأقنعة الواقية، وإن عثروا على من يظن أنه مصاب يعزلونه عن الآخرين، كما هنالك تفتيش دقيق لكافة المسافرين حين يهبطون في المطارات. حقاً هذا هو الخوف الصادق.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٢

والسؤال الذي يرد هنا: هل يبدي المؤمنون مثل هذا الخوف من عذاب الله يوم القيامة الذي يفوق هذا الأمر بما لا يحصى؟! يتعجب الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة من كيفية شعور الإنسان بذلك الخوف من بعض الحوادث الطفيفة بينما لا يعيش مثله من الله! والأمر كذلك بالنسبة للرجاء؛ نعم، أولياء الله كانوا يرتعشون خوفاً من الله في محراب عبادتهم، وكان يسمع من بعضهم أنين وتأوه. الكلام بهذا الشأن كثير والهدف هنا إشارة سريعة لاتمام المباحث، ونختتم البحث بهذا الحديث. قال الإمام الصادق عليه السلام: كان أبي يقول:

«إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِبَادِ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ، نُورٌ خِيفَةٍ، وَنُورٌ رَجَائٍ لَوْ وَزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وَزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا» [٢٣٧].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٣

القسم الثالث

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قَبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رِضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

الشرح والتفسير: التأسى بالنبي صلى الله عليه وآله

تحدث الإمام عليه السلام في العبارات الأخيرة من المقطع السابق عن أولئك الأفراد الذين ذاعوا في الدنيا فأصبحوا عبيداً الأذلاء بعد أن ولّوا ظهورهم لكل شيء وأخلدوا إلى الدنيا. وقد سعى الإمام عليه السلام لإيقاظ هذه الفئة المتهافئة على الدنيا من خلال الاقتداء بجوانب من سيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ومن سبقه من الأنبياء، وقد ركز باديء الأمر على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَافٍ لَكَ فِي الْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ الدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا» [٢٣٨]

وَمَسَاوِيهَا»

جدير ذكره أن الإمام عليه السلام يرى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هنا أسوةً ودليل. والواقع هو أن العبارتين تنتهيان إلى نتيجة واحدة وهي اقتناء آثار ذلك النبي الأعظم وتكييف الحياة على ضوء حياته، لكن هنالك تفاوتاً لطيفاً في المعنى؛ فالأسوة إشارة إلى أننا نكيف حياتنا طبق حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أما الدليل، فإشارة إلى أنه يدعونا إلى الآخرة.

ثم ذكر عليه السلام توجيه ذلك التأسي فقال:

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٤

أَكْنَفُهَا، وَفُطِمَ [٢٣٩] عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ [٢٤٠] عَنْ زَخَارِفِهَا [٢٤١].»

فقد عاش رسول الله صلى الله عليه وآله حين كان القياصرة والأكاسرة يرتعون في الجزيرة العربية، وقد واصل تلك الحياة البسيطة المتواضعة حتى حين تزعم الدولة الإسلامية وحاز على الغنائم العظيمة، وكان يفخر صلى الله عليه وآله بتلك المعيشة فيقول:

«الْفَقْرُ فَخْرِي» [٢٤٢]

فالعبارة لا- تعنى أنه لم يكن بوسع النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الحصول على تلك الحياة وأسلوب العيش، بل لم يكن شخصياً يرغب في مثل تلك المعيشة، ومن هنا ورد في الرواية أنه هبط عليه أحد الملائكة ويده مفتاح خزائن الدنيا فقال:

«يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الْأَرْضِ يَقُولُ لَكَ رَبُّكَ إِفْتَحْ وَخُذْ مِنْهَا مَا شِئْتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَنْقُصَ شَيْئاً عِنْدِي»

، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله

: الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَادَارَ لَهُ وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَاعْقَلَ لَهُ.

فقال الملك:

أُقْسِمُ بِاللَّهِ الَّذِي بَعَثَكَ نَبِيًّا بِالْحَقِّ، إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ مَلِكٍ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ حِينَ تَسَلَّمْتَ هَذِهِ الْمَفَاتِيحُ» [٢٤٣].

والعبارة

«إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا»

إشارة أن حكومة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلطته لم تكن كحكومة القياصرة والأكاسرة، والعبارة

«وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا»

إشارة إلى عدم تناوله الأطعمة اللذيذة المتنوعة، والعبارة

«وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا»

أنه لم يستفد من القصور الفارهة والمراكب الهنيئة والثياب الفاخرة. على كل حال فقد استعان الإمام عليه السلام بأعظم أسوة وركز

على حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وإزاء أولئك الذين إنقادوا للدنيا وقصروا همتهم عليها. النبي الذي كان يجلس على التراب ويعيش كأضعف الأفراد ولم يكن لديه أحياناً سوى ثوب واحد وقد اعترض على ابنته فاطمة

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٥

الزهراء عليها السلام حين وضعت ستاراً جديداً على باب دارها وقد لبست بعض الحلوى من الفضة لا الذهب، وسنخوض في المزيد بهذا الشأن في ختام هذه الخطبة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٧

وَإِنْ شِئْتَ ثَبِّتْ بِمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ يَقُولُ:
 «رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». وَاللَّهُ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبُقْلِ تُرَى مِنْ
 شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهَزَالِهِ وَتَشَدُّبِ لَحْمِهِ.
 وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتَ بِدَاوُدَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سِفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ
 لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ تَمَنِّهَا.
 وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِيبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ
 بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلْمَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرِيحَانُهُ مَا تَنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ
 يَحْزَنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يَذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاؤُهُ!

الشرح والتفسير: زهد الأنبياء

أشار الإمام عليه السلام في البحث السابق إلى جانب من حياة النبي صلى الله عليه وآله كأسوة بالمؤمنين في الزهد، ثم تطرق هنا إلى هذا الجانب في حياة ثلاثة من سائر الأنبياء ليتضح من خلال ذلك أن هذا الأمر كان محورياً في حياة الأنبياء فكانوا أسوة لأممهم، فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَبِّتْ بِمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَيْثُ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٨

يَقُولُ:

«رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ». ثم خاض عليه السلام في تفسير العبارة المذكورة وهي آية من آيات سورة القصص على لسان موسى عليه السلام حين وروده إلى مدين فقال:

«وَاللَّهُ، مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَهُ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبُقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ [٢٤٤] صِفَاقِ [٢٤٥] بَطْنِهِ، لِهَزَالِهِ [٢٤٦] وَتَشَدُّبِ [٢٤٧] لَحْمِهِ»

. فرَّ موسى عليه السلام إلى الشام ثم مدين إثر دفاعه عن أحد أفراد بني إسرائيل وقتله لأحد اتباع فرعون ومطاردته من قبل الأجهزة الفرعونية والبحث عنه في مصر، ولم يكن يحمل في سفره متاعه وحيث لم يكن يستجدي أحداً من الناس فقد اضطر لأكل نبات الأرض فهزل بدن موسى عليه السلام وضعف خلال هذه المدَّة بفعل المسافة الطويلة التي قطعها ماشياً من بلد إلى بلد آخر وقد بلغ الضعف مداه بحيث كانت تبدو خضرة البقول من بطنه. وقد سأل الله سبحانه طعاماً يسد رمقه ويزيل جوعه، بينما كان باستطاعته سؤال الله عيشة هانئة وسفراً مريحاً. صحيح أن موسى عليه السلام كان يمر بظروف عصيبة اضطرتته إلى تلك الأزمة العنيفة، إلَّا أنَّ المهم أنه لم يسأل الله سوى مقدار الضرورة، وهذا دليل واضح على الزهد الذي كان محور حياته.

ثم عرج على زهد داود عليه السلام فقال:

«وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتَ بِدَاوُدَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سِفَائِفَ [٢٤٨] الْخُوصِ [٢٤٩]

بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ تَمَنِّهَا»

. نعلم أن داود عليه السلام وإلى جانب النبوة كان من ملوك بني إسرائيل وكانت حكومته قوية شاملة على ضوء الآية الشريفة: «شَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلَ الْخِطَابَ» [٢٥٠]. فهل ما

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٦٩

قيل يتعلق بعهد حكومته أم بعدها؟ كيف ما كان الأمر فهناك دليل دامغ على زهده ولاسيما ما ورد في بعض الروايات أنه لم يكن

يقتات من بيت المال، بل كان يعمل الدروع ويأكل من عرق جبينه. العبارة
«صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ، وَقَارِيءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ»

إشارة إلى مقاماته المعنوية الرفيعة في الدنيا والآخرة. وقد أفاض الله عليه من العلوم المعنوية بحيث كان ينشئ المزامير (المزامير كما سيأتي بمبحث التأملات مجموعة من الأدعية والمناجاة والمواعظ والإرشادات التي كان يتلوها داود عليه السلام ويترنم بها بصوت عذب فكان يشد إليه الناس، بل حتى الطيور والحيوانات حسب الرواية).

وقارياً (أهل الجنة) إشارة إلى مقامه الاخرى حيث يتذوق أولياء الله هناك لذة القرب الإلهي وعشق ذاته المقدسة من ترانيمه المعنوية لذلك الصوت العذب ومناجاته الروحية.

والعبارة

«أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا»

ربما تكون إشارة إلى هذه النقطة وهي أنه أراد شخصاً يبيعها ويستفيد مقداراً من ثمنها، وإن كان هذا الأمر على عهد قضائه فهو إشارة إلى أن القضاء لا يتعامل في مثل هذه الأمور مباشرة مع الآخرين حذراً من معرفته واعطائه الكثير بغية استمالته في إصدار الأحكام. ثم تطرق عليه السلام إلى زهد عيسى عليه السلام حيث أوجز حياته المتواضعة في ثلاث عشرة عبارة قصيرة، يصعب علينا حقاً تصور تلك الحياة العجيبة لهذا النبي الزاهد فضلاً عن العمل بها فقال:

«وَإِنْ شِئْتُمْ قُلْتُ فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ [٢٥١] الْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ الْخَشِينَ، وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ

بِاللَّيْلِ الْقَمَرِ، وَظِلَالُهُ فِي الشَّتَاءِ مَشَارِقُ الْمَارِضِ وَمَعَارِبُهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرِيحَانُهُ مَا تُثْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ؛ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجِيَةٌ تَفْتِنُهُ، وَلَا وَلَدٌ يَحْزِنُهُ، وَلَا مَالٌ يَلْفَتُهُ، وَلَا طَمَعٌ يُدْلُهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاؤُهُ!»

. المراد من العبارة

«وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ»

أنه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٠

كان يكتفى من الطعام بالخبز. وتشير العبارة

«وَظِلَالُهُ فِي الشَّتَاءِ...»

أنه كان يستعين بشفء حرارة الشمس على برودة الشتاء. جدير بالذكر أن المسيح عليه السلام ظهر في فترة كان يتنعم بها عبيد الدنيا من بنى اسرائيل في القصور الفخمة والمراكب الهائلة والثياب الفاخرة وتنقل إليهم مختلف الأطعمة مما لذ وطاب. وقد اختار عليه السلام هذا النوع من الحياة لتحذيرهم من مغبة التكالب على الدنيا المحفوفة بالقيود والاغلال والتي تذلل في خاتمة المطاف كل من ركن إليها، وقد قاطع بعض المحاور المهمة التي من شأنها فتنة الإنسان من قبيل الدور الفارحة والزوجات الجميلة الفاتنة والمال والولد والمركب، فقد ولى عليه السلام ظهره لكل هذه الأمور بهدف ايقاظ المجتمع من غفلته والسعي إلى دار الآخرة.

تأملات

١. مزامير داود

مزامير جمع مزمور بمعنى الترانيم التي تنشأ بنغمة معينة، ومزامير داود عليه السلام اشعار روحية مناجاة ومواعظ وعبر، كان يتلوها داود

عليه السلام بصوته العذب لتؤثر في القلوب [٢٥٢] وتتكون هذه المزامير التي تعد الآن من كتب أهل العتيق من خمسة كتب تكرر لفظ أمين آخر كل قسم منها، ويعتقد الأغلب من المفكرين أن هذا اللفظ من إضافات جامعي الكتب (لابد من الالتفات إلى أن المزامير الفعلية الموجودة في الكتب المقدسة تخلو من هذا اللفظ.

على كل حال يضم الكتاب الأول ٤١ والثاني ٣١ والثالث والرابع ٧١ والخامس ٤٤ مزمورة. ويمكن ايجاز مفاهيم المزامير بصورة عامة في العناوين الآتية:

١. مزامير الحمد والتسبيح التي تشمل عدّة مزامير.

٢. مزامير الشكر التي يطلقها الأشخاص إزاء أطفاف الله.

٣. المزامير المتعلقة بالتوبة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧١

٤. المزامير السياحية (بشأن قصة الأفراد الذين خصتهم عناية الله أو غضبه).

٥. المزامير التاريخية بشأن رحمة الله وفضله على بني إسرائيل.

٦. مزامير النبوة على أساس وعد الله لداود عليه السلام وأبنائه.

المزامير التعليمية التي كان يوصي داود عليه السلام فيها ببعض الأمور.

أ) خصائص العادلين ومميزات الشريرين.

ب) قدسية وطهارة؟ الشريفة الإلهية.

ج) هوان قيمة الحياة الدنيا.

د) الوظائف الواجبة على الحكام.

٧. مزامير دعاء للمذنبين (يجدر الإشارة إلى أن أغلب هذه المزامير لا جميعها تنسب إلى داود عليه السلام) [٢٥٣].

٢. الصوت الداودي

يستفاد من الآيات والروايات أن لداود عليه السلام صوتاً شجياً، إلى درجة أنه لا يقتصر على جذب الناس فحسب، بل كانت تجتمع إليه الطيور وتحط إلى جانبه أو على بدنه حين يناجي الحق في محراب عبادته. ولما كانت الجنة الموضع الأفضل فقد ورد في الخطبة أن داود عليه السلام قارئ أهل الجنة، كما أشار ابن أبي الحديد إلى رواية تحمل هذا المعنى فقال: ورد في الخبر، داود قارئ أهل الجنة.

٣. زهد الأنبياء

سنتعرض في نهاية الخطبة عقب الحديث عن زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى عليه تشدد أنبياء الله على أنفسهم في الحياة، بما نعجز عن تحمله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٣

القسم الخامس

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْمَاطِيبِ الْمَاطِطِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أَسْوَةَ لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصِّ لِأَثَرِهِ. فَضَمَّ الدُّنْيَا قَضَمًا، وَلَمْ يُعْرِضْهَا طَرَفًا. أَهْضَمُ أَهْلُ الدُّنْيَا كَشْحًا، وَأَحْمَضُ هُمْ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عَرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ

يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ.

الشرح والتفسير: سيرة النبي صلى الله عليه وآله إزاء عبدة الدنيا

إنَّ الله جعل أنبياءه من البشر ليكونوا أسوة للآخرين من جميع النواحي؛ ولو كانوا من جنس الملائكة لتعذر التأسي بهم ولأصاب الشلل أهم مفاصل حركتهم الرسالية المتمثلة بالتعاليم العملية. والواقع مهما كان الخطيب متمكناً وبلغياً والكاتب فصيحاً ومتمعقاً فإن تأثير مواعظه ونصائحه لا يرقى إلى الأسوة العملية، ولا يمكن مقارنته ما يستفيدة الآخرون من السيرة العملية لأولياء الله مع تلك التي تحصل عند سماع الوعاظ؛ ومن هنا ركز الإمام عليه السلام بعد ذكره لبعض الأنبياء على سيرة الرسول الله صلى الله عليه وآله في إطار مواجهته لأصحاب الدنيا الذين تكالبوا عليها في ذلك الزمان وفي كل زمان، فأشار قبل الخوض في الجوانب العملية لسيرة النبي صلى الله عليه وآله إلى رؤيته للدنيا فقال:

«فَتَأْسَ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٤

تَأْسَى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَى وَأَحَبُّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأْسَى بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَصُ [٢٥٤] لِأَثَرِهِ».

وتطرق إلى نظرتة صلى الله عليه وآله إلى الدنيا، فقال:

«قَضَمَ الدُّنْيَا قَضْمًا [٢٥٥]، وَلَمْ يُعْرِزْهَا طَرْفًا.

أَهْضَمَ [٢٥٦] أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا [٢٥٧]، وَأَخْمَصُهُمْ [٢٥٨] مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ

يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ [٢٥٩]»

. إشارة إلى أنه كان مسلم لله بكل كيانه، يجب ما أحب الله ويعادي من يعاديه الله، وكل هذه العبارات إشارة إلى زخرف الدنيا الزائفة في أن الدنيا مبعوضة وحقيرة وصغيرة وتافهة. القضية المهمة أن حب الدنيا أساس الظلم والحروب وسفك الدماء، والذي ينظر إلى زخارفها نظرة حقيرة لن يحبها ويفتن بها ولما يتلوث بآثامها.

ثم يخلص إلى نتيجة واضحة فيقول:

«وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلَّا حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ، وَمُحَادَّةً عَنْ أَمْرِ اللَّهِ»

. نعم فسعادتنا في الدارين وصدقنا في ادعاء الإيمان بالله ورسوله في أن نعظم ما عظمه ونستصغر ما صغره. فقد وقف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله موقفاً مخالفاً لزخارف الدنيا ومظاهرها الزائفة، فكيف نزع الإيمان به ونحن نعظم هذه التوافه الدنيوية ونضحى من أجلها بالغالي والنفيس؟! يمكن أن يرد هنا هذا السؤال: إذا كان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٥

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يجانب الطعام إلى هذه الدرجة وكان أخلى بطناً من عامة الناس، فكيف كان يصمد أمام العدو في المعركة حتى وصفه على عليه السلام بقوله:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسَ اتَّقَيْنَا بَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ» [٢٦٠]

. فقد ورد مثل هذا السؤال بشأن على عليه السلام كيف وقف تلك المواقف الصعبة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة بدر واحد والأحزاب وخيبر وحنين وإبان حكومته في الجمل وصفين والنهروان ولم يكن طعامه سوى الشعير. وقد أجاب الإمام عليه السلام عن السؤال في كتابه إلى عثمان بن حنيف [٢٦١] فقال:

«أَلَا إِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ

أَصْلَبُ عُوْدًا وَالرَّوَانِعُ الْخَضِرَةُ أَرْقَ جُلُودًا وَالنَّائِبَاتِ الْغِذِيَّةُ أَقْوَى وَوُقُودًا وَأَبْطَأَ خُمُودًا»

وعليه، فالنهم في الطعام ليس بدليل على القوة والقدرة. ولعل أولئك الأعراب الذين كانوا يقتاتون على الأطعمة العادية قد ابلوا بلاءاً حسناً في الحرب التي نشبت بين إيران والروم على العكس من أولئك الجنود الذين كانوا يطعمون مختلف الأطعمة، فقاوموا وصمدوا بالشكل الذي أذهل الجميع. القضية الأخرى هي أن معنويات المقاتل هي التي ترسم صورته واضحة عن مصيره في جبهة القتال لا الطعام وانواعه، وكانت معنويات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام في القمة بما أهلها لتلك الشجاعة الفائقة. جدير ذكره أن ما ورد بشأن طعام النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام لا- يعنى أنهما كانا يتناولان مثل ذلك الطعام طيلة حياتهما، بل المراد أنهما لم يتعلقوا بطعام معين قط.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٧

القسم السادس

وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرَفَعُ بِيَدِهِ تَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّرَّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتُكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فَلَانَةُ - لِإِحْدَى أَرْوَاجِهِ - عَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَرَخَّارِهَا». فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَيَاتِ ذِكْرِهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَمَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَزْجُو فِيهَا مَقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ، وَعَيْبَهَا عَنِ الْبَصْرِ. وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ.

الشرح والتفسير

زهد النبي صلى الله عليه وآله

تطرق الإمام عليه السلام في المقطع السابق من الخطبة بصورة عامة إلى زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وضرورة الاقتداء والتأسي به، إلّا أنه بين هنا مصاديق ذلك الزهد والتواضع في حياته اليومية فأشار إلى سبعة مواضع تكشف بجلاء عن مدى زهده وتواضعه [٢٦٢]، فقال:

«وَلَقَدْ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٨

وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ [٢٦٣] بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرَفَعُ [٢٦٤] بِيَدِهِ تَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْحِمَارَ الْعَارِي، وَيُرْدِفُ [٢٦٥] خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّرَّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتُكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: «يَا فَلَانَةُ - لِإِحْدَى أَرْوَاجِهِ - عَيْبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَرَخَّارِهَا».

العبارة

«يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ»

إشارة إلى عدم امتلاك المحتاجين للمفروشات آنذاك ليجلسوا عليها فكانوا يضطرون للجلوس على الأرض فكان النبي صلى الله عليه وآله يواسيهم في الجلوس على الأرض. والعبارة

«وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ»

تشير إلى مدى تواضعه في جلوسه، لا على غرار المتكبرين الذين يضعون رجلاً على أخرى بكل غرور. والمعروف عن النبي صلى الله

عليه وآله أنه كان يجثو على ركبته على غرار العبيد؛ فهي جلسة متواضعة إلى جانب كونها سهلة في النهوض. ورد في الحديث أن امرأة سئته اللسان مرّت بالنبي صلى الله عليه وآله وهو جالس فقالت له: يا محمد إنك لتجلس كالعبيد؟ فقال صلى الله عليه وآله:

«وَأَيْ عَبْدٌ أَعْبُدُ مِنِّي» [٢٦٦].

والعبارة

«وَيَكُونُ السُّتْرُ...»

إشارة إلى عائشة حين وضعت سترًا مزينًا فيه صور لذي أرواح، فامتعض رسول الله صلى الله عليه وآله من رؤيته لأنه مزين فقال:

«غَيْبِي عَنِّي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَّارَ فَهِيَ، وَأَمَرَ بَرَفَعَهُ فَوْرًا» [٢٦٧].

ثم قال عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٧٩

وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيَبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا» [٢٦٨]، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مُقَامًا»

. إشارة إلى أن حين لا يجتمعان في قلب إنسان. فإن افتتن بالدنيا وأحبها رحل عن قلبه حب الله ونعيم الآخرة، فما لم يطرد من قلبه حب الدنيا لن يحب الله. ويصدق هذا المعنى على جميع الأفراد، وأبرز نموذج لذلك تمثل في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله الذي قال:

«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُهَا كَمَثَلِ الرَّكَبِ رُفِعَتْ لَهُ الشَّجَرَةُ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَقَالَ تَحْتَهَا ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» [٢٦٩].

ثم خالص الإمام عليه السلام إلى نتيجة واضحة أنه طالما كانت الدنيا بهذا الشكل فما كان من النبي صلى الله عليه وآله إلا أن قاطعها:

«فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا» [٢٧٠] عَنِ الْقَلْبِ، وَعَظِيْبَهَا

عَنِ الْبَصْرِ.

وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُدَكَّرَ عِنْدَهُ»

. وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: لماذا كل هذا التحقير للدنيا من قبل الإمام عليه السلام؟ سنرد على هذا السؤال بالتفصيل في آخر الخطبة إن شاء الله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨١

القسم السابع

وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِيهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَّارُ فَهِيَ مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ.

فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْرَانَ غَيْرُهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ. فَتَيَاسَى مُتَأَسِّسٌ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَصَ أَثَرَهُ، وَوَلَّجَ مَوْلَجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعِ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنْهُ اللَّهُ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا تَسَّعُهُ، وَقَائِدًا نَطَأَ عَقِبَهُ! وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعَتْ مِدْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِذُهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ:

اغْرُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِي

الشرح والتفسير: لم الناسى بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

عاود الإمام عليه السلام تأكيداً لما أورده في المقطع السابق من الخطبة في ذم الدنيا والمتعلقين بها فقال بادية الأمر على نحو الاستدلال المنطقي:

«وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِيءِ الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا: إِذْ جَاعَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٢

فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ [٢٧١]، وَزُوِيَتْ [٢٧٢] عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ [٢٧٣]

. وعلى ضوء هذه المقدمة خاض في برهانه المنطقي فقال:

«فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ، فَقَدْ كَذَّبَ - وَاللَّهِ الْعَظِيمِ - بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ»

. لا ينبغي أن ننسى هنا أن فئة من الأثرياء آنذاك كانت ترى ثروتها دليلاً على عناية الله بها، وبالتالي فإن الفقراء والضعفاء مبعدون عن عناية الله، وهذا التفكير دفع بهم لحث الآخرين على جمع الثروة عن أى طريق وباية وسيلة. ومن هنا «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ» [٢٧٤] فرد عليهم الحق تعالى «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثْبِتَهُمْ سِيفًا مِّنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِيُثْبِتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ* وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ» [٢٧٥].

والإمام عليه السلام ليفند بالبرهان القاطع هذه الفكرة المريضة السائدة في الأذهان.

فالحق أن الله سبحانه وتعالى أولى رسوله صلى الله عليه وآله عناية فائقة، في حين كان محروماً من زخارف الدنيا وزبرجها، ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الله أهان نبيه، وعليه نخلص إلى نتيجة مفادها أن الإمكانيات المادية والثروة ليست دليلاً على الشخصية ولذلك خلس الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَتَأْسَى [٢٧٦] مَتَأْسٌ بِنَبِيِّهِ، وَاقْتَصَّ أَثْرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجُهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٣

ثم واصل عليه السلام حديثه بالقول:

«فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - عَلَمًا لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرًا بِالْعُقُوبَةِ. خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الْآخِرَةَ سَلِيمًا. لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ»

. إشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وآله ورغم عظمته وكونه علماً للساعة وبصفته البشير والناذير فقد عاش تلك الحياة البسيطة المتواضعة إلى درجة أنه رحل عن الدنيا ولم يملأ بطنه أو يبنى له بيتاً مشيداً (طبعاً بنى النبي صلى الله عليه وآله حجرات لأزواجه عند المسجد من الطين وسعف النخيل والعبارة

«لَمْ يَضَعْ حَجْرًا عَلَى حَجَرٍ»

تشير إلى بيوت الأثرياء الذين كانوا يبنون بيوتهم من الحجر).

وأخيراً خلس إلى هذه العبرة:

«فَمَا أَعْظَمَ مِنْهُ اللَّهُ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا نَتَّبِعُهُ، وَقَائِدًا نَطُّا عَقِبَهُ!»

نفحات الولاية ؛ ج ٦ ؛ ص ١٨٣

أجل، فأحدى نعم الله العظمى على البشر وجود هؤلاء الزعماء العظام الذين حفلت جميع حركاتهم وسكناتهم بالدروس والعبر، ولم تنتفع أية أمة كالمسلمين من النعمة الفضيلة، فالأمة وإن كانت لها عظماء، إلا أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان أعظم الجميع، وليت شعري أى كفران للنعمة أعظم من ضلالتنا وحيرتنا رغم نعمة الله علينا بهذا القائد العظيم. وأخيراً وليثبت الإمام عليه السلام أنه أول من يتمثل عملاً بما يقول وأنه يحذو حذو رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قال:

«وَاللَّهِ لَقَدْ رَقَعْتُ [٢٧٧] مِدْرَعَتِي [٢٧٨] هَذِهِ حَتَّى اسْتَيْخِيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا. وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَتَبَّدُّهَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْتُ [٢٧٩] عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ»

. يستفاد من هذه العبارة بوضوح أن الإمام عليه السلام كان يعطى ثوبه بين الحين والآخر ليرقعوه (وإن قام أحياناً بهذا العمل شخصياً) وقد كثرت رقعات ثوبه حتى شعر الإمام عليه السلام بالخجل من رقعته، مع ذلك لم يكن مستعداً لطرحة. شتان بين سيرة الإمام عليه السلام وبعض الأفراد الذين

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٤

ينتقون ثياب كل فصل وزمان ومكان بما يناسبه، فهناك ثوب لمجالس السرور وآخر لمجالس العزاء، وهكذا للسفر والحضر والنوم، بل الأسوأ من كل ذلك طرح بعض الملابس كونها لا تناسب الموضة. العبارة

«فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ الشَّرِيَّ»

، مثل معروف عند العرب، معناه، أن من يصبر على النوائب ويتحمل الشدائد حين يبلغ هدفه يُسرَّ بصبره ويحمد الله ويحمده الآخرون أيضاً [٢٨٠].

تأمل

لعلنا نتعرف بصورة عميقة على حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال

«حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»

كلما أمعنا النظر في حجم الذنوب والمعاصي والنزاعات الاجتماعية العنيفة وتأمنا الملفات الحقوقية والجزائية التي تضج بها المحاكم. والجدير بالذكر أن هذا الحديث لم يقتصر على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بل أكدته سائر الأئمة المعصومين عليهم السلام كالإمام الصادق والإمام السجاد عليهما السلام إلى جانب تأكيده من الأنبياء السابقين عليهم السلام [٢٨١].

ولو توقفنا قليلاً وتأمنا لأمكنا إيجاز عمده مظاهر حب الدنيا في ثلاثة أشياء هي: حب المال وحب الجاه وحب الشهوة. فليس هنالك من حرب وقعت في العالم ولا فساد انتشر في صفوف المجتمع إلا كان معلولاً لأحد هذه المحاور الثلاثة. وبناءً على هذا فإن أردنا ممارسة عملية الإصلاح في المجتمعات الإسلامية كان لابد لنا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٥

من مواجهة التعلق بالدنيا. ولعل هذا الموضوع يبدو بارزاً في المجتمعات الفقيرة التي تنتقل فجأة إلى الغنى، كالمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام؛ ذلك أن الفقر كان قد عم المجتمع قبل بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، إلا أن الفتوحات وما انطوت عليها من غنائم بصورة مفاجئة قد غيرت الأوضاع فأخذ أصحاب الدنيا يتهافتون على اللذات والغرق في المعاصي. وعليه فلا يبدو من المستغرب على ذلك الإمام الهمام على عليه السلام وبغية تغيير تلك الأوضاع أن يورد تلك الخطبة ويكرسها لدم الدنيا ومن تعلق بها؛ فيأخذ بأيدي الناس ويغوص بهم في أعماق تاريخ الأنبياء الماضين ويكشف لهم عن عمق زهد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وحياته البسيطة المتواضعة بهدف إيقاظهم من غفلتهم وإعادةهم إلى المسار الصحيح.

على سبيل المثال كان على عهد عثمان - حين إزدادت الأموال في بيت مال المسلمين وكان ينبغي أن تصرف في العمران وبناء الدولة الإسلامية وانقاذ المحرومين - أن سيطرت قرابته وبطانته على الأموال، فجنى كل منهم ثروة عظيمة أفرد لها العلامة الأميني رحمه الله في الجزء الثامن من الغدير باباً أسماه (الكنوز المكتنزة ببركة الخليفة) وقد عرض فيه بعض تلك الكنوز من مصادر العامة. وذكر بعض الأفراد من قبيل: مروان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ويعلى بن أمية وعبدالرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وسائر الأفراد، وقد حصل كل منهم على آلاف الدنانير من بيت المال، حتى ذكر أن ورثه زيد بن ثابت كانت تتقاسم ارثه من الذهب والفضة عن طريق كسرها بالفؤوس، كما ترك يعلى بن أمية مبلغ خمسمائة ألف دينار إلى جانب المزارع والبساتين والدور والديون التي له بدمه الناس والتي تبلغ مائة ألف دينار (كل دينار مثقال من الذهب المسكوك).

وأما عبدالرحمن بن عوف فقد ترك ألف ناقه وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس إلى جانب الأراضي الزراعية، ومن أراد المزيد فليراجع الغدير وما ذكره من مصادر

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٦

وأرقام بهذا الشأن ٢٨٢].

وعلى هذا الضوء ألا يتوجب على زعيم عظيم كعلى عليه السلام أن يكون كالطبيب الحاذق فيشمر عن ساعديه ويعالج ذلك المجتمع المريض بوباء حب الدنيا من خلال ذمها واستصغار شأنها؟ وعليه ينتفى السؤال الذي يطرح نفسه أنه لم عرض على عليه السلام بكل هذا الذم للدنيا وهو إمام الإسلام هذا الدين الذي يعنى بالدنيا والآخرة والحضارة والمدنية. واليوم أيضاً إن أردنا أن نحول دون هذه النزاعات الدامية وسفك الدماء وتجار السلاح الذين يصدرون الموت والدمار للشعوب والوقوف بوجه مراكز الفساد والدعارة والانحراف، فليس أمامنا من سبيل سوى تحقير هذه الدنيا ومن تعلق بها واستصغارها حتى تصبح فضيحة ليقنع الآخرون بالحياة البسيطة المتواضعة على حد الكفاف.

ونختتم الكلام بالحديث الذي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال «جَعَلَ الْخَيْرُ كُلَّهُ فِي بَيْتٍ وَجَعَلَ مِفْتَاحَهُ الرَّهْدُ فِي الدُّنْيَا» [٢٨٣].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٧

الخطبة ١٦١

إشارة

فِي صِفَةِ النَّبِيِّ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَأَتْبَاعِ دِينِهِ وَفِيهَا يَعِظُ بِالتَّقْوَى [٢٨٤]

نظرة إلى الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على ثلاثة أقسام، أشار في المقطع الأول إلى بعثه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وصفاته الحميدة وخصائص أهل بيته، ويذكر آثار دعوته في إظهار الحق ودحر الباطل، ويخلص إلى نتيجة مفادها أن شقاء الدنيا والآخرة في عدم الإيمان بالإسلام الحنيف.

وتطرق الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من الخطبة إلى التوكل على الله وسؤاله الهدى. ثم اختتم الخطبة بدعوة الجميع إلى الورع والتقوى وطاعة الله والحذر من التعلق بالدنيا بعبارات عظيمة المعاني إلى جانب ضرورة الاعتبار بالوقائع والأحداث التي يشهدها

العالم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٨٩

القسم الأول

ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ. أُسْرَتْهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتْهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَعْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ. أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمُدْخُولَةَ، وَبَيَّنَّ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْصُولَةَ.

«فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا» تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمُ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمُ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنُّ مَآبُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ. وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح والتفسير: صفات النبي صلى الله عليه وآله

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بالحديث عن خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله ورسالته فقال:

«ابْتَعَثَهُ بِالنُّورِ الْمُضِيِّ، وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ، وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ [٢٨٥] وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ»

. المراد من النور المضىء نور نبوته صلى الله عليه وآله الذى أضاء كل شىء،

«وَالْبُرْهَانَ الْجَلِيَّ»

إشارة إلى معجزاته الواضحة، كما تبين العبارة

«وَالْمِنْهَاجَ الْبَادِيَ»

شريعته الغراء،

«وَالْكِتَابَ الْهَادِيَ»

القرآن الذى يهدى عامة الخلق إلى الله حتى قيام الساعة. هذا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٠

وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن العبارات الأربع المذكورة تشير إلى القرآن الذى نظر إليه الإمام عليه السلام من عدة جوانب؛ إلاً أن الأنسب ما ذكرناه من أن كل عبارة تشير إلى جانب معين؛ الأمر الذى استحسنته سائر الشراح. على كل حال فإن كلام الإمام عليه السلام إشارة إلى أركان الدعوة الكاملة الشاملة التى تستند إلى نور الوحي، والتى بينت بمختلف المعجزات والأدلة والبراهين وكتاب الهداية القرآنية بأحكامه الجلية الواضحة.

ثم خاض عليه السلام بثمان عبارات قصيرة فى التعريف بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«أُسْرَتْهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتْهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ؛ أَعْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ. مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهَجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ [٢٨٦] عَلَا بِهَا ذِكْرُهُ وَامْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ»

. متهدل، بمعنى متدلٍ وهنا تعنى الفاكهة القريبة من الجميع. ولعل موفقية الإنسان وسعادته تتحقق فى ظل أمور مختلفة ولكل من نجابة الأسرة وكرامة الحسب والنسب ورفعة شخصية الأهل والقربا وأهمية مسقط الرأس والبيئة والنشاط فى أجوائها، دور مهم فى تلك السعادة. ولو أمعنا النظر فى حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نجد أنه صلى الله عليه وآله إلى جانب سموه الذاتى قد توفرت له سائر العوامل اللازمة للتوفيق والنجاح ليتمكن على ضوءها من ممارسة دوره فى هداية الناس، فنسبه الشريف يمتد إلى إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حيث ورث منهما الشجاعة والتضحية. قبيلته بنى هاشم من أشرف القبائل العربية. أبوه عبد الله،

وجده عبدالمطلب، وعمه حمزة وأبوطالب، وابن عمه علي وجعفر عليهما السلام، وبنته فاطمة الزهراء عليها السلام أم المعصومين عليهم السلام. وولادته في مكة الحرم الإلهي الآمن، وهجرته إلى المدينة الطيبة مركز الإيثار والفضاء والتضحية. ومن هناك وسع رقعة دعوته وأسمع صوته العالم بأسره، والأسرة من مادة أسر علي وزن عصر، بمعنى القوة والقدرة إشارة إلى أسرة بنى هاشم وقراة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩١

وتشير الشجرة إلى أصل هذه الأسرة التي تنتمي إلى إبراهيم عليه السلام، والأغصان المعتدلة إشارة إلى فروع كعبدالمطلب وأبي طالب وحمزة وجعفر وأميرالمؤمنين عليه السلام وأئمة الهدى عليهم السلام وهم بمثابة الفروع المتداخلة للشجرة في فضلهم وعلمهم وكمالهم وعدم اختلافهم ومعارفهم التي يتغذى على ثمارها جميع الناس على مر العصور والدهور.

ثم اتجه الإمام عليه السلام صوب سيرته العملية فقال:

«أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلَفِّفِيَةٍ» [٢٨٧]

. نعم، فقد كانت له مختلف الأدلة العقلية والفطرية والمعاجز الحسية، فيعالج أمراض الناس والمجتمعات بكلماته الحكيمه ويصلح الخراب الذي لحق بالناس إبان الجاهلية في كافة مجالاتهم الاجتماعية. فقد اقترنت دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بالدليل والبرهان من حيث جذورها وانطلاقها، كما تضمنت على مستوى المضمون الخطط العملية الهادية، وكل ذلك يقود إلى نتيجة مرجوة تتمثل في إصلاح الفساد وإعادة بنية الأصول الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.

ثم خاض عليه السلام في الأعمال المهمة التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ الْمَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ الْبِدَعَ الْمُدْخُولَةَ» [٢٨٨]، وَيَبِّينَ بِهِ الْأَحْكَامَ الْمَفْضُولَةَ» [٢٨٩]

. فالواقع هو أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مارس ثلاثة أعمال مهمة: أعلن العقائد الحقّة، وأزال البدع والخرافات، وبين الأحكام الشرعية بوضوح لجميع الناس، حصل كل منها بسعى متواصل وجهد عظيم. ثم خلص إلى هذه النتيجة التي صرح بها القرآن الكريم: «فَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا»

تَتَحَقَّقُ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمَ عُرْوَتُهُ، وَتَعْظُمَ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مَأْبُؤُهُ إِلَى الْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَالْعَذَابِ الْوَبِيلِ»

. فمن الطبيعي أن لا تكون

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٢

نتيجة مخالفة الدين الذي يتسم داعيته بكل تلك المكارم ودينه الجامع والشامل، سوى الشقاء والضلال والهلكة. ويتضح من هذه العبارات مدى زيف الشعارات الجوفاء التي يرفعها البعض اليوم في الأوساط الإسلامية انفعالا بكتاب الغرب فيتبنون كفاية اعتناق أي من الأديان؛ الأمر الذي لا ينسجم ومنطق القرآن ولا كلمات أئمة الهدى كعلي عليه السلام.

وأخيراً يعرب الإمام عليه السلام عن توكله على الله وإنابته إليه فيقول:

«وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكُّلَ الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ. وَأَسْتَوْشِدُّهُ السَّبِيلَ الْمُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، الْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ»

. ربّما تكون هذه العبارة إشارة إلى أن أسباب سعادة البشرية توفرت ببيعة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والدين العظيم الذي بعث به، ولم يبق لتحقيق هذه السعادة سوى أن نسير على الدرب وبالتوكل على الله وطلب الهداية منه والإرشاد إلى الحق. ومن هنا اختتم الإمام عليه السلام هذا الجانب من الخطبة بالتوكل على الله واسترشده الطريق إلى الجنة.

تأمل

من قال أم ما قال؟

يبدو أن هذه العبارة المعروفة:

«أَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ وَلَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ» [٢٩٠]

صادقة في القضايا الواضحة والمنطقية، أما في القضايا المهمة والمعقدة والمدارس الفكرية المطروحة فلا بد من النظر والتركيز على من قال، حتى يتسنى الوثوق به والتأسي بسيرته، ولذلك خاض القرآن في أكثر من موقع في خصائص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فقال:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [٢٩١] وقال في موقع آخر: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٣

لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [٢٩٢]. ومن هنا أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى شخصية النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من حيث النسب والأسرة والأصل وصفاته الكمالية وأثنى على شجرته وفروعها المثمرة، ثم تطرق إلى شريعته السمحاء من مختلف الجوانب ليلفت انتباه الآخرين إلى ضرورة الوثوق به ويقطع اعداء المغرضين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٥

القسم الثاني

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَدًا، وَالْمَنْجَاةُ أَيْدَاءً. رَهَبٌ فَأَبْلَغُ، وَرَغَبٌ فَأَسْبَغُ؛ وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَانْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَانْتِقَالَهَا. فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِغَلَّةِ مَا يَصِيحُّكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سِخْطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ! فَعُضُوا عَنْكُمْ- عِبَادَ اللَّهِ- غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا قَدْ أَتَيْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَيَّرْتُمْ بِهَا حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمُجِدِّ الْكَادِحِ. وَاعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصِيَهُمُ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَانْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ؛ فَبَدَلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ قَمَدَهَا، وَبِصِيحَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاحَرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ. فَاحْذَرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَذَرَ الْعَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لِسَهْوَتِهِ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدِّدٌ وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح والتفسير: الاعتبار بالأمم السابقة

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بإسداء النصح والموعظة التي توقظ الغافلين بعد أن أكد في الموضوع السابق على تقويته روح الإيمان لدى المخاطبين ليؤكد هنا على بعض الجوانب العلمية، ذلك لأن عمل ثمرة الشجرة الإيمان فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ، بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَدًا، وَالْمَنْجَاةُ [٢٩٣] أَبَدًا».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٦

ربما أمكن عودة الطاعة والتقوى إلى مفهوم واحد، كما يمكن اعتبار التقوى أساس الطاعة، ذلك لأن طاعة الله إنما تنبعث من التقوى والورع، كما يحتمل أن تكون التقوى إشارة إلى ترك الذنب، والطاعة إلى امتثال الأحكام الشرعية، فهما لا يفترقان كيفما كان الأمر (ولعل ذلك هو سبب الإتيان بالضمير مفرداً في أنها والحال، ينبغي أن يكون مرجع الضمير مثني). واطلاق النجاة على التقوى من قبيل اطلاق المسبب على السبب، لأن التقوى سبب النجاة في الآخرة.

ثم قال:

«رَهَبٌ فَأَبْلَغُ، وَرَغَبٌ فَأَسْبَغُ» [٢٩٤]

. إننا لنعلم أن الضمان الفعلي لجميع الأحكام الشرعية هو البشارة والإنذار. وقد شحنت الكتب السماوية بالوعد والوعيد والإنذار والبشارة ترغيباً للناس في الطاعة وحياشة لهم عن المعصية. ولما كان التعلق بالدنيا والخداع بمظاهرها رأس المعاصي والذنوب فإن الإمام عليه السلام عاد ليؤكد هذا الأمر فقال:

«وَوَصَفَ لَكُمْ الدُّنْيَا وَأَنْقَطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَأَنْتِقَالَهَا. فَأَعْرَضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقَلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا»

. فالذي يستفاد من هذه العبارة القصيرة والعميقة المعاني أن الله بين أربعة أمور بشأن الدنيا؛ الأول أصل الحياة الدنيا وكما يبدو من أسمها حياة دنيئة وتافهة لا قيمة لها، والثاني، أنها ليست مستقرة وذات يوم يحل الموت بالإنسان ويقضى على دنياه، والثالث، ما أن ينغمس الإنسان في متع الحياة الدنيا حتى يشعر بزوالها التدريجي، حيث تأخذ قواه البدنية بالضعف وتختل صحته ويثقل بفقد الأعرز والأصدقاء، الواحد تلو الآخر، وينظر إليهم وهم يتوسدون التراب، والرابع، أن الدنيا دائمة الانتقال من قوم إلى قوم: «اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَبَاتِهِ ثُمَّ يَهِيحُ فَتَرَاهُ مُضِيغاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ» [٢٩٦].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٧

فقد رسمت الآية القرآنية الشريفه صورته واضحة عن تفاهته الدنيا وانقطاع نعيمها وزوالها في إطار واضح، كما ورد هذا الانتقال في آية أخرى: «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ» [٢٩٧].

ثم قال مواصلاً وصف الدنيا:

«أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ!»

. ودليل ذلك واضح هو أن الدنيا هوى وهوس يقذف بالإنسان في مستنقع الذنب من كل جانب وهذا ما يوجب غضب الله وعدم رضاه. طبعاً، المراد من الدنيا هنا، الدنيا المادية التي يجعلها الإنسان هدفاً ويعتمد كل الوسائل للحصول عليها وإن قارف الذنوب، وإلا فالدنيا وسيلة على الاقتدار للطاعة وشكر النعمة وبلوغ السعادة.

ثم خالص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَعُضُّوا [٢٩٨] عَنْكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - عُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا،

لِمَا قَدْ آيَقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا وَتَصَرُّفِ حَالَاتِهَا. فَاحْذَرُوا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ وَالْمَجِدِّ الْكَادِحِ [٢٩٩]

. إشارة إلى تصاعد آلام الدنيا وتزايد همها، فكلما اقترب الإنسان منها زاد غناؤه حتى يسيطر الهم على جميع كيانه.

قال الإمام الباقر عليه السلام:

«مَثَلُ الْحَرِيصِ عَلَى الدُّنْيَا مَثَلُ دُوْدَةٍ الْقَرْزِ كُلَّمَا إِزْدَادَتْ مِنَ الْقَرْزِ عَلَى نَفْسِهَا لَفَأَ كَانَ أَبْعَدَ لَهَا مِنَ الْخُرُوجِ حَتَّى تَمُوتَ غَمًّا» [٣٠٠]

. وقد تمثل الشاعر العربي فانشد [٣٠١].

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَرْءَ طُولَ حَيَاتِهِ حَرِيصٌ عَلَى مَا لَا يَزَالُ يَنَاسِجُهُ

كَدُودٌ كَدُودِ الْقَرْزِ يَنْسِجُ دَائِمًا فَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطًا مَا هُوَ نَاسِجٌ

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٨

ثم أخذ الإمام عليه السلام بيد مخاطبيه إلى العهود الماضية ليشرح عاقبة الحياة الدنيا لمن تعلق بها ضمن عشر عبارات قصيرة بما يهز ضمير الإنسان فقال:

«وَأَعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ [٣٠٢] الْقُرُونِ قَبْلَكُمْ: قَدْ تَرَأَيْتَ أَوْصَالَهُمْ [٣٠٣]، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ

وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَأَنْقَطَعَ سُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ».

وتشير العبارة

«تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ»

إلى تآكل الجسد تحت التراب، كما يمكن أن تكون العبارة إشارة إلى تآكل الوشائج الاجتماعية في حياة الإنسان والتي تزول بعد وفاة الإنسان، كما يمكن أن تكون الأسماع والأبصار إشارة إلى الأذن والعين الظاهرية لقدرة الرؤية والسمع الحسى. ولا تزول حواس الإنسان الظاهرية وأعضائه البدنية فحسب، بل تزول كل امتيازاته الاجتماعية من قبيل الترف المادى والعزة وكافه النعم والمتع. ثم أشار عليه السلام إلى جانب آخر من النعم التي يفارقها الإنسان بالموت فقال:

«فَبَدَلُوا بِقُرْبِ الْأَوْلَادِ فَقَدَهَا، وَبِصُحْبَةِ الْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَهَا. لَا يَتَفَاخِرُونَ، وَلَا يَتَنَاسَلُونَ، وَلَا يَتَزَاوَرُونَ، وَلَا يَتَحَاوَرُونَ».

بل وصفهم الشاعر [٣٠٤]:

وَحَلُّوا بِدَارٍ لَا تَزَاوَرُ بَيْنَهُمْ وَأَنْتَى لِسُكَّانِ الْقُبُورِ التَّزَاوُرُ

طبعاً هذا الكلام فى جسم الإنسان ولا مانع من اجتماع أرواح المؤمنين وتزاورها وتحاورها.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة محذراً الجميع:

«فَاخْذَرُوا، عِبَادَ اللَّهِ، حَذَرَ الْعَالِبِ لِنَفْسِهِ، الْمَانِعِ لَشَهْوَتِهِ، النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ وَاضِحٌ، وَالْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدِّدٌ [٣٠٥] وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ»

. العبارة .

«فَاخْذَرُوا ... النَّاطِرِ بِعَقْلِهِ»

إشارة إلى أن الإنسان يمكنه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ١٩٩

اجتياز الأخطار الواردة فى العبارات السابقة للإمام من خلال: غلبته لنفسه ليتمكن بعد ذلك من كبح جماح شهواته ومن ثم النظر إلى الأمور ببصيرة العقل لا الشهوة المضلة، والعبارات الأربع الأخيرة فى الخطبة تشير كل واحدة منها إلى قضية مستقلة، قال فى الاولى: إن سبيل السعادة قد اتضح بواسطة القرآن وأولياء الله وقد نصبت الأعلام الواضحة على طول طريق السير إلى الله، كما أن الجادة محكمة ومستوية وخالية من العوائق والمطبات والانحراف، ولا يبقى شىء سوى العزم والإرادة للسالكين على الدرب واجتيازه بصورة سريعة. وهنياً لأولئك الذين عزموا وساروا على الدرب كما قال الشاعر:

فَطُوبَى لِعَبْدٍ آتَرَ اللَّهَ رَبَّهُ وَجَادَ بِدُنْيَاهُ لِمَا يَتَوَقَّعُ [٣٠٦]

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠١

الخطبة ١٦٢

إشارة

لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَقَدْ سَأَلَهُ: كَيْفَ دَفَعَكُمْ قَوْمُكُمْ عَنْ هَذَا الْمَقَامِ
وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ؟ فَقَالَ: [٣٠٧]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإن الإمام عليه السلام أورد هذا الكلام كجواب لأحد أصحابه وقد سألته عن كيفية دفعه عن حقه في الولاية وجدارته بها. فأشار الإمام عليه السلام إلى أمرين تدور حولهما الخطبة:

الأول: أن السبب الرئيسي هو البخل والاستبداد والتعلق بالدين.

والثاني: الذي قال فيه إنك إن تعجب من قضية بداية الخلافة، فانظر اليوم وقد تصدى معاوية وتبعه الناس، دون أدنى جدارة بهذا المنصب ولا يمكن المقارنة بيني وبينه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٣

القسم الأول

فقال: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِيعِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ الصَّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ: أَمَّا الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْمَاعْلُونَ نَسَبًا، وَالْأَشْدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوَاطًا، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَحَّتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ؛ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ، وَالْمَعْوَدُ إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ. وَدَعَّ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فِي حَجَرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

الشرح والتفسير: علة غضب الخلافة العلوية

أورد الإمام على عليه السلام هذا الكلام في رده على السائل الذي يبدو أنه طرح السؤال في موقع لم يكن مناسباً، مع ذلك أجاب عليه السلام عن السؤال فقال:

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ، إِنَّكَ لَقَلِقُ الْوَضِيعِ تُرْسِلُ فِي غَيْرِ سَدَدٍ [٣٠٨]، وَلَكَ بَعْدُ ذِمَامَةُ [٣٠٩] الصَّهْرِ وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ، وَقَدْ اسْتَعْلَمْتَ فَأَعْلَمَ»

. أما لماذا خاطبه الإمام عليه السلام

«يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ»

وأشار ضمن كلامه بالقول لك علينا ذمامة الصهر؟ هناك خلاف بين شراح نهج البلاغة بهذا الشأن؛ فالبعض كابن أبي الحديد ومغنية يقولان إن ذلك يعود إلى أن إحدى أزواج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله زينب بنت جحش من طائفة بني أسد [٣١٠]. بينما يرى البعض الآخر أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٤

علياً عليه السلام تزوج امرأة من بني أسد، وإن لم تذكر كتب التاريخ ذلك، ولا مانع من الجمع بين الاحتمالين. العبارة

«لَقَلِقُ الْوَضِيعِ»

بالنظر إلى أن

(الوضيع)

بطان يشد به الرحل على البعير كالحزام للسر، و

(قلق)

، بمعنى الضعيف فإن من الطبيعي أن اضطرب ذلك الحزام تململ الجمل وتحرك هنا وهناك ومن هنا يطلق على المضطرب:

الوضيع. والعبارة

«وَحَقُّ الْمَسْأَلَةِ»

تعبير حتى رائع يفيد أن لكل شخص الحق في سؤال الإمام، كما يستفاد ضمناً التزام الإمام بالاجابة ما لم يكن هنالك محذور معين. ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه السابق ليتطرق إلى الأسباب التي وقفت وراء دفعه عن حقه فقال:

«أَمَّا الْأَسْبَابُ فَهِيَ بِهَذَا الْمَقَامِ وَنَحْنُ الْأَعْلَوْنَ نَسِيبًا، وَالْأَسْفَلُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - نَوْطًا [٣١١]، فَإِنَّهَا كَانَتْ أَثَرَةً [٣١٢] شَحَتْ [٣١٣] عَلَيْهَا نُفُوسٌ

قَوْمٌ، وَسَخَتْ [٣١٤] عَنْهَا نُفُوسٌ آخَرِينَ؛ وَالْحَكَمُ اللَّهُ، وَالْمَعْوَدُ [٣١٥] إِلَيْهِ الْقِيَامَةُ».

المراد من الإستبداد، من مادة

(بدد)

، بمعنى الابعاد والتفريق، بحيث يستولى الإنسان على شىء ويبعد الآخرين عنه. فقد عزى الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من كلامه الدليل الأصلي لغضب الخلافة رغم أولويته بها إلى الإستبداد والبخل الذى أعمى أعين البعض عن الواقع فسارع عزل الآخرين واعتلى موقع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله.

من الواضح أن المراد من هؤلاء الأفراد أولئك الذين اجتمعوا فى سقيفه بنى ساعدة لاختيار الخليفة، وإن دفع التعصب ابن أبى الحديد لينسب المقصود إلى الشورى

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٥

التي نصبها عمر ومعارضه عبدالرحمن بن عوف لخلافة على عليه السلام والذي يعد فى الواقع من قبيل انكار البديهيات؛ ذلك لأن سؤال السائل كان بشأن أصل الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وجواب الإمام عليه السلام أيضاً عالج هذه القضية والذي يشبه ما أورده الإمام عليه السلام بهذا الخصوص فى خطبة أخرى والمراد من العبارة

«وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسٌ آخَرِينَ»

إننا بنى هاشم حين رأينا الإصرار العجيب لتلك الفئة على مصادرة الخلافة ولا- تعود المقاومة سوى إلى تصدع كيان المجتمع الإسلامى غضضنا الطرف عنها بكل سخاء ولم نمارس أية مقاومة.

ثم تمثل الإمام عليه السلام بذلك الشعر الذى ينسب إلى

امرؤ القيس

الذى قال فيه دع عنك الحديث بشأن الغارات التى وقعت فى الزمان الماضى وحدثنى عن غارات اليوم (حيث آلت فيه الخلافة الإسلاميه إلى معاوية الذى أصبح الخطر العظيم الذى يهدد الإسلام).

ودع عنك نهياً صيح فى حجراته [٣١٦] ولكن حديثاً ما حديث الرواحل.

يذكر أن

امرؤ القيس

أنشد هذا البيت بعد قتل أبيه الذى لجأ إلى

خالد بن سدوس

فهجمت عليه طائفة من قبيلة

بنى جديلة

ونهبوا الأموال والجمال. فأخبر

امرؤ القيس خالد

الخبر فقال له: أعطنى جمالك حتى استعيد تلك الجمال فقبل. فاتجه

خالد

إلى قبيلة

بنى جديله

فظالهم باعادة الجمال. فأنزلوه من ناقته وأخذوا منه البقية. فلما اطلع

امرؤ القيس

على هذا الخبر أنشد ذلك البيت، ومضمونه: دع عنك نهب تلك الجمال وحدثني عن هذه التي سلمها

خالد

لهذه القبيلة [٣١٧]. ينطوى هذا القسم على موضوعين مهمين سنتطرق إليهما في ختام الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٧

القسم الثاني

وَهَلَمَّ الْخُطْبَ فِي ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ ابْنِكَ؛ وَلَا غَرْوَ وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خُطْبًا يَسْتَفْرِغُ الْعَجَبَ، وَيُكَيِّزُ الْأَوْدَ! حَاوَلَ الْقَوْمُ
إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَارِهِ مِنْ يَثْبُوعِهِ، وَحَدَّحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرِبًا وَبَيْنًا، فَبِإِنْ تَرْتَفِعَ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحْنُ الْبُلُوَى أَحْمِلُهُمْ مِنْ
الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

الشرح والتفسير

هذا المقطع من الخطبة شرح لما ذكره الإمام عليه السلام على نحو الإشارة في البيت الذي تمثل به والذي أنشده امرؤ القيس، فقد صرح الإمام عليه السلام بترك الماضي رغم عيوبه وإشكالاته والنظر إلى الطامة التي تحدث اليوم:

«وَهَلَمَّ [٣١٨] الْخُطْبَ [٣١٩] فِي ابْنِ أَبِي

سُفْيَانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ ابْنِكَ».

إنك تسألني لم أبعثوك عن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله في حين لا يرقى إليك أحد؟ تعال اليوم وانظر إلى ابن أبي سفيان عدو الإسلام اللدود الذي يطالبني بالخلافة. يا له من أمر مبك ومضحك، أما أنه مبك فذلك لأن الإسلام بلغ مرحلة يريد فيها ابن أعدى أعداء الدين زعامه الدولة الإسلامية والدفاع عن حمى الإسلام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٨

والمسلمين، وأما أنه مضحك فذلك لأنه ليست هنالك من نسبة للمقارنة بيني وبينه، ولذا لا يقاس معاوية أبداً بي بل أنا وهو طرفي التضاد، نعم ربما لا يعود هذا البكاء والضحك لزمان واحد، فالبكاء لهضم حقوق الإسلام والمسلمين في كيفية رضاهم بحكومة بنى أمية حثالة عصر الجاهلية.

ثم قال عليه السلام

: «وَلَا غَرْوَ [٣٢٠] وَاللَّهِ، فَيَا لَهُ خُطْبًا يَسْتَفْرِغُ [٣٢١] الْعَجَبَ، وَيُكَيِّزُ الْأَوْدَ [٣٢٢]!».

لعل صدر وذيل العبارة يبدو في الوهلة الأولى متناقضاً، إلا أنه في الواقع نوع من البلاغة والفصاحة التي أوردها الشاعر حين أنشد:

قَدْ صِرْتُ فِي الْمِيدَانِ يَوْمَ طَرَادِهِمْ فَعَجِبْتُ حَتَّى كِدْتُ أَنْ لَأَعْجَبَا [٣٢٣]

أى، تعجبت إلى الحد الذي لم يبق لي من مجال للتعجب فقد وطأت الميدان فعجبت من الوضع إلى درجة أنني كدت أن لا اتعجب،

ولعل ذلك من باب المثل المعروف، «أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا تَجَاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ ضِدُّهُ». والعبارة «وَيُكْثِرُ الْأَوْدَا!»

إشارة إلى أن المجتمع الإسلامي بفعل حكومته يتزعمها ابن أبي سفيان سينحرف تماماً عن الصراط ويعيش الاعوجاج في كل شيء. ثم خاض الإمام عليه السلام في تفاصيل هذا الأمر فقال:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِصْبَاحِهِ، وَسَدَّ فَوَارِهِ [٣٢٤] مِنْ يَبْتُوعِهِ، وَجَدَحُوا [٣٢٥] بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شَرْبًا وَبَيْنًا [٣٢٦]»
فالعبرة .

«حَاوَلَ الْقَوْمُ ...»

إشارة إلى أن بنى أمية لا يسعون إلى الحكومة وزعامه الأمة فحسب، بل هدفهم إطفاء نور الإسلام والقرآن، والهدف إعادة الأمة إلى الجاهلية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٠٩

وعصرها المظلم وأعمالهم خير شاهدة على ذلك.

والعبارة

«وَسَدَّ فَوَارِهِ ...»

بينت نفس المعنى بتعبير آخر، حيث شبه الإسلام والقرآن بعين فياضة انفجرت في صحراء جاهلية العرب وروت بمائها العذب ما تصحو من قلوبهم واثمرت تلك النبتة، ويسعى بنى أمية لغلق هذه العين وسوق الأمة إلى تلك الصحراء.

والعبارة

«وَجَدَحُوا ...»

تعبير رائع آخر للمعنى المذكور. فقد خلط هؤلاء القوم ماء الشريعة العذب الفرات بالسموم الفتاكه ليسموا أفكار الأمية ويلوثوا أخلاقها، فمثل هذه الأمة لن تنقاد إلى بنى أمية وآل أبي سفيان إن عاشت السلامة في فكرها والظهر في أخلاقها. نعم، فهؤلاء لم يسعوا لإطفاء نور الولاية فحسب، بل وعلى غرار المشركين الذين قال فيهم القرآن: «يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ» [٣٢٧] سعوا إلى إطفاء نور الإسلام والقرآن والحيلولة دون نشر الإسلام والمعارف الدينية وقد وضعوا العديد من الأحاديث لتلويث هذا الماء العذب.

ثم اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى عزمه الذي اتخذ به هذا الشأن فقال:

«فَإِنْ تَرْتَفِعَ عَنَّا وَعَنْهُمْ مِحْنُ الْبُلُوَى أَحْمِلُهُمْ مِنَ الْحَقِّ عَلَى مَحْضِهِ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى

«فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»... أي، إن زالت الموانع فإني على استعداد تام لإعادة الأمة الإسلامية إلى سابق عزها على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأسأبدل جهدي بهذا الخصوص، ولكن إن لم تسمح الظروف فلا إشكال، ذلك أنني أعمل بوظيفتي وسيدوق هؤلاء وبال أعمالهم.

تأملات

١. حق السؤال

عادة ما يواجه الإنسان من حوله سيلاً من المجاهيل التي ترتبط أحياناً بالأمور

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٠

المادية وأخرى المعنوية وسؤال العلماء والمختصين، مفاتيح حل تلك المجاهيل.

ولذلك فتح الله تعالى على الإنسان أبواب السؤال بشأن عالم التشريع والتكوين.

وتمتاز الشريعة الإسلامية الغراء بأنها لم تأذن بفتح باب السؤال لكل شخص وفي أى مجال فحسب، بل أمرت بذلك. القرآن الكريم من جانبه أكد على هذا الأمر في آيتين: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» [٣٢٨]. كما قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى بعض كلماته القصار فى نهج البلاغة:

«وَلَا يَسْتَحْيِينَ أَحَدًا إِذَا لَمْ يَعْلَمِ الشَّيْءَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ» [٣٢٩]

. نعم، فالسؤال ليس عيباً، بل العيب أن لا يسأل الإنسان ويبقى فى الجهل.

الجدير بالذكر أن الخطبة المذكورة إشارة إلى أن السؤال حق لكل شخص، ويبدو هذا الأمر أكثر أهمية لدى الشباب وذلك لكثرة مجهولاتهم. فمن حيث التكوين والخلق فإن الله خلق فى ذات الإنسان حب الاستطلاع والبحث. فالإنسان يميل بطبعه لمعرفة الأشياء التى لا يعلمها، وتبدو هذه الرغبة أعمق لدى الشباب، بسبب تلك الحاجة، فهم يطرحون أحياناً على الوالدين بعض الأسئلة التى تنتهى عادة بارتفاع أصواتهم، والحال، واجبهم يتطلب منهم تلبية هذه الحاجة الروحية بكل عطف ورفق، فيعلمونهم ما لا يعلمون وإن عجزوا عن الجواب أرشدوهم إلى من يجيبهم. والبعض يعتقد أن السؤال عن القضايا الأصولية والعقائدية من دواعى الكفر والإلحاد، بينما تسهم مثل هذه الأسئلة فى ترسيخ الإيمان وشد الجانب العقائدى لدى الإنسان. لا شك أن وظيفة العلماء تقتضى تأهيبهم للإجابة عن الأسئلة فى كافة الظروف والتعامل مع السائل بكل أدب واحترام، ولا- ينبغى لهم نسيان ضرورة قيامهم بهذا الدور، لما قاله أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ عَلَى الْجَهَّالِ عَهْدًا بِطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَخَذَ عَلَى الْعُلَمَاءِ عَهْدًا بِبَدْلِ الْعِلْمِ لِلْجَهَّالِ» [٣٣٠].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١١

ونختتم البحث ببعض الأحاديث الواردة بهذا الشأن: أولاً: ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام فى حثه أحد أصحابه وهو حمران بن أعين على السؤال أنه قال:

«إِنَّمَا يَهْلِكُ النَّاسَ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْأَلُونَ» [٣٣١].

وثانياً: قال على عليه السلام:

«الْقُلُوبُ أَقْفَالُ مَفَاتِحِهَا السُّؤَالُ» [٣٣٢].

وثالثاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«الْعِلْمُ خَزَائِنٌ وَمَفَاتِيحُهَا السُّؤَالُ فَاسْأَلُوا يَرْحَمَكُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُؤَجِّرُ فِيهِ أَرْبَعَةٌ: السَّائِلُ وَالْمُعَلَّمُ وَالْمُسْتَمِعُ وَالْمُحِبُّ لَهُمْ» [٣٣٣]

. التفت اعرأبى يوم الجمل إلى أمير المؤمنين وقال: يا أمير المؤمنين، تقول أن الله واحد؟ ما المراد بهذه الوحدة. فهجم عليه الناس من كل جانب وقالوا له ألا ترى انشغال أمير المؤمنين بالقتال؟ (فلكل حادث حديث) فأشار عليهم الإمام عليه السلام دعوه فما يسأل عنه الأعرأبى هو ما نريده من القوم (إننا ندعوهم إلى التوحيد والقتال لمعرفة هذه التعاليم المقدسة) ثم قسم الإمام عليه السلام التوحيد إلى أربعة أقسام اثنان مرفوضان واثنان مطلوبان [٣٣٤].

٢. الهدف الاصلى من السؤال والجواب فى الخطبة

مراد الرجل الاسدى من السؤال بشأن الخلافة واجابة الإمام عليه السلام واضحة تماماً أنها بخصوص السقيفة وتغيير محور الخلافة عن أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه وآله بعد وفاته، إلا أن تعصب ابن أبى الحديد لمذهبه جعله يفسر العبارة ومرادها على أساس احتمال ضعيف من قبيل أن المراد معارضة عبدالرحمن بن عوف لخلافة على عليه السلام ودفعها لعثمان. والغريب فى الأمر أن ابن أبى الحديد نقل هنا قصة عن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٢

استاذ أبي جعفر النقيب تؤيد تماماً ما قلناه، وهي منطقيته تماماً، مع ذلك لم يستطع هذا الرجل المفكر ابن أبي الحديد من التسامى على بعض تعصبه، إذ يروى عن أستاذه الذي يصفه بأنه رجل منصف علوى المذهب وله حظ وافر من العقل أنه يسأله ماذا عنى ذلك السائل بسؤاله الإمام على عليه السلام عن أبعده عن حقه؟ أكان مراده يوم السقيفة أم يوم الشورى أجاب: السقيفة. قلت: لا أجزى لنفسى أن أقول إن أصحاب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله خالفوه ولم يلتزموا بمعنى الخلافة. قال: إنا أيضاً لا أجزى لنفسى أن أنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أهمل أمر الخلافة والإمامة من بعده وترك الأمة دون إمام، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله ينصب من يقوم مقامه إن سافر إلى المدينة، فكيف لا ينصب شخصاً للخلافة بعد وفاته وأضاف الأستاذ أن الجميع يعتقدون أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قمة الكمال العقلي، كما يعتقد اليهود والنصارى والفلاسفة والحكماء أنه رجل حكيم وله نظرة صائبة وقد أتى بقوانين منطقيته وعقليته، وبغض النظر عن مقام النبوة فإن تعاليمه تستند إلى الوحي، وهذا الإنسان كان عارفاً بالعرب ويعرف طباعهم وأحقادهم وإن قُتل شخص لقبيلة ثأروا له، فإن عجزوا فمن أهله وقرابته، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحب بنته فاطمة وولديها الحسن والحسين وبعلمها علماً عليهم السلام، ولا شك في أنه لو لم يستند إلى الوحي فلن يتركهم دون إمام، أتظن أنه أراد أن تكون إحدى ضعفاء المدينة. وفي وسط قوم أراق على عليه السلام دماء قراباتهم، والواقع هو أن رسول الله صلى الله عليه وآله سفك دماءهم لا على عليه السلام.

خلاصة القول أن هذا الرجل العاقل كان لابد له من تنصيب أحد للخلافة من أهل بيته لكي لا تموت رسالته. قال: فقلت له: هذا صحيح، لكن كلام الإمام عليه السلام لا يدل على النص في الخلافة، أجاب: صحيح، إلا أن السائل لم يسأل عن النص في الخلافة بل سأل كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم الأعلى نسباً وقرابة من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فأجابه الإمام عليه السلام عن هذا السؤال [٣٣٥].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٣

٣. بنى أمية ومؤامرة القضاء على الإسلام

يستفاد من عبارات الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة ولاسيما قوله:

«حَاوَلَ الْقَوْمُ إِطْفَاءَ نُورِ اللَّهِ مِنْ مِضْبَاحِهِ...»

أن هدف بنى أمية لم يقتصر على الاستيلاء على الخلافة الإسلامية فحسب، بل إنهم سعوا جاهدين لمحو آثار الإسلام، كونهم حثالى عصر الجاهلية، ولولا تضحيات تلك النلة المخلصه فى كربلاء والننى كشففت عن كوامن بنى أمية لما بقى اليوم من الإسلام إلا اسمه، والشواهد التاريخيه على ذلك كثيره منها:

١. إن المؤرخ المعروف المسعودى قد روى فى كتابه (مروج الذهب) قصه عن المأمون، الخليفة العباسى أنه أصدر أمراً سنة ٢١٢ هـ وبعث بمنادٍ ينادى أن ليس لأحد أن يذكر معاوية بخير أو يقدمه على أى من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله وحين حاول البعض معرفه دافع المأمون، اتضح أن السبب ما ذكره له ابن المغيرة بن شعبه، قال: دخلت الشام مع أبى وكان كل يوم يقصد معاوية ويمدحه حتى رجع يوماً حزيناً فسألته الخبر. قال: رجعت من أحبب الناس. قلت: لم؟ قال: كنت عند معاوية فأشرت عليه بالعدل والخير تجاه بنى هاشم وصله الرحم فقال غاضباً: - هيهات هيهات أخو تيم (أبو بكر) ولّى الخلافة وفعل ما فعل، فلما مات انقطع ذكره، ثم ولاها أخو عدى (عمر) فلما مات انقطع ذكره، وكذلك عثمان إلا أخو هاشم ينادى باسمه كل يوم خمس مرات

«أشهد أن محمداً رسول الله»

فما الذى يبقى لنا ثكلك أمك.

ثم قال:

«وَاللَّهِ إِذَا دَفَنَّا دَفْنًا» [٣٣٦]

. فلما سمع المأمون ذلك أصدر أمره المذكور بحق معاوية [٣٣٧] فهذا الخبر الذي تناقلته كتب التاريخ يكشف الكثير من الأمور ويتضمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٤

الأجوبة عن الكثير من الأسئلة التي تطرح بشأن مؤامرات بنى أمية.

والشاهد الآخر على ما ذكرناه الشعر الذي تمثل به يزيد بن معاوية حين سمع بمصرع الحسين فأنشد:

لَعِبْتُ هَاشِمًا بِالْمَلِكِ فَلَاخَبِرٌ جَاءَ وَلَا وَحْيٌ نَزَلَ

ولا غرو فهو ابن معاوية بن أبي سفيان. قال الطبري: حين ولي عثمان الخلافة خاطب أبوسفيان بنى أمية: هل فيكم غيركم؟ قالوا: لا، قال:

«تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرَّةَ فَمَا هُنَاكَ جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ» [٣٣٨].

وروى المسعودي (في مروج الذهب) أنه قال

«يَا بَنِي أُمِيَّةَ تَلَقَّفُوهَا تَلَقَّفَ الْكُرَّةَ فَوَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ أَبُو سَفْيَانَ مَا زِلْتُ أَرْجُوهَا لَكُمْ وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى صِيَانِكُمْ وَرَائَهُ» [٣٣٩]

. كما روى هذا المعنى ابن عبد البر في الاستيعاب، وقال: كان هذا في مجلس عثمان، فلما سمع انكاره للجنة والنار قال:

«قُمْ وَانصِرْف عَنِّي» [٣٤٠].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٥

الخطبة ١٦٣

نظرة إلى الخطبة [٣٤١]

إنها خطبة بليغة وفضيحة تتكون من قسمين:

القسم الأول: يتحدث عن صفات الله الجمالية والجلالية، وقد شرح الإمام عليه السلام تسع عشرة صفة من صفات الله بعبارات غاية في الروعة حسبا ذكره المرحوم المحقق البحراني.

أما القسم الثاني: فخطب فيه الإمام عليه السلام الإنسان وقد بين آيات القدرة الإلهية في خلقه رغم ضعفه وعجزه، ليربط صدر الخطبة بذيلها ويرسم صورة جميلة عن توحيد الله ومعرفته.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٧

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمَوَادِ، وَمُسَبِّلِ الْوَهَادِ، وَمُخَصِّبِ النَّجَادِ. لَيْسَ لِأَوْلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ. خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشَّفَاهُ. حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهَهَا. لَا تُقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْمَادَوَاتِ. لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمِيدٌ «بِحَتَّى». الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ: «مِمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟» لَا شَبِيحٌ فَيَتَقَصَّى وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحَوَّى لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالْفِتْرَاقِ، وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصٌ لِحَطِّهِ، وَلَا كُرُورٌ لِفَطْهِ، وَلَا اِرْدِلَافٌ رَبُوءِهِ، وَلَا انْبِسَاطٌ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعَقَّبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ،

وَتَقَلَّبِ الْأَزْمَنَةَ وَالذُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ. قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَّةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُّهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَفْطَارِ، وَتَأْتِلِ الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنِ الْأَمَّاكِينَ. فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

الشرح والتفسير: حادثة مهمة

يبين المقطع الأول من الخطبة كما ذكرنا جانباً من صفات الله، والمهم أنه يستهل الخطبة بصفات الأفعال، يعنى خلق عالم الوجود وما ينطوى عليه من عجائب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٨

وغرائب، ذلك لأن هذه الصفات تدرك من قبل الجميع، حيث قال:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ [٣٤٢] الْمَهَادِ [٣٤٣]، وَمُسِيلِ الْوَهَادِ [٣٤٤]، وَمُخْصِبِ النَّجَادِ [٣٤٥]» [٣٤٦]

. فقد أشار الإمام عليه السلام بادية الأمر إلى خلق الناس بصفته، أروع خلق الله، ثم أشار إلى ثلاثة محاور مهمة (موضع السكن والماء، مادة الحياة، والمواد الغذائية) ليثير لدى الآخرين الشعور بالإمتنان والشكر ويعدّهم للتعرف على صفات الله الجمالية والجلالية. (والعباد)

الواردة بقرينة العبارات القادمة تعود إلى الناس وأن تشمل أحياناً الملائكة والجن. وتشير

«وَسَاطِحِ الْمَهَادِ»

إلى ما ورد في الآية الشريفة: «أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا» [٣٤٧]. والعبارة

«وَمُسِيلِ الْوَهَادِ»

بالنظر إلى أن الوهاد تعنى الوديان والمنخفضات إشارة إلى أن الله تعالى جعل بعض مناطق الأرض منخفضة لتتخلها المياه دون غيرها. والعبارة

«وَمُخْصِبِ النَّجَادِ»

إشارة إلى قدرة الله فى إحياء الأراضى المرتفعة بالنباتات رغم عدم وصول المياه إليها.

ثم خاض الإمام عليه السلام فى جانب مهم من صفاته تعالى الأزلية والأبدية وواجب الوجود فقال:

«لَيْسَ لَأَوْلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لَأَزَلِّيَّتِهِ انْقِضَاءٌ. هُوَ الْأَوَّلُ وَلَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ»

. أثبتت الأدلة العقلية أن الله واجب الوجود ليس له بداية ولا نهاية، كان دائماً ولا يزال، فوجوده عين ذاته وذاته مطلقة، وعليه فالعبارة

«هُوَ الْأَوَّلُ ...»

«وَالْبَاقِي ...»

نتيجة للعبارة

«لَيْسَ لَأَوْلِيَّتِهِ ... وَلَا لَأَزَلِّيَّتِهِ ...»

لأنه حين لا تكون لأزليته وأبديته بداية ولا نهاية، فهو الأول والآخر، وهاتان الصفتان فى الواقع أساس أغلب صفات الله، وصفاته الجمالية والجلالية إنما تعود إلى هاتين الصفتين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢١٩

قال القرآن الكريم: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [٣٤٨].

ثم قال عليه السلام:

«خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ»

. ومن المسلم به أن خالق جميع الأشياء والمخلوقات والنعم والذي يستمد الوجود بأسره، الوجود منه فهو أهل للعبادة والسجود والحمد وليس لأحد غيره هذا المقام. وبالطبع فإن ذلك السجود والحمد يختص بالعارفين بالله لا الكفار والمشركين الذين لا يستحقون الذكر.

ثم واصل كلامه بالإشارة إلى بعض الصفات السلبية المنزهة من كل نقص فقال:

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبَهَاتِهَا»

. إشارة إلى أن جميع المخلوقات محدودة وذاته المقدسة فقط لا تعرف الحدود، ومن هنا ليست هنالك من صعوبة في تمييز الخالق من المخلوق والإبتعاد عن السقوط في مستنقع الشرك. وهنا يرد هذا السؤال: أفيمكن أن يخلق الله شيئاً غير محدود أو بعبارة أخرى، واجب الوجود؟ أن ذات كل مخلوق تقتضي كونه محدوداً، ومن هنا كيف يقال إن الله خلق الأشياء المحدودة حتى لا تشبه ذاته؟

والجواب عن هذا السؤال: إن المراد من

«حَدَّ الْأَشْيَاءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا ...»

تمييزه عن المخلوقات؛ بعبارة أخرى فإن

«إِبَانَةٌ لَهُ»

ليست مفعولاً لأجله، بل نتيجته وغاية الفعل. والمسألة الأخرى الجديرة بالإنفات أن أغلب نسخ نهج البلاغة نقلت العبارة

«إبانة لها»

وفي هذه الحالة لا يرد أي غموض وإبهام؛ حيث مفهوم العبارة أن الله حد الأشياء عند خلقها أي جعل لكل موجود حدود معينة تميزه من الأخرى من قبيل ما ورد في الآية ١٣ من سورة الحجرات: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا» [٣٤٩].

ثم أسهب عليه السلام في شرح مطلقية ذات الله المقدسة ليكشف عمق هذه الحقيقة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٠

بعبارات مختلفة تسلط الضوء على كل جوانب غناه عن الحدود فقال:

«لَا تَقْدَرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالنَّحْرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدَوَاتِ»

. ليست له أعضاء كأعضاء الإنسان ولا يعتمد الوسائل والأدوات لتحقيق ما يشاء، كما لا يحتاج الحركة والانتقال من مكان إلى آخر، ذلك لأن كل هذه الأمور من علامات المحدودية ولا تعرف ذاته الطاهرة أية حدود وقيود، ومن هنا تعذر على سكان العالم المحدود المعروف بالنقص والحاجة، الوقوف على كنه تلك الذات المقدسة، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

«كُلُّ مَا مَيَّزْتُمُوهُ بِأَوْهَامِكُمْ فِي أَدَقِّ مَعَانِيهِ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ مِثْلَكُمْ مَرْدُودٌ إِلَيْكُمْ» [٣٥٠].

ثم وضع مقاله سابقاً:

«لَا يُقَالُ لَهُ: «مَتَى» وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ «بِحَتَّى». الظاهر لا يُقَالُ: «مَمَّ؟» وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: «فِيمَ؟»»

وعلى هذا الضوء ليست له من بدايه ولا نهاية، لا ظاهر كظهور الشمس والقمر، ولا باطن كالمعادن الخفية في باطن الأرض، وفي ذات الوقت فذاته أظهر من كل شيء وأخفى من كل شيء، بعبارة أخرى، فإن ظهوره ظهور ذاتي وخفاءه من كنه ذاته.

ثم خاض عليه السلام بصورة أعمق ليقول:

«لَا شَيْخَ [٣٥١] فَيَتَفَصَّى [٣٥٢]، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُخَوَى [٣٥٣].

لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالنِّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ»

. فقد نفى الإمام عليه السلام في هذه العبارات بادية الأمر، الجسمية عن الله، ذلك لأن الجسم إما ظاهر له حد و حدود أو مخفى

ومحتجب في شيء آخر وله حدّ وحدود في كلا- الحاليتين، والحال ليس لواجب الوجود من حدود، كما يلاحظ في العبارتين الأخيرتين تجلّى آخر لغنى الذات المقدّسة عن الحدود. فهو أقرب لكل شيء، لكن ليس بمعنى الالتصاق أو الحلول والاتحاد، بل بمعنى الحضور في كل مكان والاحاطة بكل شيء، كما هو

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢١

بعيد عن كل شيء ليس بمعنى المسافة والانفصال عن الأشياء، بل بمعنى سمو ورفعه وجوده وصفاته بالنسبة لسائر الأشياء. وهذا يشبه ما ورد في الخطبة الأولى من نهج البلاغة:

«مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَابِمُقَارِنِهِ وَغَيْرِ كُلِّ شَيْءٍ لَابِمُزَايَلِهِ»

. لا شك أنه يستحيل جمع هذه الصفات في الممكنات؛ ذلك أنّ الشيء إن بعد فلا يسعه الاقتراب، وإن اقترب فلا يمكنه الابتعاد، ولكن ليس هنالك من معنى لتضاد القرب والبعد وأمثال ذلك في ذات واجب الوجود المطلق.

ثم تطرق عليه السلام إلى موضوع علم الله تعالى بكل شيء وفي كل زمان ومكان من خلال عبارات رائعة عميقة المعنى فقال:

«وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شَخُوصٌ [٣٥٤]

لَخُطْبِهِ، وَلَا كُرُورٌ لِفُطْنِهِ، وَلَا أَرْذَالٌ [٣٥٥] رِبْوَةٌ [٣٥٦]، وَلَا انْبِسَاطٌ خُطْوَةٍ، فِي لَيْلٍ دَاجٍ [٣٥٧]، وَلَا

عَسَقٍ [٣٥٨] سَاجٍ [٣٥٩]

. فالإمام عليه السلام بغية تشخيص عدم خروج أخفى الأشياء عن علم الله يفترض مسافراً مرّ في ليله ظلماء بصحراء وقد صوب بصره إلى الصحراء وينبس ببعض الكلمات، يقترب من التلال والمرتفعات ويتسلقها بسرعة ليبلغ غايته وهو يشق طريقه في تلك الظلمة المعتمّة، فالله تعالى الذي لا يخفى عليه شيء من حركات عيون وشفاه وأقدام هذا المسافر لهو أعلم بأعمال عباده وهم يأتون بها في وضوح النهار وفي المدن والبلدان.

ثم قال في وصف هذه اليلة الظلماء:

«يَنْفَيْتُ [٣٦٠] عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعْقُبُهُ الشَّمْسُ

ذَاتُ النُّورِ فِي الْأُفُولِ وَالْكُرُورِ [٣٦١]»

. إشارة إلى أنّ علم الله بالموجودات وأعمال

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٢

الإنسان لا يقتصر على اليالي المظلمة، بل يشمل اليالي القمرية والنهار الواضح، بالتالي ليس هنالك من مكان خارج عن علم الله كالذي ورد في ما بعد:

«عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى .

ثم قال مواصلاً كلامه:

«وَتَقَلَّبُ الْأَزْمِنَةَ وَالذُّهْرَ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ»

. هذه العبارة كتلك التي وردت في العبارات القادمة:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ»

وكل هذه العبارات تشير إلى سعة علم الله الذي لا يحده الزمان والمكان. وهنا يرد هذا السؤال: لماذا استند إلى إقبال الليل والنهار مع أنّ لكل من الليل والنهار إقبال وإدبار؟ لعل هذه العبارة تأكيد لما مرّ في العبارات السابقة بشأن نفوذ علم الله إلى أعماق الظلمات وليس فقط وضوح النهار. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أنّ تركيز الإمام على إقبال الليل وإدبار النهار ربّما إشارة إلى أنّ أمور الدنيا غالباً ما تجرى على خلاف رغبة الإنسان [٣٦٢].

ثم قال عليه السلام:

«قَبِلَ كُلُّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلُّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ»

. الواقع أن العبار

(لا يخفى عليه من عباده ...)

التي تحدت فيها عن علم الله بالزمان والمكان وكل إنسان وشيء تشمل هذا المعنى أيضاً أنه عليم بنهاية عمر كل إنسان وكل موجود قبل أن ينتهي عمره كما يعلم عدد الموجودات قبل أن تعد وتحصى [٣٦٣].

ثم قال في نتيجة كلية:

«تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُهُ الْمُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتِلِ [٣٦٤] الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنُ الْأَمَّاكِينَ»

. نعم؛ فكل طائفة ضالة

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٣

تفتقر إلى المعرفة من قبيل المشبهة والمجسمة إنما شبهت الله بمخلوقاته وجعلت له جسماً وأعضاءاً، وأن له مكاناً وينتقل من مكان إلى آخر فيحضر هنا ويغيب هناك، والحال أنه لأرفع من الزمان والمكان والقياس والوهم؛ أرفع مما نرى ونقرأ ونكتب، فليس له جسم ولا مكان ولا صفة من صفات المخلوقات. والعبارة المذكورة إشارة إلى أربعة أنواع من الحدود يتنزه الله عنها جميعاً: الحدود من حيث القامة كالصغر والكبر ومن حيث النهاية كمقدار العمر ومن حيث اختيار السكن وأخيراً من حيث المكان. فهو وجود مطلق لا متناهٍ غني عن أي من الحدود، ذلك لأن كل هذه الأمور من صفات المخلوقات. ومن هنا اختتم الخطبة بالقول:

«فَالْحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ»

. فهذه العبارة هي عبارة الأبحاث السابقة في أن كل محدودية هي إنما تعود للمخلوقات ومن شأن الممكنات، وليس لهذه الصفة من سبيل إلى ذاته المطلقة.

تأمل: الله حقيقة مطلقة

إن أول وأهم مطلب ينبغي إثباته في باب صفات الله ليتضح مفهوم التوحيد وكذلك سائر الصفات كالعلم والقدرة وماشابه ذلك يتمثل في كون ذاته مطلقة لا متناهية، وذلك لأنه إن ثبت هذا المطلب فقد تمهد السبيل أمام إدراك جميع صفاته الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية). ولإثبات ذلك لابد من الألتفات إلى الأمور التالية:

١. إن محدودية الوجود تعني طروء العدم، ذلك لأنه إن لم يرد العدم فلا معنى للحدود. فلو قلنا إن عمر فلان محدود، فذلك يعني أن عمره سينتهي يوماً إلى العدم، وهكذا بشأن العلم والقدرة وماشابه ذلك.

٢. إن الوجود ضد العدم فإن اقتضى شيء بذاته الوجود فلا يمكنه اقتضاء العدم.

٣. ثبت في برهان العلة والمعلول أن سلسلة العلة والمعلول لهذا العالم يجب أن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٤

تنتهي إلى نقطة ثابتة وأزلية يصطلح عليها (واجب الوجود) أي أن وجوده من ذاته لا- من خارجها، وعليه فإن العلة الأولى للعالم تقتضي الوجود بذاتها فهي لا تتمزج بالعدم. وعلى ضوء هذه المقدمات الثلاث يتضح أن طرأت حدود على الذات الواجبة الوجود فلا بد أن تكون من خارجها، ذلك لأن المحدودية استناداً إلى المقدمات المذكورة بمعنى الامتراج بالعدم، والشئ الذي تقتضي ذاته الوجود فإنها لا- تقتضي العدم اطلاقاً. وبناءً على هذا فإن اعترته محدودية فلا بد أن يحده عامل خارجي ويلزم من ذلك أنه ليس بواجب الوجود، لأنه معلول لذات أخرى ومخلوق آخر في حد وجوده. بعبارة أخرى مِمَّا لا- شك فيه أن العالم ينتهي إلى واجب

الوجود، فإن كان واجب الوجود غير محدود فليست هنالك من مشكلته، أما إن كان محدوداً فذلك ليس من مقتضيات ذاته، لأن ذاته تقتضى الوجود لا العدم، إذن لا بد أن تطرأ عليه من الخارج. ومفهوم هذا الكلام أن هنالك علة خارج وجوده وهو معلول لتلك العلة وفي هذه الحالة سوف لن يكون واجب الوجود.

وقد تعرضت الرواية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام إلى وجوده المطلق على ضوء البرهان المذكور، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ عَظُمَ رَبُّنَا عَنِ الصِّفَةِ فَكَيْفَ يُوصَفُ بِمَحْدُودِيَّةٍ مَنْ لَا يُحَدُّ» [٣٦٥]

. وورد عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال:

«هُوَ أَجَلُّ مَنْ

أَنْ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهَمٌّ أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ»

قال السائل: حده لى؟ قال عليه السلام:

«إِنَّهُ لَا يُحَدُّ قَال: لِمَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَنَاهٍ إِلَى حَدٍّ فَإِذَا ائْتَمَلَ التَّحْدِيدَ ائْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَأَذَا ائْتَمَلَ الزِّيَادَةَ ائْتَمَلَ النَّقْصَانَ فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتْرَائِدٍ وَلَا مُتَجَرِّئٍ وَلَا مُتَوَهِّمٍ» [٣٦٦].

نقمة الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٥

القسم الثاني

لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولٍ أَرْزَلِيَّةٍ، وَلَمَّا مِنْ أَوَائِلِ أَيْدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حِدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ. لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ائْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ائْتِنَاعٌ. عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى

الشرح والتفسير: العلم الإلهي المطلق

واصل الإمام عليه السلام ما طرحه سابقاً بشأن قدرة الله التامة وعلمه المطلق فقال:

«لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولٍ أَرْزَلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلِ أَيْدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حِدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ»

فالعبرة إشارة إلى الابداع فى الخلق، أى خلق الأشياء دون سابقه، فلم تكن هناك مواد أزلية استعان بها الله لخلق الأشياء، كما لم تكن هنالك إشكال وصور احتذاها فى تصويره الأشياء، خلافاً لما اعتقده الفلاسفة من أزلية المادة، فلا أيدية وأزلية سوى للذات المقدسة، وهذا ما بيناه فى برهان التوحيد من امتناع وجود الأبدى والأزلى فى عالم الممكنات. والعجيب أن الإمام عليه السلام كشف النقاب عن هذه الحقيقة فى عصر وبيئه لم ترق لهذه الأفكار ولم تشهد معرفة الله مثل هذا المنطق الرصين.

ثم أشار عليه السلام إلى قدرة الله المطلقة من زاوية أخرى فقال:

«لَيْسَ لِشَيْءٍ مِنْهُ ائْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ ائْتِنَاعٌ»

. بل الجميع مستسلم لإرادته التكوينية، فيوجد ما يشاء متى شاء ويعدم ما يشاء كيفما شاء، مع ذلك فاستسلام الموجودات وطاعة

نقمة الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٦

المطيعين وعبادة العابدين لا تزيد فى عظمته شيئاً، لأن وجوده مطلق ومصدر جميع الخيرات والبركات. هذا من حيث القدرة، أما بشأن العلم المطلق فقال:

«عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى

. فما ذكره الإمام عليه السلام فى هذه العبارات البليغة الرائعة العميقة المدى اقتباس من بعض الآيات القرآنية من قبيل: «وَمَا يَعْرِزُبُ عَنْ

رَبِّكَ مِنْ مَّثَقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أضعَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» [٣٦٧] «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا» [٣٦٨] والاية: «وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» [٣٦٩]. وزبدة الكلام:

تتعذر معرفة الله دون الوقوف على علمه المطلق وقدرته اللامتناهية وأزليته وأبديته الغنية عن الحدود.

تأمل: دور الإيمان بعلم الله على العمل

الموضوع المهم هنا أن مثل هذا الإيمان بعلم الله وقدرته وأزليته وأبديته لا يقتصر دوره على البعد الذهني والفكري فحسب، بل له تأثير عميق وشامل على أعمالنا وأفعالنا، لأننا حين نوقن بأنه معنا أين ما كنّا وكان قبلنا وسيكون بعدنا ولا يخفى عليه ظاهرنا وباطننا بل حتى تفاصيل دوافعنا وجزئيات تياتنا، فإنّ هذا الإيمان سيريتنا ويضطرنا إلى مراقبة أنفسنا وأعمالنا ويسوقنا إلى محاسبة أنفسنا، إلى جانب إبعادنا عن الشعور باليأس والإحباط وبيعت فينا روح الرجاء والأمن.

وعلى هذا الأساس فإنّ إيماننا بالله على ضوء الصفات المذكورة لا يقتصر دوره

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٧

على يوم الجزاء فحسب، بل من شأنه إصلاح حياتنا الدنيوية والأخذ بأيدينا إلى الورع والتقوى والشعور بالأمن والاستقرار، وعليه فما نراه اليوم من تهتك لحجاب التقوى من جانب وحالة الاضطراب من جانب آخر إنما يعزى أحد أسبابها الرئيسية إلى الإبتعاد عن العقائد الدينية الصحيحة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٢٩

القسم الثالث

أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ «مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ»، وَوُضِعْتَ «فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ» وَأَجَلَ مَقْسُومٍ. تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لِاتُّحِيرِ دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً؛ ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقْرَكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سَبِيلَ مَنَافِعِهَا. فَمَنْ هَيْدَاكَ لِاجْتِرَارِ الْعِدَاءِ مِنْ نُدَى أُمِّكَ، وَعَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ! هَيْهَاتَ، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَالْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمَنْ تَنَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!

الشرح والتفسير: الأرفع من الخيال والوهم

هذا المقطع الذي يمثل القسم الأخير من الخطبة هو جواب عن سؤال من الأسئلة التي تفرزها الأقسام السابقة، وهو تعذر معرفة الله بهذه الصفات من قبيل كونه الأول والأخر والظاهر والباطن والقريب من الأشياء والبعيد عنها والمطلق العلم واللامتناهي القدرة. صحيح، لدينا علم إجمالي بكل هذه الصفات ولكن ليس لدينا من سبيل إلى العلم التفصيلي الذي نعبر عنه بالعلم بكنه الذات والصفات. يشير الإمام عليه السلام هنا إلى جانب من خلق الإنسان والأسرار المعقدة التي تكتنف فترة كونه جنيناً إلى جانب الأسرار العظيمة لولادته وما بعدها، ثم يخلص إلى نتيجة في أنك إن عجزت عن التوصل إلى أسرار خلقتك كيف يسعك العلم بكنه صفات خالقك؟

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٠

فقال:

«أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ [٣٧٠]، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ [٣٧١]، فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ،

وَمُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ

. نعم؛ مرحلة الجنين من أعجب مراحل الخلق التي تنطوي على العديد من الأسرار. فنطفة الإنسان تطوى مراحلها التكاملية بصورة متتالية في وسط مغلق ومظلم ومحاط بالأستار بحيث يثأ كل يوم مرحلة جديدة في إطار خلقه موزونة ومنظمة، ورغم أنها تجرى في وسط رقيق وشفاف إلا أنها بعيدة كل البعد من المخاطر.

ثم خاض في شرح هذا المطلب فقال:

«بُدِثَتْ

«مِنْ سَلَالَةٍ [٣٧٢] مِنْ طِينٍ»

، وَوَضِعَتْ

«فِي قَرَارٍ مَكِينٍ [٣٧٣] * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»

وَأَجَلَ مَقْسُومٍ»

. إشارة إلى أن عملية توقف الإنسان في الرحم خاضعة لحساب دقيق. من حيث كمية البدن وكيفيته من حيث المدة والزمان وقد أشار الإمام عليه السلام إلى أحدهما بالعبارة

«إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ»

والأخرى بالعبارة

«وَأَجَلَ مَقْسُومٍ».

ثم تطرق إلى المرحلة الأخرى التي تعقب الرحم فقال:

«تَمُورُ [٣٧٤] فِي بَطْنِ أُمِّكَ

جَنِينًا لَا تُحِيرُ [٣٧٥] دُعَاءً، وَلَا تَسْمَعُ نِدَاءً»

. فهذه العبارة إشارة لطيفة إلى الحركة المتتابعة للجنين في بطن أمه والتي تتم من خلال السباحة في ماء معين حوله. وأنه ليتلقى بوازع من فطرته وبحكم طبيعته الأمر بالحركة، دون أن يسأل أو يجيب أحداً، ذلك لأنه ليس له من سماع ولا لسان، لكن الله وفر له كل حاجاته مسبقاً حين كان في ذلك الوسط المظلم والمغلق.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣١

ثم أشار عليه السلام إلى مرحلة الولادة والرضاعة في احضان الأم فقال:

«ثُمَّ أُخْرِجَتْ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا»

. نعم، يرد من ذلك القرار المكين والمكان الآمن إلى الدنيا لا يعرف منها شيئاً، فلا يعرف الغذاء اللازم ولا الإرادة للحصول عليه ولا كيفية تناوله، لا يعرف وسائل النمو، ولا معوقاته، ولا يعرف أسلوب التعايش ولا التعامل مع الآخرين، فإن لم يأخذ اللطف الإلهي بيده وتشمله الهداية التكوينية لعجز قطعاً عن مواصلة الحياة، غير أن الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه يحفه بعنايته فيتجاوز الطرق الوعرة بحكم الغريزة التي أودعها الله إياه.

لذلك واصل الكلام عليه السلام قائلاً:

«فَمَنْ هَدَاكَ لِاجْتِرَارِ [٣٧٦] الْغِذَاءِ مِنْ نُدَى أُمِّكَ،

وَعَرَّفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلْبِكَ وَإِرَادَتِكَ!»

. حقاً من علم الوليد أن غذاءه في ثدي أمه؟ عليك أن تضغط بأصابع يدك الصغيرة وتمتص ما في الثدي من اللبن بفمك الصغير؟! من علمه ذلك البكاء بالصوت الحزين ليعلن من خلاله عن حاجاته كافة؟! العطش والجوع والحر والبرد والمرض والحاجة إلى النوم؟!!

والغريب أن فراخ الطيور والدواب وسائر الحيوانات يندفع كل منها بطريق عجيب نحو حاجته.

ثم اختتم الخطبة بهذه النتيجة:

«هَيْهَاتَ [٣٧٧]، إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ

وَالْأَدْوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ!»

. أجل، لا يمكن حقاً الوقوف على عجائب وغرائب عالم الخلق وسير غور أسرار.

فإن عجزنا عن إدراك بعض ما يتعلق بمخلوقات الله فآتني لنا بالوقوف على كنه الذات والصفات الغنية عن الحدود من جميع الجهات.

البنية المعقدة للأعصاب والقلب والعروق والخلايا والجينات ومختلف الغرائز التي أودعها الله أجسامنا لمن المسائل التي شغلت أذهان

العلماء لقرون وما زالوا يعترفون بكثرة المجاهيل التي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٢

تعتري خلقه الإنسان حتى أُلّف ذلك العالم الفرنسي المعروف، كتابه الشهير (الإنسان ذلك المجهول).

تأمل

الدورة الجنينية المذهلة

ما ورد في هذا الجانب من الخطبة بشأن الأسرار الغريبة لخلق الإنسان في الدورة الجنينية ومن ثم الولادة والرضاع ينسجم تماماً والعديد

من الآيات القرآنية التي أكدت على التفكير في هذه الأسرار، ومنها سورة الزمر: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعِيدٍ خَلْقٍ فِي

ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» [٣٧٨] وسورة المؤمنون:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» [٣٧٩]. وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المرحلة

في توحيد المفضل كآية من آيات الله في التوحيد والقدرة، وأوصى المفضل وقال: «بتدئىء يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به،

فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم، وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلم البطن، وظلم الرحم، وظلم المشيمة، حيث لا حيلة عنده

في طلب غذاء ولا دفع أذى، ولا استجلال منفعة ولا دفع مضرة، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه كما يغذوا الماء النبات فلا

يزال ذلك غذاؤه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه، وقوى أديمه على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقات الضياء هاج الطلق بأمه

فأزعجه أشد إزعاج، وأعنفه حتى يولد، وإذا ولد صرف ذك الدم الذى كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها فانقلب الطعم واللون إلى

ضرب آخر من الغذاء...» [٣٨٠].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٣

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح تكامل المولود في مختلف المراحل وهو يعرض لعجائب الخلق الواحدة تلو الأخرى [٣٨١].

(طبعاً لا يسع البحث الاستغراق في القضايا المذهلة التي تم اكتشافها في عصرنا الراهن بشأن تكامل النطفة من خلال مرورها بتلك

المراحل، وكل الذى يسعنا قوله إن مثل هذا البحث ينطوى على آلاف الأسرار والعجائب: «خَلْقًا مِّنْ بَعِيدٍ خَلْقٍ». ومن الضرورى أن

نشير هنا إلى سر من تلك الأسرار وهو أن الجنين طيلة هذه المدّة يسبح في كيس صغير مملوء بماء غليظ، ولا يتأثر هذا الكيس

بالضربات حتى وإن سقطت المرأة على الأرض أو قامت بحركات سريعة وعنيفة، فليس هنالك أدنى أذى على الجنين، هذا من

جانب، ومن جانب آخر، فإنه يمتاز بتعديله للحرارة والبرودة بالشكل الذى يحول دون تأثيرهما على الجميع. أضف إلى ذلك فإن

سباحة الجنين في ذلك السائل يبعد الضغط عن أعضائه الرقيقة، وأخيراً يحفظ هذا الكيس الجنين من الأمواج الصوتية العالية ويحافظ

على نعوته الجلدة، كما يلعب دوراً مهماً فى التغذية: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٥

الخطبة ١٦٤

إشارة

لَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَشَكُوا مَا نَقَمُوهُ عَلَى عُثْمَانَ وَسَأَلُوهُ مُخَاطَبَتَهُ لَهُمْ وَاسْتِعْتَابَهُ لَهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: [٣٨٢]

نظرة إلى الخطبة

المراد الأصلى من هذه الخطبة كما ذكرنا سابقاً أنها تعرض بالنصح لعثمان وتحذيره بمنتهى الأدب والحرص للحيلولة دون تجاوز أجهزة حكومته للحدود، وهى تتألف من ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خطاب لشخص عثمان، خطاب الناصح المشفق الذى يرى مقابله على شفا حفرة خطيرة، وقد ركز الإمام عليه السلام على علم عثمان بالأحكام الإسلامية وسوابقه مع النبى الأكرم صلى الله عليه وآله ليصده عن الزلل والانحراف. أما القسم الثانى: فيعرض فيه الإمام عليه السلام بحثاً جامعاً وكلياً بشأن أئمة العدل

نقحات الولاية ؛ ج ٦ ؛ ص ٢٣٦

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٦

والظلم وخصائص كل منهما، وبما يجعل كل إمام منهما اسوة للآخرين فى سيرته وفى كل زمان ومكان، ومن ثم حذر عثمان من أن يصبح العوبة بيد بطانته كمروان وأمثاله.

والقسم الثالث: نقل جواباً عن عثمان وما أن سمع الإمام عليه السلام ذلك الجواب حتى عرض عليه كيفية الخروج من المأزق، والمؤسف أن هذه النصائح لم تجد أذاناً صاغية من عثمان فوعدت تلك الحوادث العنيفة والمريرة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٧

القسم الأول

إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَسْمَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لَا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَتُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلُونَا بِشَيْءٍ فَتُبَلِّغُكَهُ. وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحَبْنَا. وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى أَبِي رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْجَهُ رَحِمَ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نَلْتُ مِنْ صَهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَا. فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَلَا تَعْلَمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحُهُ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لِقَائِمَةٌ.

الشرح والتفسير: إتمام الحجة على عثمان

ينبغى لاتضاح مضمون هذه الخطبة الإشارة إلى الأحداث والأوضاع التى أدت إلى هذا الحوار بين الإمام عليه السلام وعثمان. حيث

ذكر المؤرخ المعروف الطبري أن الناس حين رأوا أعمال عثمان - من قبيل سلب ونهب بيت المال وتسليط الظلمة والفسقة على المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية - كتب عدد من صحابة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله كتبهم إلى أمراء الجيش على الثغور ودعواهم إلى الجهاد في سبيل الله ونشر دين محمد صلى الله عليه وآله والقدوم إلى هنا وإنقاذ من يقوم بهدم هذا الدين. وتقاطر الجنود من كل مكان على المدينة - سيما أولئك الذين أتوا من مصر والذين عاشوا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٨

ظلم الولاة وعمال الخليفة - حتى قتلوا عثمان ٣٨٣]. آنذاك تعالت الأصوات التي ضجت من ظلم عثمان، فقدم جماعة من الناس إلى الإمام عليه السلام وسألوه وضع حد لتلك الأوضاع بطريقة سلمية، فيكون عليه السلام سفيرهم إلى عثمان ويتم الحجّة عليه. فأورد الإمام عليه السلام ذلك الكلام بما يجعله وبطانته يكفون عن الظلم. وكلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة يتضمن براعة البلاغة والفصاحة والقضايا النفسية الدقيقة أملاً في عودة الطرف المقابل إلى رشده ولعله يلتفت إلى الأخطار المحدقة بالإسلام والعالم الإسلامي. وقد تحدث الإمام عليه السلام بادية الأمر عن علم عثمان ومعرفته بالأحكام الإسلامية بشأن رعاية حقوق الناس والابتعاد عن الظلم والجور فقال:

«إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدْ اسْتَشْفَرُونِي [٣٨٤] بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئًا تَجْهَلُهُ، وَلَا أَذُكُّكَ عَلَىٰ أَمْرٍ لَّا تَعْرِفُهُ. إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ. مَا سَبَقْنَاكَ إِلَىٰ شَيْءٍ فَخَبِرَكَ عَنْهُ، وَلَا خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَبَلَّغَكَهُ»

. من الواضح أن عبارات الإمام عليه السلام لا تعني أن عثمان بمصاف الإمام على عليه السلام في العلم والمعرفة، بل مراده أن عثمان كان يعلم بالأحداث التي وقعت وسوء الظلم والجور وضرورة رعاية حقوق الناس، وهي الأمور العادية التي يتساوى فيها عثمان مع عامة الناس الذين كانوا يعرفون تلك الأمور، بل حتى الأطفال - فضلاً عن العقلاء والكبار - كانوا يعلمون صحيحها من سقيمها كما ذكر ذلك ابن أبي الحديد [٣٨٥]. وبناءً على هذا فإنه يخطئ كل من يتصور بأن عبارات المذكورة دليلاً على أن عثمان بمنزلة الإمام على عليه السلام في العلم والمعرفة. فعلى عليه السلام كما قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله باب علم مدينة النبي صلى الله عليه وآله وآله وعلى عليه السلام حسب الروايات الإسلامية من عنده علم الكتاب وهو الملاذ العلمي للأمة في حل جميع مشاكلها حتى صرح بعض الخلفاء

«اللَّهُمَّ لَاتَّبِقْنِي لِمُعْضَلِهِ لَيْسَ لَهَا ابْنٌ»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٣٩

أبي طالب [٣٨٦].

ثم واصل كلامه مشيراً إلى سوابق عثمان في الإسلام فقال:

«وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْتَنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا صَحَبْنَا»

. إشارة إلى أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وآله لسنوات عديدة وقد سمعت منه تعاليم الإسلام وأحكامه الشرعية، وعليه فكيف تخفى عليك هذه المسائل الواضحة بشأن حق الناس وبيت المال والعدالة الاجتماعية. آنذاك طرق السبيل الثالث بغية التأثير على أفكار عثمان فقارنه بأبي بكر وعمر، ذلك لأنهما لم يرتكبا ما ارتكبه عثمان قط، وإن كانت لهم زلتهم الأخرى فقال:

«وَمَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلَا ابْنُ الْخَطَّابِ بِأَوْلَىٰ بِعَمَلِ الْحَقِّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَبِي [٣٨٧] رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَشَيْجَةَ رَجَمَ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ نَلْتُ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالَ»

. بالنظر إلى أن الوشيحة بمعنى جذور الشجرة أو الألياف التي تصنع من النخيل وشم اطلقت على اشتباك القرابة، فإن الإمام عليه السلام أراد أن يذكره بقرابته من النبي صلى الله عليه وآله حيث يقرب للنبي صلى الله عليه وآله من جده عبد مناف. فقد اعتمد الإمام عليه السلام مختلف الطرق بغية التأثير عليه وإعداده لقبول الحق والكف عن ممارسة الباطل. إلا أن المؤسف أن الخليفة الثالث

لم يعد يسمع قول الحق وقد انغمس في الفساد الذي دب في كافه مرافق الحكومة. على كل حال عاد الإمام عليه السلام ليؤكد على الخليفة ضرورة الأنصياح إلى الحق والشفقة على نفسه فقال:

«فَاللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِي، وَلَا تُعَلِّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحُهُ، وَإِنَّ أَعْلَامَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ»

. فالإمام عليه السلام لم يتخل عن أي أسلوب من شأنه التأثير على الخليفة، فأحياناً يحدثه بحسن وقبح مثل هذه الأمور، وأخرى يقول له

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٠

إنك سمعت من النبي صلى الله عليه وآله ما ينبغي سماعه، وتارة يقول له على الأقل سر بسيرة من سبقك من الخلفاء فهما ليسا أولى منك بالعمل بالحق. وأخيراً يبين له أن طريق الحق واضح فلماذا تعرض نفسك لكل هذه الأخطار وتسلك السبيل غير القويم، لكن لم يستجب عثمان حتى حدث ما لا ينبغي أن يحدث بعد أن ولى ظهره لكل تلك المواعظ والإرشادات القيمة.

تأمل

سبل نفوذ الكلام في الآخرين

إذا قام شخص ببعض المخالفات وكان يبدو مدركاً لبعض الأعمال الخطيرة وأراد عاقل أن يوقظه من نوم الغفلة، فإن أفضل أسلوب يمكن اعتماده بادية الأمر أن يستقطب قلبه ويذكره بإيجابياته، فيقول مثلاً: إنك من أسرة عريقة ولديك تحصيلات علمية قيمة وسمعتك حسنة بين الناس لعله يشعر بشخصيته ويتق بالمقابل فيقبل منه. ومن ثم مقارنته بأمثاله وأقرانه بهدف إعادته إلى الصواب والابتعاد عن الخطر.

الإمام عليه السلام بصفته سيد الفصحاء والبلغاء والعالم بالقضايا التربوية والنفسية، فقد ذكر عثمان بكل هذه الأمور، فقال له إنك لصهر رسول الله صلى الله عليه وآله [٣٨٨] وأقرب إليه من الخليفة الأول والثاني ولك سابقة في الإسلام وقد لازمت النبي صلى الله عليه وآله وليس هنالك من شيء غائب عنك لأذكرك به، فهنالك ظلم وجور وتطاول على بيت مال المسلمين وهضم لحقوق الناس. إلا أن الخليفة الثالث قد انغمس في شباك بطانته - تلك البطانة التي يمثل أغلبها حثالات الجاهلية - ولم يعد يتحمل نصيح ذلك الناصح الأمين وينقذ نفسه من تلك الورطة. ويتضح مما مر معنا أن ليس هنالك من فضيلة لعثمان تضمنتها عبارات هذه الخطبة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤١

القسم الثاني

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدًى وَهَدًى فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بَدْعَهُ مَجْهُولَةً. وَإِنَّ السُّنَنَ لَكَثِيرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لَظَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ. وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضَلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بَدْعَهُ مَثْرُوكَةً. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُوتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَازِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى ثُمَّ يَزْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا». وَإِنِّي أُنشِدُكَ اللَّهُ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبْثُ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمْوَجُونَ فِيهَا مَوْجًا، وَيَمْرُجُونَ فِيهَا مَرْجًا.

فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ السَّنِّ وَتَقْضَى الْعُمْرِ.

فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُوجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُولُ أَمْرِكِ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير: خصائص الحاكم العادل والظالم

تضمن المقطع الأول من هذه الخطبة، خطاب الإمام عليه السلام بصورة خاصة لعثمان

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٢

وبذل له النصح والإرشاد لإنقاذه من خطورة الموقف الذي كان فيه وليطفيء عنه غضب الأمة، والأهم من كل ذلك رضى الله تبارك وتعالى. أما هنا فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى الضوابط الكلية والعامّة للحاكم العادل ومن ثم صفات الحاكم الظالم ليتبين الخليفة من ذلك، الطريق الصحيح فيسلكه فقال عليه السلام:

«فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ أَمَامٌ عَادِلٌ، هُدًى وَهَدًى فَأَقَامَ سُنَّةَ مَعْلُومَةٍ، وَأَمَاتَ بِدَعَاةٍ مَجْهُولَةٍ. وَإِنَّ السُّنَنَ لَكَيْبَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ، وَإِنَّ الْبِدْعَ لَطَاهِرَةٌ، لَهَا أَعْلَامٌ»

. فقد ركز الإمام عليه السلام بادية الأمر على هذا الموضوع المهم في أن أفضل عباد الله هو الإمام العادل، كيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«عَدْلٌ سَاعَةٌ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةٍ سِتِينَ سَنَةً لَيْلَهَا وَصِيَامُ نَهَارِهَا» [٣٨٩]

ثم تطرق إلى خصائص الإمام العادل، ومنها أن تلمس الهدى عن طريق القرآن والوحي والعقل السليم ثم هدى الناس إلى الصراط المستقيم، ذلك لأن البرامج الثقافية البناءة من وظائف الحاكم العادل لأنها تتمثل في إقامة السنن المعروفة وإماتة البدع المجهولة؛ لأنه لا بد للحاكم العادل من رؤية دقيقة بحيث لا تطمس السنن الحسنة وتنسى وتسود المجتمع خصال الخير والفضيلة والتقوى والعلم والمعرفة والتعاون على البر والتقوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب عدم السماح لظهور البدع السيئة والخرافات والاختلافات والنزاعات وكل ما جهد الأنبياء من أجل تنقية الأمة من شوائبها، خاصة أن الإمام عليه السلام صرح بأن للسنن والبدع علامات. فعلامات السنن الأمن والاستقرار وتطور البلاد ومسارعة الأفراد إلى المعنويات، على العكس من علامات البدع المتمثلة بالاضطراب والإرباك والركود والتخلف والخرافات. وبالطبع فإن مميزات الحاكم الظالم (الإمام الجائر) بالضبط على العكس من سابقتها في الحاكم العادل، فهو ضال مضل لغيره، يطمس سنن الله ويحيى البدع، وللأسف كلنا نعلم أن الخليفة الثالث كان مصداقاً للإمام الجائر بتسليطه لبطانته على رقاب المسلمين ونهبهم لبيت المال.

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٣

ثم قال عليه السلام:

«وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةَ مَأْخُودَةٍ، وَأَحْيَا بِدَعَاةٍ مَتْرُوكَةٍ»

. فمن البديهي أن دعائم العدالة وركائزها في المجتمع إنما تستحکم في ظل إحياء السنن الإلهية التي تضمن خير البشرية وسعادتها، وتهجر البدع التي تسوق الناس إلى الفساد والظلم. والحاكم الذي يقوم بهذه الأعمال إنما يفصح عن ظلمه وفساده، بالتالي فهو شر الناس، ذلك لأنه يسوق المجتمع إلى البؤس والشقاء، بغض النظر عن ظلمه لنفسه وسوقها للشقاء الأبدى.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه مستشهداً بحديث خطير عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - يَقُولُ: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُدْوَرُ فِيهَا كَمَا تَدْوَرُ الرَّحَى ثُمَّ يَزْتَبُطُ فِي قَعْرِهَا» [٣٩٠]

. فقله عليه السلام:

«وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلَا عَاذِرٌ»

إشارة إلى أنه كان له في الدنيا فئته من الناس يقفون إلى جانبه في الشدائد والمشاكل التي تعرض عليه ويجدون له المبررات في ممارسة الظلم والجور، ومن جانبه كان يصدق عليهم الإمتيازات بغية الإحتفاظ بهم. أما في ذلك اليوم فهو وحيد فريد في محكمة العدل الإلهي وليس له سوى النار جزاء لأعماله الشنعاء. ولعل العبارة

«فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى

إشارة إلى أن دورانه في نار جهنم يوجب مزيداً من الألم والأحراق أولاً ويجلب انتباه الآخرين ثانياً فتبدو فضيحتة علانية.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمة تتعلق بمصير عثمان تحذره من مغبه سوء فعالة فقال:

«وَإِنِّي أَنشُدُكَ [٣٩١] اللَّهُ أَلَّا تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمَقْتُولِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي

هَذِهِ الْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا الْقَتْلَ وَالْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»

. فالإمام عليه السلام وإن لم يشر إلى من قال هذا الكلام، لكن من الواضح أنه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد وقع عين ما أخبر به حيث كان الظلم سبب قتل عثمان وأثر ذلك- وبحجة دم عثمان- حصل كل ذلك

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٤

القتال وسفك الدماء ومازلنا نشهد حتى العصر الراهن بعض التبعات والاختلافات التي تحدث بين المسلمين. والشاهد على ذلك الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذي ورد في سنن أبي داود أنه قال:

«وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وَضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُزَفَّعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» [٣٩٢].

ثم خاض الإمام عليه السلام في شرح ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ الْفِتْنَ فِيهَا، فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ؛ يَمُوجُونَ [٣٩٣] فِيهَا مَوْجًا،

وَيَمْرُجُونَ [٣٩٤] فِيهَا مَرْجًا»

. وتشير العبارة

«وَيَلْبَسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا»

إلى أن الساسة المحترفين يحاولون تضليل الرأي العام فهم ينطلقون في الظاهر على أساس المطالبة بدم الخليفة المقتول، لكنهم يزيفون الحقائق باطناً بهدف الوصول إلى الخلافة، فهم يصورون الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً [٣٩٥]. والعبارة

«وَيَبُثُّ الْفِتْنَ فِيهَا»

وهي إشارة إلى اتساع الفتنة في صفوف الأئمة نتيجة ذلك، والعبارات القادمة بمثابة نتيجة، فمن جانب يصعب تمييز الحق من الباطل ومن جانب آخر فإن الناس سيعومون في بحر من الفتنة. والفارق بين يموجون ويمرجون أن الأولى إشارة إلى اقتتال الأئمة في تلك الفتنة، والثانية إشارة إلى اختلاط الحق والباطل في المجتمع بحيث يصعب تمييز الحق من الباطل. جدير بالذكر أن كل ما تتبأ به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في الرواية وأخبر به أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام وقع دون أدنى زيادة أو نقصان.

فقد ألب عثمان وبطائه الأمة عليهم لظلمهم حتى قتل عثمان واندفعت عقب ذلك فئته من بنى أمية لتستغل الأحداث السياسية لصالحها وارتفعت حدة الخلافات بين

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٥

الناس حتى تعذر تمييز الحق من الباطل وسفكت تلك الدماء الغزيرة، ثم امتدت تلك الاضطرابات لقرون. راجع المزيد بشأن عوامل القيام ضد عثمان الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب [٣٩٦].

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى أهم عنصر يقف وراء انحراف عثمان- والذي جرّ عليه كل تلك الولايات- والمقصود من طاعته العمياء لمروان، فقال عليه السلام:

«فَلَا تَكُونَنَّ لِمَرْوَانَ سَيِّقَةً» [٣٩٧] يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلَالِ [٣٩٨] السَّنِّ وَتَقْضَى الْعُمْرُ».

ورد في التاريخ أن عمر عثمان كان آنذاك ٨٢ سنة [٣٩٩]. لا شك أنه كان لمروان الدور الأساسي في حكومة عثمان بحيث كان سير الأمور حسب رغباته، وحتى حين استمع عثمان لنصائح الإمام عليه السلام وعزم على الاعتذار من الأُمّة، اعترضه مروان بشدّة وحال دون إصلاحه لأخطائه، والواقع أنه صب الزيت على فتيل النار التي أوقدها الناس حتى طالت حياة عثمان، وربما كان ذلك يستند إلى خطة تمكنه أو تمكن معاوية من استلام زمام الأمور بعد عثمان.

فلما بلغ الإمام عليه السلام هذا الموضوع من كلامه استجاب له عثمان وتأثر شديداً:

«فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: كَلَّمَ النَّاسَ فِي أَنْ يُوجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَطَايِمِهِمْ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا أَجَلَ فِيهِ، وَمَا غَابَ فَأَجَلُهُ وَصُورُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ»

. إشارة إلى أن المهلة في هذه الحالات الحادة قد تقود إلى ثورة عارمة فلا معنى لهذه المهلة، إضافة إلى أن المهلة إنما تهدف إلى إعداد المقدمات، وإعادة حقوق الناس لا تحتاج إلى أي مقدمات، فما كان في المدينة لا بد من إصدار الأوامر بشأنه فوراً

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٤

فيؤخذ من الظلمة ويسلم إلى المظلومين، وما كان في المناطق البعيدة فلا بد من الإسراع في انتزاعه. ولعل العبارة المذكورة إشارة إلى هذه النقطة في أن الساسة حين يواجهون أزمة إنما يلجأون إلى التسوية بغية الهروب من المسؤولية ويطلبون من الطرف المقابل مهلة زمنية على أمل امتصاص نغمة الغضب وتوجيه ضربة مهلكة إلى الطرف الآخر، فما كان من الإمام عليه السلام إلا أن سد عليه الأبواب كافة واختلاق الذرائع. صرّحت كتب التاريخ بأن عثمان استجاب للإمام عليه السلام لكنه استمهل الإمام عليه السلام ثلاثة أيام بالنسبة للمدينة. فوافق الإمام عليه السلام وخرج من عند عثمان وأخبر الناس وكتب العهد على عثمان ومهله الثلاثة أيام لإعادة الحقوق المهضومة وعزل الولاية الظلمة الذين نغم منهم الناس. وقد أشهد على العهد طائفة من المهاجرين والأنصار، فانسحب الناس على أمل وفاء عثمان بالعهد بينما أراد عثمان خلال الأيام الثلاثة جمع العدة والعدد وتجهيز الجيش، فلما مضت المهلة شعر الناس بعدم الوفاء بالعهد فناروا على عثمان، حتى انتهى الأمر إلى قتل عثمان، جدير بالذكر أن كل ما ذكرناه أورده الطبري في تاريخه [٤٠٠].

أضواء على حادثة قتل عثمان

أشرنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب إلى الأحداث التي رافقت مقتل عثمان، ونود هنا أن نشير إلى بعض الأمور، ومنها:

١. لا شك في أن قتل عثمان حادثة مفاجئة، ذلك لأنها انعكست سلباً على المسلمين، وكما ورد في الرواية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله فإن قتل عثمان أدى إلى تصاعد الخلافات بين المسلمين وسفك المزيد من الدماء، رغم أن المقصر الأصلي في هذه الحادثة شخص عثمان وبطانته وقرابته والذين أخرجوا الحكومة من إطارها المتعارف وأشاعوا في المجتمع معاني الظلم والجور إلى جانب الفساد والانحراف.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٧

٢. جدير ذكره أن هذه الحادثة وقعت في المدينة أمام الصحابة من المهاجرين والأنصار ولم يهتوا للدفاع عن عثمان، وكأنهم راضون عن حركة الناس ضد عثمان، بل حسبما ورد في تاريخ الطبري أن جماعة من الصحابة كتبوا لبعضهم إنّ الجهاد حقاً في المدينة لا في الروم (لأنّ الحكومة الإسلامية اندفعت نحو الفساد وإصلاحها مقدم على كل شيء). أمّا الشخص الوحيد الذي وقف إلى جانب عثمان وحال دونه فهو أمير المؤمنين عليه السلام والذي أمر ولديه بالدفاع عنه، لأنه كان يعلم بالآثار السلبية التي تترتب على قتل عثمان وإن كانت حركة الأُمّة عنيفة ولم تنجح تدابير الإمام عليه السلام في الحيلولة دون وقوعها.

٣. تقدم الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة وقبل تصاعد حدة الاعتراض بإسداء النصيح والإرشاد المشفق لعثمان وحذره بشدّة

بضرورة الكف عن مواصلة ذلك الأسلوب وتلافى ما فرط منه، ووعد هو من جانبه بالعمل بذلك، لكنه إما أن يكون رفض أو منعه حاشيته من الإستجابة. والذي يستفاد من بعض المصادر التاريخية أنه لم يكن مستعداً بفعل تعصبه الشديد لقرابته أن يعترف صراحة بما فرط منه، حيث قال بعد نصح الإمام: لم أرتكب خلافاً، فقد وصلت رحمى (فالأموال التي أنفقتها على قرابتي من باب صلة الرحم) وأغنيت الفقراء وآويت المحتاجين واستعملت مثل من استعمل عمر وولاه. فرد الإمام عليه السلام إن عمر كان يعاقب بشدة من يرتكب الخلاف ممن ولاه من عماله، لكنك ضعيف، أما قرابتك وولاتك فلا تكثرث لما يرتكبون من أخطاء [٤٠١].

والعجيب أن عثمان صعد المنبر بعد هذه الأحداث ليحدث الناس بأن لكل شيء آفة وآفة هذه الأمة أهل الغيبة الذين يتكلمون بما لا يعلمون والأمة تلهث خلفهم، وإنكم لتعيبون على بعض الأمور التي كنتم ترضونها لعمر، لغلضته عليكم، على العكس من مداراتي لكم وإن شئت لأشرت على رجالي، فلا تفعلوا ما يدعونى إلى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٨

النقمة عليكم، فاسكتوا ولا تطعنوا فى ولايتى. وهنا انبرى مروان ليصرخ: أيها الناس إن شئتم جعلنا السيف حكماً بينا وبينكم. فغضب عثمان وأسكته وقال له دعنى اكلم أصحابى، ألم أوصيك بعدم الكلام؟ فصمت مروان ونزل عثمان من المنبر [٤٠٢]. وهذه العبارات تفيد أن عثمان إما كان جاهلاً بالأوضاع! أو أنه كان يثق بقرابته وبطائته بحيث كان يرى ظلمهم وجورهم عين العدالة والقسط! فكان أسيراً بيدهم بحيث لم يستطع تغيير مسار الأحداث [٤٠٣].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٤٩

الخطبة ١٦٥

إشارة

يَذْكُرُ فِيهَا عَجِيبَ خَلْقِ الطَّائُوسِ [٤٠٤]

نظرة إلى الخطبة

يمكن تقسيم هذه الخطبة إلى أربعة أقسام:

أشار الإمام عليه السلام فى القسم الأول إلى العجائب والغرائب التى تكتنف المخلوقات ولا سيما الطيور ليستدل عن هذا الطريق على وجود الله والإيمان به. ويركز فى القسم الثانى على خلق الطاووس من بين الطيور وأسرار خلقته ليشير إلى تفاصيل لطيفة ودقيقة عن هذا المخلوق، كما يرد على بعض الخرافات والأوهام الواردة بشأنه.

ويختتم هذا الكلام بالإشارة إلى نقطة وتمثل بعجز العقول عن وصف مخلوقات

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٠

الله فأتى لها بوصف الخالق العظيم؟ كما تطرق فى القسم الثالث إلى عجائب خلق الديدان الصغيرة وكشف عن عجائب خلق النمل ليستدل من خلال ذلك على توحيد الله تعالى. أما القسم الرابع والأخير فقد خاض فى جانب من أوصاف الجنة بما يجعل السامع يعيش لهفة الشوق إليها، وعلى هذا الأساس يربط بين المبدأ والمعاد ليعرض صورة واضحة متكاملة فى بحث العقائد.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥١

القسم الأول

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ؛ وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنِيعِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالَةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَمِمَّا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا وَرَوَاسِي أَعْلَامِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَيَّرَفَةٍ فِي زَمَامِ التَّشْيِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُتَفَسِّحِ، وَالْفَضَاءِ الْمُتَفَرِّجِ. كَوْنَهَا بَعِيدٍ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلِ مُخْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعِبَالِهِ خَلْفَهُ أَنْ يَشِي مُوًى فِي الْهَوَاءِ خُفُوفًا، وَجَعَلَهُ يَدْفُ دَفِينًا وَنَسَقَهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنِيعِهِ. فَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي قَالِبٍ لَوْنٍ لَيْشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنٍ مَا غَمَسَ فِيهِ؛ وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَبِغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافٍ مَا صُبِغَ بِهِ.

الشرح والتفسير: خلق الطيور

إن معرفة الله من أهم أصولنا العقائدية والتي يستند جانب كبير منها إلى القرآن الكريم، وهذا هو الهدف من الخطبة. ومما لا شك فيه أن أعمال الإنسان وسلوكه إنما يتوقف على تلك المعرفة ومدى رسوخ دعائمها. فقد بين الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عجائب الخلق التي تعكس وجود الله وعلمه المطلق وقدرته التامة، سيما أن الإمام عليه السلام يصطحبنا إلى عالم الطيور ويكشف لنا النقاب عن أسرار تلك الخلق. ومن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٢

ثم يتطرق إلى الطاووس ليكشف عجب صنعه بما يحير العقول ويسوق الإنسان إلى حمد الله والثناء عليه وتسيحه وتقديسه، فقال:

«ابْتَدَعَهُمْ خَلْقًا عَجِيبًا مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَسَاكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ»

. المراد من الموات، الجوامد كالأرض والسماء والنجوم والشمس والقمر، وبعضها ساكنة والأخرى متحركة (وإن كان هنالك رأى بحركتها جميعاً). والمراد من الابداع، الخلق من غير مثال مسبق، وهذا موضوع في غاية الأهمية، ذلك لأن جميع ما سوى الله إنما يحتذى الأمثلة المسبقة في تصويره وصنعه وابداعه. ثم خاض في شرح هذا الكلام فقال:

«وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنِيعِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ [٤٠٥] فِي أَسْمَاعِنَا دَلَالَةً عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ»

. حقاً أن الإنسان لو تعرّف على العلوم الطبيعية وخاض في دراسته عجائب خلقه موجودات العالم لانطلق نحو الله تبارك وتعالى.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى جانب خاص من غرائب وعجائب العالم - الملى بالأسرار واللطائف - ليتحدث عن عالم الطيور ويشرح أسرارها، فقال:

«وَمَا ذَرَأَ [٤٠٦] مِنْ

مُخْتَلِفِ صُورِ الْأَطْيَارِ الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ [٤٠٧] الْأَرْضِ، وَخُرُوقَ [٤٠٨] فِجَاجِهَا [٤٠٩]

وَرَوَاسِي [٤١٠] أَعْلَامِهَا [٤١١]» [٤١٢].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٣

هذا أول تنوع لخلق الطيور من حيث موضع سكنها، فبعضها كالبوم تلجأ إلى شقوق الأرض وتخرج عند الظلام، كما يسكن البعض في الوديان كالفاخته والبعض الآخر في سفوح الجبال كالنسر والعقاب، وقد أمد الله تعالى كلاً منها بما يتطلبه في حياته. طبعاً ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارات المذكورة يقتصر على نماذج من الحيوانات البحرية والأهلية الأليفة من قبيل الطيور التي تعيش في الغابات والأعشاش والصحارى ولكل عجائبه وغرائبها التي تحير عقل الإنسان. فما ذكره الإمام عليه السلام تصنيف للطيور على أساس سكنها.

ثم أشار إلى تصنيف آخر - على أساس نوع الطيران والأجنحة - فقال:

«مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَهَيْئَاتٍ مُتَّبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ [٤١٣] فِي زِمَامِ الشَّخِيرِ، وَمُرْفَرَفَةٍ [٤١٤]

بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ [٤١٥] الْجَوِّ الْمُنْفَسِحِ [٤١٦]، وَالْفَضَاءِ الْمُنْفَرِحِ»

. وهو ما أشير إليه في القرآن بعده آيات مثل: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [٤١٧].

ثم خاض الإمام عليه السلام في تصنيف ثالث ورابع للطيور فمنها ما لها أشكال مختلفة وطيور ثقيلة الوزن تعجز عن الطيران وأخرى خفيفة تعلق إلى عنان السماء فقال:

«كَوْنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجَائِبِ صُورِ ظَاهِرَةٍ، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ [٤١٨] مَفَاصِلِ

مُخْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بَعْثَالَةً [٤١٩] خَلَقَهُ أَنْ يَشْمَوْ فِي الْهُوَاءِ خُفُوفًا [٤٢٠]، وَجَعَلَهُ يَدْفُ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٤

دَفِيفًا [٤٢١]»

. نعم؛ فأشكال الطيور على درجة من الاختلاف بما يذهل تنوعها عقل الإنسان، فبعضها غاية في الجمال بما لا تشبع العين من رؤيته، والبعض الآخر له شكل مخيف غالباً ما يفزع الإنسان من مشاهدته، وبعضها ذات أقدام طويلة وكأن أجسامها حملت على عمودين (كالنعامة والقلق) والأخرى قصيرة لا ترى إلّا بصعوبة، ومنها الطيور ذات الجثة الضخمة والأخرى النحيفة، كما تختلف مع بعضها في الطيران فبعضها لا تستطيع الطيران لكنها تسط جناحها وتنطلق بسرعة، وتعلق الأخرى إلى ارتفاعات منخفضة فتنهض من الأرض كنهوض الطائفة، أما البعض الآخر فيرتفع سريعاً من الأرض ويعلق في عنان السماء مستفيداً من دفع أقدامه بالإضافة إلى الاستعانة بأجنحته (كحركة المروحيات)، وتبقى بعض الطيور محلقة في السماء لأسابيع دون أن تشعر بالتعب والملل، كالطيور المهاجرة التي تقطع أحياناً نصف الكرة الأرضية وتتغذى على ما تدخره من مواد غذائية. جدير بالذكر أن بعض الطيور ذات الأجنحة المنبسطة والبدن الخفيف تستغنى عن بسط جناحها حين تبلغ ذروة التحليق وعلى العكس من ذلك الطيور ذات الجثة الثقيلة والتي لا غنى لها عن الأجنحة مهما حلقت. حقاً أن الإنسان كلما تأمل هذه الأنواع تعرّف أكثر على عظمه الخالق وعلمه المطلق وإرادته التامة.

وأشار عليه السلام في المرحلة الرابعة إلى تنوع ألوان الطيور والذي يكشف أيضاً عن جانب من العجائب فقال:

«وَنَسَقَهَا [٤٢٢] عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي الْأَصَابِعِ [٤٢٣] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ،

وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ. فَمِنْهَا مَعْمُوسٌ [٤٢٤] فِي قَالِبِ [٤٢٥] لَوْنٍ لَأَيْشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنٍ مَا غَمَسَ فِيهِ؛

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٥

وَمِنْهَا مَعْمُوسٌ فِي لَوْنٍ صَنِيعٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلَافٍ مَا صُبِغَ بِهِ»

. فتنوع ألوان الطيور هو الآخر من العجائب. وقد قام البعض بإنشاء حديقة كبيرة في بعض المناطق تدعى حديقة الطيور فضمت مختلف أنواع الطيور وتعيش ظروفاً كالظروف الطبيعية للحياة مع فارق بسيط هي أنها أحيطت بسيياج كبير بغية المحافظة عليها، والحق أن كل من يتأمل ألوانها المتنوعة ليسحره منظرها الخلاب فيخيل إليه أن رسماً ماهراً جلس لأيام يخط هذه الألوان، فلا يملك الناظر سوى التوجه إلى الله بالحمد والثناء والتسبيح والتقديس.

تأمل: عجائب عالم الطيور

إنّ النظر إلى طائر جميل والإبداع في بنية جناحه وبالتالي خلقه يجعل الإنسان مستغرقاً في التوحيد، فما ظنك لو قطعنا هذه الرحلة الطويلة في عالم الطيور والتي تتطلب سنوات عديدة. لقد ألف العلماء العديد من الكتب بشأن الأسرار المودعة في الطيور ومختلف أنواعها وأقسامها بما فيها الطيور البرية والبحرية والمهاجرة وغير المهاجرة، ولا يسع البحث لاستيعاب زاوية منها ولذلك نقتصر على

الإشارة إلى جانب منها، فمما قاله العلماء:

١. هنالك حوالي أربعة عشر ألف نوع من الطيور في الكرة الأرضية وقد دفع اختلافها العلماء إلى تصنيفها إلى عدّة فصائل، وبالطبع فإن لكل فصيلة آلاف المصاديق في الخارج، ولا يخفى أن هنالك الآلاف المؤلفة أيضاً من الطيور في الغابات والوديان التي لم يقف عليها الإنسان لحد الآن.

٢. إن بعض الطيور كالنعامة التي تزن حوالي ١٠٠ كيلوغرام وتستطيع بأرجلها الطويلة أن تسير بسرعة ٩٥ كيلومتر بالساعة، وهنالك الطيور الخفيفة الصغيرة التي لا يتجاوز وزنها بضعة كيلو غرامات، وربما لا تقل سرعة طيرانها عن سرعة سير النعامة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٦

٣. إن خلقه كل طير متناسب مع بيئته وظروفه المحيطة وأوضاعه المعاشية، فلبعضها منقار طويل وحاد يتمكن من صيد الأسماك، ولبعضها منقار قصير ومخروطي يستطيع كسر البذور النباتية، كما هنالك المنقار النحيف والحاد الذي يمتص رحيق الأزهار، وأخيراً المنقار الذي يشبه السلّة ويمكن من صيد عدد من الأسماك والاحتفاظ بها.

٤. ليس لأي من الطيور أسنان لكنها تطحن الطعام وتمتصه في أوعيتها الصلبة.

٥. الطيور بيوضة عادة تنام على بيضها لأيام لتفقس عن أفراخ، طبعاً الانثى هي التي تنام عليها، كما يتناوب معها الذكر أحياناً، وأحياناً يحبس الذكر انثاه في عش ولا يسمح لها بالخروج ولا يدع سوى فتحة صغيرة في العش ليوصل إليها ما تحتاج من غذاء.

٦. بدن الطيور خفيف للغاية مستعد للطيران وهو مليء بالغضاريف والغدد التي تساعدها على الطيران.

٧. لطيور الماء ويقصد بها الطيور العائمة في المياه وسواحل البحار برامج عجيبة أحياناً تستهدف طعامها تحت الماء من خلال اكتشافه بجهاز يشبه الرادار فتغوص في الماء لتحصل عليه وبالطبع فإن جسمها دهني لا يسمح بنفوذ الماء إلى داخلها.

٨. ألوان الطيور من عجائب الخلق، فهناك بعض الطيور الجميلة التي تخطف الأبصار وتشرح القلوب حتى يظن الناظر أنها رسمت بريشة فنان عبقرى (وهذا من أبداع أمور الخليفة التي ركز عليها الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة) ولا يدرك الإنسان هذه العظمة دون النظر والتأمل.

٩. أعشاش الطيور هي الأخرى متنوعة وعجيبة، ورغم أنها لا تمتلك الأيدي إلا أنها تصنع أعشاشها وتبنيها بدقّة متناهية، فهنالك طائر يسمى (الخياط) يقوم بصنع عشه من خلال خياطته لأوراق الأشجار حيث يستعين بمنقاره كأبرة وخيوطه ألياف النباتات.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٧

١٠. طيور الصيد لها أرجل وأجنحة قوية كالعقاب والغراب ولها رؤية حادة وقوية بحيث ترى حتى الحشرات الصغيرة في الأرض وهي على ارتفاعات في السماء، وبعضها على درجة من الضخامة بحيث يمكنها التقاط شاة وحملها معها.

١١. وللطيور المهاجرة عالم غريب وعجيب فهي تنطلق أحياناً من خط الإستواء نحو المناطق القطبية وبالعكس فتقطع أكثر من عشرة آلاف كيلومتر دون أن تضل طريقها، فهي تحلق لأيام وليالٍ دون تعب وتعكف قبل الهجرة غريزياً على جمع المواد الغذائية لتستفيد منها طيلة مدة الهجرة.

١٢. للطيور مقاومة شديدة لدرجات الحرارة والبرودة فهي صامدة حتى في درجة تحت الصفر، وحرارة جسمها أعلى من درجة حرارة جسم الإنسان وتصل إلى ٤٥ درجة فوق الصفر [٤٢٦].

١٣. خدمات الطيور للإنسان كثيرة، فطعام أغلب هذه الطيور من الحشرات، وطيور الصيد تحول دون مضاعفة نسل الطيور الأخرى وهنالك الطيور التي تتغذى على الميتة فتطهر سواحل البحار ووسط الأرض كما تلعب دوراً في القضاء على الآفات.

١٤. نقل شارح نهج البلاغة عن كتاب روبرت لمن

«كل شيء عن الطيور»

والذى ترجمه الدكتور بدران، أن البعض يعتقد أن على وجه الأرض أكثر من مئة مليار طير أكبرها النعامة التى يبلغ طولها مترين ونصف ... وأصغرها الطنان وطوله خمسة سانتى مترات، وتحلق بسرعة حيث تبلغ سرعتها أكثر من تسعين كيلومتر بالساعة وتستطيع الوقوف مدّة طويلة فى الجو، وتبلغ خطوة بعض الطيور أكثر من ستة أمتار. وتحلق بعض الطيور إلى ستة آلاف متر فى الهواء بينما تغطس بعضها إلى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٨

عمق ١٨ متر [٤٢٧]. وزبده الكلام فإنّ الإنسان لا- يملك إن تأمل هذا الخلق العجيب سوى الركون لله والإستسلام لقدرته المطلقة وصنعه العجيب.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٥٩

القسم الثانى

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّائِفُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَصَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ. إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأَنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ، وَسَمَّا بِهِ مُطَلًّا عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قَلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوثِيَّةٌ. يَخْتِيَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيْفَانِهِ. يُفَضِّى كَأِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُوَرِّ بِمَلَأِقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُعْتَلِمِيَّةِ لِلضَّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَتِهِ، لَأَكْمَنَ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادَهُ. وَلَوْ كَانَ كَزَعَمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْفِحُ بِدَمْعِهِ تَسْفِحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتِي جُفُونِهِ، وَأَنَّ أَنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَأَمِنْ لِقَاحٍ فَخَلَّ سِوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ.

الشرح والتفسير: أعجب طير فى العالم

بعد أن تطرق الإمام عليه السلام فى المقطع السابق من الخطبة إلى عجائب عالم الطيور أشار هنا بالخصوص إلى أعجب وأجمل طيور الدنيا ألا وهو (الطاووس) الذى يضرب به المثل فى الجمال حتى يستفاد من ريشه الجميل كعلامة للوصول إلى آية معينة فى القرآن وصنع المكناس لنكت الغبار عن الأضرحة المقدسة، حيث أشار الإمام عليه السلام الى بعض خصائص هذا الطائر فقال:

«وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقًا الطَّائِفُ الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيلٍ، وَنَصَّدَ [٤٢٨] أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٠

أَشْرَجَ [٤٢٩] قَصَبَهُ [٤٣٠]، وَذَنَبٍ أَطَالَ مَسْحَبَهُ [٤٣١].»

الشيء الأول الذى يلفت الانتباه فى الطاووس، الألوان الرائعة العجيبة لأجنحته وذيله الطويل نسبياً حيث يخط وراءه عندما يمشى ويتبختر كأنه العروس الجميلة فى ليلة زفافها. حقاً لا يمكن وصف ألوان الطاووس بأى شكل من الأشكال، سوى أن يقف الإنسان مذهولاً أمام عظمة الخالق ويشاهد ويتمتع بهذا الطائر اللطيف. ما يجدر ذكره فى عالم الحيوانات أن الذكر يستغل مختلف الطرق بغية جلب انتباه الانثى له، فأحياناً عن طريق الصوت العذب وأخرى الحركات الموزونة وبعض الحركات الأخرى كما أشار الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمة فقال:

«إِذَا دَرَجَ [٤٣٢] إِلَى

الْأَنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ [٤٣٣]، وَسَمَّا بِهِ مُطَلًّا [٤٣٤] عَلَى رَأْسِهِ»

. حقا أن بسط الطاووس لجناحه لمن أروع المناظر ويعكس حالة من النسق والنظام الرائع.

ثم أورد الإمام عليه السلام تشبيها لذلك فقال:

«كَأَنَّهُ قَلْعٌ [٤٣٥] دَارِيٌّ [٤٣٦] عَنَجَهُ [٤٣٧] نُوثِيَّةٌ [٤٣٨]»

ربما .

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦١

كان هذا التشبيه لأن حركة الشراع نحو المقصد تمنح السفينة جمالاً خاصاً، الطاووس أيضاً عند حركته وفتح لمظلته يجلب انتباه الآخرين لجماله وروعته.

ثم قال عليه السلام:

«يَخْتَالُ [٤٣٩] بِاللَّوَانِهِ، وَيَمِيسُ [٤٤٠] بِزَيْفَانِهِ [٤٤١]. يُفْضِي [٤٤٢] كَأَفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيُؤَوِّرُ [٤٤٣] بِمَلَأَقِيهِ [٤٤٤] أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ [٤٤٥] لِلضَّرَابِ [٤٤٦].»

. الواقع أن هذا الكلام مقدمة لابطال بعض خرافات عامة الناس بشأن هذا الطائر (ويالها من خرافات كثيرة يحيكها العوام بشأن عجائب الحيوانات) لذلك قال:

«أَحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايِنَتِهِ، لَا كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ.»

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَلَوْ كَانَ كَزَعْمٍ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْفِحُ بِدَمْعِهِ تَسْفَحُهَا [٤٤٧]

مَدَامِعُهُ [٤٤٨]، فَتَقِفُ فِي ضَفْتِي [٤٤٩] جُفُونِهِ [٤٥٠]، وَأَنْ أَتْنَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لَأَمِنْ لِقَاحِ

فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُتَبَجِّسِ [٤٥١]، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بِأَعْجَبٍ مِنْ مُطَاعِمَةِ [٤٥٢] الْغُرَابِ.»

. إشارة إلى عدم التعجب من هذه الخرافة التي قيلت بشأن الطاووس، فقد قيل الأعجب من ذلك بشأن الغراب، أنه ليس هنالك من جماع لدى الغراب بل إن أراد لثناؤه الحمل يضع منقاره في منقارها وينقل إليها مقداراً من الماء من القامصة الذكورية فتحمل، وهو كلام باطل ولقد شوهد الجماع كراراً لدى الغراب، وإن سعى إلى الإبتعاد عن

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٢

أنظار الناس، وعليه فعملية الجماع لديه خفية حتى ضرب المثل به لدى العرب فقول:

«أخفى من سفاد الغراب»

ولعل سبب هذه الخرافة أن أغلب الطيور تضع مناقيرها أمام مناقير الطيور الأخرى قبل الجماع وهذا ما جعل البعض يلتبس عليه الأمر. وشبه ذلك ما قيل في الطاووس من أن الانثى تمتص دمع الذكر قبل الجماع [٤٥٣].

سؤال: وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: ترى من الذي جعل الإمام عليه السلام يتعرض لهذه الخرافة بشأن الطاووس أو الغراب، والحال لو كان الأمر كذلك لكان من عجائب الخلقه وغرائبها؟

والجواب: أن الناس لو اتجهوا صوب الخرافات لإثبات العجائب والغرائب لاضطربت الواقعات وسلبت نتائجها المطلوبة. والسؤال الآخر الذي يرد هنا لم يكن في الحجاز طاووس ليرى الإمام عليه السلام عملية التلقيح فكيف ورد هذا الكلام؟

أجاب ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة من نهج البلاغة أن المدينة وإن خلت من هذا الطائر غير أن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة في الكوفة التي كان يجلب إليها كل شيء بما فيها هدايا وصفايا الملوك، وعليه فليس من العجيب أن الإمام عليه السلام شاهد الطاووس وحركاته [٤٥٤].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٣

القسم الثالث

تَخَالَ قَصِيْبُهُ مِدَارِيَّ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أَنْبَتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبٍ دَارَاتِهِ، وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعُقَيَانِ، وَفَلَذَ الزَّبَّوَجِدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتِ الْأَرْضُ

قُلْتُ: جَنَى جُنَى مِنْ زَهْرَةٍ كُلِّ رَبِيعٍ. وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشَى الْحَلَلِ، أَوْ كَمَوْتِقِ عَصَبِ الْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحَلِيِّ فَهُوَ كَقُصُوصِ ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نَطَّقَتْ بِاللَّجِينِ الْمُكَلَّلِ. يَمْشَى مَشَى الْمَرْحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحِيهِ، فَيَفْهَقُهُ ضَاحِكًا لِحِمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصْيَابِيعِ وَشَاحِه؛ فَإِذَا رَمَى بِنَصِيرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَمًا مُعَوْلًا بِصَوْتِ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِعَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخَلَّاسِيَّةِ. وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ طُثُوبِ سَاقِهِ صَيْصِيَّةٌ خَفِيَّةٌ.

الشرح والتفسير: صورة رائعة لجناح الطاووس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى عجب خلقه الطاووس من خلال وصف جناحه وريشه الملون الرائع ليشرح ذلك بعبارات فصيحاً بليغاً وتشبيهات غايه في الروعة فقال:

«تَخَالُ قَصْبُهُ [٤٥٥] مَدَارِي [٤٥٦] مِنْ فُضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ [٤٥٧]، وَشُمُوسِهِ خَالِصِ الْعِيقَانِ [٤٥٨]، وَفَلَدًا [٤٥٩] الرَّبْرِ جِدٍ [٤٦٠]».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٤

يعلم كل من رأى ريش الطاووس أن ألوانه خارقة في الجمال، إلباً أن هنا لك لونين يجليان الإنتباه أكثر من غيرهما، هما اللون الأصفر- الذي يلمع كالذهب الخالص، واللون الأخضر الذي يشبه قطعات الزبرجد (ذلك الحجر النفيس الأخضر اللون والذي يستخدم في الزينة وتاج الملوك) ومن هنا ركز الإمام على هذين اللونين من بين سائر الألوان، والغريب أن جميع ريشه الجميل ينبت على قصبه بيضاء شبهها الإمام عليه السلام بالفضة. ثم شبه الإمام عليه السلام جناحي الطاووس بغية زيادة التوضيح تارة بالأزهار الربيعية المتنوعة الألوان وأخرى بالثياب النفيسة الملونة.

وأخيراً التيجان المرصعة بها، فقال:

«فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أُنْبِتَتِ الْأَرْضُ قُلْتُ: جَنَى [٤٦١] جُنَى مِنْ زَهْرَةٍ كُلِّ رَبِيعٍ»

. ذكر بعض شراح نهج البلاغة أنه يوجد في بعض البلدان عشرة آلاف نوع من البراعم والزهور ولكل جماله الخاص به.

ثم ذكر الإمام عليه السلام تشبيها آخر وعبارة رائعة فقال:

«وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ [٤٦٢] بِالْمَلَابِسِ فَهُوَ كَمَوْشَى [٤٦٣] الْحَلَلِ، أَوْ كَمَوْتِقِ [٤٦٤] عَصَبِ الْيَمَنِ»

والتشبيه الثالث والأخير:

«وَإِنْ شَاكَلْتَهُ

بِالْحَلِيِّ فَهُوَ كَقُصُوصِ [٤٦٥] ذَاتِ أَلْوَانٍ، قَدْ نَطَّقَتْ بِاللَّجِينِ [٤٦٦] الْمُكَلَّلِ [٤٦٧]»

. فقد كان لقدماء الملوك تيجان مفعمة بالنقوش والألوان ومليئة بالمجوهرات حيث يجعلون المجوهرات على شريط أو يخطونها عليه بخيوط رقيقة ليزينوا بها تيجانهم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٥

والقصبات التي تتوسط جناحي الطاووس- كما وردت سابقاً في عبارة الإمام عليه السلام- بيضاء كالفضة والريش على جانبيها كالمجوهرات. الواقع، أن النقوش الجميلة والملونة لا تعدو عادةً أحد هذه الأشياء الثلاثة: باقة الورد والملابس والجواهر. وقد استعان الإمام عليه السلام بالتشبيهات الثلاثة بتلك العبارات الفصيحة البليغة ليجسد جماليه ريش الطاووس.

ثم واصل عليه السلام كلامه ليخوض في شرح الطاووس من خلال مشيه ونظرته لنفسه فقال:

«وَأَنَّ شَاكِلَتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُضُوصِ ذَاتِ أُلْوَانٍ، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللَّجِينِ الْمُكَلَّلِ، يَمْشِي مَشَى الْمَرْحِ [٤٦٨] الْمُخْتَالِ [٤٦٩]، وَيَتَصَفَّحُ ذَنْبَهُ وَجَنَاحَيْهِ، [٤٧٠] فَيَقْهَقُهُ ضَاحِكًا لِحِمَالِ

سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ [٤٧١] وَشَاحِهِ [٤٧٢]؛ فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا [٤٧٣] مُغُولًا [٤٧٤] بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِعَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوْجِعِهِ، لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمُشٌ [٤٧٥] كَقَوَائِمِ الدَّيْكَهِ الْخِاسِيَّةِ [٤٧٦]. وَقَدْ نَجَمَتْ [٤٧٧] مِنْ ظُنُوبِ [٤٧٨] سَاقِهِ صَيْبِيَّةٌ [٤٧٩] خَفِيَّةٌ»

. فقد أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة لطيفة وهي أن الله سبحانه جعل في هذا الطائر بعض نقاط الضعف رغم آيات الجمال، وإذا ما شعر حيناً بالغرور ودفعه ذلك للضحك بالقهقهة فإنه لا يكاد يخفى ألمه إن وقعت عينه على نقصه. وبالطبع فإن هذا نموذج من عالم الخلق الذي حال فيه الحكيم دون الغرور والطغيان الناشئ من الشعور بالقوة حيث جعل قدرًا من الضعف والنقص بغية التوازن والقضاء على الغرور والغفلة. فهناك الكسل والعجز الذي يطارده الشباب والنشاط، والمرض والسقم الذي يتبع الصحة والعافية،

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٦

والفقر الذي يجرى خلف الغنى، وإدبار الدنيا الذي يحث الخطى نحو إقبالها. نعم هذه إحدى فلسفات المرض والعجز وسائر المحن والويلات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٧

القسم الرابع

وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ فُتْرَعَةٌ خَضْرَاءُ مُوشَاءٌ. وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْبُرَيْقِ، وَمَغْرُزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصَبِغِ الْوَسْمَةِ الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةَ ذَاتِ صِقَالٍ، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمٍ؛ إِلَّا أَنَّهُ يُحْيِلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةٌ بِهِ. وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ حَطُّ كَمْسِ تَدَقُّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الْأَفْحَوَانِ، أَيْضُ يَقْقُ، فَهُوَ بَيَّاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ. وَقَلَّ صَبِغٌ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيْبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمُبْتُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَيْبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح والتفسير: صورة دقيقة عن جمال الطاووس

خاض الإمام عليه السلام هنا بعبارات فصيحةً بليغةً في خمس خصائص أخرى تعكس جمال الطاووس ليذكر من خلالها هذه الجمالية على ضوء مظاهر جمال الله وجلاله، فقال:

«وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ [٤٨٠] فُتْرَعَةٌ [٤٨١] خَضْرَاءُ مُوشَاءٌ [٤٨٢]»

. العرف عند العرب، شعيرات طويلة تبدأ من أعلى الكتف والرقبة حتى خلف الرأس لتنتهي بين الأذنين فيكون كالتاج وحيث هذا التاج أخضر براق في الطاووس فإنه يمنحه جمالاً يسحر الأبصار ويلفت نظر الإنسان إلى مبدأ هذا الجمال الساحر.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٨

وقال في الخاصية الثانية:

«وَمَخْرُجُ عُنُقِهِ كَالْبُرَيْقِ [٤٨٣]، وَمَغْرُزُهَا [٤٨٤] إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ

كَصَبِغِ الْوَسْمَةِ [٤٨٥] الْيَمَانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةَ ذَاتِ صِقَالٍ [٤٨٦].»

وقال في الثالثة:

«وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ [٤٨٧] بِمِعْجَرٍ [٤٨٨] أَسْحَمٍ [٤٨٩]؛ إِلَّا أَنَّهُ يُحْيِلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ،

وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاصِرَةَ مُمْتَرِجَةٌ بِهِ»

. وقال في الخاصية الرابعة:

«وَمَعَ فَتَقِ سَمِعِهِ حَطُّ كَمْشَدَقِ [٤٩٠] الْقَلَمِ فِي لَوْنِ
الْأَفْحَوَانِ [٤٩١]، أْبَيْضُ يَقُقُ [٤٩٢]، فَهُوَ بَبْيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَا تَلِقُ [٤٩٣].»

وأخيراً قال في الخاصية الخامسة:

«وَقَلَّ صَبْعُ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلَاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيْقِهِ [٤٩٤]، وَبَصِيصِ [٤٩٥] دِيْبَاجِهِ وَرَوْنِقِهِ [٤٩٦]، فَهُوَ كَالْأَزَاهِيرِ الْمُبْتُوثَةِ، لَمْ
تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ، وَلَا شُمُوسُ قَيْظٍ [٤٩٧].»

إنَّ التمعن في هذه الخواص الخمس للطاوس إضافة لما ذكر في مقاطع الخطبة السابقة يكشف من جانب، عن عظمة وقدره المصور الماهر الذي جمع كل هذا الحسن والجمال في هذا المخلوق وجعله نموذجاً لأنواع الجمال، حيث أدنى وقفه نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٦٩

عند هذا المخلوق دليل على وجود الخالق سوى لهذا المخلوق البديع لكفى في الوقوف على الخالق العظيم، وكلما أوغل الإنسان أكثر وتعمق أصبح أكثر خضوعاً لخالقه الحكيم ونطق بلسان حاله: يا لك من مخلوق رائع جميل، فما أجمل من خلقك ومنحك كل هذا الجمال. ومن جانب آخر، نقف على مدى عظمة هذا الإمام العظيم بطل التوحيد ومدى دقته في عرض عجائب وجمال عالم الخلق وإرشاده الخلق إلى الخالق، والحق أن أحداً لم يستطع أن يتحدث عن جمال هذا الطائر كما تحدث الإمام عليه السلام. نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧١

القسم الخامس

وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرِى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى وَيَبْتُ تَبَاعاً، فَيَنْحُتُ مِنْ قَصْبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْ رَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاْحِقُ نَامِيًا حَتَّى يَعُودَ
كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لَا يَخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ! وَأَذَا تَصَيَّفَحَتْ شَعْرَةٌ مِنْ شَعْرَاتِ قَصْبِهِ أَرْتَكَ حُمْرَةً وَرَدِيَّةً،
وَتَارَةً خُضْرَةً زَبْرَجَدِيَّةً، وَأَخْيَانًا صِبْرَةً عَسِيْدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَاتِقِ الْفِطْنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحِ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصِفَهُ
أَقْوَالِ الْوَاصِفِينَ!

وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ! فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقِ جَلَاءِ لِلْعُبُودِ، فَأَذْرَكَتَهُ مَحْدُودًا
مُكُونًا، وَمَوْلَفًا مَلُونًا؛ وَأَعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!

الشرح والتفسير: حيرة العقول في الوصف

أشار الإمام في هذا المقطع والذي يمثل ختام الكلام في الطاوس إلى أمرين مهمين؛ الأول قال:

«وَقَدْ يَنْحَسِرُ [٤٩٨] مِنْ رِيْشِهِ، وَيَعْرِى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى [٤٩٩]،
وَيَبْتُ تَبَاعاً، فَيَنْحُتُ [٥٠٠] مِنْ قَصْبِهِ انْحِتَاتٍ أَوْ رَاقِ الْأَغْصَانِ، ثُمَّ يَتَلَاْحِقُ نَامِيًا حَتَّى
يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ.»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٢

ثم قال:

«لَا يَخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلَا يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ!»

. لا شك في أن ريش الطاوس ورغم كل هذا الجمال لكنه قد يتعرض مع مرور الزمان إلى الإتساخ بالتراب والغبار، ومن هنا فإنَّ الله تعالى ينزع عنه كل سنة لباسه القديم ويغطي جسمه بلباس جديد وجميل ليبقى غضاً جميلاً على الدوام. غالباً ما تسقط أوراق الأشجار

في فصل الخريف ويسلب الطاووس نشاطه وحيويته، وحين تتفتح الأزهار في فصل الربيع تدب الحيوية في الطاووس ويكتسى حلة جديدة ملونه تجعل قصبه الأبيض الفضي اللون يبدو كسيقان الأشجار.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة لطيفة فقال:

«وَإِذَا تَصَفَّحَتْ شَعْرَهُ مِنْ شَعْرَاتِ قَصْبِهِ أَرْتَكَ حُمْرَهُ وَرَدِيَّهُ، وَتَارَهُ خُضْرَهُ زَبْرَجِدِيَّهُ، وَأَخْيَانًا صُفْرَهُ عَسَجِدِيَّهُ» [٥٠١]

. لما كانت على ريش الطاووس دوائر جميلة بألوان مختلفة، وكل لون يختص بخصلة معينة لتبدو بصورة رائعة.

وأخيراً يخلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَّا تُقِ [٥٠٢] الْفِطْنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ [٥٠٣] الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالَ الْوَاصِفِينَ! وَأَقْلُ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ وَاللِّسَنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!»

. نعم؛ إن عجز الإنسان العاقل والمفكر عن الوقوف على عجائب الطاووس وتعذر عليه وصفه وإدراكه فكيف بعالم الخلقه وأسراره؟! وإضافة إلى النتيجة السابقة الواضحة في موضوع معرفة الله وإدراك عظمه الخالق وسعه علمه وقدرته إنما خلص إلى نتيجة أخرى فإن عجزنا عن إدراك كائن من هذه الكائنات فكيف لنا بإدراك كنه الذات والصفات والتعرف على الله كما هو [٥٠٤]، فقال:

«فَسُبْحَانَ الَّذِي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٣

بَهْرَ [٥٠٥] الْعُقُولِ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلَاءَ [٥٠٦] لِلْعِيِّونِ، فَأَذْرَكَتَهُ مَخْدُودًا مُكْوَنًا، وَمُؤَلَّفًا مُلَوَّنًا؛
وَاعْجَزَ الْأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ [٥٠٧] صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ!».

تأمل

غرائب الطاووس

إنّ عالم الخليفة لعجيب كيفما نظرنا إليه، إلّا أنّ هنالك البعض الأعجب غيره ومن ذلك الطاووس. فهذا الطائر فريد في الجمال ومن هنا ضرب به المثل. لقد اصطبغ ريشه بعدة ألوان جميلة، وإن نشر جناحيه بدأ أكثر جمالاً وروعةً ويفعل ذلك على وجه السرعة حين تلحظه أثنائه ليلفت نظرها إليه، فهو يبدو كالعروس التي ترتدى حلتها ليله الزفاف، ويشعر بالمتعة من هذا المنظر فيمشى باختيال وغرور ويختتم ذلك بقهقهة ضاحكاً.

يبلغ عمر الطاووس ٢٥ - ٢٠ سنة وتبيض الانثى في الثالثة من العمر، تبيض الانثى عادة مرة في العام وتضع ١٢ بيضة، إلّا أنّ كثرة حر كاته تجعله لا يحافظ على بيوضه، لذلك توضع البيضة تحت بطن آخر لتفقس، يعتبره اليونانيون والرومانيون طائراً مقدساً، بينما يراه الآخرون مشؤوماً أدى إلى دخول ابليس إلى الجنة، يبلغ طوله من منقاره إلى انتهاء ذيله أكثر من مترين، والأنتى أقصر من الذكر.

وكما ذكر الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة فإنّ هنالك خرافة سائدة بين الناس بشأن حمل الطاووس وأن الذكر حين يتهبج يضع قطرة دمع في عين الانثى فتمتصها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٤

وتحمل، والواقع أنّه يلقح اثنائه على أساس الجماع كما لوحظ ذلك كثيراً. عادة ما يربي هذا الطائر الجميل الذي يستفاد منه في الزينة، وهنالك من يتناول لحمه، غير أنّ الشريعة الإسلامية حرمت ذلك [٥٠٨].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٥

القسم السادس

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمْجَةَ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ وَالْفَيْلَةِ! وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَيْخٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ،
إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ مُوعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ.

الشرح والتفسير: الديدان والفيلة والحيتان

أشار الإمام هنا بصورة عابرة إلى عجائب سائر الأحياء حتى لا يتصور أن العجائب تقتصر على الطاووس، فقال:

«وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ ٥٠٩ [قَوَائِمَ ٥١٠] الذَّرَّةَ [٥١١]

وَالْهَمْجَةَ [٥١٢] إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحَيْتَانِ [٥١٣] وَالْفَيْلَةَ!»

. فقد أشار الإمام إلى حشرتين من أصغر الحشرات على الأرض صغار النمل والذباب وإلى أضخم وأكبر حيوانين هما الحوت في البحار والفيل في اليابسة، ولقد لفت الإنتباه إلى أيدي وأرجل صغار الحشرات، اليد والرجل التي تضاهي يد الفيل ورجله فتتحرك يميناً وشمالاً وتأخذ أوامرهما من الدماغ وتشتمل على الأعصاب والعضلات والمفاصل وما شابه ذلك، والحق لو جعلنا رجل هذه الدودة الصغيرة تحت المجهر وتأملنا بنيتها لتعرفنا على قدرة الله تعالى وعلمه المطلق.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٦

كذلك لو تأملنا الحيوانات الكبيرة حيث إن زنه بعض الحيتان تبلغ طناً وترضع فراخها اللبن تحت الماء، حيث تسكب الأم اللبن في الماء ويمتصه الوليد فوراً، وتنطوي سائر عجائبها على الدروس البليغة في التوحيد ومعرفة الله، نعم؛ إن هذه الديدان - على سبيل المثال - كثيرة من حولنا وقد اعتدنا على رؤيتها فلم نعد نلفت إلى أن بنيتها تفوق بنية الطائفة الضخمة. قال الله تعالى في كتابه العزيز:

«وَكَأَيُّنَ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» [٥١٤].

وأشار الإمام عليه السلام أخيراً إلى مصير الأحياء كافة، أي الموت والعدم، فقال:

«وَوَأَى [٥١٥] عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا يَضْطَرِبَ شَيْخٌ [٥١٦] مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلَّا وَجَعَلَ الْحِمَامَ
مُوعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ»

. أجل؛ إن الموت هو مصير كل ذي روح وهذا الكلام هو إشارة إلى أن الدنيا لا تدوم رغم كل ما فيها من جمال وعجائب ولا يمكن التعلق بها، ومن جانب آخر يمكن الوقوف على عظمة الله تعالى بصورة أفضل من خلال مقارنة موت هذه الموجودات بحياتها، لأن أهميته كل شيء تظهر حين فناءه.

تأمل: غيب من عجائب الحيتان والفيلة

سنحوض في شرح الخطبة ١٨٥ التي أوردتها الإمام عليه السلام بشأن النمل إن شاء الله، ونشير هنا إلى الحيتان والفيلة بصورة مختصرة:

الحيتان

يقول العلماء: إن هنالك خمسة عشر ألف نوع من الحيتان في بحار ومحيطات العالم، بعضها صغيرة جداً لا تتجاوز سانتيمترين وبعضها الآخر كالحوت الذي يبلغ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٧

طوله ثلاثين متراً ويزن ثلاثين طناً تنطوي على العديد من العجائب. فمعدتها كبيرة جداً تستوعب الكثير من المواد الغذائية، ويبلغ طول ولدها ستة أمتار حين الولادة.

وتتغذى فراخها على لبنها الذي يخرج من بدنها بغزارة. تتحرك دائماً على سطح الماء للتنفس ولا تستطيع البقاء أكثر من ساعة تحت

الماء، فهي أكبر الحيوانات على الأرض وتعتبر من الثدييات. أبدانها دهنية، يستفاد منها في الصناعات المختلفة ولا تملك أسناناً بل لها شفرات عظيمة طويلة وخطيرة تشبه الأسنان ويستفيد الصيادون من هذه الشفرات والغدد الدهنية.

الفيلة

يعتبر الفيل في الوقت الحاضر من أكبر الحيوانات، والفيلة نوعان: الفيلة الهندية ويطلق عليها الفيلة الآسيوية، والآخر، الفيلة الأفريقية. والفيلة الآسيوية أكبر ومستعدة للتربية أكثر من نظيرتها الأفريقية. والواقع هو أن خرطوم الفيل بمثابة أنفه وشفته العليا، غير أنه يقوم بعمل اليد عادة، أي أن الفيل يحمل الطعام بيده إلى فمه ويقذف الماء على ظهره عند الحرارة. يتغذى الفيل على العلف حيث يجمعه من الأرض بخرطومه ويضعه في فمه، كما يستعين بعاجه القوى والحاد على اقتلاع الأشياء من الأرض. الفيل حيوان ذكي جداً يمكن ترويضه للقيام بعدة أعمال، كما يقوم بالعديد من الحركات السريعة والعجيبة في السيرك. تعيش الفيلة بصورة جماعية وهذا بدوره دليل على ذكائها. تعمر أحياناً مائة وخمسين سنة! تعرف أسنان الفيل (بالعاج) الذي يعتبر من الأشياء النفيسة والذي تصنع منه أشياء الزينة.

كان قدماء الملوك والسلاطين عادة ما يشكلون جيشاً من الفيلة ويزينون فيلتهم وينصبون عليها الأعلام. نعم؛ عجائب الحيتان والفيلة أكبر من أن تختصر في هذا البحث، وغرض الإمام عليه السلام من التطرق إلى هذه الخصائص إلفات الإنباه إلى آيات الخلق العظيمة [٥١٧].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٧٩

القسم السابع

فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَرَفْتَ نَفْسَكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَمَذَهَلَتْ بِالْفِكْرِ فِي اضْطِغَاقِ أَشْجَارٍ عُيِّتْ عُرْوُوقُهَا فِي كُثْبَانِ الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَغْلِيْقِ كَيْسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ التَّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلْفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنِيَّةٍ مُجْتَنِبِهَا، وَيُطَافُ عَلَى نَزْلِهَا فِي أَفْتِيَةِ قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَيَّفَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ. قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكِرَامِيَّةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْفَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَهُ الْأَسْفَارِ. فَلَوْ شَعَلَتْ قَلْبَكَ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ، لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلَتْ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَزَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا. جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ.

الشرح والتفسير: نعم الجنة ومفاتها

يشير هذا المقطع من الخطبة كما يفهم من مضمونه وصرح به السيد الرضى إلى صفات الجنة، وبالطبع فإن هنالك مطالب أخرى بين هذا المقطع وما سبقه إلا أن السيد اقتطف هذه الرياحين كعادته، لكن يبدو أن الإمام تحدث سابقاً عن التوحيد، بينما تطرق هنا إلى المعاد، ليتكامل مبحث المبدأ والمعاد، أو بعبارة أخرى يعرض لنعم الجنة بعد هذه الدنيا. فقال:

«فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصِيرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٠

لَعَرَفْتَ [٥١٨] نَفْسَكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَاتِهَا، وَزَخَارِفِ مَنَاطِرِهَا، وَلَمَذَهَلَتْ [٥١٩] بِالْفِكْرِ فِي اضْطِغَاقِ أَشْجَارٍ عُيِّتْ عُرْوُوقُهَا فِي كُثْبَانِ [٥٢٠] الْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا».

وما أن فرغ الإمام عليه السلام من وصف الأشجار في الجنة، حتى تطرق إلى ثمارها فقال: «وَفِي تَغْلِيْقِ كِتَابِيسِ [٥٢٢] اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيْجِهَا [٥٢٣] وَأَفْنَانِهَا [٥٢٤]، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثَّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلْفِ [٥٢٥] أَكْمَامِهَا [٥٢٦]، تُجْنَى [٥٢٧] مِنْ غَيْرِ تَكْلُفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُثْيِهِ مُجْتَنِبِيهَا».

إنَّ أحدَ معضلات أشجار الفاكهة في الدنيا يكمن في جنيتها الذي ينطوي على متاعب جمه، إلى درجة أنَّ البعض يتسلق الشجرة لعملية الجنى، فيفقد حياته. هذه هي طبيعة الدنيا في مزج اللذة بالألم، أما في الجنة حيث لا موضع للألم وكل شيء على ما يرام وطبق المراد فإنَّ ثمار الأشجار في متناول الجميع، وعلى كل حال، سوى الوقوف أو الجلوس، بل على أساس بعض الروايات أنَّ غصون الشجرة تحضر بثمارها عند الشخص كلما اشتهاها: «قُطُوفُهَا دَائِيَّةٌ» [٥٢٨]، وفي أية أخرى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨١

«وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانَ» [٥٢٩].

ثم خاض الإمام عليه السلام في النعمة الأخرى في الجنة فقال:

«وَيُطَافُ عَلَى نَزَالِهَا فِي أَفْنِيَّتِهَا [٥٣٠] قُصُورِهَا بِالْأَعْسَالِ الْمُصَفَّقَةِ، وَالْخُمُورِ الْمُرَوَّقَةِ [٥٣١]»

. وقد أشار القرآن إلى الشراب الطهور اللذيذ في الجنة الذي لا يصيب الرأس بالصداع ولا يذهب بعقل الإنسان، ومن ذلك ما ورد في سورة الدهر التي أشارت إلى هذا الشراب اللذيذ وأربع صور وطبائع: «إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ... وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا» [٥٣٢] وقال في موضع آخر:

«لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ» [٥٣٣].

ثم أشار عليه السلام إلى أوصاف الجنة فقال:

«قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الْكِرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ الْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ [٥٣٤] الْأَشْفَارِ»

. ويستفاد من هذه العبارة أنَّ أصحاب الجنة حفظوا قدسياتهم وطهارتهم وورعهم إلى آخر عمرهم ولم يخذشوا الكرامة الإنسانية التي أشارت إليها الآية القرآنية: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ...» [٥٣٥] فلقوا ربهم على الإيمان والعمل الصالح الذي ملأ كياناتهم، كما تفيد العبارة، التأكيد على حسن العاقبة وأنَّ كل شيء يتوقف على خاتمة الأمور والأعمال. وأخيراً يشعل في قلوب الآخرين شعله

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٢

الشوق إلى لقاء اللطف الإلهي ونعمه التي لا تحصى في ذلك العالم:

«فَلَوْ شِغَلَتْ قَلْبِكَ أَهْيَا الْمُسْتَمِعِ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ الْمَنَاطِرِ الْمُؤَنِقَةِ [٥٣٦]،

لَزَهَقَتْ [٥٣٧] نَفْسُكَ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَلَتْ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ الْقُبُورِ

اسْتِعْجَالًا بِهَا»

. أراد الإمام عليه السلام أن يؤكد في هذا الكلام على حقيقة هي أنَّ عظمه نعم الجنة أكبر من أن يحيطها وصف الإنسان، ولو تأملها

الإنسان لذاب شوقاً إليها وكأنه يروم التحليق إليها، كما ورد ذلك في خطبة المتقين:

«فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعًا وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقًا» [٥٣٨].

وهكذا اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء:

«جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الْأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ»

. إشارة إلى أنَّ الإنسان لا يبلغ شيئاً دون أن تشمله رحمة الله.

تفسير بعض الكلمات الصعبة في الخطبة (من جانب الشريف الرضى):

قال السيد الشريف الرضى في آخر هذه الخطبة:

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«يُؤْرُ بِمَلَأِقِحِهِ»

الْأُرُّ: كِنَايَةٌ عَنِ النَّكَاحِ، يُقَالُ: أُرَّ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يُؤْرُهَا، إِذَا نَكَحَهَا. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَأَنَّهُ قَلَعَ دَارِيَّ عَنَجَهُ نُوتِيَهُ»

الْقَلْعُ: شِرَاعُ السَّفِينَةِ، وَدَارِيٌّ:

مَنْسُوبٌ إِلَى دَارِينَ، وَهِيَ بَلَدَةٌ عَلَى الْبَحْرِ يُجَلَبُ مِنْهَا الطَّيْبُ. وَعَنَجَهُ: أَى عَطَفَهُ.

يُقَالُ: عَنَجْتُ النَّاقَةَ - كَنَصْرْتُ - أَعْنَجُهَا عَنَجًا إِذَا عَطَفْتُهَا. وَالتُّوتَى: الْمَلَأُخ.

وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«ضَفَّتِي جُفُونِهِ»

أَرَادَ جَانِبِي جُفُونِهِ. وَالضَّفَّتَانِ: الْجَانِبَانِ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«وَفَلَدَ الزَّرْبُجِدَ»

الْفِلْدُ: جَمْعُ فَلْدَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ. وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ»

الْكِبَاسَةُ: الْعِدْقُ وَالْعَسَالِيحُ: الْغُصُونُ، وَاحِدُهَا عُشْلُوحٌ.

تأمل: أيها أجمل؟

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٢٨٣

تحدث الإمام عليه السلام بكل فصاحته وبلاغته المعهودة في هذه الخطبة عن جمال هذا العالم أحياناً، وأحياناً أخرى عن جماليته العالم الآخر، لكنه ما أن يبلغ شرح نعم الآخرة حتى يشير إلى هذه الحقيقة وهي أن ما يتعلق بذلك العالم يتعذر بيانه، بحيث لو يراه الإنسان لتمنى المسارعة إليه. حقاً أن آداب الحياة الدنيا لا يسعها شرح الحياة الآخرة، وذلك أشبه بأن يسجن الإنسان منذ ولادته في غرفة ولما اكتمل عقله أرادوا أن يشرحوا له المناظر الجميلة المتناثرة في الحدائق والبساتين والشلالات ومختلف الأماكن الطبيعية الرائقة، يحدثوه عن الطاووس وألوانه الجميلة وأصوات الطيور العذبة، والفاكهة الذيدة وسائر المناظر الخلابة، فبالطبع لا تسعفه الآداب التي تعلمها في تلك الغرفة المظلمة لأن يفهم ما يسمع. الجدير بالذكر أن الإمام ينظر إلى نعم الآخرة من زوايا مختلفة، فتارة من زاوية حظ البصر وأخرى من خلال الفواكه الذيدة والثمار الطبيعية، وأحياناً من خلال الضيافة المفعمة بالكرامة والاجلال، والأخرى عن الأمن والسكينة التي تسود الجنة. فليس هنالك من مرض ولا تعب ولا إرهاق ولا موت ولا سلطان ظالم ولا خيانة ولا مكر ولا غدر ولا حرب وخراب ودمار. بل الحاكم هو الأمن والأمان والسلام.

عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ لَمَّا حَوَّطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبْنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ وَغَرَسَ غَرْسَهَا قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي فَقَالَتْ: قَدْ افلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: طُوبَى لَكَ مَنَزِلَ الْمُلُوكِ» [٥٣٩].

وعن عبد الله بن جابر الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ تَعَالَى أَتُحِبُّونَ أَنْ لَدِيدَكُمْ فَيَقُولُونَ: وَهَلْ خَيْرٌ مِمَّا أُعْطِينَا؟»

فَيَقُولُ: نَعَمْ رِضْوَانِي أَكْبَرُ» [٥٤٠].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٥

الخطبة ١٦٦

نظرة إلى الخطبة [٥٤١]

تتألف هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: حث الإمام عليه السلام في القسم الأول الناس على احترام بعضهم البعض الآخر ويتبع الصغير الكبير ويراف الكبير بالصغير ولا يكونوا كجفاه الجاهلية. وأخبر في القسم الثاني عن مصير بنى أمية الذين يستولون على كل شيء بفعل فرقة المسلمين وابتعادهم عن أصلتهم، وسيصلون إلى أقصى مناطق البلاد الإسلامية، إلا أنهم لا يلبثون كثيراً حتى يفقدون كل شيء.

وأخبر في القسم الثالث عن عوامل تخلف المسلمين في آخر الزمان وفي مقدمتها عدم نصره الحق والوقوف بجانب الإمام العادل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٧

القسم الأول

لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلِيُزَأَفَ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ؛ وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ: لَأَفِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ؛ كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ يَكُونُ كَشْرَهَا وَزَرَأً، وَيُخْرِجُ حِضَانَهَا شَرًّا.

الشرح والتفسير: ثلاث وصايا أخلاقية

أورد الإمام في هذه العبارات القصيرة العميقة المعنى ثلاث وصايا أخلاقية واجتماعية مهمة تؤدي العمل بها إلى تماسك عرى المجتمع، فقال في الأولى:

«لِيَتَأَسَّ [٥٤٢] صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ»

. ذلك لأن الكبير عادة سلسلة من التجارب وقد ذاق حلاوة الدنيا ومرارتها ووقف على خيرها وشرها، أضف إلى ذلك فقد اجتاز هذا الكبير عصر الفتوة بنشاطه وحيويته ويشعر الآن بنوع من الاستقرار الأخلاقي وقد تعرف على الآداب والأعراف الاجتماعية، ولا يمكن التنكر لهذه الحقيقة، بالرغم من أن هذه ليست قاعدة كلية ولا تخلو من الاستثناء.

الوصية الثانية

«وَلِيُزَأَفَ [٥٤٣] كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ»

فيتلافى ضعفهم وينقل إليهم تجاربه ويتغاضى قدر المستطاع عن أخطائهم ويقف في كل الأحوال إلى جانبهم. ولو كان هناك التزام بهاتين الوصيتين لتوطدت العلاقات بين الجيل القديم والحديث بما يجعلهم يشكلون جبهة واحدة رصينة الصفوف. وإلا فليس هنالك سوى احتدام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٨

النزاع بينهما بما يعكر صفو المجتمع.

أما الوصية الثالثة والتي تمثل في الواقع تأكيداً للوصايا السابقة:

«وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ [٥٤٤] الْجَاهِلِيَّةِ: لَأَفِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلَا عَنِ اللَّهِ يَعْقِلُونَ»

. نعم، فالجهال لم يفتحوا على التربية الدينية ولم يستعينوا بعقولهم، فهم زمرة فضة متحللة تهد كيان المجتمع، لا ترحم الصغير ولا تتعظ بنصائح الكبير.

ثم خاض عليه السلام في هذه الفئة فقال على سبيل التمثيل:

«كَفَيْضِ [٥٤٥] بَيْضِ فِي أَدَاخِ [٥٤٦]

يَكُونُ كَشْرَهَا وَزُرًّا، وَيُخْرِجُ حِصَانَهَا [٥٤٧] شَرًّا»

. إشارة إلى الحذر من كون ظاهركم الإسلام وباطنكم كجفأة العصر الجاهلي بحيث يشك الصالحون بكم حين التعامل، فلو عاملوكم بصدق وأمانة خشوا من باطنكم الذي تشم منه رائحة النفاق، وإن عاملوكم كمنافقين خشوا أن يكون باطنكم طاهراً. من المعروف أن النعامة تحفر الرمل وتبيض هناك وهكذا تفعل الحية والأفعى، ومن هنا فإن الإنسان حين يرى هذه البيضة لا يعلم هل هي للأفعى تعود أم النعامة؟ فيشك في التعامل معها! وبعبارة أخرى أن صورة الإنسان الجافي صورة إنسان إلا أن باطنه مملوء بالشّر والفساد، كالبيضة التي صورتها بيضة الطيور وباطنها حية قاتلة. وعلى هذا الضوء فقد رسم الإمام عليه السلام بهذا التشبيه الرائع صورة واضحة للمشاكل التي تفرزها التعامل مع الفرد المنافق.

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٢٨٨

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٨٩

القسم الثاني

أَفْتَرَقُوا بَعْدَ أَلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ. فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُضَنِ أَيْنَمَا مَالَ، مَالَ مَعَهُ. عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِسَرِّ يَوْمِ لَبْنَى أُمِّيَّةَ، كَمَا تَجْتَمِعُ قَرْعُ الْخَرِيفِ يُؤَلَّفُ اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا كَرَّامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَتَارِهِمْ كَسِيلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسِلْمَ عَلَيْهِ قَارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ، وَلَمْ يَزِدْ سَنَّهُ رِصٌّ طَوْدٍ، وَلَا حِدَابٌ أَرْضٍ. يُدْعِدُهُمُ اللَّهُ فِي بُطُونِ أَوْدِيَّتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقِ قَوْمٍ، وَيَمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ. وَإِنَّمَا اللَّهُ، لِيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمَكِينِ، كَمَا تَذُوبُ اللَّائِيَةُ عَلَى النَّارِ.

الشرح والتفسير: المصير الأسود لبني أمية

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة إلى المصير الباهر لأصحابه إلى جانب النهاية المفجعة فقال:

«أَفْتَرَقُوا بَعْدَ أَلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِمْ»

فمنهم من التحق بالخوارج وقف في وجه الإمام عليه السلام ومنهم من أصابه الشك واعتزل عن الجماعة، ومع ذلك فإن هناك بعض أصحابه

«فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُضَنِ أَيْنَمَا مَالَ، مَالَ مَعَهُ»

. فهذه إشارة إلى طائفة ثبتت على الحق وتمسكت بالثقلين (الكتاب والعترة) وتعلقوا بغضن شجرة النبوة المتمثل بأهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام فانطلقوا خلفهم لرضى الله. نعم؛ ذهب البعض إلى أن هذه العبارة إشارة إلى فئة منحرفة أيضاً، والحال تفيد العبارات القادمة أن المعنى الأول هو الصحيح. لأن الإمام قال لاحقاً:

«عَلَى أَنَّ اللَّهَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٠

تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لَشَرِّ يَوْمٍ لِيُنِي أُمِّيَّةً، كَمَا تَجْتَمِعُ قَرْعُ [٥٤٨] الْخَرِيفِ [٥٤٩]»

. ثم قال:

«يُولَّفُ

اللَّهُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَّامًا [٥٥٠] كَرَّكَامِ السَّحَابِ؛ ثُمَّ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابًا.»

ثم واصل عليه السلام كلامه ليعين كيف سيواجه اتباع أهل البيت عليهم السلام ظلمة بنى أمية فقال:

«يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَنَارِهِمْ [٥٥١] كَسَيْلِ الْجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قَارَةٌ [٥٥٢]، وَلَمْ

تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكْمَةٌ [٥٥٣]، وَلَمْ يَزِدْ سَنَّهُ [٥٥٤] رِصًا [٥٥٥] طَوْدًا [٥٥٦]، وَلَا حِدَابًا [٥٥٧] أَرْضٍ»

. ما ورد في هذه العبارة إشارة إلى قوم سبأ الذين عاشوا في اليمن وبنوا سداً عظيماً بين جبلين يعرف بسد مارب منعوا السيول واستفادوا من ماء السد في بناء جنتين عظيمتين على جانبي نهر كان يجري هناك، فعاشوا حياة مرفهة وادعة، إلا أن جحودهم وبطر نعمتهم وغرورهم عزّضهم لأليم العقاب.

إنهار السد عند الليل فأتى السيل على جنتيهما وأحال أرضهم خراباً فاضطر من تبقى منهم للهجرة. وسيكون اتباع أهل البيت عليهم السلام بمثابة السيل الذي يدمر ظلمة بنى أمية ويخربون بيوتهم ويقضون عليهم ويهاجر من يبقى منهم.

ثم شبه الإمام عليه السلام هذه الجماعة المدافعة عن الحق فيما بعد زوال بنى أمية بالماء المطمور في الأرض والذي ينبع كعيون جارية في البناء والعمران، فقال:

«يَدْغِدُهُمْ [٥٥٨] اللَّهُ فِي بَطُونٍ أَوْدِيَّتِهِ [٥٥٩]، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩١

قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيَمَكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيَارِ قَوْمٍ»

. ذكر بعض شراح نهج البلاغة احتمالاً آخر لتفسير العبارة المذكورة ومرجع الضمائر، ولا نرى حاجةً لذكره سيما لعدم انسجامه مع العبارات السابقة واللاحقة. نعم؛ فاتباع أهل البيت عليهم السلام ينطلقون بادية الأمر كالسيل الذي يحطم قصور بنى أمية كما حطم السيل عروش الظلمة في سبأ، وسيطيحون بدولتهم، فيتفرقون في كل مكان ويكونوا كعيون الماء في إقامتهم للعدل والقسط. وأخيراً أقسم الإمام عليه السلام قائلاً:

«وَإِيْمُ اللَّهِ، لِيَذُوبَنَّ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالتَّمَكِينِ، كَمَا تَذُوبُ الْأَثِيَةُ [٥٦٠] عَلَى النَّارِ»

. والتشبيه المذكور إشارة إلى أن بنى أمية وإن ترهلوا على عهد حكومتهم، إلا أن أعداءهم سيكونون عليهم كالنار فيذيبون أجسادهم كما يذاب الشحم في النار، يذوب أولاً ثم يحترق ولا تبقى له باقية. وقد اختلف شراح نهج البلاغة بشأن من يسلط على بنى أمية ويطيح بحكومتهم الظالمة وينتصر للمظلوم منهم؛ قيل المراد بهم بنو عباس، وقيل الشيعة الذين قاموا ضد بنى أمية، والظاهر أن كلاهما يعود إلى معنى واحد، لأننا نعلم أن قيام بنى العباس انطلق باسم العلويين وإن انحرف عن مساره وجعلوه لبني العباس خاصة فساروا على نهج بنى أمية حتى قضى عليهم.

تأمل: ثورات دامية ضد بنى أمية

دوت أصداء شهادة الإمام الحسين عليه السلام وصحبه في كربلاء في أرجاء العالم الإسلامي وأثبت العديد من المسلمين على بنى أمية. وقد نال أغلبهم الشهادة بسبب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٢

سطوة بنى أمية، بينما انتصر البعض الآخر لمدّة قصيرة. وقد ذكرنا هذه الثورات التي بلغ عددها خمسة عشر في الجزء الثالث من هذا

الكتاب، [٥٦١] وكان آخرها قيام أبو مسلم الخراساني والذي أدى إلى سقوط دولة بني أمية. وخلافاً لما يتصوره البعض فإنّ أبا مسلم وصحبه لم يثوروا لأجل بني عباس، بل اجتمع بادية الأمر عدد من زعماء الشيعة عند أبي مسلم - وكان رجلاً شجاعاً - في خراسان وعزموا على مواجهة آخر خلفاء بني أمية (مروان الحمار) وإقامة حكومة آل محمد وكان شعارهم «الرضا لآل محمد»

ولم تمض مدّة حتى سيطر أبو مسلم على خراسان وأغلب مناطق إيران. ورغم محاولة إبراهيم الإمام وهو من بني العباس للتقرب منه وكذلك عبد الله بن محمد المعروف بالسفاح وأبو جعفر المنصور - وكلاهما أخ لإبراهيم الإمام - إلّا أنّه لم يرض بذلك. ومن هنا قام عامله على الكوفة أبو سلمة حين وصله الأخوة الثلاثة باخفائهم في موضع لیتزعم المسلمین أحد أبناء علي عليه السلام فبعث بثلاثة كتب إلى المدينة؛ إلى الإمام الصادق عليه السلام وعبد الله بن الحسن وعمر بن علي بن الحسين وأوصى رسوله أن يتبدىء بالصادق عليه السلام فإن وافق لا يسلم الرسائلين. وحيث كان الإمام عليه السلام يعلم بالمؤامرات الخفية حتى علي أبي مسلم فلم يجب الدعوة، وهكذا عبد الله وعمر تبعاً للإمام الصادق عليه السلام. لكن قبل أن يعود رسول أبي سلمة إلى الكوفة علم جماعة من أهل خراسان بموضع السفاح وأخويه فبايعوه، فما كان من أبي مسلم إلّا أن التحق بهم، حتى وصلت الحكومة لبني العباس بعد قتال شديد بينهم وبين أتباع عبد الله بن علي عم المنصور، فولّى المنصور الخلافة بعد أبي العباس السفاح، فأحضر أبا مسلم إلى بغداد وقتله وفق خطة معدة سلفاً، لعله كان يعلم بأنّ أبا مسلم من أتباع آل علي عليه السلام لا بني العباس، فكان يراه خطراً يهدد حكومتهم [٥٦٢]. ذكر العلّامة المجلسي رواية بهذا الخصوص عن الإمام علي عليه السلام أنّ جيش الشام هجم يوماً في صيفين على جند العراق ففرقهم عن نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٣

مبمنتهم وكان مالك الأشر (رضوان الله تعالى عليه) يدعوهم إلى الرجوع. فكان الإمام عليه السلام يصيح في وجه جيش الشام: خذهم يا أبا مسلم ويكرر ذلك ثلاثاً. فقال الأشر: أوليس أبو مسلم في جيش الشام؟ قال الإمام عليه السلام: لا أقصد أبا مسلم الخولاني، بل أبا مسلم رجل يظهر من مشرق الأرض يهلك الله الأميين على يده ويطيح بدولتهم [٥٦٣]. طبعاً شخصية أبي مسلم وإن كانت تعيش نوعاً من التعقيد على ضوء النظرة التاريخية، إلّا أنّ هنالك من يراه من أتباع أهل البيت عليهم السلام ويكنون له الاحترام، وعلى العكس، هنالك من يراه من أعدائهم ويقول بجواز لعنه. والمسلّم به أنّ قيامه كان في بادية الأمر لنصرة آل محمد وكان أنصاره من الشيعة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٥

القسم الثالث

أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَن نَّصِيرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْتُوا عَن تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَن لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوِ مَن قَوَى عَلَيْكُمْ. لَكِنَّكُمْ تَهْتُم مَنَّا بِنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لِيُضَعَّغَنَّ لَكُمْ التَّيْبَةُ مَن بَعْدِي أَضْعَافاً بِمَا خَلَقْتُمُ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الْأَذْنَى وَوَصَلْتُمُ الْأَبْعَدَ. وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ الرَّسُولِ، وَكُفَيْتُمْ مَوْوَنَةَ الْاِغْتِسَافِ، وَتَبَذْتُمُ الثَّقَلَ الْفَادِحَ عَنِ الْأَعْنَاقِ.

الشرح والتفسير: عامل التخلف

خاض الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة - الذي هو آخرها - بعد بيانه لمصير بني أمية الأسود في بيان مصير فئة من أتباع الحق التي ضعفت عن نصرته فتسلط عليها عدوها فكانت عاقبتها كعاقبة بني إسرائيل، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَّخِذُوا عَن نَّصِيرِ الْحَقِّ، وَلَمْ تَهْتُوا عَن تَوْهِينِ الْبَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَن لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوِ مَن قَوَى عَلَيْكُمْ» . هذا الكلام إشارة إلى حكومة معاوية وتسلطه وصحبه على أصحاب الإمام عليه السلام على عهده (بصورة محدودة) ومن بعده (دون

حدود). وما ذكره الإمام عليه السلام في هذه العبارة لا يختص بزمان ومكان معين، بل هو أصل كلّي للأعصار والأمصار كافة في أن تنامي الباطل معلول لضعف أتباع الحق.

ثم واصل عليه السلام كلامه بتشبيه تلك الفئة بنبي إسرائيل أثر إبتعادهم عن الحق وتيهيمهم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٦

(في صحراء سيناء) فقال:

«لِكُنُكُمْ تَهْتُمُّ [٥٦٤] مَتَاهُ بِنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَعَمْرِي، لِيُضَعَّفَنَّ لَكُمْ
التَّيَّةَ مِنْ بَعْدِي أَضْعَافًا [٥٦٥] بِمَا خَلَفْتُمْ الْحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمْ الْأَذْنَى وَوَصَلْتُمْ
الْأَبْعَدَ»

. ثم أوضح في الختام سبيل النجاة وذكرهم بأن باب العودة إلى الحق مفتوح على الدوام فقال:

«وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنِ اتَّبَعْتُمْ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْ حَوَاجِ الرُّسُولِ، وَكَفَيْتُمْ مَوْوَنَةَ الْأَعْسِيَّافِ [٥٦٦]، وَتَيَدُّتُمْ الثَّقَلَ الْفَادِحَ [٥٦٧] عَنِ
الْأَعْنَاقِ».

تأمل: بنو إسرائيل

...

شبه الإمام عليه السلام بالعبارة المذكورة طائفة من المسلمين الذين حادوا عن الحق واحتاروا كبنى إسرائيل الذين تاهوا في الصحراء
أثر عنادهم وعدم استجابتهم لنيهم موسى عليه السلام، بجهاد غاصبي بيت المقدس. وقد نقل بعض شراح نهج البلاغة رواية عن
رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَتَرْكِبَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو النعل النعل، والقذّة بالقذّة، حتى لو دخلوا حُجْرَ ضَبِّ ضَبِّ لدخلتموه، فقيل: يا رسول الله اليهود
والنصارى؟ قال: فمن إذن» [٥٦٨]

. وبغض النظر عن الإشكال الذي يرد على اسناد الرواية، فإن تطبيقها على الواقع لا يخلو من إشكال أيضاً، وعلى فرض صحة الرواية
فإنه يمكن حملها على الغالب. إشارة إلى أن أغلب الحوادث المريرة التي شهدتها الأقسام السابقة سيشهدها المسلمون، ويعيد التاريخ
نفسه، ذلك لأن الأسباب المتشابهة تتطلب مسببات متشابهة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٧

الخطبة ١٥٦

إشارة

في أوائل خلافته [٥٦٩]

نظرة إلى الخطبة

تتضمن هذه الخطبة عدّة مواضع وإرشادات بحيث ربّما يُتصور عدم وجود الترابط بين أقسام الخطبة، ولعل المرحوم السيد الرضى
اقتطف هذه الخطبة من خطبة أطول خطبها الإمام أوائل خلافته.

على كل حال فإن الخطبة تتكون من خمسة أقسام رئيسية:
القسم الأول: يتحدث عن عظمة القرآن الكريم وهدايته والتأكيد على أتباعه.
القسم الثاني: التأكيد على إتيان الفرائض والعمل بالواجبات وترك المحرمات.
القسم الثالث: أهميته حقوق المسلمين وحفظ كرامتهم وترك أذاهم.
القسم الرابع: يوصى فيه الإمام عليه السلام بالاستعداد للموت والقيامه والتزود للآخرة.
القسم الخامس: التأكيد على التقوى وطاعة الله.
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٢٩٩

القسم الأول

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدُقُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.
الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ. إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحُرْمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا، «فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَحِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ.

الشرح والتفسير: معرفة سبيل الحق

أكد الإمام على ضرورة الالتزام بالقرآن والعمل بتعاليمه بصفته المصدر الرئيسي للتعاليم الإسلامية وتبيان كل خير وإحسان، فقال:
«إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَابًا هَادِيًا بَيِّنَ فِيهِ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ؛ فَخُذُوا نَهْجَ [٥٧٠] الْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَاصْدُقُوا [٥٧١] عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا»

. فهذا الكلام يدل على أن جميع أصول الخير والشر والواجبات والمحرمات والفضائل والردائل والعقائد الصحيحة والمنحرفة إنما
بيّنت في القرآن الكريم، وهو في الواقع تعبير آخر عن
«تبيان كل شيء»

الذي ورد في القرآن وإن فوض شرحه إلى سنة المعصومين عليهم السلام.
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٠

ثم أكد الإمام عليه السلام من بين كل الفضائل على الفرائض والواجبات، فقال:
«الْفَرَائِضَ الْفَرَائِضَ! أَدُوهَا إِلَى اللَّهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ»

. إشارة إلى إن الخيرات التي دعى إليها القرآن على نوعين، واجبة وغير واجبة (مستحبات وفضائل) وعليكم قبل كل شيء بأداء
الواجبات فإن شعرتم بقوة فأتوا بالمستحبات؛ ذلك لأن ما يأخذ بيد الإنسان قبل كل شيء إلى الجنة، أداء الفرائض والواجبات. طبعاً
الفرائض تشمل العبادات والواجبات الأخرى التي أوجبها الله على الإنسان فيما يتعلق بنفسه أو الآخرين.

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى نقطة كأنها دليل على العبارة السابقة، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ حَرَامًا غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلَالًا غَيْرَ مَدْخُولٍ [٥٧٢]»

. إنها عبارة لطيفة تشير إلى مصالح ومفاسد الأحكام الشرعية التي اعتبرها الحكيم في الواجبات والمحرمات، بعبارة أخرى رغم وجوب
طاعة أوامر الله في الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، إلماً أن هذه الطاعة ليست عمياء، ذلك لأن جميع الواجبات تشتمل على
مصالح، بينما تنطوي المحرمات على مفاسد تعود على نفس العباد: «يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ» [٥٧٣] ولما كانت رعاية

حقوق المسلمين وحفظ حرمتهم لا تقل أهميته عن الفرائض والواجبات، فقد قال عليه السلام:

«وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ [٥٧٤] كُلِّهَا،

وَشَدَّ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا [٥٧٥].»

إن أدنى نظرة إجمالية على الكتب الفقهية كافة- من العبادات إلى الحدود والديات- لتشهد على صدق هذا المعنى في أن الإسلام أولى أهميته عظيمة لحرمة

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠١

المسلمين وحقوقهم، حتى وقف الإمام الكاظم عليه السلام أمام الكعبة، وقال:

«مَا أَعْظَمَ حَقِّكَ يَا كَعْبَةُ وَاللَّهِ إِنَّ حَقَّ الْمُؤْمِنِ لَأَعْظَمُ مِنْ حَقِّكَ» [٥٧٦]

وعبارة الإمام عليه السلام تشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين يمكن أن تكون إشارة إلى أن الإنسان الموحد والمخلص من يراعى حقوق المسلمين، وهذا ما قال به أغلب شراح نهج البلاغة، كما يحتمل أن يكون المراد ضرورة حرمة حقوق كل مسلم، لا إخلاصه وتوحيده (الإخلاص والتوحيد في التفسير الأول صفة للمحافظين وصفة للمحفوظين في التفسير الثاني). التفسير الثالث أن يكون احترام حقوق المسلمين في مصاف الإخلاص والتوحيد.

ثم أضاف عليه السلام كنتيجة

«فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا يَجِلُّ أَدَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ»

. فاستنتاج الإمام عليه السلام هذا يفيد أن التفسير الأول هو الأنسب للعبارة السابقة من التفاسير الأخرى لأننا إن اعتبرنا حفظ حقوق المسلمين علامة إخلاص وتوحيد المحافظين لهذه الحقوق فإن نتيجة ذلك ستكون:

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده. جدير بالذكر أن العبارة

«إِلَّا بِالْحَقِّ»

والأخرى

«إِلَّا بِمَا يَجِبُ»

أن تكون الأولى: إشارة إلى عدم جواز أذى المسلمين ما لم يكن هنالك من مجوز من قبيل العقوبات والحدود الإسلامية والتعزيرات، والثانية: إشارة إلى الإكتفاء بالمقدار الذي أجازته الله من حيث الكمية والكيفية على فرض الجواز. ورد في بعض الروايات أن قبراً ورغم مكانته عند الإمام عليه السلام غلط في حد رجل فأضاف ثلاثاً، فأخذ الإمام عليه السلام بالقصاص منه:

«إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَ قَبْرًا أَنْ يَضْرِبَ رَجُلًا حَدًّا فَعَلَطَ قَبْرًا فَرَادَهُ ثَلَاثَةَ أَسْوَاطٍ فَأَقَادَهُ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْرِ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ» [٥٧٧].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٣

القسم الثاني

يَادِرُوا أَمْرَ الْعِيَامَةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمِيَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعِيَةَ تَخِيدُوكُمْ مِنْ حَلْفِكُمْ، تَخَفُّوْا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوْلِكُمْ آخِرُكُمْ.

اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنِ الْبِقَاعِ وَالتَّبَهَائِمِ.

أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح والتفسير: المسؤولية الشاملة

واصل الإمام عليه السلام مواضعه السابقة بتذكير القوم بالموت والتأكيد على الورع والتقوى أفضل زاد إلى الآخرة فقال:
«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ [٥٧٨] مِنْ خَلْفِكُمْ»

. المراد من الأمر العام والخاص الموت، لأننا إذا نظرنا إلى عامة المجتمع البشرى نرى الموت مصير الجميع، وعليه فللموت بعد عام، وإن نظرنا لأنفسنا فقط فإننا نرى الموت حاضراً آخر أعمارنا، فله على هذا الأساس بعد خاص. واستناداً إلى تفسير الإمام عليه السلام بقوله:

«وَهُوَ الْمَوْتُ» [٥٧٩]

فلا يبقى مجال للشك في تفسيرنا، والعجيب ما ذهب إليه بعض شراح نهج البلاغة من تفسيرهم للعبارة
«بَادِرُوا أَمْرَ الْعَامَّةِ»

بإصلاح شؤون

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٤

المجتمع. العبارات القادمة أيضاً تشير إلى أن ما ورد في هذه العبارة يتعلق بالموت ونهاية الحياة، لا إصلاح المجتمع البشرى والذي يعتبره مقوله أخرى نعم؛ هنالك دليلان على حقانية الموت - على أنه قانون عام - أحدهما: إننا نرى بأم أعيننا الأفراد الذين كانوا سابقاً بيننا وقد التحقوا بهذه القافلة ونحمل أجسادهم الخالية من الروح على أكتافنا ونواريهم الثرى ونعود، فهل من فارق بيننا وبينهم أنهم يمضون ونبقى؟!

والآخر: إن علامات الحركة باتجاه نهاية حياتنا الواحد بعد الآخر واضحة من قبيل الشيخوخة والعجز والمشيب وكسل الاعضاء. فهل يسع عاقل بعد هذين الدليلين أن يشعر باستثناء من هذا القانون؟

ثم خاض الإمام عليه السلام في هذه النتيجة بناءً على ما ورد في السابق وطالما كان الأمر كذلك قال:
«تَخَفُّوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُتَنَظَّرُ بِأَوْلِكُمْ آخِرُكُمْ»

. أجل، إن سفر الآخرة سفر شاق ومتعب ولا يجتاز مطباته سوى المخفين، أولئك الذين قنعوا بالكفاف في الحياة الدنيا وغضوا الطرف عن جمع الثروة والعيش الرغيد المليء بالكماليات، على غرار المسافر الذي يحمل معه ما يكفيه من الطعام للسفر فيمر بسهولة، بينما لا يسع المثقل إلبا التخلف عن الركب والقافلة. روى المرحوم السيد الرضى، العبارة الأخيرة باختلاف طفيف في الخطبة ٢١ وقال: إن العبارة

«تَخَفُّوا تَلْحَقُوا»

ما سمع كلام أقل منه مسموعاً ولا أكثر منه محصوفاً، وما أبعد غورها من كلمة. وقد قدمنا من جانبنا شرحاً وافياً بهذا الشأن [٥٨٠].
وحيث يتطلب سفر الآخرة زاداً ومتاعاً وخيره التقوى على لسان القرآن: «وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى» [٥٨١].

فقد واصل الإمام عليه السلام كلامه داعياً الجميع إلى التقوى فقال:

«اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّىٰ عَنِ الْبِقَاعِ [٥٨٢] وَالْبُهَائِمِ [٥٨٣].»

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٥

ومفهوم التقوى في العباد واضح يتمثل في ترك آذاهم وحفظ حقوقهم ورعاية حرمتهم، أما تقوى البلاد فالسعى لإعمارها واجتناب تخريبها وعدم تلوث محيطها. وأما المسؤولية إزاء البهائم وعدم إيذاؤها عبثاً وتحميلها فوق طاقتها وتوفير متطلباتها من الغذاء والماء والدواء، وذهب بعض شراح نهج البلاغة في تفسيرهم للمسؤولية في البقاع في عدم السكن في بلدان الكفر التي يتعذر فيها القيام بالوظائف الدينية وعدم تشييد القصور الضخمة للتناول على الآخرين وحب الظهور. إلّا أنّ الصحيح ما أوردناه من تفسير، والشاهد على ذلك، الروايات التي سنذكرها في المبحث القادم. ولما كان مفهوم التقوى ربّما يبدو معقداً للبعض فقد كشف الإمام عليه السلام

عن حقيقته بوضوح، فقال:

«أَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ»

. والجدير بالذكر أن بداية ونهاية الخطبة تتحد في خصوص الخير والشر، حيث أشار في مستهل الخطبة إلى مصدر الخير الذي يكمن في الرجوع إلى القرآن.

تأمل: سلامة البيئة وحماية الحيوانات في الإسلام

إن التطور الصناعي ورغم فوائده الجمة للبشرية، إلا أنه أخذ يهدد بالصميم سلامة البيئة وتلوثها، وهذا ما يهدد بدوره العديد من الكائنات ويعرضها إلى خطر الزوال، وإن استفيد من الأسلحة الفتاكة ولا سيما أسلحة الدمار الشامل فإن حجم الكارثة يبدو مفرجاً، ومن هنا هب عالمنا المعاصر لأخذ التدابير اللازمة بغية الحفاظ على سلامة البيئة والحيلولة دون انقطاع نسل الحيوانات، على الرغم من العراقيل التي يضعها أصحاب رؤوس الأموال الذين لا يفكرون سوى في التنمية لثرواتهم فحدوا من نشاطات الفرق القائمة على أساس تطهير البيئة ولا يعلم بعمق الفاجعة التي ستشهدها الأجيال القادمة. أما زعماء الإسلام وحماة الدين فقد أكدوا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٦

على هذا الموضوع قبل ألف سنة، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة المذكورة شاهد على ذلك، كما وردت عدة روايات عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام بهذا الخصوص حيث أكدوا على هذه المسألة المهمة، ومن تلك الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى ناقه نائمة وجهازها على ظهرها بينما قيدت رجلها (والحال يجب أن تستريح الدابة فلا يبقى شيء على ظهرها) فقال:

«أَيْنَ صَاحِبُهَا؟ مَرُّوهُ فَلْيَسْتَعِدَّ عَدَاً لِلْخُصُومَةِ» [٥٨٤].

وروى عنه صلى الله عليه وآله أنه قال:

«لَا تَتَوَرَّكُوا عَلَى الدَّوَابِّ وَلَا تَتَّخِذُوا ظُهُورَهَا مَجَالِسَ» [٥٨٥]

إشارة إلى أنكم إن رأيتم أصحابكم وأنتم على ظهر الدابة فأنزلوا لتحدثوا معهم فإن تم حديثكم فاركبوا [٥٨٦].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةُ حُقُوقٍ لَا يَحْمِلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يَتَّخِذُ ظَهْرَهَا مَجَالِسَ يَتَحَدَّثُ عَلَيْهَا وَيَبْدَأُ بَعْلَفِهَا إِذَا نَزَلَ وَلَا يَسْمُهَا وَلَا يَضْرِبُهَا فِي وَجْهِهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ» [٥٨٧]

. فهذه الروايات وغيرها تفيد مدى دقة الإسلام في مجال حماية الحيوانات ورعاية حقوقها، ولا نرى دينا كالإسلام أوصى بهذه التعاليم. أمّا بشأن عدم تلويث البيئة فقد ورد النهى عن تلويث مياه الأنهار وكذلك تحت الأشجار المثمرة ومقابل أبواب الدور وموضع نزول القوافل وأطراف المساجد [٥٨٨]. كما ورد في الوصايا الحربية عدم قطع الأشجار أو حرقها أو ردم عيون الماء والنهى عن تلويث مياه الأعداء [٥٨٩].

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٧

الخطبة ١٦٨

إشارة

بَعْدَمَا بُويعَ بِالْخِلَافَةِ

وَقَدْ قَالَ لَهُ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: لَوْ عَاقَبْتَ قَوْمًا مِمَّنْ أَجَلَبَ عَلَيَّ عُثْمَانَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: [٥٩٠]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد آنفاً فإن قوماً من الصحابة طلبوا من الإمام عليه السلام بعد أن بويع بالخلافة أن يعاقب أولئك الذين ثاروا على عثمان وقتلوه، فأقنعهم الإمام عليه السلام بأن ذلك ليس في أوانه، لأنهم متحدون وخلفهم اناس كثيرون، يقفون بوجه كل من يقف ضدهم ولا يتخرجون من عمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٠٩

القسم الأول

يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ وَالْقَوْمِ الْمُجَلِّبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هُوَلَاءِ قَدْ تَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالتَّفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤُوا؛ وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةِ عَلِيٍّ شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ! إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ، وَإِنَّ لَهُوَلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حَرَّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَمَّا تَرَى هَذَا وَلَمَّا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدِيَ النَّاسَ، وَتَقَعَ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُوَخَّذَ الْحُقُوقُ مُسْتَمَحَّةً؛ فَاهْدُوا عَنِّي، وَانظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَهُ تَضْعِضُ قُوَّةً، وَتَسْقِطُ مُنَّةً، وَتَوْرِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً. وَسَأْمَسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَأَخِزْ الدَّوَاءَ الْكَيِّ.

الشرح والتفسير: أسباب تأخير عقوبته قتله عثمان

هذه الخطبة، كما ذكر، رد على بعض أصحاب الإمام عليه السلام الذين طالبوه بالقصاص من قتله عثمان، حيث تطرق إلى هذا الموضوع على ضوء تحليل دقيق، فقال:

«يَا إِخْوَتَاهُ! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةِ»

. عادة ما يتصور البعض أنه توصل إلى قضية لو إهتم بها الحاكم لكانت لصالح المجتمع الإسلامي، والواقع أنهم يرون شيئاً دون ملاحظة ملبساته، فهناك حالة من الغموض في القضية يجهلون. ومن هنا أورد الإمام عليه السلام عبارته السابقة بشرح للظروف الاجتماعية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٠

القائمة آنذاك ليتضح لهم عدم عملية اقتراحهم، فقال:

«وَالْقَوْمِ الْمُجَلِّبُونَ [٥٩١] عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ، يَمْلِكُونَنَا وَلَا نَمْلِكُهُمْ!»

. كيف يمكن الوقوف بوجه فئة متحدة وغاضبة أوائل الخلافة؟ وهل هناك سوى سفك المزيد من الدماء دون جدوى؟! والشاهد على ذلك ما رواه بعض شراح نهج البلاغة أن الإمام عليه السلام جمع الناس ووعظهم.

ثم قال:

«لتقم قلته عثمان»

فقام الجميع سوى قلة قليلة [٥٩٢]. ثم أشار عليه السلام إلى نقطة أخرى فقال:

«وَهَاهُمْ هُوَلَاءِ قَدْ تَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ، وَالتَّفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلَالَكُمْ يَسُومُونَكُمْ [٥٩٣] مَا شَاؤُوا»

. يستفاد من هذه العبارات أن الثورة ضد عثمان كانت متجذرة وقد أسهم المحرومون فيها بصورة واضحة.

ثم قال عليه السلام

«وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعًا لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!»

. إشارة إلى أنكم لا تستطيعون القيام بعمل في ظل هذه الظروف ولا أنا. ومارس عليه السلام تحليلاً آخر للتأكيد على هذا الأمر، فقال:

«إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ، وَإِنَّ لِهَوْلَاءِ الْقَوْمِ مَادَّةً»

. إشارة إلى أنه إن وجب مؤاخذه عثمان لسوء تصرفه في بيت مال المسلمين وتسليطه فساق القوم على رقاب المسلمين وإغداق المناصب عليهم، فلا بد أن تتم من خلال الطرق الشرعية وقضاء العدل، ونتيجة العمل غير المدروس إنما هو ضرب من ضروب الأنشطة الجاهلية، وقوله: إن لهؤلاء القوم مادة، تأكيد لتلك الحقيقة التي ذكرها في العبارة السابقة من أن تلك الفئة ليست وحيدة في الساحة، بل يقف خلفها الأعراب وطائفة من الساسة المحترفين المتعاطشين للمناصب، وعليه فليس من المصلحة الإصطدام بها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١١

كما واصل كلامه بأن الاشتباك مع قتله عثمان يؤدي إلى تفرقه صفوف المجتمع، فقال:

«إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ - إِذَا حُرِّكَ - عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ تَرَى مَا لَا تَرُونَ، وَفِرْقَةٌ لَا تَرَى هَذَا وَلَا ذَاكَ، فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ [٥٩٤] النَّاسُ، وَتَقَعِ الْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُوَخَّذَ الْحُقُوقُ مُسَمَّحَةً [٥٩٥].»

ثم أورد تأكيداً آخر:

«فَاهْدُوا عَنِّي، وَانظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلَا تَفْعَلُوا فَعْلَهُ تَضَعُضِعُ [٥٩٦] قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مِنْهُ [٥٩٧]، وَتُورِثُ وَهْنًا وَذِلَّةً»

. إشارة إلى أن عدم التأنى في القضايا الاجتماعية ربما يعطى نتائج معكوسة، فلا ينبغي القيام بفعل دون توفر شروطه، ذلك لأن الاخفاق فيه يؤدي الذلة والهوان. كما ورد شبيه ذلك في الخطبة الخامسة:

«وَمُجْتَنِي التَّمَرَةَ لِغَيْرِ وَقْتٍ إِنَاعِهَا كَالزَّرَارِعِ بغيرِ ارضِهِ» [٥٩٨].

وأخيراً اختتم الخطبة بهاتين العبارتين:

«وَسَأْمُسِكُ الْأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ. وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا فَأَخِرُ الدَّوَاءِ الْكُفَى [٥٩٩]»

. ربما تكون هذه العبارة بفعل ضغوط طلبة الثأر لدم عثمان، حيث قال عليه السلام: سأصمد ولن ألبأ إلى السيف، لكن إن شعرت بخلق أبواب السلام فسأضطر إلى القوة وأنهى التمرد. الاحتمال الآخر أن هذه العبارة إشارة إلى أولئك الذين تذرعوا بدم عثمان ليقفوا بوجه الإمام عليه السلام كطلحة والزبير. فصرح الإمام عليه السلام بأنه سيعاملهم بالطرق السلمية وإلا لجأ إلى القوة. طبعاً لا يبدو هذا الاحتمال منسجماً مع الخطبة، حيث لم ترد أدنى إشارة في الكلام إلى طلحة والزبير وأمثالهما، إلا أن يكون السيد الرضى قد حذف بعض الكلمات، وهذا أيضاً يبدو مستبعداً. أما العبارة

«فَأَخِرُ الدَّوَاءِ الْكُفَى»

فهو مثل معروف ورد في الأصل بشأن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٢

الجروح الخطيرة حيث كانوا يسلكون عدّة طرق لعلاجها فإن لم تنفع أحرقوا الجرح بحديد ساخن، ثم أصبحت هذه الجملة كناية عن القضايا المشابهة، وعليه تستعمل هذه العبارة حين تغلق الطرق السلمية كافة [٦٠٠].

١. معوقات العدالة

ما أورده الإمام عليه السلام في هذه الخطبة مطلب جدى، لا كما تصور البعض أنه يهدف إلى إسكات المقابل. حقاً كان الثائرون على عثمان آنذاك أشداء، حتى لم يجرأ على مجابتهم حين قتلهم لعثمان بعض الصحابة الموالين له. والأهم من ذلك أن معاوية حين تسلّم الخلافة وعبء كل طاقاته للمطالبة بدم عثمان، لم يستطع مواجهته قتله عثمان فضلاً عن التعرف عليهم، بل لما ورد معاوية المدينة وسيطر على الأوضاع اتجه إلى دار عثمان، فصاحت بنته عائشة: أينك يا أبى؟ ومرادها الثأر من قتله عثمان. فرد عليها معاوية بأن الناس قد استسلموا لنا وأعطيناهم الأمان وقد حملناهم على الحلم وسيوفنا لم تغمد، فإن نقضنا عهدنا نقضوا عهدهم ولا ندرى ينفعنا ذلك أم يضرنا (فالأولى أن نسكت ولا- تضعف خلافتنا) وأنت بنت عمّ الخليفة خير لك أن تكونى من عوام النساء، أى إن زالت خلافتى فسوف لن تكونى أكثر من امرأة عادية [٦٠١].

٢. إشكال الثوار

لا شك في أن الثورة التي قامت ضد عثمان كانت متجذرة، ذلك لأن أنصار عثمان وبطانته لم يكونوا قلائل في المدينة. لم يتمكنوا من الوقوف بوجههم واكتفى نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٣

المهاجرون والأنصار بالنظر إلى الأحداث. وسبب ذلك واضح، فقل من كان راضياً بحكومة عثمان واقتصر هذا على قرابته وبطانته التي عشت بيت المال وتسلطت على رقاب الناس. وأن كل محقق منصف لا يرى من مبرر لما وقع من أعمال على عهد خلافة عثمان. فقد كان من الأجدر بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار أن يقتادوه إلى القضاء، تجنباً لغضب الأمة ومباشرتها لوضع حد لأعمال عثمان. وعليه فالإشكال الرئيسى الذى يرد على الثوار أنهم تصرفوا بعيداً عن قوانين الإسلام القضائية، وقد لمسنا دور الإمام عليه السلام إبان محاصرة عثمان وامتصاصه لنقمة غضب الناس وأمره الحسن والحسين بالدفاع عن عثمان. ونخلص مما سبق إلى أن جواب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة كان دقيقاً ينسجم وروح الأحكام الشرعية والقضائية فى الإسلام.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٥

الخطبة ١٦٩

إشارة

عِنْدَ مَسِيرِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ إِلَى الْبَصْرَةِ
الْأُمُورُ الْجَامِعَةُ لِلْمُسْلِمِينَ [٦٠٢]

نظرة إلى الخطبة

تتألف هذه الخطبة من قسمين:
القسم الأول: دعوة الناس إلى طاعة الحكومة الإسلامية عقب اتباع القرآن الكريم ونبد البدع المضلة، ويحذرهم من أن الله يسلبهم النعمة إن لم يطيعوه، وبالتالي يعدهم لمواجهة الناكثين.
القسم الثانى: أشار فيه إلى اتحاد أعداء الحق رغم اختلافهم وإجماعهم على الوقوف بوجه الإمام عليه السلام وأنه سيصبر فإن أصروا

على غرضهم فى القضاء على النظام الإسلامى فسأقف بوجههم بكل حزم.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٧

القسم الأول

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ.
وَإِنَّ الْمُتَبَدِّعَاتِ الْمُسَبِّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتِ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.
وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلَهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

الشرح والتفسير: القيام أو زوال الحكومة الإسلامية

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين علم باتحاد الناكثين واقامتهم حكومه فى البصرة مناوئه لحكومته العادله عليه السلام وقد انطلقوا إلى البصرة. وهدف الإمام عليه السلام من هذه الخطبة تعبئة الناس لمواجهةهم. دعاهم بادية الأمر إلى التمسك بالقرآن، فقال:

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولًا هَادِيًا بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ [٦٠٣]»
. ثم حذرهم قائلاً:

«وَإِنَّ الْمُتَبَدِّعَاتِ الْمُسَبِّهَاتِ [٦٠٤] هُنَّ الْمُهْلِكَاتِ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا».

إشارة إلى أن رؤوس الفتنة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله يسعون إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٨

تحت غطاء الإسلام، كأن يغفلوا نكثهم البيعة بالمطالبة بدم عثمان. وعليه، ينبغي التحلى باليقظة وعدم الانخداع بالظواهر والتوكل على الله.

ثم دعاهم إلى الطاعة فقال:

«وَإِنَّ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طَاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ [٦٠٦] وَلَا مُسْتَكْرَهٍ بِهَا. وَاللَّهُ لَتَفْعَلَنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ اللَّهُ عَنْكُمْ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ لَيَنْقُلَهُ إِلَيْكُمْ أَبَدًا حَتَّى يَأْرِزَ [٦٠٧] الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ».

نعم، إن هذه النعمة عقوبتها الزوال إن لم تُشكر، وهكذا شأن سائر النعم: «لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» [٦٠٨] وما يستفاد من العبادة المذكورة (بناءً على أن «حتى» للغاية) أنكم إن لم تطيعوا إمام الحق، فإن الله يسلبكم نعمة الحكومة الإسلامية ولا تعود إليكم، إلا أن يسلط عليكم العدو وتزول حكومته ثم تعود إليكم. وقد حيرت هذه العبارة الشراح، ذلك لأن الحكومة غير الصالحة بعد الإمام كانت بيد بنى أمية ولم تعد الحكومة بعد بنى أمية لأهل البيت عليهم السلام. قال البعض عادت إلى بنى العباس وهم من بنى هاشم وعليه فقد عادت إلى أهل البيت، إلا أن هذا التفسير غير مستقيم لأن ظلم بنى العباس لم يكن أقل من ظلم بنى أمية.

واحتتم البعض الآخر أن عودة الحكومة إلى أهل البيت عند ظهور ولى العصر أرواحنا فداه. نعم، ليست هنالك من مشكلة إن كانت (حتى) عاطفة بمعنى الواو، لأن معنى العبارة سيكون: إن لم تطيعوا إمام الحق سيسلبكم الله الحكومة الإسلامية ولا- تعود إليكم وسيكون الأمر لغيركم (طبعاً المراد فى المستقبل القريب، وإلا ليس من شك فى المستقبل البعيد لحكومة صاحب العصر والزمان عليه السلام والتي تمثل عودة الحكومة العالمية لأهل البيت عليهم السلام).

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣١٩

القسم الثاني

إِنَّ هُوَ لَمَاءٌ قَدْ تَمَّ الْوَأُو عَلَى سَخَطِهِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَحْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى قِيَالِهِ هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا. وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح والتفسير: الصبر على الفتنة

بالنظر إلى ورود الخطبة في أوائل خلافة الإمام عليه السلام وإبان السير إلى البصرة لمواجهة أصحاب الجمل فقد حث الإمام عليه السلام أصحابه في القسم الأول، على الطاعة، وحذر هنا، العدو من مغبة مواصلة الفتنة وإلا سيقف بوجههم بكل ما أوتى من قوة فقال:

«إِنَّ هُوَ لَمَاءٌ قَدْ تَمَّ الْوَأُو [٦٠٩] عَلَى سَخَطِهِ [٦١٠] إِمَارَتِي»

. إشارة إلى اختلافهم ففهم المنافق والحسود والضيق الافق (كطلحة والزبير) ولا يجمعهم سوى عدائهم لى.

ثم قال:

«وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَحْفَ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ»

. فالعبارة تشير إلى تحمل الإمام عليه السلام لذلك العدو، ويرى عدم ضرورة المبادرة إلى السيف ما لم يكن هناك خطر يهدد الجماعة، وبالطبع، هذا لا يعنى أن الإمام عليه السلام كان يسكت تجاه كل أعمالهم.

ومن هنا قال عليه السلام

«فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى قِيَالِهِ [٦١١] هَذَا الرَّأْيِ انْقَطَعَ نِظَامُ الْمُسْلِمِينَ»

ثم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٠

قال:

«وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ، فَأَرَادُوا رَدَّ الْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا»

. فقد أخرج رسول الله صلى الله عليه وآله الحكومة من صورتها الدنيوية والمادية ومنحها صبغة ربانية بجهود الأولياء والأصفياء، إلا أن أصحاب الجمل يظنون أن الحكومة لقمه سائغة وطعمه هنيئة فيصرون على اقتناصها وتحقيق أغراضهم الدنيوية.

والعبارة

«حَسَدًا لِمَنْ أَفَاءَهَا»

بالنظر إلى أن أفاء من مادة في بمعنى العودة فإنها تشير إلى أن الحكومة على عهد النبي صلى الله عليه وآله كانت فى بنى هاشم وقد عادت إليهم الآن. وإن سعى الحساد لاستعادتها وحياء سنن الجاهلية.

واختتم الإمام عليه السلام الخطبة بالإشارة إلى حقوق الناس على الحكومة، فقال:

«وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَمَلُ بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ، وَالنَّعْشُ [٦١٢] لِسُنَّتِهِ»

. أى إن كان لى عليكم حق (وهو حق الطاعة والانقياد التام) فلكم على حق أيضاً هو إحياء كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله، ذلك لأن للحق طرفين، وليس هنالك من حق ذى طرف واحد. جدير ذكره أن الخطبة بدأت وانتهت بالتأكيد على أهمية القرآن.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢١

الخطبة ١٧٠

إشارة

فِي وُجُوبِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ [٦١٣]

كَلَّمَ بِهِ بَعْضَ الْعَرَبِ وَقَدْ أَرْسَلَهُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ لَمَّا قَرَّبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهَا لِيَعْلَمَ لَهُمْ مِنْهُ حَقِيقَةَ حَالِهِ مَعَ أَصْحَابِ الْجَمَلِ لِتُرُوعِ الشُّبُهَةِ مِنْ نُفُوسِهِمْ، فَبَيَّنَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ مَا عَلِمَ بِهِ أَنَّهُ عَلَى الْحَقِّ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا بَايِعْ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ قَوْمٍ، وَلَا أُخْرِدُ حَدَّثًا حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ:

نظرة إلى الخطبة

الخطبة، كما ورد، سابقاً، جواب واضح لرسول بعض قبائل أطراف الكوفة والبصرة حين طالبه الإمام عليه السلام بالبيعة وحاول التهرب منها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٣

القسم الأول

فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِدًا تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ الْكَلْبِ وَالْمِيَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَاطِشِ وَالْمَجَادِبِ، مَا كُنْتَ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلْبِ وَالْمِيَاءِ.

فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: فَأَمْدُدْ إِذَا يَدَكَ. فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَالرَّجُلُ يُعْرَفُ بِكَلْبِ الْجَزْمِيِّ.

الشرح والتفسير: لماذا لا تبايع

روى الواقدي في كتاب الجمل عن (كليب الجرمي) أنه لما قتل عثمان ولم تمضى مدة حتى قدم طلحة والزبير إلى البصرة (ليمهدوا السبيل أمام حكومتهم) وحين علم على عليه السلام قدم إلى منطقة ذي قار (لمنعهما). سألتني شخصان من أهل البصرة لأحملهما إلى علي، لنعلم ما هدفه؟ فلما بلغنا ذي قار وجدنا علياً عليه السلام أعقل العرب، سألتني من زعيم قبيلة بني راسب؟ قلت فلان. قال من زعيم قبيلة بني قدامة؟ قلت فلان. قال: هل لك أن تحمل كتابي لهما؟ قلت: بلى. قال: ألا تبايعني؟

وهنا بايع الرجلان، بينما لم أبايع، فالتفت إليّ عدد من الرجال الذين كان عليهم سيماء الصالحين فقالوا: بايع، بايع. قال علي عليه السلام: دعوه. فقلت: أنا رائد القوم فأعود إليهم وأخبرهم فإن بايعوك أبايعك وإن لم يبايعوا، تبعتمهم، فأجابني الإمام عليه السلام جواباً لم أجد بداً من البيعة. نعود الآن إلى النصّ لنرى ماذا قال له عليه السلام لقد قال:

«أَرَأَيْتَ لَوْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٤

أَنَّ الَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِدًا [٦١٤] تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ الْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ

عَنِ الْكَلْبِ [٦١٥] وَالْمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى الْمَعَايِشِ [٦١٦] وَالْمَجَادِبِ [٦١٧]، مَا كُنْتُ صَانِعًا؟ قَالَ: كُنْتُ تَارِكُهُمْ وَمُخَالَفَهُمْ إِلَى الْكَلْبِ وَالْمَاءِ».

فما كان هنا من الإمام عليه السلام إلّا أن ابتدره:

«فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: فَاذُدْ إِذَا يَدَكَ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ، فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»

قال السيد الرضى:

«وَالرَّجُلُ يُعْرِفُ بِكَلَيْبِ الْجَزْمِيِّ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في جوابه المذكور إلى حقيقة مهمة يحل الالتفات إليها الكثير من المشاكل. فكثيرون هم الأفراد الذين يفخرون بانصهارهم بالجماعة وتلونهم بلونها، فهم يفتقرون إلى الاستقلال الفكرى بحيث لا يطيقون الانفصال عن الجماعة - وإن كانت ضالة - وهذا ما يؤدى إلى انتقال الخرافات والمساوىء من جيل إلى آخر. فالإمام عليه السلام يفند هذا اللون من التفكير بمثال واضح حيث قال: لو كنت ضمن جماعة وبلغت موضعاً في الصحراء حيث الماء والغذاء، بينما انحرقت الجماعة إلى موضع مجذب خالٍ من الماء والغذاء، فهل تبقى معهم أم ترجع إلى عقلك؟ فتفصل عنهم وتسللك سبيل العافية والسلامة، هل من عاقل يبقى في هذه الحالة مصراً على الجماعة؟! قطعاً لو كان الإنسان مستقلاً فكرياً فإنه يسلك الطريق المستقيم أن تعرف عليه وإن سلكه لوحده.

وهذا من قبيل ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة ٢٠١ حين قال

«أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ الْهُدَى لِقَلْبِهِ أَهْلِهِ»

. نعم، مبايعة إمام كعلی بن أبى طالب عليه السلام مجادب، جمع مجذب، المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه. وقبول ولايته تمثل ماء الحياة فى

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٥

ذلك المجتمع الذى شهد فساد عصر عثمان، ولم يكذ هذا الرجل يسمع كلام على عليه السلام حتى بايعه.

تأمل: عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام

يفيد الكلام المذكور مدى عمق تأثير كلام الإمام عليه السلام فى المستمع، والجدير بالذكر أن هذا الأمر حدث بالنسبة لرسول عائشة ورسول طلحة والزبير. ولما همت عائشة ببعث رسولٍ إلى على عليه السلام، سألت القوم أن يأتوها بأشد أعداء على عليه السلام فأعطته عائشة كتابها وحذرت من تناول طعامه وشرابه فففيه سحر. فأتى بكتاب عائشة إلى على عليه السلام، فلما أعطاه الكتاب قرأه ودعاه إلى بيته ليتناول الطعام حتى يكتب له الجواب، فأقسم الرجل على عدم الذهاب. فقال له الإمام على عليه السلام: هلا تجيبني إن سألتك؟ قال: بلى. قال على عليه السلام: ناشدتك الله حين أرادت عائشة أن تبعث برسولها ألم تسأل القوم عن رجل شديد العداوة لعلی، فأتوا بك إليها وسألتك عن عدائي فأجبت كذا وكذا؟ قال: بلى. قال على عليه السلام: ألم تحذرك من تناول الطعام فإن فيه سحر؟ قال: بلى. قال على عليه السلام: أأتكون رسولي؟ قال: بلى والله. لقد قدمت إليك وأنت أبغض الخلق إلئى والآن أنت أحب الخلق إلئى. قال على عليه السلام: إذهب بكتابي هذا إلى عائشة وقل لها: لقد عصيت الله وعصيت رسول الله صلى الله عليه وآله حيث خرجت من بيتك. وقل لطلحة والزبير: حفظتم نساؤكم وأبرزتم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله. فقدم الرجل وسلم عائشة الكتاب، وقال لها ما أوصاه الإمام عليه السلام، وقد قتل هذا الرجل فى صفين مع على عليه السلام.

قالت عائشة: ما أرسلنا من رجل إلى على إلّا عصانا وتمرد علينا [٦١٨]. وقد حصل مثل هذا الأمر لرجل يدعى خدش رسول طلحة والزبير، وقد ورد شرح ذلك فى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٦

كتاب الكافي للمرحوم الكليني، [٦١٩] وخلصته، أن هذا الرجل أتى بكتاب طلحة والزبير إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وقد حذراه سابقاً من بيان علي عليه السلام الذي يسحر العقول فلا ينبغي أن يجالسه ويتناول معه الطعام ولا يطيل النظر إلى وجهه وأن يقرأ عند رؤيته، آية السحرة: «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَسَمِيعٌ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ» [٦٢٠].

ليأمن من سحره. فلما قدم إلى الإمام عليه السلام نظر إليه وضحك ثم قال: أجلس. قال:

لا. قال عليه السلام: نأتيك الطعام ثم قل ما عندك. قال: لا حاجة بي إلى ذلك. قال عليه السلام: تعال نتحدث في مجلس. قال ليس لدي ما أخفيه. قال عليه السلام: قل الصدق، ألم يأمرك الزبير بذلك؟ قال: بلى. قال عليه السلام: أخبرك أن تقرأ آية السحرة إن رأيتني؟ قال: بلى. فأخذ يقرأها والإمام عليه السلام يقرأ معه، ثم قال عليه السلام: كزرها، حتى كزرها سبعين مرة. قال عليه السلام: قل ما عندك؟ فقال له ما أوصاه طلحة والزبير، فرد عليه السلام على تناقضاتهما وجعل (خداش) يصدقه حتى قال لنفسه: لقد جئت بكتاب يبطل بعضه بعضاً؟ إلهي أبرء إليك منهما؟ قال عليه السلام: قل لهما ما قلت لك، قال: خداش والله لا أبرح حتى تسأل الله أن يرجعني إليك. ففعل الإمام عليه السلام فرجع إلى طلحة والزبير وأوصل كتاب الإمام عليه السلام إليهما ثم عاد مسرعاً إلى الإمام عليه السلام حتى قتل بين يديه في الجمل.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٧

الخطبة ١٧١

إشارة

لَمَّا عَزَمَ عَلَىٰ لِقَاءِ الْقَوْمِ بِصِفِّينَ [٦٢١]

نظرة إلى الخطبة

هذه الكلمات ليست خطبة وليست كلاماً عادياً، بل هي دعاء عظيم المعنى لهج به الإمام عليه السلام حين عزم على مواجهة القاسطين في صيفين معاوية ورهطه في شهر صفر سنة ٣٧ هـ واختتمه بدعوة صحبه إلى الجهاد. ويتضمن كلامه قسمين:

الأول: دعاء يثنى فيه على الله بما يرسخ الإيمان لدى الآخرين ويسأله تعالى التسديد إلى الحق والثبات إن انتصر على عدوه، وأن ينعم عليه بالشهادة والابتعاد عن الفتنة إن كانت الغلبة للعدو.

أما القسم الثاني: فقد دعي فيه صحبه لجهاد معاوية ورهطه من خلال عبارات قصيرة، لكنها تثير الحماس والقوة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٢٩

القسم الأول

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْحِجْوِ الْمَكْشُوفِ، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرِيًّا لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سِكَانَهُ سَجِيطًا مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَشِيءُ أَمُورٌ مِنْ عِبَادَتِكَ؛ وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَارًا لِلنَّامِ، وَمِدْرَجًا لِلنَّوَامِ وَالنَّعَامِ، وَمَا

لَا يُحْصِي مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَادًا، إِنَّ أَظْهَرَنَا عَلَيَّ عِدُونًا، فَجَنَّبْنَا الْبَغْيَ وَسَدَدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ.
أَيْنَ الْمَانِعِ لِلذَّمَارِ، وَالْعَائِزِّ عِنْدَ نَزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح والتفسير: الجنة أمامكم

كما ذكرنا سابقاً فإن الإمام عليه السلام استهل الخطبة بدعاء روحى عميق المعانى ليعد نفسه وصحبه للقاء العدو، وحيث يحمد الله فى الدعاء بصفات تعد القلوب فإن الإمام عليه السلام حمد الله فى هذا الدعاء باسم رب السموات والأرض ورب الجبال فقال عليه السلام:

«اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ، وَالْجَوِّ [٦٢٢] الْمَكْفُوفِ [٦٢٣]، الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضًا [٦٢٤]

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٠

لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرَى لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ؛ وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سَبِيطًا [٦٢٥] مِنْ مَلَائِكَتِكَ، لَا يَشَأُمُونَ [٦٢٦] مِنْ عِبَادَتِكَ»
العبارة .

«السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ»

إشارة إلى موضع النجوم التى تشاهد فى السماء بصورة سقف - وقد سحبت من الشرق والغرب والشمال إلى الجنوب - أو إشارة إلى جو الأرض، أى طبقة الهواء التى تحيط بالأرض بقطر طوله مئتى كيلومتر ويحفظها كسقف من الأشعة الكونية القاتلة والصخور السماوية التائهة [٦٢٧]. إلا أن التفسير الأول أنسب، وعليه فالسقف المرفوع محل نجوم العالم العلوى والتى تبدو لأهل الأرض كالسقف، ومفهوم مجرى الشمس والقمر ... بهذا المعنى.

«وَالْجَوِّ الْمَكْفُوفِ»

طبقة الهواء المحيطة بالأرض موضع ظهور الليل والنهار (فالليل ظل الأرض ويظهر فى هذا الجو المكفوف وكذلك النهار موضع شروق الشمس).

وربما تشير العبارة مختلفا

«وَمُخْتَلَفًا لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ»

إلى جميع نجوم السماء السابحة فى هذا الفضاء الواسع، حيث تطلع كل ليلة من أفق المشرق تغيب فى أفق المغرب، أمّا إن كانت (النجوم السيارة) إشارة إلى السيارات الخمس المعروفة للمنظومة الشمسية فإن المفردة (مختلفاً) تشير إلى حركتها الخاصة فى السماء، وكأنها تتقدم قليلاً ثم تعود ثم تنطلق (وإن لم تكن كذلك فى الواقع). ضمناً، فإن الكلمات المذكورة على غرار التعبيرات القرآنية التى تنسجم وعلم الفلك المعاصر وتنفى نظرية بطليموس، وذلك لأن معنى مجرى الشمس والقمر، هاتين الكرتين مستقلتان فى حركتهما فى السماء، وكذلك النجوم، لا أنها مشدودة إلى أفلاك بلورية وتتحرك معها.

ثم أشار عليه السلام إلى الأرض وكائناتها الحية فقال:

«وَرَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣١

قَرَارًا لِلْأَنَامِ، وَمَدْرَجًا [٦٢٨] لِلْهَوَامِ [٦٢٩] وَالْأَنْعَامِ، وَمَا لَا يُحْصِي مِمَّا يُرَى وَمَا لَا يُرَى .

إن هذه العبارات تفيد احاطة الإمام عليه السلام العلمية بجميع الكائنات على الأرض والتى تشمل الإنسان والحيوانات الأهلية وغير الأهلية حتى الديدان التى لا ترى بالعين المجردة كأنواع الميكروبات والفيروسات. وذهب بعض شراح نهج البلاغة إلى أن المراد من

(ما لا يرى) الأحياء المتناثرة في الصحراء والتي لا يراها أحد، وقالوا: لو أوقدت نار في الصحراء في ليله مظلمة لاجتمعت حولها ديدان لم يرها الإنسان، ولكن بالنظر إلى الاكتشافات الحديثة بشأن الأحياء المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة لا تبدو هناك حاجة لمثل هذا التفسير، فهناك طائفة من الأحياء التي لا ترى بأى شكل من الأشكال، وهذا الكلام من كرامات الإمام عليه السلام التي أمامت اللثام عن حقيقة كانت خفية على الجميع آنذاك. وعبر عن الإنسان بالقرار (موضع الإستقرار والإقامة) وعن الحيوانات بالمدرج (موضع السير البطيء والتدريجي) ولعل الفارق في التعبيرين، يعزى إلى الحركة في الحيوانات التي تفوق نظيرتها عند الإنسان.

ثم قال عليه السلام في الصفة الثالثة للذات المقدسة في دعائه العظيم:

«وَرَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي [٦٣٠] الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أَوْتَادًا، وَلِلْخَلْقِ اعْتِمَادًا»

. فالعبارة كون الجبال للأرض أوتاداً اقتباس من القرآن الكريم بشأن الجبال: «وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا» [٦٣١] [٦٣٢]. أحياناً يتصور أن حجم أضخم الجبال صغير بالنسبة للكرة الأرضية، بحيث لا يصح إطلاق الوتد عليه، لكن بالنظر إلى أن لهذه الجبال العظيمة جذور في أعماق الأرض، وهذه الجذور متصلة مع بعضها كدرع أحاط بالأرض يحول دون الضغوط الداخلية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٢

والخارجية- والذي يفرزه جاذبية القمر وجزره ومدّه- فإنّ الجبال تعتبر بمثابة الأوتاد التي تحول دون تصدع الأرض. أما قوله: إنّ الله جعلها للخلق اعتماداً، ذلك لأنّ الجبال تحطم الرياح الشديدة العاتية وتمنع العواصف الرملية والسيول الخطيرة، أضف إلى ذلك فإنّ أغلب الأنهار والعيون تنحدر من الجبال وهي مركز أكثر المعادن المفيدة، إلى جانب بناء البيوت والقلاع المحكمة فيها، سيما المناطق التي تكون عرضة للسيول إنّما تلجأ لبناء الدور هناك خلاصاً من هذا الخطر. والسؤال ما الذي أراد أن يطلبه الإمام عليه السلام من الله في هذا الدعاء. قال عليه السلام

«إِنْ أَظْهَرْنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَبَّبْنَا الْبُغْيَ وَسَدَّدْنَا لِلْحَقِّ؛ وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَاعْصِمْنَا مِنَ الْفِتْنَةِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام بهذا الدعاء إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الكثير ربّما يفارق العدالة حين النصر والغلبة في المعركة ويمارس الظلم بحق العدو، ومن هنا يسأل الله في حالة النصر إبعاده عن هذا العمل أولاً، وثانياً، كثيرون هم الأفراد الذين ينددون النصر ارضاء لغرورهم والسيطرة على الآخرين. الإمام عليه السلام يدعو الله أن يسدده للحق وإقامة العدل إن كتب له النصر، وثالثاً، على فرض كون الغلبة للأعداء فإنّه يسأل الله الشهادة والاعتصام من الفتنة. الفتنة هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الامتحان، ذلك لأنّ ساحة القتال من ميادين الامتحانات الصعبة وعلى الإنسان أن يسأل الله تثبيته في القتال. فالفرد الذي يعتقد أنّه على الحق ربّما ينقم حظه إن أصابه شيء، وينطلق لسانه بالشكوى وهذا فشل في ميدان الامتحان.

ثم دعى الإمام عليه السلام أصحابه لمواجهة العدو من خلال عباراته المؤثرة في الدعاء فقال:

«أَيُّنَ الْمَانِعِ لِلذَّمَارِ [٦٣٣]، وَالْعَائِزُّ [٦٣٤] عِنْدَ نُزُولِ الْحَقَائِقِ [٦٣٥] مِنْ أَهْلِ الْحِفَاظِ! [٦٣٦] الْعَارُ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٣

وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!»

. وأخيراً يختم كلامه بتشجيع المدافعين وتهديد الهاربين فيقول:

«الْعَارُ وَرَاءَ كُمْ وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!»

فإن فررتم كان ذلكم عاراً عليكم وإن ثبتتم فلكم الجنة.

تأمل

لقد شهد تاريخ البشرية نشوب العديد من الحروب العالمية والأقليمية، ولكن غالباً ما يكون الهدف منها، الطمع وحب الاستعلاء

والسيطرة والثأر، ومن هنا فإن النصر في المعركة إنما يؤدي إلى ارتكاب أفزع الجنايات، وذلك لغياب الهدف المقدس. نعم، يستثنى من ذلك حروب الأنبياء والأولياء، حيث الهدف منها إطفاء نار الفتنة، «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً» [٦٣٧] والدفاع والوقوف بوجه المهاجم: «فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ» [٦٣٨] ولذلك فإن الأصول الإنسانية لا تغيب قط في المعركة. ومن ذلك ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام جند الإسلام عند النصر بأن لا يتعقبوا فاراً ولا يجهزوا على جريح ولا يتهيجوا النساء بأذى وإن شتمن الأعراض وسببن الأمراء [٦٣٩].

وتراه عليه السلام في هذه الخطبة والدعاء الذي تقرب به إلى الله يسأله الثبات والتسديد إلى الحق عند ظهوره على العدو، وهذا هو الفارق بين من يخوض الحرب من أهل الدنيا وأولئك الذين يعملون للآخرة.
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٥

الخطبة ١٧٢

نظرة إلى الخطبة [٦٤٠]

استهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه ثم أشار إلى بعض الأعمال والأقوال الطائشة لبعض الصحابة المعروفين. تتكون الخطبة من ثلاثة أقسام. أشار في القسم الأول: إلى موقف عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص يوم الشورى (الشورى المؤلفة من ستة أفراد والتي شكلها عمر لاختيار الخليفة من بعده)، حيث نسب إلى الإمام عليه السلام الحرص على الخلافة فأجابه الإمام عليه السلام بجواب رائع. وشكى إلى الله.
في القسم الثاني، قريشاً ومن اصطف معها ضده. وتطرق.
في القسم الثالث، إلى قضية طلحة والزبير وموقعة الجمل وعملها القبيح الذي ارتكبه حين أخرج عائشة (زوج النبي) إلى المعركة ولم يحفظا حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وما تبع ذلك من سفك للدماء.
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٧

القسم الأول

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَاتُوَارَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءٌ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا.
منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ يَا بَنِي أَبِي طَالِبٍ لِحَرِيصٍ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخْصُ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ. فَلَمَّا قَرَعْتُهُ بِالْحَجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَّ كَأَنَّهُ بُهَتَ لَا يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ! اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَجْمِي، وَصَعَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشرح والتفسير: قريش والخلافة

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة بحمد الله والثناء عليه وركز على علم الله وسعته- بما يتناسب وأبحاث الخطبة- فقال:
«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَاتُوَارَى عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءٌ، وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا».
يبدو أن بعض شراح نهج البلاغة تكلفوا في تفسير العبارة
«وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا»

على أساس عدم وجود أكثر من أرض، فذهبوا إلى أنها تشير إلى الأقاليم السبعة على الأرض التي نراها محيطه بالأرض بسبب كرويتها حتى وإن نظرنا إليها من خارج الكرة الأرضية، ولا يمكن رؤية جميع المناطق في الأرض في لحظة معينة وإن نظرنا إليها من مسافة بعيدة، إلا أن الأمر ليس كذلك بالنسبة لله الذي لا يغيب

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٨

عن علمه شيء. وقيل: تشير العبارة إلى طبقات الأرض، فالأرض تتألف من طبقات ولا نرى سوى طبقة واحدة منها، أما الله فلا يغرب عنه شيء. وقيل: المراد، المخلوقات التي تعيش في الأرضين، حيث ورد مثل هذا الكلام في تفسير الآية الشريفة ١٢ من سورة الطلاق: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ» وقد قال كل من الفخر الرازي والمرحوم العلامة الطبرسي بأحد هذين التفسيرين المذكورين. الاحتمال الآخر في تفسير الآية وكلام الإمام عليه السلام أن المراد، العوالم الواقعة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية. توضيح ذلك، أننا نصلح على ما فوقنا بالسماء وما تحتنا بالأرض، ونعلم أن الكرة الأرضية وسط مجموعة من الكواكب الثابتة والسيارة، وكما أن هناك عدداً هائلاً من تلك المجموعة فوقنا، كذلك لو تأملنا الجانب الآخر للكرة الأرضية فإن فيها مجموعة من هذه العوالم التي تعد سماءاً بالنسبة لسكنتها بينما تعتبر أرضاً بالنسبة لنا، فالسماء لا تقتصر على هذا النصف الكروي الذي فوقنا، بل هنالك النصف الآخر تحتنا والملء بالكواكب والكرات السماوية (عليك بالتأمل).

ثم أشار الإمام عليه السلام في الجانب الآخر من الخطبة إلى وقائع يوم الشورى المكونة من ستة أعضاء لاختيار الخليفة الثالث فرد على مقوله عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص في حرص الإمام عليه السلام على الخلافة فقال:

«وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَيَّ هَذَا الْأَمْرُ يَا بَنَ أَبِي طَالِبٍ لَحْرِيصٌ؛ فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَاللَّهِ لَأَحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَحْصُ وَأَقْرَبُ»

. فالواقع أن عبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص ومن شاكلهما ينظرون من خلال أفقهم الضيق على أن الخلافة طعمه لذيدة لهم أو من يرونه مؤهلاً لها، فهم لا يعلمون أو لا يريدون أن يعلموا أن الخلافة ليست بذات قيمة لدى ابن أبي طالب سوى إحقاق الحق والانتصاف للمظلوم وزهق ودحر الظالم. والإمام عليه السلام لا يريد الخلافة لنفسه بقدر ما يريد لها لبط العدل والقسط وسلامة المجتمع الإسلامي.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٣٩

ثم قال عليه السلام

«وَأِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ»

. إلا أن حرصهم حال دون إذعانهم لهذه الحقيقة. لذلك واصل كلامه قائلاً:

«فَلَمَّا قَرَعْتَهُ [٦٤١] بِالْحُجَّةِ فِي الْمَلَأِ الْحَاضِرِينَ هَبَ [٦٤٢] كَأَنَّهُ بُهِتَ لَأَيْدِي مَا يُجِيبُنِي

به!

قضية الشورى التي شكلها عمر حين وفاته كانت ضجة ضخمة أفصحت عن الأحقاد والضغائن التي يكنها بعض الصحابة لأمير المؤمنين على عليه السلام وتشير إلى حجم المؤامرة المبيتة بغية زحزحته عن مقامه وحقه الاجتماعي حتى طالبوه بالتخلي عن حقه وإلّا إتهم بالحرص على الخلافة. جدير بالذكر أن ابن أبي الحديد قال: يعتقد الشيعة أن الإمام عليه السلام قال هذا الكلام في أبي عبيدة الجراح في سقيفة بني ساعدة التي شكلت لاختيار الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وآله [٦٤٣]. والحال لم نر أحداً من علماء الشيعة قال بذلك، والمسلم لدينا أن الإمام عليه السلام لم يكن حاضراً في السقيفة. وقد فرغنا من شرح هذه الأحداث في الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة المعروفة بالشقشقية.

ثم تضرع الإمام عليه السلام إلى الله يشكو ما ألم به من ظلم فيستلهمه العون قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ [٦٤٤] عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا

عَظِيمٍ مُنَزَّلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي أَمْرًا هُوَ لِي. ثُمَّ قَالُوا: أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرَكَهُ»

. فهذه العبارة تكشف بوضوح أن أمير المؤمنين عليه السلام كان يرى الخلافة حقه الطبيعي، وذلك لأنه كان أجدر بها من غيره إلى جانب نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على ولايته في الغدير والذي أكده مراراً وتكراراً، إلّا أنّ عشاق المناصب استقوا نص رسول الله صلى الله عليه وآله وحكم العقل، ومارسوا الأعمال التي من شأنها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٠

قطع صلة الرحم، والأمر الغريب أنهم يعترفون بهذا الحق، لكنهم يزعمون أنّها من الحقوق التي ينبغي الإغماض عنها، فالظروف ليست مناسبة لاستحصاله.

والتعبير بقطع صلة الرحم إمّا لاستدلالهم بأوليئهم في أمر الخلافة لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رد عليهم الإمام عليه السلام بأنه أخصّ منهم وأقرب (كما مرّ علينا في عبارة الخطبة) أو (أنا) إشارة إلى أنّهم لم يأخذوا الخلافة وهي حقي فحسب، بل لا يكفون عن ارتكاب الجنيات التي تعدّ مصداقاً بارزاً لقطع الرحم.

تأملان

١. العيون المعصوبة ازاء الحقائق

إنّ البعض وإن سعى المرور مرّ الكرام على القضايا المتعلقة بالخلافة، إلّا أنّ الأمر لا يبدو بهذه السهولة والبساطة. لا شك في أنّ علياً عليه السلام شكى مراراً من سلبه حقه المسلّم في الخلافة (طبعاً ليس المراد من الحق، المقام الذي يختزن الفائدة والريح والمنفعة) بل يمثل المسؤولية الشرعية وهدفها - على ضوء ما ذكره الإمام عليه السلام - إقامة العدل وإحقاق الحق وإجراء الحدود. ولعل الكلام المذكور هو أحد النماذج البارزة على شكواه حتى قال: إنّهم اجمعوا على منازعتي ليصادروا حقي، وسنورد المزيد بهذا الشأن في شرحنا للخطبة رقم ٢١٧.

الجدير بالذكر أنّ ابن أبي الحديد نقل هذا الكلام وحاول تبريره وتوجيهه بما لا يمكن قبوله بأي شكل من الأشكال. فقد صرح قائلاً:

أعلم أنّه وردت أخبار متواتر عنه عليه السلام ومنها هذه الخطبة أنّه قال:

«مَا زِلْتُ مَظْلُومًا مُنْذُ قَبِضَ اللَّهُ رَسُولَهُ حَتَّى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا»

، وقال أيضاً:

«اللَّهُمَّ اخْرِ قَرِيضًا فَأَنْهَا مَنَعَتِي حَقِّي وَعَصَبَتِي امْرِي

وسمع شخصاً يقول:

«أَنَا مَظْلُومٌ»

فقال عليه السلام:

«هَلُمَّ فَلَنْصُرْخَ مَعًا فَإِنِّي مَا زِلْتُ مَظْلُومًا»

وقال في الخطبة الشقشقية:

«وَإِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّي مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى

وأضاف في الخطبة المذكورة:

«أرى تُراثي نهباً»

ولما فرغ ابن أبي

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤١

الحديد من ذلك هب للدفاع عن الخلافة ليقول: أن أصحابنا يوجهون ذلك بأن مراد الإمام عليه السلام أنه كان أفضلهم وأولاهم - وهذه حقيقة - لا - أن مراده أن النبي صلى الله عليه وآله نص عليه، لأن ذلك يدعونا إلى تكفير وتفسيق كبار المهاجرين والأنصار (نسبهم للكفر أو الفسق) وأضاف أن الزيدية والإمامية يحملون هذا الكلام على ظاهره (ويرون الخلفاء غاصبين للخلافة). ثم قال: والذي نفسى بيده أن مفهوم هذه العبارات وإن كان أغلب الظن ما يقوله هؤلاء، إلا أن هذا الظن باطل وليس أمامنا سوى اعتبار هذا الكلام من قبيل الآيات القرآنية المتشابهة التي تطرح بعض الأمور التي لا نقرأها لله [٦٤٥]. والعجيب كيف يتأول ابن أبي الحديد وأمثاله هذه الكلمات الواضحة بهذا الشكل، والأسوأ من ذلك أنه قاس هذا الكلام بآيات القرآن المتشابهة، فالآية القرآنية: «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» [٦٤٦] يفهم كل فرد عاقل أن المراد منها قدرة الله، وإلا فالله ليس بجسم لتكون له يد كيدنا. نعم، قال الإمام صراحة في العبارة السابقة أن هؤلاء غصبوني حقى، وليس لهذه العبارة أكثر من تفسير وتأبى التوجيه، ليت شعري ما الضير في قولنا إن طائفة من المهاجرين والأنصار أخطأت بشأن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؟ أفكانوا معصومين؟ الحق أن الأحكام المسبقة والتعصب للمذهب يؤدى بالإنسان أحيانا إلى أن يعصب عينه عن رؤية القضايا الواضحة والتشبث بالتوجيه غير المنطقي.

٢. هل ينبغى التنازل عن بعض الحق

تمسك غاصبوا الخلافة - كما ورد في الخطبة - بضرورة استيفاء بعض الحقوق والتنازل عن بعضها الآخر على ضوء بعض المصالح. ويرون خلافة أمير المؤمنين عليه السلام من النوع الثانى. نعم، العبارة المذكورة تنطوى على مفهوم صحيح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٢

وآخر باطل. فالإنسان ينبغى له التنازل عن جانب من حقه الشخصى أو جميعه بغيه الحيلولة دون نشوب النزاعات ومواصلة الخصومة ومراعاة للمحبة والمودة، أما بالنسبة للحقوق المتعلقة بالمجتمع ومصيره، فلا يحق لأحد التنازل عنه أو المساومة على حسابه. وأصحاب هذه الحقوق هم وكلاء الأمة. وليس للوكيل مثل هذا التنازل، والخلافة من هذا النوع من الحقوق، إلا أن غاصبى الخلافة حاولوا خلط الأوراق. بمنطقهم الأجوف بغيه تحقيق أهدافهم ومآربهم. والعبارة المذكورة تشير ضمناً إلى أن أعداء الإمام عليه السلام كانوا يعترفون بحقه، أو بعبارة أخرى فإن حقه كان على درجة من الوضوح بحيث لم يسعهم إنكاره، فعمدوا إلى الذرائع والحجج الواهية.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٣

القسم الثانى

فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأَمِيَّةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبُصَيْرَةِ، فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بَيْوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدَّ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَيَّحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدَّمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخُرَّانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا. فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَصَبِّ يَبُوءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَمَا جُزِمَ جَرُّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح والتفسير

فضيحة أصحاب الجمل

شرح الإمام عليه السلام هنا الخطأ الفادح الذي ارتكبه أصحاب الجمل ليعلم الجميع بأن الإمام عليه السلام إن قاتلهم وقتل طائفة منهم فهي مستحقة لذلك، فلا ينبغي التدرع بالأعداء ومواجهة هذا المنطق المتين، حيث أشار عليه السلام إلى ثلاث من جرائمهم الكبرى، فقال في الأولى

«فَخَرَجُوا يَجْرُونَ حُرْمَةَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَمَا تُجْرُ الْأُمَّةُ عِنْدَ شِرَائِهَا، مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى الْبُصْرَةِ»
ثم قال:

«فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ [٦٤٧] رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - لَهُمَا وَلِغَيْرِهِمَا».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٤

كلنا نعلم أن القرآن الكريم أوصى أزواج النبي صلى الله عليه وآله بأن يقرن في بيوتهن وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية فيتصفحن هذا وذاك: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [٦٤٨]» وكان بعض الأحداث كموقعة الجمل كانت منظورة من قبل، إلا أن هؤلاء المتحللين أبقوا على نسائهم في بيوتهن وأخرجوا زوج النبي صلى الله عليه وآله خلاف نص القرآن ليجعلوها وسيلة لتحقيق مآربهم.

ثم قال عليه السلام في جنائتهم الثانية:

«فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ أَعْطَانِي الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِالْبَيْعَةِ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرِهِ»

. ولا يقتصر الالتزام بالبيعة على الإسلام، بل كان يلتزم بها حتى قبل الإسلام، بينما نقض أصحاب الجمل هذه السنة ونكثوا عهدهم علانية واستعدوا لمواجهته الإمام عليه السلام. وأشار إلى جريرتهم الأخرى فقال عند ما دخلوا البصرة:
«فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا وَخَزَانِ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا [٦٤٩]، وَطَائِفَةً غَدْرًا»
ذكر ابن أبي الحديد في شرح لجنايات أهل الجمل أن طلحة والزبير وأعانهما تدرعوا وقدموا المسجد عند صلاة الصبح وكان فيه عامل على عليه السلام عثمان بن حنيف. فتقدم للصلاة فدفعه أصحاب طلحة والزبير وقدموا الزبير. فتقدم (السباجه)

(حماه بيت المال) [٦٥٠] ودفعوا الزبير خارج المسجد، فهجم عليهم أنصار الزبير وقدموه واستمر النزاع حتى طلوع الشمس.

فصاح الناس: اتقوا الله يا أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فالشمس تكاد تطلع، فغلبهم الزبير وصلى بالناس. ثم أمر بالقبض على ابن حنيف فضربوه حتى كاد يموت، كما قبضوا على السباجه وهم سبعون، حملوا عثمان بن حنيف إلى عائشة، فأمرت بقتله. فقال عثمان: إن قتلتموني سيقبض منكم أخي (والى المدينة) فخافوا وتركوه. وأمرت

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٥

الزبير بقتل السباجه فذبحهم ابنه عبدالله كما تذبح الشاة. قال بعض المؤرخين كأبي مخنف كان السباجه أربعمائة وقد نقض طلحة والزبير عهدهم مع عثمان بن حنيف - بعدم التعرض لأحد - فكان السباجه أول طائفة قتلت صبراً في الإسلام [٦٥١]. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام بقوله:

«فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْرًا، وَطَائِفَةً غَدْرًا».

وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة فقال:

«فَوَاللَّهِ لَوْ لَمْ يُصَيَّبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بَلَا جُرْمَ جَرَّةٍ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا بِيَدٍ. دَعَا مَا أَنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!».

أثار هنا بعض شراح نهج البلاغة أسئلة وأجابوا عنها، نوردها بما يناسب البحث:

سؤال: كيف تفسر فقهيًا عبارة الإمام عليه السلام في حلية قتل الجيش كله وإن أصابوا واحداً فضلاً عن قتلهم لذلك العدد الكثير؟

الجواب: أجاب البعض بأنهم أباحوا قتل المسلمين وهذا نوع من انكار ضروريات الدين وعليه فهم مرتدون. وقيل: إن قتلهم من باب النهي عن المنكر، ولو توقف النهي عن المنكر بذلك لكان جائزاً. الجواب الثالث: والأنسب، أنهم كانوا مصداقاً للمفسدين في الأرض، فقد جهزوا الجيوش ونكثوا البيعة وعاثوا فساداً في بعض مناطق البلد الإسلامي، فهم مشمولون بالآية الشريفة «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا...» [٦٥٢] وعبارة الإمام عليه السلام أنهم حضروا ولم ينكروا ولم يدفعوا بلسان ولا ييدهم في الواقع مقدمة لاثبات كونهم من

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٦

المحاربين والمفسدين.

الجواب الرابع: الذي يتبناه مذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام في أن الخارج عن الإمام المعصوم كافر، كما ذكر ذلك الخواجه الطوسي في تجريد العقائد [٦٥٣] فقال:

«وَمُحَارِبُو عَلِيٍّ كَفَرَةٌ»

ذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

«حَرْبُكَ حَرْبِي»

. وقد فصلنا فجائع طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل في الجزء الأول من هذا الكتاب ذيل الخطبة الثالثة عشرة، والجزء الثاني في تفسير الخطبة ٢٢ و ٣١، والجزء الخامس في شرح الخطبة ١٣٧.

سؤال آخر:

لو استحق أولئك، القتل لمجرد قتلهم جماعة من المسلمين وقبل المعركة، لماذا لم يقتص الإمام عليه السلام من أتباع طلحة والزبير بعد أن انتصر عليهم في المعركة؟ بل حتى عائشة كانت تستحق القتل لخروجها على أمام المسلمين والفساد في الأرض، لكن الإمام عليه السلام أعادها بكل احترام إلى المدينة؟ والجواب على هذا السؤال واضح، فالأوضاع كانت مضطربة والظروف معقدة بحيث لو قام الإمام عليه السلام بمثل هذا العمل لتمكن أعداء الإمام عليه السلام من تأليب عامة المسلمين عليه وتعبئتهم ضده. ومن هنا قال عمرو بن العاص لعائشة: ليتك قتلت في الجمل. قالت: لم لا أم لك؟ فقال عمرو:

لدخلت الجنة وحرصنا الناس على علي بقتلك [٦٥٤]. على كل حال، فإنه لمن دواعي الفخر لعلي عليه السلام أنه غصّ النظر عنهم وأراح المجتمع الإسلامي من شرهم.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٧

الخطبة ١٧٣

إشارة

فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ لِلْخِلَافَةِ،
وَفِي هَوَانِ الدُّنْيَا [٦٥٥]

نظرة إلى الخطبة

تبدأ هذه الخطبة ببيان صفات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بصورة مختصرة، كما يتعرّض الإمام عليه السلام في القسم الثاني إلى خصائص الجدير بخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله فيؤدى حق الموضوع بعبارات قصيرة. ويتحدث في القسم الثالث عن تقوى الله ويوصى صحبه بعدم العجلة في الأعمال والتروى عند الإقدام. وأخيراً يذم الدنيا والتعلق بها والخداع بزخارفها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٤٩

القسم الأول

أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمَ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نِقْمَتِهِ.
 أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ.
 فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ اسْتِغْتَبَ، فَإِنْ أَبِي قُوْتَلَ. وَلَعَمْرِي، لَيْتَنِي كَانَتِ الْإِمَامَةُ لَا تَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَّةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَزْجَعَ، وَلَمَّا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

الشرح والتفسير: أجدد الأفراد بزعامه الأمة

كما ورد سابقاً فإن الإمام عليه السلام قد استهل الخطبة ببيان جانب من خصائص رسول الله صلى الله عليه وآله حيث أشار إلى أربع منها، فقال:

«أَمِينٌ وَحِيهِ، وَخَاتَمَ رُسُلِهِ، وَبَشِيرٌ رَحْمَتِهِ وَنَذِيرٌ نِقْمَتِهِ»

والمواقع، إن أنشطة النبي صلى الله عليه وآله كافته يمكن إيجازها في هذه الصفات الأربع؛ ذلك لأن الفعالية الأولى للنبي، تلقى الوحي وإيصاله وإبلاغه إلى الناس بكل أمانة والتخطيط لنشر مبادئ الدين إلى نهاية الدنيا ومن ثم التمهيد لطاعة الله عن طريق البشارة بالرحمة والإنذار بالعذاب والجزاء. وقد أكدت هذه الصفات الأربع من خلال الآيات القرآنية حيث أشارت إلى بعضها من قبيل البشارة والإنذار.

ثم تطرق عليه السلام إلى شرائط خليفة الأمة وإمامها ليجزها في أمرين:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ فِيهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام في الواقع إلى ركنين أساسيين، لأحدهما بعد عملي، والآخر

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٠

علمي، فعلى المستوى العلمي ينبغي أن يكون أعلم الجميع، وفي الجانب العملي أقواهم في أمور الإدارة، فكثيرون هم الأفراد العلماء، لكنهم يفتقرون إلى حسن الإدارة، أو أنهم يتمتعون بحسن الإدارة إلمائهم يفتقرون إلى العلم، ولا يمكن النهوض بزعامه الأمة دون توفر هذين الشرطين معاً. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الموضوع في قصة بنى إسرائيل أثر اختيار (طالوت) كزعيم وقائد فاعترض البعض على أنهم أولى بالزعامة منه على أساس الثروة، فرد القرآن عليهم بأن طالوت أولى بها لعلمه وقدرته: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسِيطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ» [٦٥٦] ومن الواضح أن الإمام عليه السلام أراد أن يكشف عن أولويته من الجميع بالتصدي لأمر الخلافة، ذلك لأن الجميع يعلم بأنه أعلم في أصول الدين وفروعه وهو الأقوى والأقدر على الإدارة ومواجهه العدو.

سؤال:

نفحات الولاية ؛ ج ٦ ؛ ص ٣٥٠

إذا لم يستدل الإمام عليه السلام بنص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على خلافته؟ أليس هذا دليلاً على أن الخلافة لم تكن على أساس النص، بل على ضوء انتخاب الناس لأكفأ الأفراد؟

الجواب:

قطعاً، لو استدل الإمام عليه السلام بالنص، لهب أغلبهم لإنكاره، وعليه فمن الأفضل الاستناد إلى مسلماتهم وإلزامهم بمنطقهم (الأمر الذي يصطلح عليه في المنطق بالجدل) والذي قال بشأنه القرآن: «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» [٦٥٧]. جدير بالذكر أن ابن أبي الحديد حين يبلغ هذا الموضوع من شرحه لنهج البلاغة، وخلافاً لأولئك الذين لا يصغون لصوت الضمير يُقرّ بأن علياً عليه السلام أعلم القوم، لكنه يرى أن هذا ليس بدليل على نفي خلافة الآخرين، ذلك لأنه يمكن أحياناً تقديم المفضول على الأفضل [٦٥٨]. طبعاً، هذا منطق الأفراد الذين لا يفقهون قوانين العقل ولا يرون قبح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥١

ترجيح المرجوح على الراجح، والحال، قبح هذا الأمر واضح للجميع، إلّا أن التعصب الأعمى يحول عادةً دون رؤية الواقع. ثم قال عليه السلام: فإن تصدى مثل هذا الفرد، للأمر:

«فَإِنْ شَغَبَ [٦٥٩] شَاغِبٌ اسْتَشْعَبَ [٦٦٠]، فَإِنْ أَبِي قُوْتَلَةَ»

. وقال القرآن بهذا الخصوص «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأَوْصِيَهُمَا إِنْ بَيْنَهُمَا قَانٌ فَاحْتَصِمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ...» [٦٦١].

ثم خاض الإمام عليه السلام في الردّ على بعض المتخرصين، حيث انبرى البعض ك معاوية وعمرو بن العاص وطلحة والزبير وأمثالهم وصرّحوا بأن الخلافة والإمامة لمن تنتخبه عامة الأمة. وعليه، لا تكفي بيعه المدينة وأطرافها لعل عليه السلام. فقال عليه السلام:

«وَلَعَمْرِي، لَيْسَ كَانَتْ الْإِمَامَةُ لَاتَنْعَقِدُ حَتَّى يَحْضُرَهَا عَامَةُ النَّاسِ، فَمَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أَهْلَهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا» . ثم واصل كلامه قائلاً:

«ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ»

. وأخيراً حذرهم جميعاً بالقول:

«أَلَا وَإِنِّي أَقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلًا ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ»

. يبدو أن العبارة الأولى تشير إلى معاوية الذي تخلف عن البيعة بذريعة المطالبة بدم عثمان، والحال، أن تتم المطالبة بدم عثمان من قبل أولياء الدم أو إمام المسلمين، ومن بايعه الناس أي، علي بن أبي طالب عليه السلام. والثانية إشارة إلى طلحة والزبير وأمثالهما الذين بايعوا ثم نكثوا البيعة بما فيهم معاوية والآخرين. وأما ما قيل: إن المراد، ادعاء الخلافة من قبل معاوية والذي ليس له حق، فلا ينسجم مع التواريخ، لأن معاوية لم يدع الخلافة على عهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، بل ركز على المطالبة بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٢

سؤال:

لم يستدل الإمام عليه السلام في حديثه المذكور في إثبات خلافته وإمامته على نص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بهذا الخصوص،

ولم يتطرق إلى حديث الغدير وما شابهه، بل أكد على بيعه الأئمة، وهذا في الواقع إمضاء لخلافه من سبقه. لذلك قال ابن أبي الحديد، هنا، صراحةً: إن هذا الكلام من الإمام عليه السلام دليل على صحة مذهبنا، ولا يؤيد مذهب الإمامية، فكيف تُحل هذه الشبهة؟

الجواب:

لابد من الالتفات إلى أمور:

الأول: أن الإمام عليه السلام استدل بمسلمات الخصم لإثبات حقه، لأنهم يرون كفاية قبول أهل الحل والعقد (علماء الأئمة) لثبوت الخلافة والإمامة. وعليه فقد أجابهم بمنطقهم (منطق الجدل التي هي أحسن)، ولو استدل بالنص لأنكروه.

الثاني: أن خلافة من سبقه لم تستند إلى قبول الناس، أما أبو بكر فقد انتخب من قبل أهل السقيفة حيث كانوا عدّة قليلة من الناس، وأما عمر فقد انتخب بنص من أبي بكر، بينما لم تتم خلافة عثمان إلّا من قبل ثلاثة أو أربعة أفراد من الشورى.

الثالث: أضف إلى ذلك، فإنّ الوقوف على رأى الإمام عليه السلام بشأن الخلافة لا يمكن من خلال خطبه أو خطبتين، بل لابد من دراسة شاملة لجميع كلماته بهذا الخصوص، لئلا ترى كثرة تركيزه في نهج البلاغة على النص في الخلافة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٣

القسم الثاني

أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ. وَقَدْ فَتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَمَّا يَحْتَمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلَ الْبَصِيرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ، فَاْمْضُوا لِمَا تُوْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غَيْرًا.

الشرح والتفسير

تعليمات عسكرية

أعدّ الإمام عليه السلام صحبه هنا لمواجهة الظلمة والطواغيت حيث أوصاهم بادية الأمر بالتقوى فقال:

«أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مَّا تَوَاصَى الْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرٌ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ عِنْدَ اللَّهِ»

. القرآن الكريم من جانبه أكد هذا المعنى حيث إن الأفراد الذين لا يصيبهم الخسران هم فقط الذين يتواصون بالحق والصبر: «وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ». وقال: «وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى» [٦٦٢] وقال أيضاً: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» [٦٦٣].

ثم واصل عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَقَدْ فَتِحَ بَابُ الْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَلَا يَحْتَمِلُ هَذَا الْعَلَمَ إِلَّا أَهْلُ الْبَصْرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ»

. ثم قال:

«فَاْمْضُوا لِمَا تُوْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ؛ وَلَا تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٤

مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غَيْرًا [٦٦٤].»

تشير العبارة

«وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمُ»

إلى أننا نضطر لأول مرة في الإسلام لأن نقاتل أفراداً يدعون الإسلام، وأنهم من أهل القبلة لبغيهم وطغيانهم، ويبدو هذا الأمر مستصعباً بالنسبة للأفراد السطحيين وضيقى الأفق، وعليه، فلا يستحق حمل هذا العلم سوى من تحلى بالبصر والعلم والصبر. والعبارة

«فَأْمُضُوا لِمَا تُوْمَرُونَ...»

إشارة إلى أن هذا الطريق مسؤوليه كبيرة، فينبغي المضى فيه بدقه ورعايه النظم والانضباط. أما العبارة الأخيرة «فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تَنْكِرُونَهُ غَيْرًا»

فتشير إلى أن الأوامر التي تصدر أحياناً من القيادة- الإمام عليه السلام- في القضايا الحربية وجزئيات الأعمال، بما لا ينسجم ورغبات أكثرية الناس، مثلاً، يرد الأمر بالهجوم على العدو في البصرة من شمالها، إلّا أن الأكثرية ترى صعوبة ذلك وتود لو أنها هجمت من جنوبها. فالإمام عليه السلام يوصى هنا بالترث وعدم الاستعجال طالما لا تتضارب هذه الأوامر مع الشرع والمصلحة، فربما نمارس بعض التغييرات ونحقق رغباتكم، كذلك إن شكى بعض الناس من بعض الولاية فليس لدى من إصرار، كعثمان، على بقائهم وما دام رأى الناس موافقاً للشريعه والمصلحة فهو مقبول لدى. ولعل إحدى خصائص الأمر والمدير الناجح تتمثل في احترامه لأفكار الآخرين والإفتاح عليها ما لم تتعارض مع الأصول. أما ما ذكره بعض شراح نهج البلاغه من تفسير لهذه العبارة فلا يبدو مناسباً؛ ففسروا (غيراً)

مثلاً، بالمصالح، ولكن هذه المفردة؛ والاحتمالات الأخرى التي وردت في كلمات بعض الشراح ليست منسجمة مع ظاهر كلمات الإمام عليه السلام ومن هنا لا نرى ضرورة الخوض فيها.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٥

تأمل: حوار مع عمار بن ياسر في صفيين

لا شك في أن أهل القبلة والمسلمين إن مارسوا بعض الأعمال التي تهدد كيان الإسلام أو قاموا ضد الحكومة الإسلامية، فلا بد من إرشادهم وإعادتهم إلى جادة الصواب من خلال الطرق السلمية؛ لكن إن واصلوا غيهم وتمادوا في أعمالهم، فليس هنالك من سبيل سوى اللجوء القوّة، ولا يبدو هذا العمل مستساغاً من قبل الأفراد السطحيين وضيقى الأفق، لذلك قال الإمام عليه السلام:

«وَلَا يَحْمِلُ هَذَا الْعَلَمُ إِلَّا أَهْلُ الْبَصْرِ وَالصَّبْرِ وَالْعِلْمِ بِمَوَاضِعِ الْحَقِّ»

. ورد في أحداث موقعة صفيين: روى عن نصر بن مزاحم، قال: «حدثني يحيى بن يعلى، قال: حدثني صباح المزني، عن الحارث حصن، عن رجاء بن ياسر، عن أسماء بن حكيم الفزاري، قال: كنا بصفيين مع عليّ، تحت راية عمار بن ياسر، ارتفاع الضحى، وقد استظلنا برداء أحمر، إذ أقبل رجل يستقرى الصف حتى انتهى إلينا فقال: أيكم عمار بن ياسر، فقال عمار:

أنا عمار، قال: أبو اليقظان؟ قال: نعم، قال: إن لي إليك حاجة أفأنتق بها سراً أو علانية؟ قال: اختر لنفسك، أيهما شئت، قال: لا بل علانية، قال: فانطق، قال: إنني خرجت من أهلي مستبصراً في الحق الذي نحن عليه، لا- أشك في ضلالة هؤلاء القوم، وأنهم على الباطل، فلم أزل على ذلك مستبصراً، حتى ليلتي هذه، فإني رأيت في منامي منادياً تقدّم، فأذن وشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونادى بالصلاة ونادى مناديهم مثل ذلك، ثم أقيمت الصلاة، فصلينا صلاة واحدة، وتلونا كتاباً واحداً، ودعونا دعوة واحدة، فأدركني الشك في ليلتي هذه، فبتّ بليته لا يعلمها إلا الله تعالى، حتى أصبحت، فأتيت أمير المؤمنين، فذكرت ذلك له فقال: هل لقيت عمار بن ياسر! قلت: لا، قال عليه السلام فالفقه، فانظر ماذا يقول لك عمار، فاتبعه، فجتتلك لذلك، فقال عمار:

تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي! فإنها راية عمرو بن العاص، قاتلتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٦

ثلاث مرات، وهذه الرابعة فما هي بخيرهن، ولا أبرهن، بل هي شرهن وأفجرهن.

أشهد بداراً واحداً يوم حنين، أو شهدها أب لك فيخبرك عنها؟ قال: لا، قال: فإنّ مراكزنا اليوم على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر، ويوم أحد ويوم حنين، وإنّ مراكز رايات هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب، فهل ترى هذا العسكر ومن فيه! والله لوددت أن جميع من فيه ممن أقبل مع معاوية ويريد قتالنا، مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً، فقطعته وذبحته، والله لدمائهم جميعاً أحل من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟ قال: لا بل حلال، قال: فإنهم حلال كذلك، أتراني بينت لك، قال: قد بينت لي، قال عليهما السلام فاختر أي ذلك أحببت؟ [٦٦٥]. فهذه الواقعة وأمثالها تفيد أن ارتداء ثوب الإسلام من قبل تلك الفرق المنحرفة إنّما كان يخدع البعض من السذج، وهذا ما دفع الإمام عليه السلام لتحذيرهم من الفتنة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٧

القسم الثالث

أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصَابَتْكُمْ تَمْتَوْنَهَا وَتَزْعَبُونَ فِيهَا، وَأَصَابَتْكُمْ تَغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنَزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ. أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا؛ وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَدَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَادْعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا؛ وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصِرُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا؛ وَلَا يَخِنَنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الْأَمِيَّةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَيْمُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالْمَحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ. أَخَذَ اللَّهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الْحَقِّ، وَاللَّهْمَا وَإِيَّاكُمْ الصَّبْر!

الشرح والتفسير: الدنيا ليست داركم

أشار الإمام عليه السلام في هذا الموضوع من الخطبة إلى تقلب الدنيا وعدم ثباتها وحذر الجميع من زخرفها وزبرجها، ذلك لأنّ الانحراف الذي طال أصحاب الجمل إنّما يعزى إلى تهافتهم على الدنيا وحطامها، فلا ينبغي لهم السير على خطاهم، وعليهم أن يسلكوا سبيل الحق وإن انتهى بهم إلى الشهادة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي أَصَابَتْكُمْ تَمْتَوْنَهَا وَتَزْعَبُونَ فِيهَا، وَأَصَابَتْكُمْ تَغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَلَا مَنَزِلِكُمْ الَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ وَلَا الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٨

فالعبرة، إشارة لما تأكد مراراً في نهج البلاغة والقرآن أنّ الدنيا ليست خالدة وأنّها ليست بدار إقامتنا، بل هي ممر مؤقت نجتازه في سفرنا إلى الآخرة حيث مقرّنا ومقامنا بعد التروّد من هذه الدنيا لتلك الحياة الحقيقية التي قال عنها القرآن:

«لِهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [٦٦٦].

ثم أكد الإمام عليه السلام أكثر فقال:

«أَلَا وَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ وَلَا تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا».

كما ردّ على أولئك الذين يصفون الدنيا دائماً بالخداع والغرور، فقال:

«وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَدَّرَتْكُمْ شَرَّهَا. فَادْعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا»

. صحيح أن أغلب مظاهر الدنيا تثير الغرور والغفلة، لكنها ترينا إلى جانب ذلك بعض المشاهد التي توظف كل غافل من نوم غفلته. فالحظة التي ينال فيها أحدهم السلطة ويستولى على العرش، هي ذاتها التي يسقط فيها أخيراً، وفي الوقت الذي يرث فيه شخص الآلاف المؤلفة من الثروة، هو نفس الوقت الذي يحمل فيه جثمان صاحب تلك الثروة ليوسد التراب، وحين يولد طفل وتطالعنا مظاهر الفرح والسرور على سيماء وجوه أسرته، ترتفع إلى جانبه أصوات أسرة بالعويل لفقدهم أحد أعزتهم، فلم نركز على الصورة الأولى وفتناسى الصورة الثانية؟! حاول الإمام عليه السلام بهذه العبارات العميقة المعنى أن يلفت الانتباه إلى هذه الحقيقة وقد أكدها في سائر خطب نهج البلاغة وقصار الكلمات.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه قائلاً:

«وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ الَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَأَنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا»

، كما قال:

«وَلَا يَخْنَنَّ أَحَدُكُمْ خَيْنَ الأَمَّةِ عَلَى مَا زُوِيَ [٦٦٧]

عَنْهُ مِنْهَا، وَاسْتَمْتَمُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ اللّٰهِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِهِ».

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٥٩

فقد شبه الإمام عليه السلام الأفراد الضعاف الذين لا يكادون يفقدون نعمة من نعم الدنيا حتى يعيشوا حالة من العزاء وكأنهم فقدوا عزيزاً من أعزتهم بتلك الأمية التي يرتفع صوتها بالبكاء لأدنى مُلمية، وربما دوى صوت البكاء أثر شدة الجزع. نعم، هذا فعل العبيد الضعاف؛ ضعاف الدنيا وأسرى مظاهرها، والحال، لو فكروا بصورة صحيحة لأدركوا أن ما فقدوه مهما كان مهماً فلا قيمة له، لأنهم يفقدونه عاجلاً أم آجلاً، وإن لم يفقدوه اليوم سيفقدونه ويفقد كل شيء عندما يموت غداً.

أضف إلى ذلك فإن أغلب النعم التي تزول إنما تعود فيما بعد بفضل الله ولطفه، وعليه فلا داعي للتأوه والشعور بالألم والحسرة. ويستفاد من العبارة الأخيرة أن أحد عوامل بقاء نعم الله وديمومتها طاعته الله واتباع أوامره والإلتزام بالقرآن والعمل بأحكامه.

وأشار الإمام عليه السلام في ختام الخطبة إلى نقطة مهمة أخرى تتمثل في ضرورة حفظ الدين حين يكون هنالك مفترق طرق وتضاد بين حفظ الدنيا بزيتها وزخرفها وحفظ الدين، فليس هنالك من ضرر يطيل الإنسان إن ذهب دنياه، بينما لا ينفعه شيء إن ذهب دينه: «أَلَا وَإِنَّهُ لَيُضْرُّكُمْ تَضِييعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلَا وَإِنَّهُ لَيَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضِييعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ»

. إشارة إلى أن الغنى الحقيقي، في حفظ الدين والإيمان الذي يشكل مفتاح حياة الإنسان الأبدية، لا النعم المادية العابرة، فهي عناصر ثانوية تغادر سريعاً كالفقاعات التي تطفو على سطح الماء. نقل المرحوم الكليني أن أحد أصحاب الإمام عليه السلام كان يقدم كل عام إلى الحج ويرى الإمام عليه السلام، لكنه غاب مدة. فسأل الإمام عليه السلام أحد أصحابه المعروفين عن ذلك الشخص، فلم يشأ أن يخبر الإمام عليه السلام بوضعه المالى الصعب. فقال عليه السلام وكيف دينه وإيمانه؟ قال: هو والله كما تحب. فقال عليه السلام: هو والله الغنى [٦٦٨].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٠

وأخيراً اختتم عليه السلام الخطبة بهذا الدعاء:

«أَخَذَ اللّٰهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى الحَقِّ، وَاللّٰهُمَّ إِنَّا كُنَّا الصَّابِرِينَ!»

لقد قلنا مراراً إن الإمكانات المادية إن استعملت كوسيلة لتحقيق الأهداف المعنوية فهي ليست مذمومة، بل هي من أفضل الوسائل لتطور الإنسان، ولما كان عصر الإمام عليه السلام والأئمة من بعده قد شهد إقبال المسلمين على الدنيا أثر الفتوحات وما جلبت إلى البلاد من أموال طائلة وثروات، فقد جهد الإمام عليه السلام على ذم الدنيا وتحذير الآخرين من الخداع بها، والخطبة المذكورة نموذج

لذلك.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤١

الخطبة ١٧٤

إشارة

فِي مَعْنَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ وَقَدْ قَالَه حِينَ بَلَغَهُ خُرُوجُ
طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِقِتَالِهِ [٦٦٩]

نظرة إلى الخطبة

خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة حين بلغه خروج طلحة والزبير إلى البصرة للإستيلاء عليها وقتال الإمام عليه السلام. فأراد الإمام عليه السلام بهذه الخطبة رفع معنويات صحبه وكشف حقيقة طلحة والزبير، وتتألف الخطبة من قسمين:

الأول: الذي قال فيه الإمام عليه السلام إنه لم يهدد من قبل شخص بالحرب لحد الآن، فقد لمس الجميع شجاعته في ميدان القتال، وعليه فتهدد طلحة والزبير هراء.

والآخر: يستدل فيه الإمام بالبرهان والمنطق أن المطالبة بدم عثمان - التي يتذرع بها طلحة والزبير من أجل إشعال فتيل الحرب - كذبة فارغة، ذلك لأن يد طلحة ملطخة قبل أي أحد بدم عثمان.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٣

القسم الأول

قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدَدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ؛ وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصِيرِ. وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لِأَنَّهُ مَطْنَتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَالِطَ بِمَا أُجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأَمْرُ وَيَقَعَ الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَدَّعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَئِنْ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازَرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَنَهِّينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ الْخَصِيْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَزُكِّدَ جَانِبًا، وَيَدَعِ النَّاسَ، مَعَهُ، فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابَهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح والتفسير: تناقض طلحة دليل فضيحة

أشار الإمام عليه السلام في بداية الخطبة إلى تهديد طلحة والزبير فقال:

«قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهْدَدُ بِالْحَرْبِ، وَلَا أَرْهَبُ بِالضَّرْبِ».

إشارة إلى أن الجميع يعلم بشدة وقع سيفي في المعارك الإسلامية قد جندلت صناديد العرب حتى اقترن اسمي بالشجاعة لدى الداني والقاصي. وأنه لمن دواعي العجب أن يجراً طلحة والزبير على تهديدي بالحرب وقد شهدوا صولاتي في الحروب.

نفحات الولاية، ج ٤، ص: ٣٤٤

ثم قال عليه السلام:

«وَأَنَا عَلَى مَا قَدْ وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ»

. يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى الوعد الإلهي للمؤمنين بالنصر والذي نصت عليه الآية الشريفة «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ» [٦٧٠] كما يمكن أن تكون إشارة إلى وعد خاص وعده به رسول الله صلى الله عليه وآله في ظهوره على الناكثين، وقد أطلعه على موقعه الجمل وأخبر عائشة بها صراحة ونهاها عن الخروج، وقد ورد هذا الأمر في التواريخ [٦٧١]. ثم تطرق عليه السلام إلى نية طلحة والزبير من هذه الفعل القبيحة فقال:

«وَاللَّهِ مَا اسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّدًا [٦٧٢] لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلَّا خَوْفًا مِنْ أَنْ يُطَالَ بِدَمِهِ، لَأَنَّهُ مَظْنَتُهُ، وَلَمْ

يَكُنْ فِي الْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُعَالِطَ بِمَا أَجَلَبَ [٦٧٣] فِيهِ لِيَلْتَبَسَ الْأُمْرُ وَيَقَعَ

الشُّكُّ. وَوَاللَّهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلَاثٍ: لَيْسَ كَانَ ابْنُ عَفَّانَ ظَالِمًا - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يُؤَاوِرَ [٦٧٤] قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ [٦٧٥] نَاصِرِيهِ. وَلَيْسَ كَانَ

مَظْلُومًا لَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَنَهِّينَ [٦٧٦] عَنْهُ، وَالْمُعَدِّرِينَ فِيهِ وَلَيْسَ كَانَ

فِي شَكِّ مِنَ الْخُصَلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي لَهُ أَنْ يَعْتَرِلَهُ وَيَرْكُدَ [٦٧٧] جَانِبًا، وَيَدْعَ النَّاسَ، مَعَهُ».

ثم قال عليه السلام:

«فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلَاثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرِفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسَلَمْ مَعَاذِيْرُهُ [٦٧٨].»

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٥

وهكذا يكشف الإمام عليه السلام النقاب عن كذب طلحة ومؤمرته بهذا الأسلوب المنطقي ويشير إلى أنه سياسى محتال ومحترف، ذلك لأن وضعه إزاء عثمان - طبق الحصر العقلي - لا يتجاوز إحدى ثلاث حالات: إما، كان يعتبره ظالماً أو مظلوماً أو شاكاً فيه؛ وكل حالة تتطلب تعامل مناسب، لكنه وقف يوماً خلف الكواليس يؤلب الآخرين على قتل عثمان، وما أن قتل عثمان حتى هب للدفاع عنه والمطالبة بدمه.

هذه هي طريقة الساسة المحترفين الذين يغيرون مسيرتهم بين ليلة وضحاها أحياناً.

ولا تبدو سياسة معاوية - وإن حاول الإبتعاد عن هذه الأحداث - مختلفة عن سياسة طلحة. فقد تخلى عن عثمان حتى قتل، ثم طالب بدمه. كان هؤلاء راضيين في الواقع بقتل عثمان، أملاً في نيل الخلافة. وقد صرح الإمام على عليه السلام بأن طلحة لم يتعاون مع قتلة عثمان، والحال، يفيد التاريخ أنه ساعدهم. طبعاً، مراد الإمام عليه السلام أنه لم يرد الميدان علناً، لكنه كان ينسّق بعيداً عن الأنظار - ما يجدر ذكره أن ابن قتيبة ذكر في كتابه (الامامة والسياسة) أن عائشة خطبت الناس في البصرة ودعتهم للطلب بدم عثمان، فأبرز رجل من أشرف البصرة كتابا كتبه إليه طلحة يحثه فيه على قتل عثمان. فقال لطلحة: أتعرف هذا الكتاب؟ قال طلحة: بلى. قال: فما الذي حدث؟ بالأمس تريد قتل عثمان، واليوم تدعوا إلى المطالبة بدمه؟ وقد قلت: إن علياً عليه السلام دعاك ليوليكم الناس الخلافة لكبر سنك، فأبيت وبايعته حيث قلت: هو أقرب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسوابقه في الإسلام مقدمه، فلم نقضت بيعتك؟ أجب طلحة: لقد قال ذلك بعد أن بايعه الناس وولّى الخلافة، وكنت أعلم أنه لا يفعل، وإن فعل لم يرض بخلافة المهاجرين والأنصار، فخفت إن لم أبايع أقتل فبايعت مكرها؟

فقال له الرجل: وكيف تغيّر موقفك من عثمان؟ قال طلحة: إن قوما عابوا علينا عدم نصرته، واليوم نطالب بدمه [٦٧٩] ويتضح من هذا، أن الناس آنذاك كانوا يدركون عدم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٦

صدق طلحة في مزاعمه. ومن عجائب التاريخ الإسلامى ما رواه المدائنى فى كتاب مقتل عثمان أن طلحة منع دفن عثمان ثلاثة أيام،

حتى استعان بعض الصحابة بعلى عليه السلام لدفنه. وقد أمر طلحة بعض الأفراد بإطلاق الحجر على الجنازة، حتى دفنوه في المدينة في موضع يدفن فيه اليهود، يدعى (حش كوكب)، ثم رماه البعض بالحجر. فبعث على عليه السلام من منعهم عن هذا العمل [٦٨٠].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٧

الخطبة ١٧٥

إشارة

فِي الْمَوْعِظَةِ وَيَبَانِ قُرْبَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ [٦٨١]

نظرة إلى الخطبة

تتكون هذه الخطبة من ثلاثة أقسام: ذكر الإمام عليه السلام في القسم الأول: مواظب قيمة لجميع مخاطبيه- الذين يمثلون في الواقع، الناس على مر العصور- بعبارات مؤثرة توظف الغافل من غفلته.

وأشار في القسم الثاني إلى علمه بالأحداث القادمة وأن ذلك مما علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وآله حيث صرح بأنه يستطيع أن يخبر كل أحد منهم بتفاصيل حياته، لكنه يتحفظ ذلك خشية الغلو والكفر.

أما القسم الثالث- الذي يمثل آخر الخطبة- فقد أشار فيه إلى سبقه الجميع في الأوامر والنواهي، فلا يأمر بشيء حتى يأتمر هو به ولا ينهى عنه حتى ينتهى هو عنه.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٦٩

القسم الأول

أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ. مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَائِمٍ إِلَى مَرْعَى وَيِيٍّ، وَمَشْرَبِ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْمَغْلُوفَةِ لِلْمُدَى لَأَتَّعِرُفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا. وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

الشرح والتفسير: الغفلة التامة

إستهل الإمام عليه السلام خطبته بخطاب جميع الناس قائلاً:

«أَيُّهَا النَّاسُ غَيْرِ الْمَغْفُولِ عَنْهُمْ، وَالتَّارِكُونَ الْمَأْخُودَ مِنْهُمْ».

ثم أضاف عليه السلام:

«مَا لِي أَرَاكُمْ عَنِ اللَّهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمَ أَرَاخَ بِهَا سَائِمٍ [٦٨٢] بِهَا سَائِمٍ [٦٨٣] إِلَى مَرْعَى وَيِيٍّ [٦٨٤]، وَمَشْرَبِ دَوِيٍّ [٦٨٥]».

رغم أن جميع المسلمين يتحدثون عن الله، إلا أن عمل البعض يشير إلى أنه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٠

تولى عن الله والتصق بالدنيا وهوى النفس، فقد شبه الإمام عليه السلام مثل هؤلاء بالحيوانات التي حملها الراعي الجاهل أو المغرض

إلى مرعى ليس فيه ماء ولا كلاء سوى المرض والموت. هذا الراعى، هو الشيطان وهذه الحيوانات، هم الناس الذين لا يصغون لنداء العقل وقد استغرقوا فى هوى أنفسهم، وهذا المرعى المميت هو وادى اللذات والشهوات الذى يفرز الذنوب والمعاصى وبالتالي يقتل روح الإنسان ومعنويته.

ثم قال عليه السلام:

«وَأِنَّمَا هِيَ كَالْمَعْلُوفَةِ لِلْمَدَى [٦٨٦] لَاتَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أَحْسِنُ إِلَيْهَا تَحَسَّبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشَبَعَهَا أَمْرَهَا».

فقد شبّه الإمام عليه السلام بهذين التشبيهين أصحاب الدنيا، بالحيوانات التى لا همّ لها سوى شبعها وأنّ من يقدم لها العلف يحسن إليها، ولا تعلم أنّ علفها وسقيها مقدمة لذبحها، وهذا حالهم حين ينغمسون فى لذات الدنيا وشهواتها.

وأخيراً أشار إلى جانب من علمه بأسرار الغيب وحوادث المستقبل ليقفوا على جديته ومعرفته بما يصلحهم:

«وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ [٦٨٧] وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فَيَبْرُسُوا لِي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ».

ورد فى الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان جالساً فدخل عليه على عليه السلام فقال:

«إِنَّ فِيكَ شَبَهًا مِنْ عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ وَلَوْ لَأَنْ تَقُولَ فِيكَ طَوَائِفٌ مِنْ أُمَّتِي مَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي عَيْسَى بْنِ مَرْيَمَ لَقُلْتُ فِيكَ قَوْلًا لَاتَمُرُّ بِمَلَأٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا أَخَذُوا التُّرَابَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْكَ يَلْتَمِسُونَ بِذَلِكَ الْبِرَكَّةَ» [٦٨٨].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧١

القسم الثانى

أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصِطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كَلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالِ هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعُهُ فِي أُذُنِي وَأَفْضِي بِهِ إِلَيَّ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتَكُمُ عَلَى طَاعَةِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتَنَاهَى قَبْلَكُمْ عَنْهَا.

الشرح والتفسير: علمنى رسول الله صلى الله عليه وآله كل شىء

بالنظر إلى أنّ الإمام عليه السلام أشار فى السابق إلى علمه بأسرار الغيب وإخبار كل شخص عن تفاصيل حياته، إلّا أنّه يخشى منهم الغلو والكفر، ليشير هنا إلى أمرين؛ الأول: إنى أطلع على هذه الأسرار بعض الخواص من المؤمنين ممن يتحملون الأسرار ويحفظونها، والآخر، ما أقوله إنّما سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

«أَلَا وَإِنِّي مُفْضِيهِ [٦٨٩] إِلَى الْخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنْهُ»

. هذه الخاصة، مثل، كميل بن زياد، ورشيد الهجرى، والأصبغ بن نباتة، وميثم التمار، وحبيب بن مظاهر، الذى يسع كل واحد منهم حفظ بعض الأسرار. وقد حفلت حياتهم بالتعرّض لبعض الأسرار فى المواقع الحساسة؛ فإذا كان التلامذة يحملون مثل هذه الأسرار ولهم مثل هذه

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٢

المقامات، فما ظنك بالأسرار المودعة لدى الأستاذ، والمقام الذى هو عليه!!

ثم خاض فى الأمر الثانى فقال:

«وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَاصِطَفَاهُ عَلَى الْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلَّا صَادِقًا، وَقَدْ عَهَدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كَلِّهِ، وَبِمَهْلِكِكَ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنْجَى مَنْ يَنْجُو، وَمَالِ

هَذَا الْأَمْرِ. وَمَا أَبْقَى شَيْئًا يَمُرُّ عَلَى رَأْسِي إِلَّا أَفْرَعَهُ [٦٩٠] فِي أُذُنِي وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ».

ترى هل كان تعليم النبي صلى الله عليه وآله لهذه الأسرار بصورة بيان جزئي وشرح لكل واقعة، أم أنه علم علياً عليه السلام أصول وكليات، وأن كل باب يفتح ألف باب، أم كانت الموارد مختلفة فتارة من خلال الأصول الكلية وأخرى من خلال التفاصيل؟ يبدو الإحتمال الثالث، هو الأقرب. نعم، هذه الأمور ليست واضحة لدينا، والله ورسوله أعلم، إلا أننا نعلم أنه أخبر عن حوادث جمّة ووقعت كما أخبر، وقد بينت في خطب متعددة من نهج البلاغة، ولو جمعت لكنت كتاباً رائعاً. وبالطبع فإنّ أي من ذلك ليس من علم الغيب الذاتي - الذي يختص بالله تعالى - بل كما قال عليه السلام في الخطبة ١٢٨

«إِنَّمَا هُوَ تَعَلَّمَ مِنْ ذِي عِلْمٍ» [٦٩١]

ولما كان الإمام عليه السلام قد أفرد جانباً مهماً من الخطبة في دعوة الناس إلى ترك الانغماس في الدنيا عاد في ختام الخطبة ليشير إلى هذه النقطة المهمّة في سبقه للعمل بما يأمر فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي، وَاللَّهِ، مَا أَحْتَكُمُ عَلَى طَاعَةِ إِلَّا وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلَا أَنهَاكُمُ عَنْ مَعْصِيَةِ إِلَّا وَأَتَاهِي قَبْلَكُمْ عَنْهَا» . فالشرائط اللازمة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن لم تتضمن ضرورة عمل الأمر والنهي.

كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ وَأَنْهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ» [٦٩٢]

. ولكن الأمر والنهي إذا كان عاملاً قبل الآخرين بما

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٣

يأمر به وينهى عنه فسيكون لكلامه أبلغ الأثر في نفوسهم، لأنّ تأثير الكلام إنّما ينبع من القلب، فإن خرج من القلب استقر لا محالة في القلب. ومن هنا كان هذا هو الأسلوب الذي اعتمده رسول الله صلى الله عليه وآله والائمة المعصومين عليهم السلام وأتباعهم وأنصارهم، فإن نشبت الحرب، كانوا في خطوطها الأمامية وإن حل وقت العبادة تغيرت ألوانهم، حتى حذر القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وآله من إجهاد نفسه في العبادة: «طه* مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى [٦٩٣]. وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام بشأن سبق رسول الله صلى الله عليه وآله في القتال:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبُ إِلَيَّ الْعُدُوِّ مِنْهُ» [٦٩٤].

ونعلم جميعاً أنّ علياً عليه السلام إن حثّ الناس في هذه الخطبة وسائر الخطب على الزهد في الدنيا وعدم التعلق بزخارفها، فقد كان أزهد العباد، وحياته خير شاهد على زهده الفريد، والحق لو انطلق زعماء البلدان الإسلاميّة من هذه المفاهيم في أن يلتزموا هم وبطانتهم بالعمل بالقوانين قبل غيرهم، لكان لكلماتهم أعظم التأثير في نفوس الآخرين.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٥

الخطبة ١٧٦

إشارة

وَفِيهَا يَعْظُ وَيُبَيِّنُ فَضْلَ الْقُرْآنِ وَيَنْهَى عَنِ الْبِدْعَةِ [٦٩٥]

نظرة إلى الخطبة

هذه خطبة طويلة تتحدث عن مسائل مهمّة وتتضمن وصايا حية وبناءة لحياتنا المعاصرة وتتألف من ثمانية أقسام: القسم الأول، الذي يتضمن مواعظ قيمة يؤكد فيها الإمام عليه السلام أنّ جهنم حُفَّت بالشهوات، والجَنَّة بمقاومة هذه الشهوات. وشرح في القسم الثاني، أهميّة القرآن مع ذكر بعض التفاصيل الطريفة التي تضاعف من شوق القلوب إلى آيات القرآن. وتطرّق عليه السلام في القسم الثالث، إلى العمل بالأحكام والاستقامة.

ثم عاود النصّح والوعظ في القسم الرابع، مؤكداً على مراقبة اللسان الذي يمثل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٦

أولى مراحل إصلاح الذات والمجتمع. وأكد في القسم الخامس، على حفظ أصالة التعاليم الإسلامية، ونبذ البدع، كما تعرض في القسم السادس، إلى أهميّة القرآن وخصائصه. وأوضح في القسم السابع، أقسام ظلم النفس والآخريين. أمّا القسم الثامن (والأخير في الخطبة) فهو بيان مختصر عميق المعنى بشأن إصلاح الذات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٧

القسم الأول

اَنْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ مَحَابَّهُ مِنْ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهِه مِنْهَا، لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ».

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْرَعًا وَإِنَّهَا لَأَتْرَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَتِهِ فِي هَوَى.

الشرح والتفسير: حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات

إستهل الإمام عليه السلام خطبته قائلاً:

«اَنْتَفِعُوا بِبَيَانِ اللَّهِ، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ اللَّهِ، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ اللَّهِ»

يمكن اعتبار هذه العبارات الثلاث تبياناً لحقيقته واحدة بجمل مختلفه، ويحتمل أن تكون كل عبارة مُبَيَّنَّة لمطلب معين. فقد أوصى عليه السلام باديء الأمر بالانتفاع ببيان الله والمراد به الأوامر والنواهي، ومن ثم الإلتعاض بمواعظ الله، أي الترغيب والترهيب والبشارة والإنذار التي تشكل دوافع الطاعة وترك المعصية، والمرحلة الأخيرة مرحلة الخير التي تتضمن بركات الطاعة وهجر المعصية، فالمراحل الثلاث هي السبيل إلى القرب الإلهي. جدير ذكره أنّ لفظ الجلالة تكرر في العبارات الثلاث، وذلك لبيان أهميّة المواعظ والنصائح والشعور بمراقبة الله.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٧٨

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه من خلال الدليل والبرهان، فقال:

«فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَدَّ إِلَيْكُمْ بِالْجَلِيَّةِ، وَاتَّخَذَ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ مَحَابَّهُ [٦٩٦] مِنَ الْأَعْمَالِ، وَمَكَارِهِه مِنْهَا، لِيَتَّبِعُوا هَذِهِ، وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ».

فالإمام عليه السلام لا يرى من مبرر للتواني في قبول المواعظ والإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ذلك لأنّ الله أتمّ الحجة على الجميع ووضع بما لا يقبل الشك، سبيل قبح العقاب بلا بيان. وخاض عليه السلام في الرد على إشكالات مقدرة فقال:

«فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ حُفَّتْ [٦٩٧] بِالْمَكَارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ

بِالشَّهَوَاتِ».

وواصل عليه السلام كلامه في بيان حديث الرسول صلى الله عليه وآله، فقال: **وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَا مِنْ طَاعَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي فِي كُرْهِهِ، وَمَا مِنْ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ شَيْءٌ إِلَّا يَأْتِي «فِي شَهْوَةٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا نَزَعَ [٦٩٨] عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ [٦٩٩] هَوَى نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنزَعًا وَإِنَّهَا لَا تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَيَّ مَعْصِيَةً فِي هَوَى».**

فهذه حقيقة، وهي أن الإنسان لا بد له من اجتياز الطرق الصعبة الوعرة في مسيرته العبادية وكسب الفضائل ودفع الرذائل، وعليه مراقبة الأخطار التي تكمن في طريقه وتعيقه عن الوصول إلى هدفه، أما في مسيرة المعصية فكان هذه النفس الجامحة تسلك سبيلاً سهلاً لا ينطوي على أية صعوبات، وهذا هو سر ثواب الطاعة وعقوبة المعصية.

نقرأ في حديث لطيفة عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنَّ اللَّهَ حِينَ خَلَقَ الْجَنَّةَ أَمَرَ جَبْرِيْلَ

نَفَحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ٦، ص: ٣٧٩

بالنظر إليها، فأقسم بعزة الله وجلاله أن كل من سمع عنها يود دخولها، ثم حفها الله بالمكارة وأمره بالنظر إليها، فنظر إليها وقال أخشى أن لا- يرغب فيها أحد، وحين خلق النار أمر جبريل بالنظر إليها، فلما نظر إليها أقسم بعزة الله وجلاله أن كل من سمع عنها سوف لن يدخلها، ثم حفها بالشهوات، وأمره بالنظر إليها، فأقسم بعزة الله وجلاله أنه يخشى أن يدخلها الجميع» [٧٠٠].

تأمل: عشق الطاعة

ما ورد في هذه الخطبة حكم غالب، لا دائم، بعبارة أخرى أن أكثر الطاعات مصحوبة بالمشاكل وأغلب المعاصي محفوفة باللذة. والجدير بالذكر أن هذا الحكم الغالب يختص بعامة الناس، وإلا فإن أولياء الله ودعاة الحق إنما يبلغون درجة تجعلهم يتلذذون بكل طاعة ويذوبون فيها ويتنقرون من كل معصية، حيث ورد في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَشِقَ الْعِبَادَةَ فَعَانَقَهَا» [٧٠١]

وقد اعتمد الإمام عليه السلام تلك العبادة لأن مخاطبيه عامة الناس لا الخواص والأولياء. وصدر الخطبة يشهد على هذا الأمر. القرآن الكريم من جانبه يقول بشأن الصوم والصلاة:

«وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» [٧٠٢] سؤال: قيل في تفسير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن المعروف ما عُرف؛ لأن روح الإنسان متعرفة على المحاسن، والمنكر ما لم يُعرف، وروح الإنسان لا تعرف المساويء، أليس العبارة المذكورة في الخطبة، تتعارض مع هذا التفسير المشهور؟

يتضح من التأمل أن ليس هنالك من تعارض، لأن معرفة المعروف ومجهوليته

نَفَحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ٦، ص: ٣٨٠

المنكر لا تتنافى من حيث الإدراك الكلي مع جاذبية المعصية ودافعة الطاعة، مثلاً نلتد جميعاً بالعلم ونتنفر من الجهل، إلا أن تحصيل العلم ينطوي على عدّة مصاعب، بحيث يزهد فيه بعض الأفراد، وينزعون إلى الجهل، حيث الكسل والخمول.

نَفَحَاتِ الْوَلَايَةِ، ج ٦، ص: ٣٨١

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا - عِيَادَ اللَّهِ - أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضَيِّحُ وَلَا يُمَسِّي إِلَّا وَنَفْسُهُ ظُنُونٌ عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا عَلَيْهَا وَمُسْتَرِيدًا لَهَا. فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ،

وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوْضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا طَيِّ الْمَنَازِلِ.

الشرح والتفسير: نقد الذات

أعطى الإمام عليه السلام هنا دعاء الحق والسالكين إلى الله درساً معنوياً مهماً فقال: «وَأَعْلَمُوا- عِبَادَ اللَّهِ- أَنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُضْبِحُ وَلَا يُمْسِي إِلَّا وَنَفْسُهُ طُتُونٌ [٧٠٣] عِنْدَهُ، فَلَا يَزَالُ زَارِيًا [٧٠٤] عَلَيْهَا وَمُسْتَزِيدًا لَهَا».

فإننا نعلم أن أحد حجب تكامل الإنسان، هو حب الذات الذي يبدى له عيوبه محاسن وضعفه قوة، وعليه فإن أراد الإنسان سلوك طريق السمو والتكامل، لا بد أن يتهم نفسه ويعرضها للنقد لي طرح عنها حجب حب الذات ويريهما الواقع كما هو. وقد بين الإمام عليه السلام هذا الأمر بثلاث عبارات قصيرة، قال في الأولى بوجوب إساءة الظن بالنفس ومن ثم انتقادها وأخيراً إيصالها إلى الكمال المطلوب. وقد أشار في خطبة المتقين التي تضمنت مائة وعشرة دروس أخلاقية إلى هذه القضية المهمة: «فَهُمْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٢

لِأَنفُسِهِمْ مُتَّهَمُونَ».

ثم رغب مخاطبيه- الإنسانية جمعاء- في ترك التعلق بالدنيا وقد عرض لهم نماذج السلف الصالح فقال: «فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالْمَاضِينَ أَمَامَكُمْ. قَوْضُوا [٧٠٥] مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَّوْهَا [٧٠٦] طَيِّ الْمَنَازِلِ».

وصايا ضرورية

١. ورد الحث في الإسلام والتأكيد على حسن الظن، فما معنى تأكيد الإمام عليه السلام هنا على إساءة الظن؟ سبب ذلك واضح في أن حسن الظن يتعلق بالآخرين، أما بالنسبة للذات التي تعيش طبيعياً حسن الظن المفرط إلى درجة رؤية الضعف قوة، والرذيلة فضيلة، ورد الحث على إساءة الظن لإيجاد حالة من التوازن. فلا بد للإنسان من نقد ذاته وتقييم أعماله وسلوكه دون تهاون لينفتح على الكمال. فهو كذاك الذي يجتاز طريقاً خطراً، فإن اطمأن للطريق، هوى وإن احتاط وحذر، نجى.

جدير بالذكر أن نقد الذات لا يتنافى والثقة بالنفس، فالثقة بالنفس من قبيل وجود قوة عظيمة لدى الإنسان وهو عالم بها، وهذا لا يمنع من الحذر في مواضع الخطر وعدم نسيان الاحتياط حين الاستعانة بتلك القوة.

٢. أورد الإمام عليه السلام لمخاطبيه نموذجين (كالسابقين من قبلكم) و (الماضين أمامكم) لانطواء حياة كل فئة منهما على الدروس والعبر.

٣. اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بأمرهم بالنظر إلى الدنيا كمن قوض عماد الخيمة وجمعها وسلوك سبيله يطوى المنازل دون الإقامة في الدنيا والاستقرار فيها، ويبدو أن جميع مشاكل أهل الدنيا تنبعث من هنا، في أنهم نسوا الموت تماماً وظنوا بخلودهم في الدنيا، وكأنهم لا يرون الزلازل والسيول التي تضرب بعض المناطق

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٣

فتحليلها خلال ثوانٍ، خراباً كأنها لم تسكن من قبل، وتأتى على مزارع وحقول لتتحطم كل محاصيلها التي استغرقت مئات السنين [٧٠٧].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٥

القسم الثالث

وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمَى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعِيدِ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى؛ فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَانِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغَى وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

الشرح والتفسير: القرآن دواء لكل داء

بين الإمام عليه السلام هنا أهمية القرآن الكريم بصفته الكتاب السماوي الشافي في خمسة أوصاف فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ. وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ: زِيَادَةٍ فِي هُدًى، أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمَى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعِيدِ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنَى»

. فقد أشار بالعبارة الأولى والثانية والثالثة إلى هذه الحقيقة وهي أن الناصح الأمين والهادي من لا يكذب أو يغش أو يغدر أو يضل حتى لا يكون سبباً لانحراف الآخرين، ففعل هناك من يعرف السبيل إلا أنه لا يصدق الآخرين أو يخدعهم، كما يمكن أن يكون صادقاً لكنه لا يعرف الطريق، والحال، ليس القرآن كذلك، فالوحي إنما يستند إلى علم الله المطلق

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٦

الذي لا يتسلل إليه الكذب والغش والخيانة، فهو كتاب الله الغني عن الجميع والمشفق بهم.

ومن هنا خلص الإمام عليه السلام إلى نتيجتين مهمتين لهداية القرآن؛ الأولى أن من يجالس القرآن فهو دائماً في إزدياد ونقصان؛ زيادة في الهدى، ونقصان، من العمى والضلال، والأخرى أن القرآن مصدر عظيم، والفرد أو المجتمع الذي يلتزم بأحكامه ويعمل بتعاليمه، لا يصيبه فقر معنوي، ولا مادي، وعلى العكس من فارقته شهد الفقيرين. طبعاً قد لا يكون الفرد في زمرة أتباع القرآن الكريم إلا أن أعماله تنسجم مع تعاليمه، كأن لا يكذب ولا يغش ولا يهضم الآخرين حقوقهم فذلك له نصيبه من النجاح والتوفيق، وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في وصيته

«اللَّهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَا يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ» [٧٠٨]

وقد اختلف شراح نهج البلاغة في كلمة (بعد) في العبارة (بعد القرآن) هل معناها، بعد نزول القرآن، أم بعد العمل به؟ ويبدو المعنى الثاني هو الصواب، لأن العمل بالقرآن يزيل الفقر المعنوي والمادي، لا النزول دون العمل. ويستفاد ضمناً من هذه العبارة أن ما يشهده العالم الإسلامي من ضعف وفقر في الجانب المعنوي والمادي إنما يعزى لابتعاده عن القرآن، على غرار من جلس عند عين ماء صافية ويشكو العطش.

ثم خلص إلى نتيجة أخرى فقال عليه السلام

: «فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَانِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَانِكُمْ [٧٠٩]، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ: وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنَّفَاقُ، وَالْغَى وَالضَّلَالُ» [٧١٠]

. فالإمام عليه السلام يعتبر القرآن وسيلة لحل المشاكل والشفاء من جميع الأمراض الأخلاقية والاجتماعية والمعنوية، ويوجز هذه الأمراض في أربعة: الكفر والنفاق والجهل والضلال؛ ذلك لأن القرآن يقذف نور الإيمان والإخلاص في القلب

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٧

ويهتك حجاب الجهل ويهدى الإنسان من الضلالة. قطعاً، ليس هنالك من مرض يهدد المجتمع القرآني المعروف بالإيمان والإخلاص.

ثم خلس الإمام عليه السلام إلى نتيجة أخرى:

«فَأَسْأَلُوا اللَّهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ»

. ويستفاد من هذا التعبير أن القرآن أهم وسيلة للنجاة ونيل العناية الإلهية، والعبارة

«وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ»

إشارة إلى عدم جعل القرآن وسيلة لإلفات انتباه الآخرين بهدف تحقيق بعض الأطماع الدنيوية. روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيُطَلَّبَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَا خَيْرَ فِي ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ فِي صَلَاتِهِ وَلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ» [٧١١].

تأمل

القرآن والشفاء

صحيح أن عدّة روايات تحدّثت عن تأثير القرآن في شفاء أمراض البدن أيضاً، ولا يستبعد من كلام الله حتى إحياء الموتى به فضلاً عن شفاء الأمراض، إلّا أن ما ركز عليه الإمام عليه السلام في الخطبة، شفاء القرآن للأمراض المعنوية والخلقية التي أوجزها في أربعة؛ الكفر والنفاق والجهل والضلال، كما أكّد عليه السلام على ضرورة الإستغناء بالقرآن وتعزيز العلاقة به وحبّه. ويتضح أن المراد من التوسل والحب، ما ليس ببعيد عن العمل. وبالطبع فإنّ الاستشفاء بالقرآن من الأمراض الخلقية والاجتماعية والعقائدية يتم من خلال الوقوف على مضامين الآيات والإلتزام بها على صعيد العمل، على غرار ما فعله النبي صلى الله عليه وآله حين نهض بذلك المجتمع المريض ليجعله من أقوى وأفضل المجتمعات.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٨٩

القسم الرابع

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلَى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ، غَيْرَ حَرْثِي الْقُرْآنِ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثِي وَأَتْبَاعِي، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَعِشُوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح والتفسير: القرآن شفيع القيامة

واصل الإمام عليه السلام حديثه هنا عن بركات القرآن وآثاره، مع هذا الفارق في أن الكلام في السابق عن البركات المعنوية والمادية للقرآن في هذه الدنيا، وهنا عن بركاته في الآخرة، وقد أكّد على شفاعته، فقال:

«وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفِّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدِّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفَّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَّ [٧١٢] بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ»

. لا شك في أن شفاعته القرآن بلسان الحال أو القول لمن عمل به، وشكواه ممن هجره ولم يحط به علماً.

ثم وضع عليه السلام أكثر فقال:

«فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ [٧١٣] مُبْتَلَى

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٠

فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَتِهِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرْثِهِ الْقُرْآنَ». فَكُونُوا مِنْ حَرْثَتِهِ وَاتَّبَاعِهِ»

. وتشير هذه العبارة إلى الحديث المعروف

«الدُّنْيَا مَرْزَعَةُ الْآخِرَةِ»

فالإمام عليه السلام يوصي بزراعة بذور الآيات القرآنية في هذه المزرعة، فلا بذور مثمرة سوى هذه، وكل ما سواها ضرر وخسران. فمن طابقت أعماله تعاليم القرآن كانت بذوره آياته، ومن خالف سلوكه القرآن، فلا يحصد سوى الخيبة والخسران.

ثم اختتم عليه السلام بالإشارة إلى هذه الحقيقة وهي كون القرآن بمعيار والميزان لكل الأشياء، فقال:

«وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهَمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَعْشُوا [٧١٤] فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»

. حيث أشار عليه السلام بهذه العبارات القصيرة إلى ثلاثة أمور مهمة، الأول: ضرورة أخذ العقائد الصحيحة من القرآن، والثاني: كسب

الفضائل الخلقية عن طريق القرآن، والثالث: جعل القرآن، الفرقان بين الحق والباطل، فما وافق القرآن صحيح وحق وما خالفه خاطئ

وباطل. وهذه العبارة، تأكيد آخر على بطلان التفسير بالرأى وتحميل الأفكار على المفاهيم القرآنية.

جاء في الرواية

«مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ» [٧١٥].

وورد في رواية أخرى أن الله تعالى قال:

«مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي» [٧١٦]

. جدير بالذكر أن الاستدلال بالقرآن لمعرفة الله يتم تارة عن طريق أدلة التوحيد- الواضحة في القرآن بأسره- وتارة أخرى عن طريق

ذات القرآن، حيث هذا الكتاب العظيم هو دليل النبوة من جانب، وذاته المقدسة من جانب آخر. ويصدق هذا الكلام على جميع

المعجزات بخصوص القرآن.

أما الفارق بين الآراء والأهواء التي وردت في العبارة. أن الآراء إشارة إلى

نقعات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩١

العقائد المخالفة للقرآن، والأهواء، الرغبات النفسانية المضادة له.

القسم الخامس

الْعَمَلُ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّهْيَةُ النَّهْيَةُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ الْإِسْتِقَامَةُ، ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ، وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ! «إِنَّ لَكُمْ نَهْيَةً فَاتَّبِعُوا إِلَى نَهَائِكُمْ»، وَإِنَّ لَكُمْ عِلْمًا فَاهْتَدُوا بِعِلْمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَاتَّبِعُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَّ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ.

الشرح والتفسير: الدفاع المشروط

أشار الإمام عليه السلام بعد الفراغ من بيان أهمية القرآن، إلى هذه الحقيقة وهي أن الهدف النهائي من نزول القرآن، العمل به، لا الاقتصار على تلاوته:

«الْعَمَلُ الْعَمَلُ، ثُمَّ النَّهْيَةُ النَّهْيَةُ، وَالْإِسْتِقَامَةُ [٧١٧] الْإِسْتِقَامَةُ، ثُمَّ الصَّبْرُ الصَّبْرُ، وَالْوَرَعُ الْوَرَعُ!»

. حقاً أن هذه المراحل الخمس التي ذكرها الإمام عليه السلام هي في الحقيقة عصارة السمو والتكامل والسير إلى الله. فالإنسان ينبغي أن يتجه بادىء الأمر إلى العمل ومن ثم لا- يتهاون في إتمامه، ويراقب نفسه خلال ذلك حذراً من الانحراف عن جادة الصواب ويتحلى بالصبر إزاء أهواء النفس ووساوس الشيطان، حتى يصل المرحلة الأسمى، الورع عند الشبهة حتى يصل الهدف.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٢

ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن العبارة الثانية والرابعة عطف بالحرف ثم والثالثة والخامسة، بالواو، لأن بلوغ الهدف يكون بعد العمل، ولما كانت الإستقامة هي كيفة العمل فقد عطف بالواو، وحيث الصبر إزاء المعصية وما ورد قبله، في الطاعة فقد عطف بالحرف ثم، وعطف الصبر والورع بالواو لأنهما متلازمان [٧١٨]. طبعاً هنالك تفاسير أخرى وارده بشأن العبارة.

ثم أشار عليه السلام إلى هدف المراحل المذكورة وعلامة بلوغ الهدف، فقال:

«إِنَّ لَكُمْ نَهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَيْهَا نَهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَمًا فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلْإِسْلَامِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَيْهَا غَايَتِهِ».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلى قضية مهمّة هي هدية حياة الإنسان إلى جانب هدية التعاليم الدينية، فالله لم يخلقنا عبثاً، والشريعة تنشأ هدفاً هاماً هو سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وقد أوصى الإمام عليه السلام بالسعى لنيل هذا الهدف وحذر من الغفلة والتوقف في الطريق، فعلاّماته واضحة. وربما كان المراد من العلم وجوده عليه السلام والأنبياء والأولياء في كل عصر ومصر، الذين أضاءوا الطريق للجميع، أو المراد، القرآن المجيد، بعبارة أخرى الكتاب والسنة، أو جميع ذلك.

وخلص في الختام إلى هذه النتيجة

«وَاخْرُجُوا [٧١٩] إِلَى اللَّهِ بِمَا افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ

حَقِّهِ، وَبَيِّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ. أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ [٧٢٠] يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْكُمْ».

المقصود بالشاهد أنه عليه السلام يشهد في القيامة على الأعمال الصالحة للناس وأداء الحقوق واستقامتهم في سبيل الوصول إلى الهدف وصبرهم وورعهم وتقواهم، والمراد من الحجيج، أنني سأدافع عنكم وأجيب الملائكة في محكمة العدل الإلهي.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٣

فهذه العبارات اقتباس من القرآن الكريم وقوله: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ» [٧٢١] وقال بشأن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ» [٧٢٢].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٥

القسم السادس

أَلَمْآ وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ؛ وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعَدَةِ اللَّهِ وَحُجَّتِهِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ»، وَقَدْ قُلْتُمْ: «رَبُّنَا اللَّهُ»، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطِعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

الشرح والتفسير

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى الأحداث السابقة، فقال:

«أَلَا وَإِنَّ الْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَالْقَضَاءَ الْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ [٧٢٣]»

. وردت عدّة احتمالات من قبل بعض شراح نهج البلاغة بشأن المراد من القضاء والقدر في العبادة، ولكن بالنظر إلى العبارات القادمة

فلا- يستبعد أن تكون إشارة إلى الأمور المرتبطة بزعامته عليه السلام- التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وآله ومواجهته للناكثين- والمفروغ منه أن القضاء والقدر- كما شرحناه في محله- لا- يعنى إجبار العباد وسلب اختيارهم، بل إن آثار الأفعال الإختيارية للإنسان نوع من القضاء والقدر؛ مثلاً، إن الله قدر نجاح من يسعى ويجد ويجتهد، وفشل من يتوانى ويكسل، فهذه الأمور وإن جرت باختيار الإنسان إلا أن الله مسبب الأسباب جعل لذلك آثاراً تعتبر من القضاء والقدر، طبعاً، هناك القضاء والقدر نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٦

الإلزامى الخارج عن حدود الأفعال الإنسانية [٧٢٤].

ثم بين عليه السلام وظيفة الناس بالنسبة للمستقبل، فقال:

«وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بَعْدَهُ اللَّهُ وَحُجَّتِهِ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ».

ثم خالص إلى نتيجة واضحة، فقال:

«وَقَدْ قُلْتُمْ:

«رَبُّنَا اللَّهُ»

، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ».

إشارة إلى أن القول بلا عمل لا يؤدي إلى الهدف ولا يوجب دخول الجنة والفوز بالسعادة الأبدية، فما دمتم أظهرتم الإيمان فعليكم بالعمل لتشملون بوعد الله.

ثم بين عليه السلام الأخطار التي تكمن في طريق المؤمنين، فقال:

«ثُمَّ لَا تَمْرُقُوا مِنْهَا، وَلَا تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلَا تُخَالِفُوا عَنْهَا. فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ [٧٢٥] مُنْقَطِعٌ [٧٢٦] بِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ»

. فقد أشار عليه السلام في هذه العبارة إلى ثلاث فرق من المنحرفين وحدّر من السير على نهجهم، الفئة الأولى التي تمرق من الدين وترى نفسها على الدين بينما هي بعيدة عنه كل البعد، كخارج النهروان الذين نعتهم الروايات والتواريخ بالمارقين، فقد بلغوا درجة من التبعيد والتمسك بقشور الدين بحيث يحسبهم الجاهل من المتدينين الحقيقيين، والحال، ليس لهم حظ من الدين سوى ظاهره ولا يعلمون عن حقيقة الدين شيئاً.

الفئة الثانية: أهل البدع الذين يُحْمَلون الدين ما ليس منه، والواقع أنهم يقدمون أهواءهم وأفكارهم على أحكام الدين ولم يكونوا قلائل على عهد الخلفاء. الفئة الثالثة: التي تخالف الأحكام الشرعية عامدة وتترك ما لا ينسجم مع مصالحها

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٧

ومنافعها، وأفضل نموذج على ذلك، معاوية حين ظهر ودخل الكوفة خطب الناس، فقال: «والله لم أقاتلكم لتصوموا وتصلوا وتحجوا وتزكوا فأنتم تفعلون ذلك، ولكن قاتلكم لأتأمر عليكم» (وقيل على روايه، لأتسلط على رقابكم) [٧٢٧]. نعم، من جانب هذه الطرق المنحرفة ولم يصغ لوساوس الشيطان وهوى النفس فهو الذي قال:

«قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» [٧٢٨].

تأمل: الإستقامة في مسار الولاية

ورد في بعض الروايات في تفسير العبارة

«ثُمَّ اسْتَقَامُوا»

(المقتبسة من الآية ٣٠ من سورة فصلت) أنها إشارة إلى الولاية. فقد أجاب الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام من سألته عن الإستقامة في الآية المذكورة، فقال:

«هِيَ وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ» [٧٢٩]

. طبعاً الإستقامة والثبات على الصراط لهما مفهوم واسع، واحد مصاديقه البارزة، ولاية أهل البيت عليهم السلام.

سؤال: متى هذه البشارة التي تزفها الملائكة للمؤمنين، عند الموت أم في الحياة الدنيا أم القيامة؟ هل يلمس المؤمنون هذه البشارة، أم لا؟

الجواب: ممّا لا شك فيه أنّ نجدة الملائكة - طبق صريح الآيات القرآنية - للمؤمنين في الظروف الحساسة مبذولة في هذه الحياة الدنيا، ونموذج ذلك ما حصل

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٨

في موقعة بدر والأحزاب [٧٣٠]؛ طبعاً لم يرههم المؤمنون إلّا أنّهم شاهدوا إمداداتهم الغيبية على صعيد نصرتهم في ميدان القتال. وما يستفاد من الروايات أنّ بشارة الملائكة المذكورة في الآية السابقة، والتي أشارت إليها الآية ٣١ من سورة فصلت، تتعلق بلحظة الموت أو الحشر وقد فسرت العبارة

«نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...»

بصيغته «ونحن كنّا أولياءكم في الحياة الدنيا»، أي، كنّا أولياءكم في الحياة الدنيا وستتولاكم لحظة الإحتضار والقيامة. روى صاحب مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«أَلَّا تَخَافُوا مَا تَقْدُمُونَ عَلَيْهِ وَلَا تَحْزَنُوا مَا خَلَفْتُمْ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ فِي الدُّنْيَا» [٧٣١].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٣٩٩

القسم السابع

ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعِ الْأَخْلَاقِ وَتَضْرِيحِهَا، وَاجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِدًا، وَلِيَحْزِنَ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ. وَاللَّهُ مَا أَرَى عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَى تَنْفَعُهُ حَتَّى يَحْزِنَ لِسَانَهُ. وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لِيَتَدَبَّرَ مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِمَائِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِمَ اللِّسَانُ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح والتفسير: فرق المؤمن عن المنافق في إصلاح اللسان

بيّن الإمام عليه السلام في هذا الجانب من الخطبة بعض المسائل المهمة المرتبطة بتهذيب الأخلاق وتطهير الروح من الرذائل الخلقية، وأشار إلى الأمور المهمة التي تشكل مفتاح الإصلاح الأخلاقي، فقال:

«ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعِ الْأَخْلَاقِ وَتَضْرِيحِهَا» [٧٣٢]

. بالنظر إلى أنّ تهذيب، من مادة هزح، على وزن نظم، بمعنى التكبير، وكأنّ الإمام عليه السلام يرى أنّ الفضائل الأخلاقية كالبناء الشامخ

والجوهر الثمين الذي يمثل أي انحراف فيه كسره وتغيير شكله، ولا يقتصر هذا البناء على الفرد، بل حتى المجتمعات البشرية إن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٠

فقدت الفضائل الاخلاقية تنحدر نحو الفساد والانحراف والزوال:

إِنَّمَا الْأُمَّمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ثم ركز الإمام عليه السلام على واحدة من أهم المسائل الأخلاقية التي لا يتسنى تهذيب النفس إلامن خلالها والتي تتمثل بإصلاح اللسان، قائلاً:

«وَأَجْعَلُوا اللَّسَانَ وَاحِدًا»

حيث تقابل هذه العبارة تلك العبارة

«ذواللسانين»

بحق المنافق، الذي يقول شيئاً في حضور الإنسان وآخر في غيابه، «وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» [٧٣٣] ومن الطبيعي أن تغيب كل معاني المحبة والمواساة التي تشكل الركن الأساس للحياة الاجتماعية في المجتمع الذي يمتاز أفرادها بالنفاق والابتعاد عن الصدق، وليس هنالك سوى سوء الظن الذي يسود المجتمع.

ثم قال في الوصية الثانية:

«وَلِيُخْزِنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللَّسَانَ جُمُوحٌ [٧٣٤]

بِصَاحِبِهِ»

. فتشبيه اللسان بالفرس الجموح تشبيه رائع ولطيف، ذلك لأن اللسان أسهل عضو لدى الإنسان يحركه دون عناء، إلا أن أهواء النفس ووساوس الشيطان قد تغلب الإنسان بحيث لا يستطيع السيطرة عليها، فيصبح كالفرس الجموح الذي يغلب فارسه فيوشك أن يطرحه في المهلكة. ولعل أفضل وسيلة لحفظه من الخطر أن يقلل الإنسان من كلامه، وهذا هو المراد من حفظ اللسان، وليس بعدم الكلام قط، ذلك لأن اللسان أهم وسيلة في التربية والتعليم ونقل العلوم والمعارف والتجارب وذكر الله تعالى.

ثم أكد عليه السلام ذلك، فقال:

«وَاللَّهِ مَا أَرَىٰ عَبْدًا يَتَّقِي تَقْوَىٰ تَنْفَعُهُ حَتَّىٰ يَخْزِنَ لِسَانَهُ»

. فهذا التأكيد المقرون بالقسم إشارة إلى المرحلة الأولى التي قال بها أرباب السير والسلوك إلى الله والتي تتمثل بإصلاح اللسان، وما لم يجتز الإنسان هذه العقبة فلن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠١

يقف على حقيقة التقوى والقرب من الله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أهميته حفظ اللسان في أن إحدى فوارق المؤمن عن المنافق إنما تكمن في هذا الموضوع فقال:

«وَإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ الْمُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ: لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ. وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَىٰ عَلَىٰ لِسَانِهِ لَا يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ».

طبعاً، لسان كل شخص في فيه، والقلب - سواء العضو الواقع في وسط الصدر أو المراد به العقل - مفصول عن اللسان، ولا فرق في هذا بين المؤمن والمنافق، لكن هناك كناية لطيفة في العبارة، أن المؤمن يفكر ثم يتكلم، أما المنافق فيتكلم ثم يفكر، الأمر الذي فسره الإمام عليه السلام في العبارات القادمة.

جدير ذكره أن هذا المعنى ورد بصورة أخرى في قصار كلمات الإمام عليه السلام ومنها:

«لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ» [٧٣٥]

. وقال:

«قَلْبُ الْأَحْمَقِ فِي فِيهِ»

وَلِسَانُ الْعَاقِلِ فِي قَلْبِهِ»

وكل هذه العبارات تشير إلى حقيقة واحدة هي أن المؤمن والعقل يفكر وينطق والمنافق والأحمق ينطقان ولا يفكران.

سؤال: يمتاز المنافقون عادةً بالذكاء والخطط الجهنمية في مشاريعهم الهدامة فكيف يوصفون بأنهم لا يدرون ماذا لهم وماذا عليهم؟!
الجواب: تمكن الإجابة عن هذا السؤال من خلال الآيات القرآنية الواردة بشأن المنافقين وهو أن المنافق وإن كانت له بادية الأمر بعض الخطط الشيطانية والذكية حتى يرى نفسه عاقلاً والمؤمن سفيهاً، إلا أن المنافق في خاتمة المطاف هو السفيه الحقيقي، قال القرآن الكريم: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ» [٧٣٦]. وعليه تتضح فطنة المؤمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٢

وبلادة المنافق من خلال التأمل الدقيق، والمنافق شاء أم أبي فهو مفضوح في الدنيا والآخرة.

ثم استدل عليه السلام بحديث عميق المعنى عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«وَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ -: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيْمَانٌ عَبْدٌ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ. وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ».

فالعلاقة القائمة بين إصلاح اللسان والقلب والإيمان في هذا الحديث هي علاقة جدلية واضحة. وقد دلت التجربة على أن سوء اللسان وتلوته بالذنوب والكلمات العبيثة الفارغة، يسود القلب ويخلى الروح من المعنوية، ومن الطبيعي أن القلب إذا اسودَّ لن يجد بصيص نور الإيمان. قال القرآن الكريم في تعبير دقيق وبعيد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» [٧٣٧] وعليه فالعلاقة بين إصلاح اللسان وإصلاح القلب وإصلاح الإيمان علاقة لازم وملزوم، وإن تكلف بعض الشراح في تفسير العبارة. طبعاً، لا يمكن إنكار صدق عكس هذا المعنى، أي أن قوة الإيمان تؤدي إلى نورانية القلب والذي يؤدي إلى إصلاح اللسان، وبعبارة أخرى تؤثر هذه الأمور الثلاثة في بعضها البعض الآخر تأثيراً متبادلاً، إلا أن الأبرز، ما ورد في حديث النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى ثلاثة مواضيع مهمة أخرى فقال:

«فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحِ مِنْ دِمَائِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ»

قطعاً، أن مثل هذا الفرد على درجة رفيعة من الورع والتقوى التي تجعله مشمولاً بعناية الله ورحمته. وأي تقوى أعظم من كف الأذى عن الناس واحترام أموالهم وأعراضهم وأنفسهم. ويبدو هذا الموضوع على قدر من الأهمية بحيث كانت رعايته دليلاً على كون الفرد مسلماً وهجره دليلاً على بعده عن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٣

الإسلام. ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ» [٧٣٨]

وأبعد من ذلك ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام الذي أوسعه ليشمل الناس، فقال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ اتَّخَمَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ» [٧٣٩].

تأملان

١. اللسان اعجب اعضاء البدن

لهذه القطعة البسيطة من اللحم والتي نسميها (اللسان) مسؤوليات خطيرة على مستوى الظاهر والباطن. ولو تأملنا نطق الآخرين لرأينا أن اللسان يتحرك بسرعة مذهلة في الفم فيرتب الحروف سريعاً لينطلق ببعض الكلمات، ولا يكمل أبداً. ولو أخطأ قليلاً في الحركة

لصدرت منه الكلمات المهملة والمضحكة أحياناً، كما يقوم بدور فريد حين تناول الطعام حيث يدفع الغذاء بسرعة فائقة إلى الاسنان وينسحب قليلاً بغية طحنه. ووظيفته الأخرى تتمثل في جمع الطعام الممضوغ ودفعه إلى البلعوم، ولولا اللسان لتعذر علينا ابتلاع الماء والغذاء؛ هذا من حيث الظاهر. وأما من حيث القضايا المعنوية والأخلاقية، فدور اللسان واضح وجلّي؛ فهو أبسط وسيلة عبادية وأهم وسيلة للمعصية؛ فأفضل العبادات (الصلاة، تلاوة القرآن، التربية والتعليم، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و...) إنّما تتم باللسان، كما قيل بأنّ ثلاثين كبيرة (من قبيل الغيبة، التهمة، أذى المؤمن، الحكم بالباطل، إيجاد الفساد، والإختلاف و...) ترتكب بواسطة اللسان، فاللسان أفضل وسائل الطاعة كما أنّه أخطر وسائل الذنب، ذلك لأنه مستعد في كافة الأزمنة والأمكنه والظروف ودون أدنى تكاليف لارتكاب الذنب، والأدهى من ذلك أنّ ذنوب اللسان أثر كثرتها وسعتها لم تعد قبيحة لدى عوام الناس، ومن هنا كانت الخطوة الأولى لإصلاح

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٤

الذات تكمن في إصلاح اللسان. هنالك طريقتان مهمتان للنجاه من معاصي اللسان أشار إليهما الإمام عليه السلام؛ الأول: قلبه الكلام واجتناب الفضول للخلاص من آفات اللسان. الثاني: أن يفكر كلما أراد الكلام، كما قال الإمام عليه السلام أن يكون لسانه وراء قلبه، لا أن يكون قلبه وراء لسانه كالمناقق والأحرق. ويبدو الكلام بهذا الشأن كثير، نختصره ونختتمه بالحديث النبوي الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«يُعَذَّبُ اللَّهُ اللِّسَانَ بِعَذَابٍ لَا يُعَذَّبُ بِهِ شَيْئًا مِنَ الْجَوَارِحِ فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ عَذَّبْتَنِي بِعَذَابٍ، لَمْ تُعَذَّبْ بِهِ شَيْئًا فَيَقَالَ لَهُ: خَرَجْتَ مِنْكَ كَلِمَةً فَبَلَغْتَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَسَفِكَ بِهَا الدَّمَ الْحَرَامَ وَأَنْتَهَبَ بِهَا الْمَالَ الْحَرَامَ وَأَنْتَهَكَ بِهَا الْفَرْجَ الْحَرَامَ، وَعِزَّتِي (وَجَلَالِي) لَأُعَذَّبَنَّكَ بِعَذَابٍ لَا تُعَذَّبُ بِهِ شَيْئًا مِنْ جَوَارِحِكَ» [٧٤٠].

٢. رصيد الإنسان

إن رصيد الإنسان ثلاثة أشياء: النفس والمال والعرض، ولعل العرض يتقدم على الجميع حيث يستعد الإنسان للتضحية بنفسه من أجله، ثم النفس والأموال. وقد أولى الإسلام هذه الأمور الثلاثة أهميّة فائقة، وكما ورد في الخطبة فإن النجاه يوم القيامة لمن سلمت يده من دماء الناس وأموالهم ولم يتعرض لأعراضهم. ويرى الإسلام حرمة الأموال كحرمة الأنفس، وأن حرمة إنسان كحرمة البشرية جمعاء، وأن انتهاك حرمة مؤمن بغيبته كمن يأكل لحم أخيه ميتاً. ورد في الحديث النبوي في حجة الوداع في منى، (التي يقصدها الناس من مختلف مناطق العالم) أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خطب الناس بعد أداء مناسك الحج فقال: أيّ يوم أفضل أيام السنة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: وأيّ أرض؟ قالوا هذه الأرض. فقال صلى الله عليه وآله:

«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٥

عَلَيْكُمْ حَرَامٌ لِحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ»

، ثم قال: هل بلغت؟ قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وآله:

«اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ» [٧٤١].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٧

القسم الثامن

وَاعْمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلًا؛ وَأَنَّ مَا أَخَذَتِ النَّاسُ لِيُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا

حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ. فَقَدْ جَرَّبْتُمْ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا، وَوَعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضَرَبْتِ الْأَمْثَالَ لَكُمْ، وَدَعَيْتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلَا يَصُمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالْتَجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ. وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شِرْعَةً وَمُتَّبِدِعٌ بِدْعَةً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهٌ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّةٌ.

الشرح والتفسير: أخطار البدع

أشار الإمام عليه السلام هنا إلى آفة دينية واجتماعية أخرى ليكمل ما ذكره من آفات، وتلك الآفة هي البدعة وتغيير أحكام الله على ضوء الرغبات والأهواء النفسية، فقال:

«وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ الْعَامَ مَا اسْتَحَلَّ عَامًا أَوَّلًا، وَيُحَرِّمُ الْعَامَ مَا حَرَّمَ عَامًا أَوَّلًا».

لا يُخضع الأحكام الشرعية لهوى نفسه ويغيرها بأفكاره الناقصة، فلو فتح باب البدع في الأحكام لغتير الظلمة والطواغيت كل ما لا ينسجم مع مصالحهم ومنافعهم، فلا تمضي مدّة حتى تدرس أصول الدين وفروعه ويمحق محتواه. والعبارة تشير

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٨

إلى البدع التي وردت إلى الدين عقب وفاة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ولم يكتف القوم بالقياس عند عدم وقوفهم على نصوص الكتاب والسنة، بل هتبوا لمخالفة صريح القرآن وسنة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. فالخليفة الثالث خالف طريقه رسول الله صلى الله عليه وآله في توزيع أموال بيت مال المسلمين وتسويته بينهم في العطاء، فقدم الأعيان والأشراف ولا سيما خاصته وبطانته من قرابته. ثم انبرى الخليفة الثاني ليقول صراحة: متعتان كانتا حلالاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أحرهما وعاقب عليهما، متعة النساء (الزواج المؤقت) ومتعة الحج (الحج بصورة حج التمتع) ناهيك عن سائر البدع التي ظهرت على عهد الخلفاء والتي أحصتها بعض الكتب [٧٤٢]. والإمام عليه السلام بدرأيته الواسعة شعر أنه إن لم يقف بوجه هذه البدع لمححق الدين وغيبت أحكامه، ولذلك عدّ الإبتعاد عن البدعة من الإيمان.

ثم قال عليه السلام

: «وَأَنَّ مَا أَحَدَثَ النَّاسُ لِيُحِلُّ لَكُمْ شَيْئًا مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ، وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»

. ومن ثم أشار إلى نقطة بمثابة الدليل على ما ذكر، فقال:

«فَقَدْ جَرَّبْتُمْ الْأُمُورَ وَضَرَسْتُمُوهَا» [٧٤٣]، وَوَعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ،

وَضَرَبْتِ الْأَمْثَالَ لَكُمْ، وَدَعَيْتُمْ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاضِحِ»

. بمعنى أنّكم شاهدتم حجم المصائب والإرباكات التي جرّتها البدع السابقة على الإسلام والمسلمين. فالبدع في زمان عثمان أدّت إلى تلك الثورة الهوجاء التي سفكت دمه وأحدثت التمييز بين العرب والموالي، إلى تلك الفرقة بين المسلمين أيضاً وكان عاقبتها سفك دمه أيضاً [٧٤٤]. وناهيك عمداً سبق، فإنّ الله ذمّ اليهود في القرآن الكريم على بدعهم وتحريفاتهم وكشف عن مصيرهم، وأنتم قد

جرّبتهم البدع وقد وعظتم بمن كان

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٠٩

قبلكم، فقد دعوتهم إلى مطلب واضح قامت عليه الأدلة الحية والتجريبية والنقلية.

ثم خلاص إلى هذه النتيجة:

«فَلَا يَصُمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَصَمُّ، وَلَا يَعْمَى عَنْ ذَلِكَ إِلَّا أَعْمَى وَمَنْ لَمْ يَنْفَعَهُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ وَالْتَجَارِبِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ

مِنْ أَمَامِهِ [٧٤٥]، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ».

فالتجارب الحسية والبلاء الإلهي أهم وسيلة لإيقاظ الإنسان، فمن لم يتقظ بهذا الأسلوب يستعد أن ينتفع بالمواعظ والنصائح، وليس له من عاقبه سوى رؤيته للحسن سيئاً والسيء حسناً، كما أورد ذلك القرآن الكريم: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا» [٧٤٦].

فقد حسب معاوية وطلحة والزبير أنفسهم من المدافعين عن دم المظلوم (دم عثمان) هذا في صدر الإسلام، واليوم يرى أصحاب البدع الوهابيون أنهم مصلحو هذه الأمة، وعادة ما يزعم المبتدعون طيلة التاريخ أنهم مصلحون.

ويختتم الإمام عليه السلام الخطبة بعبارة، لتمييز صفوف المبتدعين من صفوف المتبعين للدين، فيقول:

«وَإِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُتَّبِعٌ شَرْعاً وَمُبْتَدِعٌ بَدْعاً، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانٌ سُنَّهَ، وَلَا ضِيَاءٌ حُجَّةً»

وعليه فلا بد لكل شخص من معرفة صنفه. فإن كان متشجعاً فهو تابع للكتاب والسنة والدليل العقلي اليقيني، وإن كان في صف المبتدعين فليس لديه دليل من كتاب ولا سنة ولا نور ولا ضياء من عقل ولا يتبع سوى أهوائه ويغير أحكام الله بما ينسجم وتلك الأهواء. وبناءً على ما سبق فإن برهان السنة إشارة إلى الأدلة النقلية، وضياء الحجة الأدلة العقلية، وهكذا يُعرّف الإمام عليه السلام أهل البدع بأنهم الأفراد الذين يتبعون أهواءهم وخيالاتهم الباطلة.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٠

تأمل

البدعة

ركز الإمام عليه السلام في المقطع المذكور من الخطبة على وقوفه بوجه البدع. والبدعة في اللغة تعني إيجاد الشيء دون تجربة أو مثال وهي ممدوحة حيناً ومذمومة حيناً آخر. فالقرآن يصف الله بالقول: «بِإِذْنِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [٧٤٧]، كما يصف النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَا كُنْتُ بِبَدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ» [٧٤٨] والمراد هو المفهوم المذكور. إلماً أن لهذه المفردة مفهوماً خاصاً في لسان الروايات وكلمات الفقهاء وهو تغيير الأحكام الشرعية وتبديلها بأحكام طبق الرغبات النفسية والمنافع الشخصية. ومن هنا ورد الدم الشديد للبدعة في الروايات، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَهْلُ الْبَدْعِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيفَةُ» [٧٤٩].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام:

«أَمَّا أَهْلُ الْبَدْعِ فَالْمُخَالِفُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ الْعَامِلُونَ بِرَأْيِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ وَإِنْ كَثُرُوا» [٧٥٠]

والروايات كثيرة بهذا الشأن والتي ذمت بشدة، البدعة والمبتدع. والسبب واضح، فكما ذكرنا سابقاً أن باب البدع لو فتح لما بقي من أحكام الدين وأصوله وفروعه شيء ولمحق الدين. وعلى هذا الأساس قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

: «مَنْ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ مُبْتَدِعٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ دِينِهِ» [٧٥١]

. ويتضح من هنا خطأ أولئك الذين خلطوا المعنى الواسع للبدعة بمعناها الخاص ليزعموا أن كل القضايا متجددة، فمن يسعه الوقوف بوجه التجدد؟ وأما أولئك فإنهم يرون تغيير الآراء الإجهادية وكشف المسائل المستحدثة من الكتاب والسنة ضرباً من البدعة، فإما أنهم يخدعون أنفسهم أو أنهم يريدون خداع الآخرين. فكشف

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١١

المسائل المستحدثة من الكتاب والسنة تبعية للشرع لا بدعة بالمعنى الخاص للكلمة؛ أي، تحريم حلال الله وتحليل حرمته استناداً لأهواء النفس والمنافع الشخصية. جدير بالذكر أن المبتدعين وخشيء اعتراض المؤمنين يلجأون إلى التغيير بالرأى، فيحرفون آيات

القرآن الكريم أو روايات المعصومين عليهم السلام ليوردوا البدع.

وبالطبع فإن هؤلاء أعظم خطراً من الذين يمارسون البدعة علانيةً. على كل حال، فقد قال الإمام عليه السلام في هذه الخطبة: إن المؤمن من يلتزم بحلال الله وحرامه ولا يغيرهما، ويعمل بالأحكام الشرعية في كل الأوقات ولا يحيد عن الكتاب والسنة. نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٣

القسم التاسع

وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعْظُ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمَتَدَكُّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَبِّسُونَ. فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَأَذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنَ آدَمَ، اْعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ».

الشرح والتفسير: القرآن ربيع القلوب وينابيع العلوم

تطرق الإمام عليه السلام هنا ثانية إلى القرآن وعظمته ليطم ما ذكره سابقاً فأشار إلى بعض الأمور الجديدة فقال:

«وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعْظُ أَحَدًا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ»

. ذلك لأن الكتب السماوية التي أنزلها الله لهداية الخلق تشتمل على أعظم المواعظ.

ويمتاز القرآن من بين هذه الكتب بكونه الشمس المشرقة ومواعظه فريدة وإرشاداته قيمة. فتارة يتحدث مباشرة للعباد، وأخرى كسؤال يجيب عنه الوجدان، وأحياناً يطرق التاريخ الماضي المليء بالدروس والعبر، وأحياناً أخرى يتحدث من خلال المثال البليغ ويلبس الحقائق العقلية ثوب الحس، ويورد كل ذلك بعبارات تفيض رقة وعدوبة وبلاغة، ومن هنا فليس هنالك من مواعظ كمواعظ القرآن. ثم ذكر عليه السلام أدلة ذلك، فقال:

«فَإِنَّهُ «حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ [٧٥٢]»، وَسَبَبُهُ الْأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٤

الْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ [٧٥٣] الْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جَلَاءٌ غَيْرُهُ»

. فقد أوجز الإمام عليه السلام بهذه العبارات الخمس ما يمكن قوله في القرآن؛ الأول: أنه حبل الله المتين وكأنه سحب من السماء إلى الأرض ليمسك به العباد، فيحلقون به إلى عنان السماء ويبلغون مقام القرب. وهذه هي العروة الوثقى التي أشار الله إليها في كتابه: «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَأَنْفِصَامَ لَهَا». يعني لا شك فيه أن الطريق إلى الإيمان بالله والكفر بالطاغوت هو القرآن.

الثاني: أنه السبب الأمين، أي، الواسطة بين الخلق والخالق والذي لا يعرف الزلل والخيانة وكل ما فيه حق خالص. والثالث: أن القرآن ربيع القلوب، فكما تدب الحياة في الربيع في الأشجار الميتة وتفتح غصونها وأوراقها، كذلك من يفتح على القرآن يشعر بحيوية روحه وحياته بالإيمان والفضائل والأخلاق. الرابع: أن القرآن ينابيع العلوم، ليس فقط العلوم التي تتعلق بمعرفة الله وتربى في الإنسان روح الفضيلة والورع والتقوى فحسب، بل القرآن دافع للخوض في العلوم التي تعنى بخلق الإنسان والسماء والأرض وسائر الأحياء والكائنات، وله إشارات عميقة المعنى في كل هذه العلوم. وأشار في الخامس إلى هذه الحقيقة وهي، أن جلاء القلوب مما يعلق بها من أدران الذنب والغفلة لا يتيسر إلا بنور القرآن الذي يزيل عنها الصدأ من خلال تلاوته وتدبر آياته. أما قصير الجلاء على القرآن فذلك لأن سائر الوسائل إنما تستند في الواقع إلى القرآن، فالقرآن مصدر كل شيء. ومن الطبيعي أن يكون الكتاب الذي يشتمل على هذه الخصائص أفضل واعظ.

نفحات الولاية؛ ج ٦؛ ص ٤١٤

عرب الإمام عليه السلام عن أسفه لوضع المسلمين تجاه القرآن، فقال:
«مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ الْمُنْدَكُرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوْ الْمُتَنَاسُونَ»

هذه العبارة إجابة عن سؤال مقدر في أن الآثار العظيمة التي أُشير إليها بشأن القرآن إن انحسرت في المجتمع الإسلامي فسبب ذلك لا يُعزى إلى القرآن، بل لغفلة الجهال والمنافقين أو تغافلهم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٥

عن هذا الفيض الإلهي. ولعل هذه العبارة تشبه تلك التي ذكرها الإمام عليه السلام في الخطبة ١٨٢ حين أعرب عن أسفه على شهادة صحبه الأوفياء، فبكي، وقال:

«أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوُا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا الْفُرْصَ فَأَقَامُوهُ، أَحْيُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ».

فقد صَنَّفَ الإمام عليه السلام الناس إلى ثلاث فئات، فئة يقظة تنتفع دائماً بآيات الله، وأخرى غارقة في ماديات الدنيا نَسِيَتِ القرآن، وثالثة، عمدت إلى تناسي تعاليم القرآن، فهي تمر عليه بكل بساطة رغم معرفتها بأهدافه. طبعاً إن رأينا المجتمع الإسلامي يشكو المرض من عدّة جوانب، فذلك ليس لتقصير الطبيب ولا عدم فائدة الوصفة الطبية، بل السبب الحقيقي يكمن في عدم الإلتزام بهذه الوصفة الإلهية الشافية.

ثم واصل الإمام عليه السلام كلامه وكأنه ردّ على إشكال من يقول: إن كانت هناك فئة نَسِيَتِ طريق الحق أو تناست، فذلك لأنّ طريق الحق ليس معروفاً وقد امتزج بطرق الباطل، بحيث لا يبدو تشخيصه سهلاً، فقال:

«فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - كَانَ يَقُولُ: «يَابْنَ آدَمَ، اعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ [٧٥٤] قَاصِدٌ [٧٥٥]».

يتضح من العبارة أن للخير والشّر معاني واسعة، كما تشير العبارة إلى الحسن والقبح العقليين في أن الإنسان يدرك بعقله وفكره الخير والشّر، وإن عمل به فقد طوى مسافة واسعة من الطريق القويم والجادة المستقيمة. وللوقوف على عظمة القرآن وأهميته مضمونه، فقد أوردنا مباحث كثيرة في الأجزاء السابقة (الجزء الأول، ذيل الخطبة ١٨، والجزء الرابع، ذيل الخطبة ١١٠) وستتطرق بإذن الله إلى مبحث مفصل بهذا الشأن في شرح الخطبة ١٩٨.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٧

القسم العاشر

أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: ظُلْمٌ لَأَيُّغْفِرُ، وَظُلْمٌ لَأَيُّتْرِكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَأَيُّطَلَّبُ.

فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيُّغْفِرُ فَالشَّرُّ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَأَيُّتْرِكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا. الْفِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَوْحًا بِالْمُدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسِّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْعَرُ ذَلِكَ مَعَهُ. فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فَرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفَرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْنُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكْمَلَ قُوَّتَهُ، وَاسْتَغْلَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ» فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح والتفسير: إصلاح النفس

أشار الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الذى يمثل ختامها إلى ثلاثة مواضيع مهمّة؛ أحدها، أقسام الظلم الثلاثة، والآخر، موضوع وحده المسلمين وأهميتها، والثالث، التهذيب وإصلاح النفس بدلاً من تقصّي عيوب الآخرين، والأبحاث التى ذكرت فى هذه الخطبة بشأن المسائل الأخلاقية والنصائح الواردة بهذا الخصوص تكتمل بهذه المواضيع الثلاثة. فقد قال عليه السلام فى الموضوع الأول:

«أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٨

ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَيُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَيُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَيَطْلَبُ».

ثم خاض عليه السلام فى شرح كل قسم، فقال:

«فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَيُغْفَرُ فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

«إِنَّ اللَّهَ لَيَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ»... طبعاً، بالتوجه إلى صدر الآية وذيلها:

«وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» [٧٥٦] يتبين لنا أنّ الذنب الوحيد الذى لا يغفره الله، إن مات الإنسان ولم يتب منه، هو الشرك، أما سائر الذنوب، كبيرة كانت أم صغيرة إن مات الإنسان ولم يتب منها، فربما يُشمل بالعفو الإلهي، وإن لم يكن ذلك قطعياً وشموله بالعفو خاضع لبعض الشرائط، لأنّ العبارة (من يشاء)

لا- تعنى العفو عن المذنبين دون حساب وكتاب، ذلك لأنّ الله حكيم وإرادته ومشيئته حكيمة، ولا يشمل بالعفو سوى من امتلك مقوماته، بالضبط على غرار العفو عن السجناء والذى ينظر إلى حالة السجين، فإن رأى فيه الإستعداد شمل بالعفو، والمراد من الشرك هنا هو الشرك الجلي من قبيل عبادة الأوثان وما شابه ذلك، وأما الشرك الخفى (كالرياء)

فهو من قبيل الكبائر الداخلة فى ذيل الآية المذكورة.

ثم خاض عليه السلام فى بيان القسم الثانى والثالث، فقال:

«وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ [٧٥٧]. وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَيُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.

الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ. لَيْسَ هُوَ جَوْحًا بِالْمُدَى [٧٥٨] وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا

يُسْتَضَعَرُ ذَلِكَ مَعَهُ»

. فقد أشار الإمام عليه السلام فى العبارة الأولى إلى الصغائر التى ذكر القرآن شرط عفوها بترك الكبائر: «إِنَّ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفْرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» [٧٥٩]. أو إشارة إلى الكبائر التى لها بعد حق الله ويستطيع الإنسان غسلها بماء التوبة والندم وتداركها بالأعمال الصالحة، أما العبارة الثانية التى تبين النوع الثالث

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤١٩

للظلم، فهى إشارة إلى حق الناس الذى توعده الإسلام عليه أشد العقوبات، والله لا يغفره ما لم يتنازل صاحب الحق، وعليه، فالتعبير بالقصاص فى العبارة إشارة إلى العقاب، لا- القصاص الإصطلاحى المعروف، ولذلك قال: ليس ذلك القصاص جرحاً بالسكين والخنجر ولا ضرباً بالسياط، بل عقاب يهون كل ذلك معه: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» [٧٦٠].

ورد فى الرواية، عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبِيَائِهِ فِي مَمْلَكَةٍ جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَّارِينَ أَنْ آتِ هَذَا الْجَبَّارَ فَقُلْ لَهُ: إِنَّنِي لَمْ أَسْتَعْمَلْكَ عَلَى الدِّمَاءِ اتِّخَاذِ أَمْوَالٍ، بَلِ اسْتَعْمَلْتُكَ لِتُكْفَّ عَنِّي أَصْوَاتَ الْمَظْلُومِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَدْعُ ظَلَامَتَهُمْ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا» [٧٦١].

وورد عن الإمام الباقر عليه السلام:

«مَا مِنْ أَحَدٍ يَظْلَمُ بِمَظْلَمَةٍ إِلَّا أَخَذَهُ اللَّهُ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَمَا الظُّلْمَ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ فَإِذَا تَابَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ» [٧٦٢].

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى موضوع وحدة صفوف المسلمين، فقال:

«فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيَمَا تَكْرَهُونَ مِنَ الْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيَمَا تُحِبُّونَ مِنَ الْبَاطِلِ. وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَدًا بِفُرْقَةٍ خَيْرًا مِمَّنْ مَضَى وَلَا مِمَّنْ بَقِيَ».

العبارة

«فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوْنَ فِي دِينِ اللَّهِ...»

إشارة إلى أن كل طائفة كانت تتخذ لها صيغة تميز برنامجهما من الآخرين، سواء في المسائل العقائدية أو العملية، وهذا التلؤن يؤدي إلى فرقة الصفوف وضياع الطاقات وأحياناً نشوب الحروب الأهلية التي تهدد مصير المجتمع ومانعه. وكلما كان أفراد المجتمع - كما ورد في عبارات الإمام عليه السلام المذكورة - يتحولون بالمرونة في القضايا البسيطة، والصبر في الأمور التي لا تنسجم مع رغباتهم، فإن الوحدة ستسود هذا المجتمع جانب الهدوء والأمن

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٠

والإستقرار. وبالطبع، فإن اختلاف الصفوف والفرق طيلة التاريخ - كما ذكر الإمام عليه السلام - لم يجلب من خير قط.

وأخيراً اختتم الإمام عليه السلام الخطبة بدعوة الجميع إلى إصلاح الذات وترك البحث عن عيوب الآخرين، فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ «طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عَيْبِ النَّاسِ»، وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوْتَهُ، وَاشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، «وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ»

. ثم خالص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغْلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!»

إشارة إلى أن كل انسان - سوى أولياء الله والمعصومين عليهم السلام - ينطوي على عيب، فإن إنهمك بعيوب الآخرين غفل عن إصلاح نفسه ولا يسعه بلوغ القرب الإلهي والتهذيب الخلقى والسير إلى الله، أما إن اختلى بنفسه وانشغل بعيبه وشعر بالندم لما فرط منه وغسل أدران المعصية بمياه طاعة الله ولاسيما بقطرة دمع صادقة، أنذاك سيتمكن من إصلاح تلك نفسه والعروج بها إلى ساحة القدس.

تأمل: العيش بصورة جماعية أم الإنزواء

حث الإمام عليه السلام في ختام الخطبة على الإنزواء والإعتزال، الإعتزال الذي يعدّ مقدمة لتهذيب النفس والإبتعاد عن المفسد الإجتماعية، وذهب أغلب علماء الأخلاق إلى أن الإعتزال يعدّ أحد الشروط اللازمة لتهذيب الأخلاق. ولو تأملنا آيات القرآن الكريم لرأينا مرحلة الغزلة التي شهدتها الأنبياء العظام والصالحون في حياتهم. فقد قال إبراهيم الخليل عليه السلام حين واجه المجتمع الضال والمتعصب - الذي كان يصير على عبادة الأوثان - «وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَاقِيًّا» [٧٦٣].

وقد اعتزل موسى عليه السلام قومه أربعين يوماً لأخذ الألواح وأتجه إلى الطور، حيث

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢١

وردت تفاصيل هذا الموضوع في الآية ١٤٢ من سورة الأعراف.

وكما ورد اعتزال مريم عليها السلام حيث أشارت إليه الآية ١٦ من سورة مريم، وكذلك ما ورد في شأن أصحاب الكهف عندما عجزوا من مقارعة الوثنيين فاعتزلوهم إلى الكهف وأشار القرآن الكريم إلى ذلك حيث قال: «وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا» [٧٦٤].

وإننا لنعلم جميعاً باعتزال النبي صلى الله عليه وآله القوم حين كان يختلي في الغار لأيام بل أشهر قبل البعثة ويجد ويجتهد في العبادة. نعم، وردت عدّة روايات بهذا الشأن ومنها، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«الْعَزْلَةُ عِبَادَةٌ» [٧٦٥].

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«الْعَزْلَةُ أَفْضَلُ شَيْمِ الْأَكْبَاسِ» [٧٦٦].

وقال عليه السلام أيضاً:

«فِي اعْتِرَالِ ابْنَاءِ الدُّنْيَا جَمَاعُ الصَّلَاحِ» [٧٦٧]

. والحال هنالك بعض الروايات أكدت على الجماعة، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

«أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ» [٧٦٨].

وورد مثل هذا المضمون عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال:

«وَالرُّمُومَا السُّوَادَ الْأَعْظَمَ فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفِرْقَةَ فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّبِّ» [٧٦٩].

فالأحاديث في الموضوعين كثيرة، ويتصور أحياناً تعارضها مع بعضها، والحال، صرحت ذات الروايات بكيفية الجمع بينها. فالذي يفهم من النصوص القرآنية

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٢

والروائية أن العزلة تتم على ضوء بعض الشرائط الإجتماعية الخاصة، والواقع أنها استثناء إزاء حكم كلى بالاجتماع، وقد ورد الحث على العزلة في الأمور التالية:

١. الإبتعاد عن طلاب الدنيا والتي صرحت به الأحاديث المذكورة.

٢. الإبتعاد عن المجتمع الفاسد والمنحرف، كما ورد ذلك في قصيدة إبراهيم وأصحاب الكهف، وقد سئل الصادق عليه السلام عن سبب اعتزاله، فقال:

«فَسَدَ الزَّمَانُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ فَرَأَيْتَ الْإِنْفِرَادَ أَشْكُنُ لِلْفُؤَادِ» [٧٧٠].

٣. حين تكون العزلة بهدف التفكير والتهذيب وإصلاح النفس، كالذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة وتفرغه للعبادة في غار حراء. ولا شك أن الإنسان إذا أفرد بعض الوقت من يومه وليته للتفكير في نفسه ومجتمعه كان لذلك آثاره الطيبة والنافعة.

٤. الإبتعاد عن الأشرار - الذين يشكلون جزءاً من المجتمع - فقد. ورد الحث على الإعتزال عن هؤلاء، وقد روى عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال:

«مَنْ اعْتَرَلَ النَّاسَ سَلِمَ مِنْ شَرِّهِمْ» [٧٧١]

. وإلا ليس هنالك من يسعه التنكر للجماعة التي حظيت باهتمام واسع من أحكام الشريعة السمحاء. والإبتعاد التام عن المجتمع يعنى الإبتعاد عن التجارب والعلوم والمعارف وطاقت أفراد المجتمع، أضف إلى ذلك فإن العزلة على ضوء ما أثبتته التجربة قد تدفع بالإنسان إلى العجب والفخر وإساءة الظن بالآخرين، إلى جانب بعض الإدعاءات الباطلة والفاصلة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٣

الخطبة ١٧٧

إشارة

في معنى الحكمة [٧٧٢]

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في سند الخطبة فقد خاطب الإمام عليه السلام الخوارج الذين ضغطوا بادىء الأمر على الإمام عليه السلام في قبول التحكيم فاضطر إلى الموافقة رغم ممانعته للحيلولة دون الانقسام في صفوف أتباعه ووقوع الحرب الأهلية، ولكن ما إن ظهرت نتيجة التحكيم السلبية أثر خيانه ممثله في تحكيم أبي موسى الأشعري وخداعه من قبل عمرو بن العاص ممثل معاوية حتى اعترضوا على الإمام عليه السلام في قبوله التحكيم. فرد عليهم الإمام عليه السلام بذلك الرد الحاسم في أنكم أنتم الذين أترتم هذه الفتنة وقد حذرتكم فلم ترعوا، والآن حيث ترون سوء اختياركم تعترضون! أضف إلى ذلك أن التحكيم كان مشروطاً لا مطلقاً، وشرطه عدم الإنحراف عن القرآن ولكنهم انحرفوا، وعليه فينبغي الاعتراض عليهم لا على.

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٥

القسم الأول

فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَائِكُمْ عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَجَا عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ، فَتَاهِرَا عَنْهُ، وَتَرَكََا الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ، وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْإِعْوَجَاجُ رَأْيَهُمَا. وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا. وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَا يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ.

الشرح والتفسير: بطلان الحكم بانحراف الحكمة

فصلنا الكلام بشأن الحكمة في الخطب السابقة ولا سيما الخطبة ١٢٥ و ١٢٧ وخلاصته، أنه لما أوشك جيش الشام على الهزيمة، لجأ عمرو بن العاص إلى خدعة، فأمر برفع المصاحف على أسنة الرماح وقولوا: بينا وبينكم القرآن، فما حكم به القرآن رضينا به. أمير المؤمنين عليه السلام حذّرهم من أنها خدعة وأن هؤلاء القوم لا يتبعون القرآن فامضوا في القتال، إلا أن بعض الجهال والمغرضين رفضوا وضغطوا على الإمام عليه السلام في قبول الإحتكام إلى القرآن. لم يستجب لهم الإمام عليه السلام، فأصروا عليه بعد أن اختلفوا، فلم ير الإمام عليه السلام بداً من القبول. ثم أصير هؤلاء القوم على اختيار أبي موسى الأشعري. الإمام عليه السلام الذي كان يعلم بحماقة هذا الرجل وضعف إيمانه، أشار إليهم بآب بن عباس الرجل العاقل العالم المعروف والذي لا يخدع بالأعيب عمرو بن العاص، لكنهم رفضوا وأصروا على اختيار أبي موسى، وهنا

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٦

اضطر الإمام عليه السلام ودفعا للفرقة والانقسام، إلى القبول بعدة شروط، منها، عدم خروج الحكمة عن الحق والعدل. استغرقت المحادثات بين عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، شهوراً عديدة حتى قال ابن العاص: ليخلع كل منّا صاحبه حتى يختار الناس خليفة. فأعلن أبو موسى هذا الجاهل والأحمق - عن خلعه للإمام على عليه السلام من الخلافة، ثم انبرى ابن العاص ليعلن نصبه لمعاوية. فشبّ النزاع بين القوم، وقدم أولئك الذين أصروا على وقف القتال وقبول التحكيم واختيار الأشعري على الإمام عليه السلام

واعترضوا عليه، لم قبلت التحكيم؟ قال الإمام على عليه السلام:

«فَأَجْمَعَ رَأْيُ مَلَئِكُمْ [٧٧٣] عَلَى أَنْ اخْتَارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيْهِمَا أَنْ يُجْعَجَا [٧٧٤] عِنْدَ الْقُرْآنِ، وَلَا يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلْسِنَتُهُمَا مَعَهُ وَقُلُوبُهُمَا تَبَعُهُ»

. فالإمام عليه السلام يشير إلى أن قبول التحكيم وإن حصل بفعل الضغط إلا أنه كان مشروطاً لا مطلقاً دون قيود وشروط بحيث يفعلون ما يشاؤون حسبما تمليه عليهم أهواؤهم ورغباتهم وينبغي أن يقبله الآخرون. فالشرط كان تبعية القرآن وعدم الإنحراف عن تعاليمه، إلا أن الشيء الوحيد الذي غُيب في العملية، إنما كان القرآن، فانطلق الأشعري الأحقق ليتصرف خلاف منطق الحق والعدل القرآني.

ومن هنا قال الإمام عليه السلام مواصلاً كلامه:

«فَتَاهَا [٧٧٥] عَنْهُ، وَتَرَكَ الْحَقَّ وَهُمَا يُبْصِرَانِهِ،

وَكَانَ الْجَوْرُ هَوَاهُمَا، وَالْبِغْوَجُ رَأْيَهُمَا»

. ثم أكد الإمام عليه السلام على شروط التحكيم، فقال:

«وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْنَاؤُنَا عَلَيْهِمَا فِي الْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِمَا وَجَوْرَ حُكْمِهِمَا».

فهل في القرآن الكريم آية تصرح بضرورة خلع شخص كعلى عليه السلام الذي بنى صرح الإسلام بجهاده وتربى في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وكان مظهر الحق

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٧

والعدل من الخلفاء، أم هل هناك من آية تصرح باستخلاف سليل الجاهلية والكفر والظلم والجور الذي لا يخفى مكره وخداعه على أحد، وقد استقطب حوله كل المنافقين والشياطين؟

ثم خالص عليه السلام إلى هذه النتيجة:

«وَالثَّقَّةُ فِي أَيْدِينَا لِأَنْفُسِنَا، حِينَ خَالَفَا سَبِيلَ الْحَقِّ، وَأَتَيَا بِمَا لَأَيُّعُرْفُ مِنْ مَعْكُوسِ الْحُكْمِ»

. وهكذا يرد بحسم على المعترضين:

أولاً، إن قبول التحكيم كان من قبلكم، ثانياً، إن هؤلاء لم يطلق لهم العنان في التحكيم، بل كانوا مأمورين باتباع القرآن والإنصياح لأحكامه لا الإنصياح لأهوائهم. وماداموا لم يلتزموا بالشروط فلا اعتبار لحكمهم، الغريب في الأمر أن الحكيم نفسيهما لم يتفقا في الحكم وسعى كل منهما لخداع الآخر وليضعه أمام حقيقة لا- نقاش فيها، بينما يشترط في التحكيم اتفاق الحكيم على الشروط المطروحة في التحكيم؟

تأمل: تولى الحكيم عن القرآن

صرح الإمام في هذه الخطبة بتجاهل الحكيم للقرآن ومخالفة الحق وهما يبصرانه وقدّموا أهواءهما على الحقيقة وكان ذلك واضحاً، ولو أنّهما فكراً قليلاً في مختلف الآيات القرآنية الواردة بحق على عليه السلام أو تلك التي تبين أصلاً كلياً، والذي يمثل الإمام على عليه السلام نموذج البارز طبق روايات رسول الله صلى الله عليه وآله لما ترددنا لحظة في ترجيحه على شخص كمعاوية بن أبي سفيان أعدى أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد صرح القرآن قائلاً: «إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» [٧٧٦] وهل كان غير الإمام على عليه السلام من تصدق بخاتمه حين ركوعه ونزلت هذه الآية بحقه؟ وقد

روى هذا، عشرة من كبار الصحابة مثل ابن عباس

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٨

وعمار بن ياسر وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبوذر الغفاري وأنس بن مالك وعبد الله بن سلام ومسلمة بن كهيل وعبد الله بن غالب

وعقبه بن حكيم وعبدالله بن أبي، وذكر شرحه في التفاسير العامة.

وهل يساوي شخص بمن نام في فراش النبي صلى الله عليه وآله ليلة المبيت [٧٧٧] وفداه بنفسه فنزلت بحقه الآية الشريفة: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ» [٧٧٨] وهل يتقدم عليه شخص وهو الذي عدّه القرآن الكريم خير البرية [بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» [٧٧٩]. لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أَنْتَ وَشِيعَتُكَ يَا عَلِيُّ خَيْرُ

الْبَرِيَّةِ» [٧٨٠].

وهل ينبغي الاستغراق لشهور، لكي تعلم الأمة الإسلامية أيها أفضل علي أم معاوية؟ حقاً إنها مقارنة عجيبه وجفاء كبير لأمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام في أن يُقرن بمعاوية ويعلم فضله، أين هذا من ذاك وأين الثرى من الثريا؟!
نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٢٩

الخطبة ١٧٨

إشارة

فِي الشَّهَادَةِ وَالتَّقْوَى

وَقِيلَ إِنَّهُ حَطَبُهَا بَعْدَ مَقْتَلِ عُثْمَانَ فِي أَوَّلِ خِلَافَتِهِ [٧٨١]

نظرة إلى الخطبة

أشار الإمام علي عليه السلام بادية الخطبة إلى صفات الله، ومنها، علمه المطلق سبحانه بجميع الأشياء حتى أصغرهما حجماً - كعدد قطرات المطر وذرات التراب - ليعلم الناس أن أعمالهم محفوظة عند الله ولا يخفى عليه شيء من أسرارهم. ثم شهد في القسم الثاني، لله تعالى بالوحدانية ولرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله بالنبوة، وقرن كل بصفاته ليكشف عن عمق تلك الشهادة.

أما القسم الثالث، فقد تحدّث فيه عن خداع الدنيا وعودها الكاذبة التي تمنى بها من تعلق بزخرفها.

وأخيراً حدّر الجميع من أن الذنوب سبب زوال النعم، وأن أياً من الأمم لم تعش

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٠

البؤس والشقاء إلا لارتكابها الذنوب والمعاصي، ومن هنا فقد دعى الجميع لإعادة النظر في أعمالهم وتصرفاتهم فيهبوا لإصلاحها بغية السعادة والفلاح.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣١

القسم الأول

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَغْرُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا، وَلَا مَقِيلِ الدَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَغْلَمُ مَسَاقِطَ الْأَوْزَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ الْأَخْدَاقِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةٌ مِنْ صِدْقَتِ نَبِيِّتِهِ، وَصِفَتْ دِخْلَتُهُ وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَمَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَدُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ وَالْمُضِيءُ لِكِرَائِمِ رِسَالَاتِهِ، وَالْمَوْضُوحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَرِيبُ الْعَمَى

الشرح والتفسير: عظمة الله وكرامة نبيه صلى الله عليه وآله

كما أشرنا سابقاً استهل الإمام عليه السلام خطبته خمس صفات من صفات الله الجمالية والجلالية بعبارات قصيرة وعميقة المعنى فقال: «لَا يَسْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَخْوِيهِ [٧٨٢] مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ»

. هذه الصفات تنبع من ذاته القدسية المطلقة. فالفرد المحدود العلم والقدرة إن خاض في شيء واستعان بعلمه وقدرته، فمن الطبيعي إلّا يسعه التعامل مع عمل آخر، أما الذات المقدسة فهي تدبر عالم الوجود برمته في لحظة واحدة، يسمع سبحانه استغاثته العباد ويعلم بحاجاتهم، وحيث كانت ذاته غنية

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٢

عن الحدود وجامعة للكمالات كافة فليس من سبيل لتغيير تلك الذات، كما أنّ المكان من لوازم محدود الوجود، فتلك الذات المطلقة عن الحدود حاضرة في كل مكان، وفي نفس الوقت هي ليست بحاجة إلى مكان. أضف إلى ذلك فإن صفات الله خارجة عن نطاق وصفنا، فنحن محدودون، والذات وصفاتها ليست محدودة، وليست لنا من قدرة للحديث عن كمالات الله وإن طال بنا الحديث فإننا نعود من حيث ابتدأنا، شننا أم أينا. نعم، له وحده وصف ذاته وكمالاته كما ورد في الحديث: «لَا أَبْلُغُ مَدْحَكَ وَالثَّنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا اثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ» [٧٨٣].

ثم خاض في الصفة الخامسة وهي علمه المطلق حيث ركز على سبعة مواضع خفية تماماً عن الآخرين، فقال: «وَلَا يَغْرُبُ [٧٨٤] عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَلَا نُجُومِ السَّمَاءِ،

وَلَا سَوَافِي [٧٨٥] الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبُ [٧٨٦] التَّمَلِّ عَلَى الصَّفَا [٧٨٧]، وَلَا مَقِيلُ [٧٨٨] الذَّرِّ [٧٨٩] فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ [٧٩٠] الْأَحْدَاقِ».

فالعبارة

«عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ»

تشير إلى قطرات المطر وقطرات ماء البحار والأنهار والآبار والينابيع التي لا يعلمها إلّا الله، كما يعلم عدد نجوم السماء التي يقول العلماء اليوم أنّ مجرتنا فقط تحتوي على ٢٠٠ مليار نجمة، لكن ما عدد النجوم في سائر المجرات التي لا تعد ولا تحصى؟ لا يعلم ذلك إلّا الله. والأدهى من ذلك، ذرات الغبار التي ترتفع في كل آن في أمواج الرياح في كرتنا الأرضية وتنتقل من موضع إلى آخر ولا يعلم بها إلّا الله. ذهب البعض إلى أنّ المراد من ديب النمل، الأصوات

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٣

التي تصدر عن وقع أقدام النمل على الحجر، والذي يصعب إدراكها بأيّة وسيلة متطورة، إلّا أنّ الله عالم بكل ذلك، كما يعلم بمخادعها، والمراد، جميع النمل في نقاط العالم كافة.

وتشير العبارة

«يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ»

إلى موضع سقوطها في أنحاء الكرة الأرضية كافة حيث يسقط في كل لحظة ما لا يعد ولا يحصى من الأوراق في البساتين والحدائق وأعالى الجبال وأعماق الوديان ولا يعلم ذلك إلّا الله، كما يعلم عدد أطباق أجفان عيون الناس والحيوانات وكل ذى عينين. أجل، لا

يخفى عليه شيء من الكليات ولا- الجزئيات في عالم الوجود بأسره، وكفى الإنسان تربيته وأدباً، إيمانه بهذا الإله، كفاه أن يعلم أن العالم حاضر بأسره لدى الله وهو عليم بظاهرها وباطننا، ومن هنا ورد في القرآن «وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [٧٩١]. ثم شهد لله بالوحدانية، فليس سوى الله تعالى أهل للعبودية: «وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ [٧٩٢] بِهِ، وَلَا مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلَا مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلَا مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ»

. وهكذا ينفي الإمام عليه السلام كل أنواع الشرك والشك والكفر بالآيات التكوينية والتشريعية، بعبارة أخرى ينفي كل شبيه وشريك لله ثم يخوض في الشك في ذاته المقدسة وأفعاله التشريعية والتكوينية ويقول: ليس من سبيل للشك في دينه ولا في خالقيته وربوبيته في عالم التكوين، ثم قال:

«شَهَادَةٌ مِنْ صَدَقَتْ نَيْتُهُ، وَصَفَتْ [٧٩٣] دَخَلَتْهُ [٧٩٤] وَخَلَصَ يَقِينُهُ، وَتَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ».

إشارة إلى أن هذه الشهادة لذات الحق وصفاته شهادة من اتصف بهذه الصفات الأربع: صدق نيته وطهاره قلبه من الشرك والرياء وبعد يقينه عن الريه والشك

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٤

وتكشف أعماله عن عمق إيمانه بالله، وهي ليست كشهادة المنافق أو الطامع بالمال والجاه، ولا ذلك الذي خلط إيمانه بالشك، ولا ذلك الذي يتحدث عن الإيمان ولا يبادر العمل الصالح.

ثم أردف شهادته لله بالوحدانية بالشهادة لمحمد صلى الله عليه وآله بالرسالة وبعنه بست صفات، فقال:

«وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى مِنْ خَلَائِقِهِ، وَالْمُعْتَمَّ [٧٩٥]

لِشْرَحِ حَقَائِقِهِ، وَالْمُخْتَصَّ بِعَقَائِلِ [٧٩٦] كَرَامَاتِهِ وَالْمُصْطَفَى لِكِرَائِمِ رِسَالَتِهِ،

وَالْمَوْضَعَهُ بِهِ أَشْرَاطُ الْهُدَى وَالْمَجْلُوبُ بِهِ غَزِيْبُ [٧٩٧] الْعَمَى .

الصفة الأولى التي ورد الحديث فيها عن صفته التي سببت اختياره للرسالة.

والصفة الثانية، وظيفته في شرح حقائق الدين والعقائد الصحيحة. وتطرق في الصفة الثالثة، إلى مكارم خلقه، والصفة الرابعة، في وظيفته المهمة في بيان الأحكام، والصفة الخامسة، هدايته صلى الله عليه وآله عن طريق قوله وفعله وإمضائه العملي. وتحدث في الصفة السادسة، عن جهوده في محاربة الجهل والذي عبّر عنه بالعمى. وتشير هذه الصفات إلى أني لم أشهد اعتباطاً بنبوته وأنقاد لإمامته.

تأملان

١. مشكلة الصفات

كما ورد في كلمات الإمام عليه السلام العميقة المعنى فإن الذات القدسية تتجاوز الحدود والزمان والمكان ولها إحاطة علمية تامة بكل شيء في عالم الوجود. نعم، فالعالم بأسره حاضر عند الله وله حضور في كل مكان دون أن يضمه مكان. وإن صفاته الجمالية والجلالية وإن منحتنا معرفة عميقة، إلا أنه لا بد من الاعتراف بأنه خارج

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٥

عن وصفنا. أحياناً تبدو تعبيراتنا بشأن الذات لغز ونوع من التناقض، إلا أن حل هذا اللغز يمكن في الالتفات إلى نقطة وهي أن وجوده مطلق ولا متناه من جميع الجهات، فليس له من بداية ولا نهاية ولا حد محدود. وإن تصور هذا الموجود للانسان المحدود من جميع

الجهات يبدو مستصعباً، ولكن على كل حال لا تحل قضية الصفات الإلهية دون الالتفات إلى ذلك الأمر. فإن قلنا إنه عالم بكل شيء حتى بذرات الغبار التي تتعلق بالهواء، فذلك لأنه حاضر في كل مكان، وقلنا إنه حاضر في كل مكان بمعنى أن وجوده غنى عن الحدود ومحيط بكل شيء. وإن قلنا ليس له مكن زمان أو مكان، ذلك لأن الزمان يأتي من الحركة والمكان بواسطة محدودية الإنسان، وليس للوجود المطلق من حركة نحو النقص أو الكمال، وحيث هو غنى عن كل شيء فلا حاجة به إلى مكان. وخلاصة الكلام إذا أردنا معرفة الله فإن علينا أن ننفي جميع صفات المخلوقات التي تنبع من الحاجة والمحدودية عن تلك الذات المقدسة.

٢. أهداف بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله

تضمنت آيات القرآن الكريم والروايات وخاصة نهج البلاغة، الكثير من الكلمات بشأن هدف بعث الأنبياء ولا سيما نبي الإسلام صلى الله عليه وآله، ومن ذلك، العبارات العميقة التي أوردتها الإمام عليه السلام في هذه الخطبة. فقد بين الإمام عليه السلام أن أحد أهداف رسالة النبي صلى الله عليه وآله شرح الحقائق والتي يمكن أن يراد منها كل حقيقة أو حقائق مرتبطة بالمبدأ والمعاد وأصول العقائد، إلى جانب بيان القيم الخلقية كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» [٧٩٨].

والهدف الآخر، بيان الرسالات السماوية في الأحكام الدينية وكشف علامات الهداية وأخيراً طرح حجب الجهل والعمى عن قلوب الناس وأبصارها. فهو معلم عظيم ومرتب رباني ومرشد خبير.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٧

القسم الثاني

أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤْمِلَ لَهَا وَالْمُخْلِذَ إِلَيْهَا، وَلَمَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا. وَإِيْمَ اللَّهُ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضٍّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ «اللَّهُ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ». وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزَلُ بِهِمُ النَّفْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَزَعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَاتِهِمْ، وَوَلَهُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ سَارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ. وَإِنِّي لَأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةٍ. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتَمٌ فِيهَا مَيْلَةٌ، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَكِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعْدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ!

الشرح والتفسير: صدق النبي مع الله

خاطب الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة الناس كافة وذكرهم بأربع نقاط مهمّة، لها بالغ الأثر في حياة الناس، فقال في النقطة الأولى

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيَا تَغُرُّ الْمُؤْمِلَ لَهَا وَالْمُخْلِذَ إِلَيْهَا، وَلَمَا تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيهَا، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا»

. لما كان حبّ الدنيا كما ورد في الحديث رأس كل خطيئة فقد شرع الإمام عليه السلام بحبّ الدنيا. الجدير بالذكر أنه لم يرد ذم لمن حصل على الدنيا بل على

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٨

أولئك الذين يتهافتون على الدنيا ويتعلقون بزخارفها. وقد تغر زخارف الدنيا أولئك المتكالبين عليها حتى يظنون بأن كل شيء خالد فيها، إلا أنهم يرون فجأة زوال كل شيء بفعل حادثه أليمة، على سبيل المثال، فإن زلزلة لا تستغرق بضع ثوان تضرب المدينة فتقضي

على ما فيها ومن فيها، نعم ربّما يفوق لمدّة وسرعان ما يعود إلى سبات الغفلة.

ثم أشار إلى النقطة الثانية فقال كقاعدة كلية:

«وَأَيُّمُ اللَّهِ، مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عَضِّ [٨٠١] نَعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَرَّالٍ عَنْهُمْ إِلَّا بَدُّنُوهُ اجْتَرَحُوا [٨٠٢]، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ». والواقع أنّ هذه العبارة اقتباس من الآية الشريفة: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ» [٨٠٣] والآية: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [٨٠٤]. طبعاً، نعم الله تقسّم على العباد حسب استعدادهم وأهليتهم، ومن هنا يستحقها الصالحون الطاهرون لا الآثمون الملوثون.

سؤال: ورد في بعض الروايات أنّ الله يتلى أوليائه بأنواع البلاء كما جاء في الخبر «البلاء للولاء» [٨٠٥] لرفع مقام أوليائه، كما يستفاد من بعض الروايات أنّ البلاء قد يكون امتحاناً للمؤمن وأخرى تحذيراً وإيقاظاً للعباد، أفلا يتنافى هذا وما ورد في عبارة الإمام؟

الجواب: ما ورد في كلام الإمام عليه السلام قانون كلّى ونعلم أنّ لكل قاعدة شواذ، فموارد الامتحان والإيقاظ وأمثال ذلك استثناءات من تلك القاعدة الكلية والقانون

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٣٩

العام، وبعبارة أخرى عبارة الإمام عليه السلام تحمل على الغالب وهذا شبيه ما ورد في القرآن: «وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ» [٨٠٦] قطعاً، ليس هناك من منافاة بين هذه الآية، والآية: «وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ...» [٨٠٧] التي تتحدث عن مختلف الإمتحانات الإلهية بواسطة البلاء، وكذلك الآية: «ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [٨٠٨] ولعل الإنسان إذا تأمل قليلاً لأمكنه التعرف على الموارد التي يكون البلاء فيها جانب العقاب والجزاء أو الامتحان والتحميص والتحذير. فإن بدرت منه معصية أو قارف المجتمع أنواع الفساد وأصابته بعض الحوادث المريرة فإنّ ذلك عقاباً؛ أمّا الحوادث المريرة التي تطيل الصالحين فهي تمحيص يهدف إلى رفع مقامهم.

ثم خلاص الإمام عليه السلام إلى نتيجة فقال:

«وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينٍ تَنَزَّلُ بِهِمُ النَّعْمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمْ النَّعْمُ، فَرِعُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِّنْ نِّيَاتِهِمْ، وَوَلَّهِ [٨٠٩] مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ [٨١٠]، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلُّ فَاسِدٍ»

. عادة ما يعتمد هذا الطبيب الرباني الماهر إلى وصف العلاج بعد ذكر المرض، ويعلم الناس سبيل دفع المكروه والبلاء، ويرى أنّ الدعاء إن كان صادقاً وخارجاً من أعماق القلب بمعنى تحدث حالة من التغيير لدى الإنسان فإنّه يدفع البلاء كما ورد ذلك في العديد من الروايات، ومنها ما روى عن الإمام السجاد عليه السلام أنّه قال:

«الدُّعَاءُ يَدْفَعُ الْبَلَاءَ النَّازِلَ وَمَا لَمْ يَنْزِلْ» [٨١١].

ثم أشار إلى النقطة الرابعة التي بينها سابقاً على نحو العموم فقال:

«وَأَيُّمُ اللَّهِ»

نقحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٠

لَأَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فِتْرَةِ [٨١٢]. وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَّضَتْ مِلْتَمٌ فِيهَا مَيْلَةً، كُنْتُمْ فِيهَا عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَكِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسَعْدَاءُ. وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ! . أمّا مراد الإمام عليه السلام من هذه الإشارة المطلقة إلى بعض انحرافاتهم، فقد قيل إنّه أشار قضية عثمان وحكومته التي فوّضت إليه من جانب شوري عمر الظالمة بعد أن سلبتها من أولى الناس بها (علّي)- والذي أثبتت الحوادث اللاحقة هذه الحقيقة- وقد سلمتم لتلك الحكومة، وورود الخطبة بعد مقتل عثمان في أوائل خلافة الإمام عليه السلام شاهد على هذا المعنى. لكن الاحتمال الأكبر أنّه إشارة إلى جميع الخلفاء والأحداث المريرة التي رافقت الخلافة. ومراده من العبارة »

وَلَوْ أَشَاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ»

، أى لو أردت أن أكشف النقاب عن هذه الأحداث الأليمة لاستطعت، لكننى أغض النظر عنها وأسأل الله أن لا يؤاخذكم ويعفو عن تقصيركم [٨١٣].

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤١

الخطبة ١٧٩

إشارة

وَقَدْ سَأَلَهُ ذِعْلِبُ الْيَمَانِيُّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبِّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَفَأَعْبُدُ مَا لَأَرَى فَقَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ فَقَالَ: [٨١٤]

نظرة إلى الخطبة

يدور محور الكلام حول صفات الله ويؤكد هذا المعنى: إن تعذرت رؤية الله بالعين فإنه يمكن مشاهدته من خلال قبسات صفاته بالبصيرة.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٣

القسم الأول

فقال: لَاتُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرَ مُلَابِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبَايِنٍ. مُتَكَلِّمٌ لِمَا بَرَوِيهِ، مُرِيدٌ لِمَا بَهَمَهُ، صَائِعٌ لِبِجَارِحِهِ. لَطِيفٌ لَأُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَأُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَأُوصَفُ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لَأُوصَفُ بِالرَّفَقَةِ. تَغْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ.

الشرح والتفسير: هل رأيت الله؟

يستفاد من مختلف الروايات فى سيرة أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال مراراً:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»

، فقد أعرب عن استعداده للإجابة عن كل سؤال يتعلق بدين الناس وديانهم، وقد كُتِر هذه العبارة حتى حين التقى الناس وهو على فراش الموت بعد ضربه ابن ملجم. وحين وُلِّي عليه السلام الخلافة خطب فقال:

«سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي»

وأكد بهذا المعنى بأنه أعلم بآيات القرآن فيم نزلت وأين نزلت وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ومحكمها. فقام ذعلب اليماني وكان رجلاً شجاعاً وبلغاً فسأله السؤال المذكور وأجابه الأمير عليه السلام [٨١٥] فقال:

«أَفَأَعْبُدُ مَا لَأَرَى»

بمعنى أن العبادة فرع من المعرفة والمعرفة درجات أرفعها درجة الشهود، وقد التفت الإمام فى كلامه عليه السلام إلى مرحلته العبادية الرفيعة التى تترافق مشاهدة الذات المقدسة، ذعلب غرق فى التفكير فى أن مراد الإمام عليه السلام هنا أية رؤية؟ هل الرؤية الحسية التى

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٤

يقول بها أم المجسمة؟ أم الرؤية الروحية والمعنوية التي تفوق الرؤية العقلية؟ لذلك أردف سؤاله بسؤال آخر فقال: «وَكَيْفَ تَرَاهُ؟»

هل هذا سؤال واستفهام لكشف الحقيقة أم نوع من الإنكار والجدال؟ الجواب عن هذا السؤال يتوقف على تقييمنا لذعلب، فإن كان من أصحاب الإمام عليه السلام فلا شك في أن سؤاله كان لمعرفة الحقيقة، وإن كان أنساناً طائشاً، كما يستفاد من بعض روايات المارة- فإن سؤاله يستند إلى الإنكار والجدال. على كل حال أجابه الإمام عليه السلام بما يميظ اللثام عن بعض الحقائق وقد أثر جوابه بالجميع بما فيهم ذعلب، حيث نفهم على قدر مطالعتنا أنه أصيب بالذهول عندما فرغ الإمام من الكلام. فقد قال عليه السلام:

«لَا تُدْرِكُهُ الْعَيْنُونَ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ»

. المراد من حقائق الإيمان، الأصول العقائدية والمعارف الحقّة. ولتوضيح هذا الكلام ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة وهي أن المشاهدة على ثلاثة أنواع:

١. المشاهدة الحسية التي تتم بالعين، وأحياناً تزود هذه العين ببعض الأجهزة كالمجهر والتلسكوب.
٢. المشاهدة العقلية التي يبلغها عن طريق الاستدلال به فيرى الحقائق ببصيرة كالشمس من قبيل- ما ذكره المرحوم مغنية في شرح نهج البلاغة- مشاهدة نيوتن لقانون الجاذبية الذي يستحيل رؤيته بالعين أثر مشاهدته لسقوط التفاحة من الشجرة على سطح الأرض.
٣. الشهود الباطني وهو نوع من الإدراك الباطني لكن ليس الاستدلال.

فالإنسان يرى ببصيرته الواقع الموجود ويؤمن به دون الحاجة إلى الاستدلال ويبدو فهم هذا الإدراك والرؤية صعباً ما لم يبلغه الإنسان، ولهذا الموضوع نماذج كثيرة في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، فقد ورد في آية بشأن إبراهيم: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [٨١٦]. وبشأن يعقوب حين انطلق إخوة يوسف

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٥

بقميصه، فقال: «إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تَفَنَّدُونِ» [٨١٧] والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين حفر الخندق قبيل شروع معركة الأحزاب لما ضرب الحجر ثلاث مرات وزف البشارة لصحبه بفتح قصور كسرى وقصر وقصور صنعاء في اليمن [٨١٨]. وقد أخبر على مراراً في نهج البلاغة عن المستقبل، وكان يقول في بعض المواقع، كأتى أرى جماعة ستفعل كذا وكذا، بل نال بعض المؤمنين المخلصين هذا الكشف والشهود.

ومعروفه هي قصّة ذلك الفتى الذي قال للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

«كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ، يَنْتَعِمُونَ فِيهَا الْجَنَّةِ ... كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ وَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ»

. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه:

«هَذَا عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ بِالْإِيمَانِ» [٨١٩]

. وسائر الموارد التي تستحق كتاباً مستقلاً في الكشف والشهود، والتي تدل جميعاً على وجود شهود آخر يفوق الشهود الحسي والعقلي [٨٢٠].

ثم بين الإمام عليه السلام إحدى عشرة صفة من صفات الله وأسمائه الحسنى، وقد قرن تسعة منها بعبارات تنفي عنه صفات المخلوقات لتوضيح هذا المطلب في كيفية إدراك القلوب لله بحقائق الإيمان فقال في الصفة الأولى والثانية:

«قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَابِسٍ [٨٢١]، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ»

. ذكرنا مراراً أن مشكلتنا في فهم صفات الله هي الإنطلاق من صفات المخلوقات والممكنات التي تعيقنا عن إدراك صفات الله ما لم

نبتعد عنها، مثلاً في هذين الوصفين حين نقول: الله قريب، يتراءى لنا سىء مثل

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٤٦

قرب جسمين من بعضهما يقعان في مكانين حسيين، وعندما نقول: الله بعيد يتداعى لنا جسمان بعيدان عن بعضهما وانفصالهما، والحال، بعدهما وقربهما ليس كذلك، فهو قريب من كل شىء، بمعنى إحاطته التامة بجميع الموجودات، وبعيد بمعنى تنزهه كبريائه عن أدناس المكان وصفات المخلوقات الناقصة.

وقال في الصفة الثالثة والرابعة:

«مُتَكَلِّمٌ لِّأَبْرَوِيَّةٍ [٨٢٢]، مُرِيدٌ لِّأَبْهَمَةَ [٨٢٣]»

. وإن طرح موضوع الكلام والإرادة يتبادر إلى أذهاننا إن الشخص يجيد لغة معينة ويفكر في مطلب ثم يصوغه في إطار كلمات وعبارات، ثم يستعين بلسانه وشفثيه ليوصل صوته المنطلق من حنجرته إلى الآخرين، وهكذا الأمر بالنسبة للإرادة في أن يفكر المرید مسبقاً ويتأمل صلاح الشىء من فساده ثم يعزم على القيام بالعمل وأمر الجوارح والأعضاء بالتنفيذ. قطعاً إن أياً من هذه الأمور لا تصدق على الله، فهو ليس بجسم وليس له أعضاء وجوارح وليس بحاجة إلى التفكير. فكلامه ليس سوى خلق الموجات الصوتية في الفضاء كتلك الأمواج التي سمعها النبي موسى عليه السلام من الشجرة، وإرادته ليست سوى علمه بالمصالح والمفاسد. وهذه الحقيقة صادقة تماماً على الصفات السبع الأخرى ومن هنا اعتبر الإمام عليه السلام أن أفضل طريق لمعرفة الله، نفى صفات المخلوقات عنه، فقال:

«وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ» [٨٢٤].

وقال في الصفة الخامسة:

«صَانِعٌ لِّأَبْجَارِحَةٍ»

نعم، إن أمره إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون، وله أن يخلق عالماً واسعاً ومترامياً كعالمنا فيقول له كن فيكون ولا يحتاج إلى وسائل وأدوات وأجزاء كالإنسان.

وقال في الصفة السادسة والسابعة:

«لَطِيفٌ لِّأَبْوَصْفٍ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لِّأَبْوَصْفٍ بِالْجَفَاءِ»

، لشراح نهج البلاغة وعلماء الكلام أحاديث مسهبة في باب صفات الله ومنها صفة اللطيف، فذكروا لها عدّة معانٍ، فتارة فسّروه بالخفي، وأخرى بخالق الأشياء الظريفه وأخيراً ذو اللطف والحب، ولله كل هذه الصفات، إلّا أنّ المعنى الأول أنسب، أى أن الذات المقدسة ظريفه الخفاء، لكن لا بمعنى الخفاء عن العباد،

نقحات الولاية، ج ٤، ص: ٤٤٧

ذلك لأن آثاره ملأت أركان العالم وتجلت فيه جميع الموجودات، والعبارة

«لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ»

إشارة إلى عظّمته، لكن ليست كعظمه الطواغيت والجبابرة الممزوجة بالظلم والجور والجفاء، كما قال القرآن الكريم في أواخر سورة الحشر:

«الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ».

وقال في الصفة الثامنة والتاسعة:

«بَصِيرٌ لِّأَبْوَصْفٍ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لِّأَبْوَصْفٍ بِالرَّقَةِ»

. فإن قلنا: فلان بصير، تبادر إلى الذهن بسرعة العين التي يبصر بها، وحين يقال: فلان رحيم تتداعى شفقه قلبه ورقته، والحال، هذه

الصفات الممكنات والموجودات الجسمانية والله أسمى من ذلك. فبصره سبحانه بمضى علمه بالموجودات كافة التي ترى بالعين ورحمته بمضى لطفه وعطائه لعباده، وإن مثل هذه الصفات مركبة من النقص والكمال، والله كمالها ونزاهته من نقصها.

وقال في الصفتين الأخيرتين:

«تَعْنُو [٨٢٥] الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ [٨٢٦] الْقُلُوبُ مِنْ

مَخَافَتِهِ»

. إشارة إلى أنه رغم لطفه ورحمته، إلا أن ذلك لا يعنى جراءة العباد على الذات من خلال التشبث بتلك الصفات، بل لا بد من خشية عقابه إلى جانب الأمل بلطفه ورحمته. ومن هنا قال القرآن بشأن المؤمنين: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» [٨٢٧]. ونعلم جميعاً بأن تعادل الخوف والرجاء من شأنه الأخذ بيد الإنسان إلى السمو والكمال.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٤٩

الخطبة ١٨٠

إشارة

في ذمّ العاصين من أصحابه [٨٢٨]

نظرة إلى الخطبة وسبب الورود

يستفاد من كتاب (الغارات) للثقفى، أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين أتاه رسولا محمد بن أبى بكر لنجدته قبل قتاله مع عمرو بن العاص في مصر، فدعى الإمام عليه السلام الناس إلى المسجد وأخبرهم بالأمر، إلا أنه لم يستعد للجهاد سوى نفر قليل. ثم بعث، ليلاً، إلى أشرف الكوفة ودعاهم إلى دار الإمارة، وكان حزينا، لأنه كان يعلم بعمق الخسارة في ظهور ابن العاص وأعوان معاوية على مصر. فعرض بالدم في هذه الخطبة لصحبه العاصين وناشدهم دفع فتنة عمرو بن العاص عن مصر.

ويتضح مما قيل أن مضمون الخطبة ذم لترك الجهاد وحث على جهاد العدو إلى جانب العواقب الوخيمة للوهن والضعف.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥١

القسم الأول

أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِيعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنَّ أُمَّهَاتِكُمْ خُضَّتُمْ، وَإِنْ خُورِبْتُمْ خُرْتُمْ وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِثْتُمْ إِلَى مُشَاقَّةٍ نَكَصْتُمْ. لَأَيُّا لَغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوِ الدَّلُّ لَكُمْ؟ فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيَفْرَقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

الشرح والتفسير: الجهاد أو الموت والعار

إستهل الإمام عليه السلام الخطبة كسائر أغلب الخطب بحمد الله والثناء عليه، وقال:

«أَحْمَدُ اللَّهِ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ابْتِلَائِي بِكُمْ»

. لشراح نهج البلاغة عدّة تفاسير في المراد بالقضاء والقدر في هذه العبارات هل له معنى واحد ويشير بأجمعه إلى المقدرات الإلهية،

أم له معنيان؟ قال البعض: كلاهما بمعنى واحد، وقال الآخر: القضاء يتعلق بخلق عالم الأمر والعقول يعنى عالم ماوراء الطبيعة، والقدر إشارة إلى عالم الخلق أى عالم الطبيعة. وأحد التفاسير الواضحة للقضاء والقدر- والذى تؤيده الآيات والروايات- أن القضاء سواء فى عالم التكوين أو عالم التشريع يشير إلى أمر الله بأصل وجود الشىء، ويشير القدر بحجمه وأجزائه وشرائطه، مثلاً، شخص يأمر ببناء مسجد أو مستشفى فهذا مصداق للقضاء، ثم يبين متطلباته، وهذا هو القدر. فأمر الله بالصلاة والصوم فى عالم

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٢

التشريع، القضاء، وأمره بالنسبة لأجزائه وشروطه، قدر.

النقطة الأخرى فى كلام الإمام عليه السلام حمده الله على ابتلائه بأصحابه العاصين. ذلك لأن أولياء الله المسلمون لأمره ويرون كل ما ينالهم منه حسناً جميلاً.

ثم خاطب عليه السلام الحاضرين فى المجلس من زعماء قبائل الكوفة فقال:

«أَيُّهَا الْفِرْقَةُ الَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطْعِ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ. إِنَّ أُمَّهَلْتُمْ خُضْتُمْ [٨٢٩]، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُزْتُمْ [٨٣٠] وَإِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ [٨٣١] إِلَى مُشَاقَّةٍ [٨٣٢] نَكَصْتُمْ [٨٣٣]»

. فقد أشار إلى أربع نقاط لضعف الناس تجاهه: المعصية وعدم الإهتمام بالدعوة وتضييع الفرصة والضعف فى ميدان القتال، ولا شك أن كل واحدة تكفى لأن تكون سبباً للهزيمة فضلاً عن اجتماعها. ثم ويختم بنوع من الحب، فقال:

«لَا أَبَا لِعَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ وَالْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ؟ الْمَوْتُ أَوْ الدَّلُّ لَكُمْ؟» [٨٣٤].

إشارة إلى أن الوضع الذى أنتم عليه- إزاء العدو الماكر كعماوية وجيشه والذى يتسم بالضعف وعدم الإكتراث- ليس له من نتيجة سوى الموت أو الذل، وإن بقيتم أحياء فالذلة لهؤلاء، العز فى الجهاد ونتيجته النصر أو الشهادة، كما قال الإمام عليه السلام:

«الْمَوْتُ فِي حَيَاتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَيَاءُ فِي مَوْتِكُمْ قَاهِرِينَ» [٨٣٥].

ثم قال:

«فَوَاللَّهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلِيَأْتِيَنِي - لَيَفْرَقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأَنَا لَصُحْبَتِكُمْ

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٣

قَالَ [٨٣٦]، وَبِكُمْ عَيْرٌ كَثِيرٌ»

. فقد لفت الإمام عليه السلام انتباههم إلى قضية مهمّة وهى أن وجودى سند عظيم لكم فعوا ذلك. واعلموا إن ميت فسوف لن أخسر شيئاً سوى جيش لا إرادته له، بينما ستخسرون أنتم كل شىء وستفقدون قائداً شجاعاً وآمراً لا يقهر.

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٥

القسم الثانى

لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَّا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَمَّا حَمِيَّتْ تَشْحَدُكُمْ! أَوْلَيْسَ عَجَباً أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاءَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفْرُقُونَ عَنِّي وَتَحْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟ إِنَّهُ لَمَّا يُخْرِجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِى رِضَى فَتَرْضُونَهُ، وَلَا سُخْطَ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ؛ وَإِنْ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ! قَدْ دَارَسْتُمْ الْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُمْ الْجِجَاعَ، وَعَرَفْتُمْ مِمَّا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّعْتُمْ مِمَّا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ! وَأَقْرَبُ بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَاتِدُهُمْ مُعَاوِيَةَ! وَمُؤَدِّبُهُمْ ابْنُ النَّبَاغَةَ!

الشرح والتفسير

واصل الإمام عليه السلام عرضه بالدم لأولئك الضعاف من أصحابه في الامتثال لأوامره:
«لِلَّهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ! وَلَا حِمِيَّةً [٨٣٧] تَشْحَدُكُمْ [٨٣٨]!».

إشارة إلى أن الوقوف بوجه العدو والدفاع عن الأهداف المقدسة يتطلب أحد العنصرين: أحدهما الإيمان بالله ويوم الجزاء ووعدده للمجاهدين والشهداء أو الدفاع القومي الوطني، وللأسف ليس فيكم أى من هذين العنصرين، فدينكم وإيمانكم ضعيفان وليس فيكم من دافع أو هاجس لحب الوطن، ولذلك توانيتم حتى شئت

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٦

عليكم الغارات وداهمكم العدو.

ثم قارن الإمام عليه السلام بينهم وبين أصحاب معاوية فقال:

«أَوْلَيْسَ عَجَبًا أَنْ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو الْجُفَاءَ [٨٣٩] الطَّعَامَ [٨٤٠] فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلَا عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكُهُ [٨٤١] الْإِسْلَامَ، وَبَقِيَّةَ النَّاسِ - إِلَى الْمَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ، فَتَفْرَقُونَ عَنِّي وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ؟»

. فهنا سؤالان جديران بالاهتمام، الأول أن معاوية معروف في البذل والعطاء السياسى الهادف، فكيف يقول الإمام عليه السلام إن معاوية لا يقدم للأفراد معونة ولا عطاء؟ أجب بعض شراح نهج البلاغة عن هذا السؤال بأنه كانت لمعاوية مساومات سياسية مع زعماء القبائل وقادة الجيش فكان يصدق عليهم الأموال الطائلة دون الالتفات إلى الناس، أما الإمام على عليه السلام فكان يقسم أموال بيت المال بالتسوية على الناس بمنتهى العدل والقسط ويقدم التكاليف الحربية لجميع المقاتلين.

والثانى: لم عتياً معاوية الناس بتلك الطريقة من توزيع الأموال، بينما لم يتعبأ الناس لأمر المؤمنين عليه السلام رغم تعميمه العطاء والمعونة على أساس العدل؟ ولا تبدو الإجابة عن هذا السؤال صعبة، فإضافة إلى ضعف أهل الكوفة وغدرهم كان هناك وفاء أهل الشام وانصياع الأفراد لزعماء قبائلهم الذين كان يرشيهم معاوية بالأموال، ولكن زعماء القبائل كانوا يشعرون بعدم الرضا من تسوية الإمام عليه السلام بينهم بالعطاء، فلم يكونوا يعبئون أفراد قبيلتهم.

ثم ذم الإمام عليه السلام فرقتهم واختلافهم فقال:

«إِنَّهُ لَيُخْرِجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضَى فَرَضُونَهُ، وَلَا سُخْطَ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ».

ويبدو تفسير هذه العبارة واضحاً رغم اختلاف الشراح في تفسيرها فالإمام عليه السلام

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٧

يريد أن يقول إنكم دائماً تحثون الخطى باتجاه التشنت والفرقة وليس هناك ما يوحد كلمتكم، لا العناصر التى ترضيني ولا النواهي عن الأمور التى تغضبني، والفرقة هى أهم عوامل فشلكم، فأنتم لا تمثلون لأوامرى ولا تنتهون بنهيبى، كما يحتمل أن يكون مراد الإمام عليه السلام أنكم تجتمعوا على ما يخالف رغبتكم أو يطبقها، كمن يقول للمريض انك لا تتناول الدواء المر ولا الحلوى، أى إن لم تقبل الأول فاقبل الثانى، كحد أدنى. ثم تشتعل النار فى قلب الإمام عليه السلام بعد ذلك الذم والتوبيخ فيقول:

«وَإِنْ أَحَبَّ مَا أَنَا لَاقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ!»

. حقاً إنها لفاجعة أن تبلغ الحالة درجة يتمنى معها هذا الجبل الشامخ الذى يفيض صبراً وتحملاً الموت. نعم أحياناً يصيب الإنسان من صحبه الغدرة الفجرة ما لا يصيبه من أعدائه وهنا يتمنى الإنسان الموت، الموت الذى يفرق بينه وبين مثل هؤلاء الأفراد الناكرين للجميل المنحرفين عن الحق.

ثم تطرق الإمام عليه السلام إلى أياديه الثقافية والتربوية لأمة الإسلاميه سيما بالنسبة لصحبه فأشار إلى أربعة مواضع مهمه فقال:

«قَدْ دَارَ شُكُّكُمْ [٨٤٢] الْكِتَابَ»

. طبعاً القرآن كان بأيدي المسلمين يتلونه أثناء الليل والنهار ولم تكن هنالك من حاجة لتدريس الإمام عليه السلام، فالمراد فهم مضمون القرآن الكريم وسبر أغواره والوصول إلى مفاهيمه حيث يعتبر الإمام عليه السلام المفسر الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فكان يفسر للناس آيات القرآن ويستشهد بها في أغلب خطبه، ثم تطرق إلى خدمته الثانية للأمة فقال:

«وَفَاتَحْتُكُمْ الْحِجَابَ [٨٤٣]»

. أى علمتكم الأدلة العقلية كحجة شرعية بعد الأدلة النقلية.

وقال في الخدمة الثالثة:

«وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ»

فقد كشفت لكم الغطاء عن مكنون كثير من الحقائق الخافية عليكم وكنتم تجهلونها، كما يمكن أن يكون لهذه العبارة مفهوم آخر هو انكاركم لبعض المسائل واتخاذكم مواقف أخرى منها بفعل نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٨

جهلكم، وعرفتكم حقيقتها لتقلعوا عن انكاركم، وأخيراً

«وَسَوَّغْتُكُمْ [٨٤٤] مَا مَجَّجْتُمْ [٨٤٥]»

. فهنالكَ الكثير من المفاهيم التي لم تبلغوا عمقها وحقيقتها، ومن هنا كنتم تمجون هذه المفاهيم وتتعدون عنها، إلّا أنى كشفت لكم عن أسرارها لتصبح لديكم كالماء الزلال.

ثم أعرب عن أسفه عن سذاجة مخاطبيه فقال:

«لَوْ كَانَ الْأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوْ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!»

. فأنا لم أقصر في تربيتكم وتعليمكم، وقد بنيت لكم كل ما ينفعكم، ولكن ليس لديكم من استعداد وكان بذور علمي وتربيتي وحكمتي قد صادفت أرضاً قاحلة.

ثم اختتم عليه السلام خطبته بإبراز تعجبه قائلاً:

«وَأَقْرَبُ [٨٤٦] بِقَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ بِاللَّهِ قَائِدُهُمْ

مُعَاوِيَةُ! وَمُؤَدَّبُهُمْ ابْنُ النَّابِغَةِ [٨٤٧]!»

. جاء في الرواية أن الإمام عليه السلام قال هذه العبارة مع إضافات حين مرّ بجماعة من أهل الشام كان فيهم الوليد بن عقبة، المعروف بشرب الخمر وقد أقيم عليه الحد، حين سمعه البعض قد شتم الإمام عليه السلام فهتموا به ونهاهم الإمام عليه السلام [٨٤٨].

تأملان

١. الفرق بين المعونة والعطاء

قال الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة إن معاوية لم يقدم لأتباعه معونة ولا عطاءً

نفحات الولاية، ج ٦، ص: ٤٥٩

(طبعاً، المراد الأفراد العاديون، وإلّا فإن شراءه لزعماء القبائل بواسطة الأموال الطائلة ما تناقلته كتب التاريخ). والفارق بين المعونة والعطاء، إلّا أن العطاء شيء من قبيل المرتبات الرسمية والمعونة ما يقدم من منح ومساعدات لإعداد السلاح أو الدابة للقتال.

٢. الخدمات الثقافية الأربع للإمام عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام في الخطبة المذكورة إلى أربع من خدماته لصحبه، وأجزها في: تعليم كتاب الله، القرآن الكريم، والثانية، تعريفهم بالأدلة العقلية والبراهين الجلية، والثالثة، تعليمهم ما كانوا يجهلونه وكشف أسرار أغلب الحقائق المتعلقة بالدين والدنيا، والرابعة، والأخيرة إعادتهم إلى المفاهيم الحقّة وجعلها مستساغة لهم بعد أن كانت ممجوجة، والواقع هو أن هذه الأصول الأربعة تشكل دورة تعليمية ودينية وفكرية متكاملة، ينبغي لجميع القائمين على شؤون التعليم، الالتفات لها، وبالطبع فإن النتيجة المطلوبة لهذه اللحظة إنما تتأتى حين يتمتع الفرد الخاضع للتربية والتعليم بالإستعداد التام لتقبلها. اللهم ارزقنا عيناً باصرةً وأذناً سامعةً ويقظةً ووعياً لنصغى إلى كلمات أوليائك التي تطهر روح الإنسان وتهذبها وننظر إلى آيات عظمتك بعين البصيرة.

اللهم لا تفرّق بيننا وبينهم ولا طرفه عين في الدنيا وفي الآخرة وثبتنا على مسيرتهم. يارب العالمين.
ختام الجزء السادس

كانون الثاني ٢٠٠٣ م

محرم الحرام ١٤٢٥ هجرى

[١] (١). سند الخطبة:

لم ترد هذه الخطبة في مصادر أخرى والشىء الوحيد الذى يعتمده مؤلف «مصادر نهج البلاغة» ما ذكره السيد اليماني في كتاب «الطراز» وقد استشهد فيه بعدة عبارات من هذه الخطبة، رغم أنه عاش بعد السيد الرضى، إلّا أنّ اختلاف بعض العبارات مع ماورد في نهج البلاغة يفيد أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة. راجع مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤١

[٢] (١). «مداحر» جمع مدحر، بمعنى الأمر الذى يسبب طرد الشىء وإبعاده من مادة (دحور) بمعنى الطرد والإبتعاد

[٣] (٢). «مزاجر» جمع مزجر، بمعنى المانع من الشىء من مادة (زجر) بمعنى المنع

[٤] (٣). «مخاتل» جمع مختل، المكيدة وهى الوسيلة التى يتم بها الخداع من مادة (ختل)

[٥] (١). «الجفوة» بمعنى القسوة

[٦] (١). «بوائق» جمع بائقة، بمعنى الحادثة المهمة والداهية المميته من مادة (بوق) على وزن فوق، بمعنى الفساد

[٧] (١). «قتام» بمعنى الغبار

[٨] (٢). «العشوة» ركوب الأمر على غير بيان

[٩] (٣). «شباب» بكسر الشين أى بداياتها فى عنفوان وشده كشباب الغلام وفتوته، وقد وردت هذه المفردة بكسر الشين فى بعض

نسخ نهج البلاغة وبالفتح فى البعض الآخر

[١٠] (٤). «السلام» بكسر السين جمع سلمة، على وزن كلمة بمعنى الحجارة الصم

[١١] (١). «مريح» بمعنى التتن والعفن من مادة (ريح) بمعنى التتن

- [١٢] (٢). سورة البقرة، الآية ١٦٦
- [١٣] (١). سورة الأنعام، الآيتان ٢٣ و ٢٤
- [١٤] (١). «رجوف» من مادة (رجف) على وزن حذف بمعنى شدة الاضطراب، وتطلق الأراجيف على الاشاعات التي تجعل المجتمع شديد الاضطراب
- [١٥] (١). «قاصم» من مادة (قصم) على وزن خصم بمعنى الكسر مع الشدة
- [١٦] (٢). «زحوف» من مادة (زحف) على وزن حرف بمعنى الثقل في المشى وتطلق على حركة الجيش الكثير، وزحوف في العبارة إشارة إلى الافتتان الذي يستشرى في المجتمع
- [١٧] (٣). «نجوم» وردت هنا بالمعنى المصدري وهو الظهور
- [١٨] (١). «يتكادمون» من مادة (كدم) على وزن شرم بمعنى العض والتكادم أن يلتحم حيوانان فيعض كل منهما الآخر
- [١٩] (٢). «حمر» جمع حمار، بمعنى الحمار الوحشى هنا بقرينه العانة وهي الجماعة من حمر الوحش
- [٢٠] (٣). «مسحل» من مادة (سحول) بمعنى الفأس والمبرد وما شابه ذلك مما يبرد به الشيء
- [٢١] (٤). «ترض» من مادة (رض) التهشيم
- [٢٢] (٥). «كلكل» بمعنى الصدر
- [٢٣] (١). «عبيط» من مادة (عبط) على وزن خبط بمعنى قطع رأس الحيوان ويقال الدم العبيط للدم الطرى الذي يجرى من بدن الإنسان أو الحيوان
- [٢٤] (٢). «مرعاد» من مادة (رعد) الشيء العظيم الصوت والمبراق من مادة (برق) الشيء البراق الذي يخطف الأبصار
- [٢٥] (١). «مطلول» من هدر دمه من مادة (طل) على وزن حل بمعنى هدر الدم
- [٢٦] (٢). «يختلون» بمعنى (يخدعون) من مادة (ختل) على وزن قتل بمعنى الخداع
- [٢٧] (١). «لعتق» جمع لعقة، الشيء القليل، وما تأخذه من طعام بالملعقة
- [٢٨] (١). سند الخطبة:
- أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة بعد تسلّمه الخلافة. هذا ما ذكره ابن أبي الحديد والذي يدل على أنه وجدها في مصدر آخر غير نهج البلاغة؛ وذلك لأن نهج البلاغة لم يشر إلى هذا الموضوع، كما روى المرحوم الكليني بعضها في الجزء الأول من أصول الكافي، وأشار الآمدى في غرر الحكم إلى بعض جوانب الخطبة. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٤٤)
- [٢٩] (١). «تستلمه» من مادة (الاستلام) بمعنى الاتصال بالشيء
- [٣٠] (١). «النصب» بمعنى التعب والمشقة
- [٣١] (٢). سورة يس، الآية ٨٢
- [٣٢] (١). سورة ق، الآية ١٦
- [٣٣] (٢). «حيزه» من مادة (حيز) بمعنى المكان
- [٣٤] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٥٣
- [٣٥] (٢). «عرفاء» جمع عريف، بمعنى رئيس القوم الذي يدير أمورهم ويعرفه جميعهم
- [٣٦] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٧١-٣٧٨؛ بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣ ومستدرک الوسائل، ج ١٨، ص ١٨٧
- [٣٧] (٢). خصال الصدوق، باب الثلاثة، ح ١٨٣
- [٣٨] (١). سورة البقرة، الآية ٨٢

- [٣٩] (٢). «مرايع» جمع مرباع، على وزن مثقال بمعنى المكان ينبت نبتة في أول الربيع. وقال بعض: المطر الذي ينزل أول الربيع
- [٤٠] (١). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥، ح ٨، وقد قدمنا شرحاً وافياً بهذا الشأن ذيل الخطبة ١٨
- [٤١] (٢). «حمى» المنطقه المحرمة العائدة لشخص أو جماعة ولا يحق للآخرين دخولها دون إذن، ووردت في الخطبة بمعنى حرمان الله
- [٤٢] (٣). «ارعى» من مادة (رعى) مراقبه الشيء ومن هنا يطلق الرعى على الأغنام وحيث يترك الحيوان بحريته في المرعى فإن الارعاء ورد بهذا المعنى في الخطبة، أى أن الله حكم في قرآنه بحريه ما ينبغي بقاءه حراً
- [٤٣] (٤). نهج البلاغه، الخطبة ١٧٦
- [٤٤] (١). قال المرحوم العلامة التستري في شرحه لنهج البلاغه: كأن مفردة القرآن أو كتاب أنزله سقطت من نسخه نهج البلاغه الموجوده (نهج الصباغه، ج ٣٣، ص ١٣)
- [٤٥] (١). سند الخطبة:
- ورد في مصادر نهج البلاغه: ذكرت هذه الخطبة في بعض نسخ نهج البلاغه كجزء من الخطبة السابقة. قال ابن أبي الحديد إن الإمام عليه السلام أورد هذه الخطبة حين اتجه إلى البصرة (لقتال أصحاب الجمل والقضاء على الفتنة). ومما لا شك فيه أنه عثر على هذه الخطبة في مصدر آخر ليقول ذلك الكلام. ووردت هذه الخطبة بالتفصيل من قبل السيد الرضى في كتاب تحف العقول، كما روى الكليني بعضها في الجزء الخامس من كتابه الكافي، كما وردت عبارة من خطبة في قصار الكلمات وهي الكلمة ٢٩٨ (ضع فخرک، واحفظ كبرک واذکر قبرک)، (مصادر نهج البلاغه، ج ٢، ص ٣٤٧)
- [٤٦] (١). «يهوى» من مادة (هوى) على وزن نهى تعنى فى الأصل، السقوط من شاهق، وهوى على وزن نوى بمعنى الرغبة فى الشيء وعادة ما تستعمل فى الميول النفسية والأمر الباطلة، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة، أى أن الشخص الذى يعبد الدنيا يسقط مع الغافلين فى وادى الشقاء
- [٤٧] (١). «جلايب» جمع جلباب، الستار والثوب
- [٤٨] (٢). «وطر» بمعنى الحاجة وقضاء الوطر الاستفاده التامه من الشيء
- [٤٩] (١). «جدد» و«جاده» بمعنى واحد يطلق على الطريق السهل الذى لا تغوص فيه القدم.
- [٥٠] (٢). «مهاوى» جمع مهواة، على وزن مقلاة الخفرة التى يسقط فيها الإنسان.
- [٥١] (٣). «مغاوى» جمع مغواة، على وزن مقلاة، الشبهه المضله.
- [٥٢] (٤). «غواة» جمع غاوى، الشخص الضال
- [٥٣] (٥). «تعسف» من مادة (عسف) على وزن خسف، المشى على غير هدى، ومن هنا يقال للظالم متعسف لأنه يسير بغير هدى.
- [٥٤] (١). شرح نهج البلاغه للشوشترى، ج ٢، ص ٧٤
- [٥٥] (١). «افق» من مادة (افاقه) بمعنى الصحو
- [٥٦] (٢). «أُمى» ينسب إلى الام بمعنى عديم القراءة، وكأنه بقى على تلك الحالة التى ولد فيها من بطن امه ولم يتتلمذ، وبالطبع فإن معنى أمية النبى الأكرم صلى الله عليه وآله أن جميع علومه ومعارفه إلهية ولم يتعلم من الإنسان. راجع سائر الآراء بهذا الشأن فى الجزء السادس من تفسير الأمثل، ذيل الآية ٥٧، سورة الأعراف
- [٥٧] (١). «احطط» من مادة (حط) على وزن خط لازم ومتعدى بمعنى الخفض والاختفاض وارىد به المعنى الثانى فى الخطبة
- [٥٨] (٢). «فامهد» من مادة (مهد) على وزن عهد تعنى فى الأصل مهد الطفل أو الموضع الذى يعد للأطفال، ثم استعملت بمعنى الإعداد كما وردت فى هذه الخطبة

- [٥٩] (١). سورة الحشر، الآية ١٨
- [٦٠] (٢). سورة البقرة، الآية ١٦٠
- [٦١] (٣). الابيات للشاعر أبو الفرج الساوي (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٣، ص ٣٣٥)
- [٦٢] (١). «يعر» من مادة (عر) على وزن شَر، أو عُر على وزن حُر، يعنى فى الأصل الجرب الذى يصيب الجلد، ثم أطلق على كل ضرر يلحق بالإنسان، وأريد به العيب والتهمه فى العبارة
- [٦٣] (٢). سورة النساء، الآية ٤٨
- [٦٤] (٣). سورة النساء، الآية ٩٣
- [٦٥] (١). كنز العمال، ح ١١٢٦، ١٠٥٩.
- [٦٦] (٢). سورة البقرة، الآية ١٤.
- [٦٧] (٣). اقتباس من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٢
- [٦٨] (١). «مستكينون» من مادة (سكون) بمعنى الوضوح، ثم اطلقت على الخضوع والخشوع
- [٦٩] (١). سند الخطبة:
- أورد الآمدى الذى صنف كتابه (تحرر الحكم على أساس الحروف الأبجدية) جوانب مختلفه من هذه الخطبة بتفاوت فى حروف «ق» و«ن» و«ه» و«ا» ورغم أن الآمدى عاش بعد المرحوم السيد الرضى، إلا أن اختلاف عباراته مع نهج البلاغة يفيد أنه اقتبسها من مصدر آخر، كما أوردها السيد باختلاف طفيف فى كتابه، الطراز، وهذا يشير إلى أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة
- [٧٠] (١). «ناظر» بمعنى سواد العين التى يقع فيها البؤبؤ
- [٧١] (٢). «لييب» من مادة (لب) على وزن حب بمعنى الدماغ ويقال: اللييب للشخص العاقل الحكيم
- [٧٢] (٣). «نجد» ما ارتفع من الأرض
- [٧٣] (١). «ارز» من مادة (ارز) على وزن فرض، تعنى فى الأصل الايقاض والثبات، ثم استعملت بمعنى الاعتزال والانعزال عن المجتمع، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة
- [٧٤] (١). ورد هذا الحديث المشهور فى مصادر العامة المعروفة مثل مستدرک الحاكم و المعجم الكبير للطيراني وغيرها (وللوقوف على المزيد من مصادر هذا الحديث فى كتب العامة راجع كتاب احقاق الحق، ج ٥، ص ٤٦٩ و ما بعدها)
- [٧٥] (١). سورة الضحى، الآية ١١
- [٧٦] (٢). مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة
- [٧٧] (١). نقل ابن أبي الحديد فى شرحه لنهج البلاغة هذا الحديث عن أبى نعيم الاصفهاني فى حلية الأولياء ومسنده أحمد بن حنبل (شرح نهج البلاغة، ج ٩، ص ١٦٦)
- [٧٨] (٢). المصدر السابق
- [٧٩] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ١٦٦
- [٨٠] (١). «كرائم» جمع كريمة، الآيات المباركة التى نزلت بشأن أهل البيت عليهم السلام
- [٨١] (١). هذه هى الآية ١١٩ من سورة التوبة التى تأمر المؤمنين فى كل عصر ومصر باتباع الصادقين وملازمتهم، وقد فسرت الروايات الواردة فى مصادر الفريقين، الصادقين، بالأئمة المعصومين عليهم السلام. راجع للوقوف على مصادر هذا الحديث كتاب، نفحات القرآن، ج ٩، ص ١٦٧
- [٨٢] (٢). «رائد» من مادة «ورد» على وزن قوم بمعنى السعى للقيام بشىء، كما ورد فى الشرح، فانها تطلق عادة على الشخص الذى

ينطلق امام القافلة ويبحث عن المرعى والمرتع

[٨٣] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧

[٨٤] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٤٤ باب العمل بغير علم، ح ٣.

[٨٥] (٢). المصدر السابق، ص ٤٣، ح ١

[٨٦] (١). سورة آل عمران، الآية ١١٨

[٨٧] (٢). سورة الحمد، الآية ٣٠

[٨٨] (٣). سورة الأعراف، الآية ٥٨

[٨٩] (٤). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٦

[٩٠] (١). منهاج البراعة، ج ٩، ص ٢٤٨ بتلخيص

[٩١] (١). سند الخطبة:

لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما في سائر المصادر، ويبدو أن السند الرئيسي لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم السيد الرضى، إلا أن مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

[٩٢] (١). «انحسرت» من مادة (حسر) على وزن قصر، تعنى فى الأصل العرى، ثم استعملت بمعنى الضعف والعجز حيث يتعرى الإنسان فى هذه الحالة من قواه

[٩٣] (٢). «مساغ» من مادة (سوغ) بمعنى سهولة الاكل والشرب ثم أطلقت على كل مسير سهل، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة

[٩٤] (٣). «ملكوت» من مادة (ملك) على وزن قفل، بمعنى الحكومة والملكية، وإضافة الواو والياء تفيد التأكيد والمبالغة وإن استعملت بشأن الله تبارك وتعالى فإنها تفيد حكومته المطلقة على العالم قاطبةً

[٩٥] (١). «اذعى» من مادة (اذعان) بمعنى الاقرار والامتنال

[٩٦] (١). «عشيت» من مادة (عشو) بمعنى الظلمة، إشارة إلى أن عيونها عاجزة عن رؤية ضياء الشمس

[٩٧] (٢). «سبحات» جمع سُبْحَةٌ، على وزن لقمه، بمعنى النور، كما تعنى الظلمة

[٩٨] (٣). «اكنها» من مادة (كن) على وزن جن، تعنى فى الأصل، الظرف الذى يحفظ فيه الشىء، ثم اطلقت على جميع الوسائل التى تؤدى إلى الخفاء

[٩٩] (٤). «مكامن» جمع مكمن، من مادة (كمون)، بمعنى الاخفاء والمكمن هو الموضع الذى يختفى فيه الإنسان أو الشىء

[١٠٠] (٥). «بلج» جمع بلجة، أول ضياء الصباح

[١٠١] (٦). «اقتلاق» من مادة (الق) على وزن برق، بمعنى البريق، وبلج ائتلاقها بمعنى أول الضياء ولمعان الشمس

[١٠٢] (٧). «مسدلة» من مادة (سدل) على وزن عدل، تعنى فى الأصل، هبوط الشىء من الأعلى إلى الأسفل بحيث يتغطى وهى هنا إشارة إلى سقوط أجفان الخفاش إلى الأسفل

[١٠٣] (٨). «جفون» جمع جفن، على وزن قفل، ما يغطى العين

[١٠٤] (١). «حداق» جمع حدقة، سواد العين

[١٠٥] (٢). «اسداف» جمع سدفة، على وزن وزنة، تعنى، أحياناً الظلمة، وأخرى النور، ووردت هنا بالمعنى الأول

[١٠٦] (٣). «غسق» بمعنى شدة الظلمة، كما تستعمل بمعنى منتصف الليل لاشتداد الظلمة منتصف الليل

[١٠٧] (٤). «دجنة» من مادة (دجون) بمعنى، السحاب والمطر، ولما كان السحاب والمطر يؤدى إلى الظلمة، فإن مفردة الدجنة تعنى

الظلمة، وغسق دجنته، تعنى، شدة الظلام

[١٠٨] (٥). «اوضح» جمع وضح، على وزن شفق، بياض الصبح

[١٠٩] (٦). «ضباب» جمع ضب، على وزن سد، الحيوان المعروف

[١١٠] (٧). «وجار» بمعنى، جحر

[١١١] (٨). «مآقى» جمع مؤق، على وزن قفل، بمعنى طرف العين مما يلي الأنف، كما فسرها البعض بمجرى الدمع الواقع فى زاوية

العين، ووردت فى العبارة كإشارة إلى أن جفون الخفاش تغطى جميع عينه حتى زواياها. ولعل هذه العبارة إشارة إلى نقطة لطيفة وهى

أن آخر نقطة تغلق عند غلق العين ما يلي طرف أنفه

[١١٢] (٩). «تبلغت» من مادة (تبلغ) بمعنى اكتفت بالشىء

[١١٣] (١). سورة النبأ، الآيتان ١٠ و ١١

[١١٤] (١). «شظايا» جمع شظية، على وزن قضية، القطع المتفرقة

[١١٥] (٢). «ريش» الشىء المعروف عند الطيور

[١١٦] (١). الرسالة الثقافية، ج ٧، ص ٦٥٨. ألف هذا الكتاب العالم الغربى موريس باركر وقد ترجم إلى الفارسية من قبل «رضا

أقصى» ونخبة من الكتاب المعروفين، كذلك كتاب المعجم الزولوجى الحديث للمؤلف محمد كاظم المالكى، المتخصص فى علم

الأحياء، ج ٢، ص ٦٣٦ وكتاب البحث عن الله، لآية الله العظمى مكارم الشيرازى.

[١١٧] (٢). راجع بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٠٧

[١١٨] (١). سند الخطبة:

لم يرد فى مصادر نهج البلاغة سند يمكن الاعتماد عليه كما فى سائر المصادر، ويبدو أن السند الرئيسى لهذه الخطبة ما ذكره المرحوم

السيد الرضى، إلا أن مضمون الخطبة على درجة من الرفعة بحيث يقوى سندها حيث يفيد عدم ترشح تلك الكلمات سوى من فكر

عظيم كفكر الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام

[١١٩] (١). «مريرة» من مادة (مر) على وزن حُر الطعم المعروف بمرارته

[١٢٠] (١). «المرجل» هو القدر

[١٢١] (٢). «القين» الحداد

[١٢٢] (١). بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٤٣

[١٢٣] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ١، ص ١٩٢ بتصريف وتلخيص

[١٢٤] (٣). المصدر السابق، ص ١٩٨ و ١٩٩

[١٢٥] (١). العقد الفريد، ج ٥، ص ٧٩

[١٢٦] (١). «ابلج» من مادة (ولوج) بمعنى الوضوح، سيما ضياء أول الصبح

[١٢٧] (٢). المعروف من شراح نهج البلاغة أن (سبيل) مبتدأ لخبر محذوف هو الإيمان، بقرينه ما ورد فى الجملة القادمة، كما احتمال

البعض أن المبتدأ المحذوف «سبيل الجنة» التى وردت فى المقطع السابق، والواقع، عبارة (واما فلانة...) ذكرت كجملة اعتراضية

[١٢٨] (١). بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٣

[١٢٩] (١). «مقصر» من مادة (قصر) على وزن فصل، أحد معانيه، المنع، كما يطلق المقصر على الموقف، كونه يمنع الإنسان من

الحركة

[١٣٠] (٢). «مرقل» من مادة (ارقال) بمعنى المسرع

- [١٣١] (١). «شخصوا» من مادة (شخص) على وزن خلوص، بمعنى الخروج من الدار، كما وردت بمعنى، تركيز النظر على نقطة معينة، وكانّ العين تريد الخروج من حدقتها، وأريد بها هنا، الخروج
- [١٣٢] (٢). «اجداث» جمع (جدث)، القبر
- [١٣٣] (١). سورة المعارج، الآية ٤٣
- [١٣٤] (١). «رى» بمعنى السقى
- [١٣٥] (٢). «ناقع» من مادة (نقع) على وزن نفع، تعنى فى الأصل انغمار الماء، وتعنى هنا الرى الكامل، بحيث يزول العطش
- [١٣٦] (٣). «يستعب» من مادة (عتب) على وزن ثبت تعنى فى الأصل الانفعال الباطنى وان استعملت فى باب الاستفعال بمعنى كسب ود الطرف المقابل وكأنه يطلب منه العتبى حتى يرضى ويعود الى سبيل الحق
- [١٣٧] (٤). سورة النساء، الآية ٨٢
- [١٣٨] (١). سورة الكهف، الآية ١
- [١٣٩] (٢). اصول الكافى، ج ٢، ص ٥٦٩
- [١٤٠] (٣). بحار الأنوار، ج ١٥، ص ٩٢
- [١٤١] (١). سورة العنكبوت، الآيتان ١ و ٢
- [١٤٢] (١). «حيزت» من مادة (تعنى) الوصول إلى شىء إن تعدت يالى، وعدمه إن تعدت بعن، كما فى الخطبة المذكورة
- [١٤٣] (٢). «وراء» تعنى الخلف كما تعنى أحياناً الأمام
- [١٤٤] (١). المراد من النبيذ كما ورد فى روايات أهل البيت أنّ النبي صلى الله عليه وآله أراد الحد من برودة ماء المدينة فأمر بطرح كمّيّة من التمر فى ظرف كبير من الماء (لا- أن يكون الماء مضافاً) إلماً أنّ بعض المنافقين تذرع لاحقاً بهذا الموضوع وقذف بمقدار كبير من التمر حتى تخمر وخرج منه هذا الشراب الشفاف الذى يعرف بالنبيذ
- [١٤٥] (٢). بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٢٤٣
- [١٤٦] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٠٦
- [١٤٧] (٤). المصدر السابق
- [١٤٨] (١). «السحت» يعنى فى الأصل، فصل القشر عن الشىء، ثم اطلق على كل مال غير شرعى ولا سيما الرشوة، لأنّ هذه الأموال تسلب الإنسان البركة على غرار الشجرة التى تذبل حين سقوط قشرها
- [١٤٩] (١). سورة الحجرات، الآية ١٧٠
- [١٥٠] (٢). راجع الكافى، ج ٦، ص ٤١٦، ح ٣٠
- [١٥١] (١). «ردّة» على وزن مكّة الرجوع عن شىء، و(ردّة) على وزن فتنّة، الرجوع عن الدين، وهذا هو المعنى المراد فى العبارة المذكورة فى الخطبة
- [١٥٢] (٢). مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٢٣٣
- [١٥٣] (١). راجع كتاب الربا والبنوك المصرفية لسماحة المؤلف
- [١٥٤] (١). سند الخطبة:

رغم سمو مضامين الخطبة وألفاظها الفصيحة والبليغة التى يستبعد صدورها- على غرار سائر خطب نهج البلاغة- عن غير الإمام المعصوم عليه السلام، مع ذلك نشير إلى بعض المصادر التى وردت بشأنها فى كتاب مصادر نهج البلاغة، فقد أشار إلى بعضها العالم اللغوى ابن الأثير فى النهاية فى مادة شول ومادة ربك، كما وردت بعض عباراتها باختلاف فى غرر الحكم والذى يفيد أنّها أخذت

من مصدر آخر غير نهج البلاغة

[١٥٥] (١). « الحمد » فى اللغة، بمعنى المدح على عمل أو صفة اختيارية، ولما كانت افاضته النعم على المحتاجين احدى الأعمال الحسنه فإن هذه المفردة ترد بمعنى الشكر أيضاً

[١٥٦] (١). أكدنا على هذا الاحتمال فى بحث سورة الحمد فى التفسير الأمثل واعتبرنا تسميتها من قبل الروايات بفاتحة الكتاب دليلاً على ما ذهبنا إليه

[١٥٧] (٢). فقه السنة، ج ٢، ص ٢٣٠) كما وردت بعض الروايات بهذا الخصوص فى كتاب المغنى لابن قدامة ونيل الأوطار للشوكانى

[١٥٨] (٣). تفيد هذه العبارة أن الاحتمال الثالث أنسب الاحتمالات

[١٥٩] (٤). « الدهر » حسب الراغب فى المفردات أنها فى الأصل اسم لعمر العالم، ثم أطلقت على معنى أوسع يشمل الزمان وتاريخ الحياة البشرية، كما تستعمل بمعنى ناس عصر معين وخالق الزمان أيضاً

[١٦٠] (١). « تحدو » من مادة (حدو) و (حدى)، سوق الابل، ومطلق السوق

[١٦١] (٢). « ارتبك » من مادة (ربك) على وزن ربط، الاضطراب، بحيث يصعب على الإنسان النجاة

[١٦٢] (٣). سورة الانعام، الآية ١٢٢

[١٦٣] (١). سورة الحديد، الآية ٢١

[١٦٤] (٢). سورة الانعام، الآية ٣١

[١٦٥] (١). « حمة » بالضم، على وزن قوة، بمعنى لسع الحشرات والعقارب وما شابه ذلك، كما تطلق على سمها أيضاً

[١٦٦] (٢). سورة النساء، الآية ١٠

[١٦٧] (١). « الفطن » بمعنى (الرحيل) من مكان إلى آخر

[١٦٨] (٢). « حثتم » من مادة (حث) على وزن وصف، الاندفاع والسرعة

[١٦٩] (٣). سورة البقرة، الآية ١٩٧

[١٧٠] (٤). سورة آل عمران، الآية ١٣٣

[١٧١] (٥). « ركب » جمع (راكب) تعنى فى الأصل، ركوب الدابة، إلّا أن معناها المتعارف، القافلة

[١٧٢] (٦). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٦٤

[١٧٣] (١). « تبعه » من مادة (تبع) على وزن خير، بمعنى المتابعة، ويطلق تبعه العمل على الجزء الذى يطال الإنسان بعد مقارفته المعصية

[١٧٤] (٢). « تشيب » من مادة (شيب) على وزن عيب، بمعنى بياض الشعر، وتطلق عادة على الكهول، وشيب: على وزن سيب، جمع

أشيب بمعنى الكهول فى مقابل الشباب، والشبيبة بمعنى الشباب

[١٧٥] (٣). سورة لقمان، الآية ١٦

[١٧٦] (١). سورة المزمل، الآية ١٧

[١٧٧] (١). « داج » من مادة (دجو) على وزن هجو، بمعنى الظلم، وليل داج، الليلة الظلماء التى لا يرى فيها القمر والنجوم

[١٧٨] (١). « يكتنكم » من مادة (كن) على وزن جن، يقال عادة للظرف الذى يحفظ فيه الشيء، ثم توسع هذا المعنى وأصبح يطلق على

كل ما يحفظ الأشياء أو الأشخاص

[١٧٩] (٢). « رتاج » و « رتج » على وزن كرج، الباب العظيم المحكم الاغلاق

[١٨٠] (٣). سورة النور، الآية ٢٤

- [١٨١] (٤). سورة فصلت، الآية ٢١-٢٢
- [١٨٢] (٥). سورة الانفطار، الآيات ١٠-١٢
- [١٨٣] (١). «مخط» من مادة (خط) بمعنى الخط والعلامة، فهو اسم مكان، والمراد به في العبارة، المكان الذي يُخط لحفر القبر
- [١٨٤] (١). بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٧؛ اصول الكافي، ج ٣، ص ٢٤٢
- [١٨٥] (١). سورة ق، الآية ٤٢
- [١٨٦] (٢). سورة المرسلات، الآية ٣٦
- [١٨٧] (٣). سورة المؤمن، الآية ١٦
- [١٨٨] (٤). سورة الطارق، الآية ٩
- [١٨٩] (١). سورة الزلزال، الآية ٤-٥
- [١٩٠] (٢). بحار الانوار، ج ٧٤، ص ٣٧٩
- [١٩١] (٣). سورة النساء، الآية ٤١
- [١٩٢] (١). سورة النور، الآية ٤٤
- [١٩٣] (١). سند الخطبة:
- بداية هذه الخطبة كبداية الخطبة ٨٩ التي مرت علينا في الجزء الثالث، ومن هنا ذهب البعض إلى أنها خطبة واحدة وقد جمعها الشريف الرضى، والحال، ليس الأمر كذلك، فهاتان الخطبتان لا تتشابهان إلّا في جملتين. على كل حال المصدر فالوحيد غير نهج البلاغة الذى ذكر أن ابن الأثير خاض فى تفسير بعض مفردات هذه الخطبة فى كتابه (النهاية) وما ذكره من عبارات تختلف عما جاء فى هذه الخطبة، وهذا يفيد أن ابن الأثير أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٦٤، كما أورد الكليني فى كتاب الكافي جانباً من هذه الخطبة بالاختلاف، راجع اصول الكافي، ج ١، ص ١٦٠ كذلك تفسير القمى، ج ١، ص ٢)
- [١٩٤] (١). «هجرة» من مادة (هجو) النوم ليلاً، ولما كان هذا النوم أعمق فقد شبه به أوضاع أقوام الجاهلية
- [١٩٥] (٢). «مبرم» من مادة (ابرام) المحكم، من ابرام الجبل إذا أحكم فتله ثم اطلق على مطلق الأعمال المحكمة
- [١٩٦] (١). سورة المائدة، الآية ١٥
- [١٩٧] (٢). سورة الاعراف، الآية ١٥٧
- [١٩٨] (١). سورة الاسراء، الآية ٨٢
- [١٩٩] (١). «مدر» ورد فى اللغة بمعنى الزهور المتداخلة، أحياناً والحجر والطابوق، أحياناً أخرى وبيت المدر عادة ما يطلق على بيوت الحضر
- [٢٠٠] (٢). «وبر» وبيت (الوبر) عادة ما يطلق على بيوت البادية
- [٢٠١] (٣). «ترحة» الغم والحزن
- [٢٠٢] (١). «علقم» شجرة ثمرتها شديدة المرارة، والتي يطلق عليها أيضاً الحنظل
- [٢٠٣] (٢). «صبر» بكسر الباء، على وزن فقر، عصاره شجر مر، والتي صار يضرب بها المثل، كما يطلق على نفس الشجرة
- [٢٠٤] (٣). «المقر» نبات سام، كما يطلق على كل سم
- [٢٠٥] (٤). «مطايا» جمع (مطية) المركب الهنيء السريع
- [٢٠٦] (٥). «زوامل» جمع (زامله) دابة الحمل
- [٢٠٧] (١). سورة العنكبوت، الآية ١٣

- [٢٠٨] (٢). «تنخمنها» من مادة (نخامة) وبمعنى الاخلاط التي تجتمع على الرأس والصدر ويرمى بها خارجاً
- [٢٠٩] (١). سورة الروم، الآية ٤١
- [٢١٠] (٢). تكرر رفع هذا الشعر في التاريخ كثيراً، حيث ورد بشأن أبي مسلم الخراساني (وقد قام يدعو إلى الرضا من آل محمد).
- كتاب شرح الأخبار للنعمان بن محمد، ج ٣، ص ٤١٨
- [٢١١] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ٦، ص ١١٦
- [٢١٢] (١). سند الخطبة:
- لم يرد في مصادر نهج البلاغة سند خاص غير ماورد في نهج البلاغة، إلا أن سائر الكتب التي ألفت بعد النهج أخذتها منه، ومن ذلك ما ذكره العلامة المجلسي في بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٣٤
- [٢١٣] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ١٢٩. قول سعيد بن العاص والي عثمان على الكوفة
- [٢١٤] (٢). «ربق» جمع ربقه، على وزن فتنه، الجبل الذي يربط به الشخص، كما فسره البعض بالجبل الذي يشتمل على عدة عقد
- [٢١٥] (٣). «حلق» جمع حلقة، معروف
- [٢١٦] (٤). «الضيم» الظلم والحيث
- [٢١٧] (٥). «أطراق» بمعنى السكوت والاعماض عن مطلب معين
- [٢١٨] (١). سند الخطبة:
- قيل في سند هذه الخطبة: ذكر الزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ هـ والذي عاش بعد قرن من وفاة الشريف الرضي رحمه الله بعض هذه الخطبة باختلاف في كتابه (ربيع الابرار) وهذا يفيد أنه أخذها من مصدر آخر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٧٣)
- [٢١٩] (١). سورة يس، الآية ٨٢
- [٢٢٠] (٢). سورة النحل، الآية ٩٠
- [٢٢١] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٢
- [٢٢٢] (٢). «ذرات» من مادة (ذرع) على وزن زرع، الخلق والايجاد
- [٢٢٣] (١). «مور» على وزن قول، لها معان مختلفة في اللغة، منها التيار السريع أو أمواج الماء
- [٢٢٤] (٢). «طرف» على وزن حرف، أهداب العين
- [٢٢٥] (٣). «حسير» من مادة (حسر) على وزن قصر، التعب والضعف
- [٢٢٦] (٤). «مبهور» من مادة (بهر) على وزن قهر، الغلبة والحيرة
- [٢٢٧] (٥). أشرنا إلى هذا المطلب في شرح آية الكرسي في التفسير الأمثل
- [٢٢٨] (١). التعبير بالعظيم بدل والله العظيم، لأنه حذف الموصوف والتركيز على الصفة يكشف عن مدى التاكيد، يعني أن هذه الصفة للعظمة لذاته تعالى إلى درجة من الثبات وكأنها اسم من أسمائه
- [٢٢٩] (١). اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٨
- [٢٣٠] (٢). «مدخول» من مادة (دخل) على وزن أجل، بمعنى الفساد، وعليه فالمدخول، هو المغشوش غير الخالص
- [٢٣١] (٣). «محقق» معلوم وقطعي وثابت، وورد في العبارة المذكورة صفة لخوف - ولا بد أن يكون مجروراً إشارة إلى أن خوفهم من الله ثابت لا غبار عليه، ذلك لأنه هو الذي يؤخذ العباد وعليه إن خفنا الله ولم نعص أوامر فسوف لن نخاف أي أحد. إلا أن بعض الشراح ذهبوا إلى أن محقق خبر كل خوف فتكلفوا مرجع الضمير في «فأنه» وكذلك الاستثناء ومفهوم العبارة، بينما لو اعتبروا محقق صفة لخوف لوضح معنى العبارة تماماً، ولعل العبارة السابقة بشأن الرجاء قرينة جيدة على هذا المعنى، بعبارة أخرى أن الإمام عليه

السلام قال بيطان كل رجاء سوى رجاء الله وكل خوف سوى خوف الله

[٢٣٢] (٤). سورة البقرة، الآية ١٠٢

[٢٣٣] (١). «ضمار» الوعد البعيد، وتعني الوعود والديون التي لا رجاء فيها

[٢٣٤] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠

[٢٣٥] (١). بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٨٠

[٢٣٦] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٧١

[٢٣٧] (١). اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٧

[٢٣٨] (١). «مخازي» من جمع، مخزاة من مادة (خزى)، الفضيحة

[٢٣٩] (١). «فطم» من مادة (فطم) منع الطفل من اللبن

[٢٤٠] (٢). «زوى» من مادة (زى) على وزن حى، الجمع والابعاد

[٢٤١] (٣). «زخارف» جمع زخرف، على وزن هرمز، تعنى فى الأصل كل زينة مكتوبة، واطلاق الزخرف على الكلام الفارغ لما

ينطوى على تزويق وتجميل

[٢٤٢] (٤). مستدرک الوسائل، ج ١، ص ١٧٣

[٢٤٣] (٥). اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٩

[٢٤٤] (١). «شفيف» من مادة (شوف) رقة الشىء، بحيث يستشف ما وراءه

[٢٤٥] (٢). «صفاق» الجلد الباطن الذى فوقه جلد البطن الظاهر

[٢٤٦] (٣). «هزال» ضعف

[٢٤٧] (٤). «تشذب» بمعنى تفرق، واريد بها هنا، تفرق لحم البدن

[٢٤٨] (٥). «سفائف» جمع سفيفة، ما ينسج من سعف النخيل

[٢٤٩] (٦). «خوص» سعف النخيل

[٢٥٠] (٧). سورة ص، الآية ٢٠

[٢٥١] (١). «يتوسد» من مادة (وسد) جعل الشىء كالوسادة تحت الرأس

[٢٥٢] (١). وأحياناً جمع مزمار، المعروف

[٢٥٣] (١). اقتباس من قاموس الكتاب المقدس امستر هاكس

[٢٥٤] (١). «مقتص» من مادة (قص) على وزن نص، قطع الشىء وقصه، كما وردت بمعنى متابعة الشىء، قصة أيضاً بمعنى متابعة

حادثة، ومنه القصاص أيضاً

[٢٥٥] (٢). «اقضم» تعنى فى الأصل لوك الأشياء الجافة مقابل الخضم للأشياء الرطبة وابتلاعها، وأريد بها هنا قلّة الاستفادة من الدنيا

[٢٥٦] (٣). «اهضم» من مادة (هضم) على وزن قدم، بمعنى الضعف للبدن، ومنه هضم الطعام حيث تضمر البطن بعد الهضم، ومنه

ضمور الخاصرة والبطن

[٢٥٧] (٤). «كشح» الخاصرة

[٢٥٨] (٥). «اخمص» من مادة (خمص) على وزن شمس، خلو البطن اثر الجوع

[٢٥٩] (٦). الفارق بين التصغير والتحقيق، أنّ الحقيق يطلق عادة بشأن الكيفية؛ مثلاً يعتبر الإنسان المحروم من العلم والمعرفة والصفات

الحميدة حقيراً، أمّا التصغير فيطلق على الشىء القليل من حيث الكمية كالإنسان الصغير العمر وما شابه ذلك، إشارة إلى عدم قيمة

الدنيا وقتلتها

[٢٦٠] (١). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٢٦

[٢٦١] (٢). نهج البلاغة، الرسالة ٥٣

[٢٦٢] (١). استفاد من المطالعات التاريخية أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان عادةً ما يركب أحداً خلفه، أحياناً اسامه وأخرى الفضل بن العباس وسائر الأفراد من الصحابة حتى بلغ عددهم حسب ما أورده المؤرخون ٣٣ شخصاً (انظر شرح العلامة التستري لنهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٧) كما ورد في الحديث أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يستقبله الأطفال حين يعود من المدينة فكان يأمر بإركابهم خلفه وأمامه، وكان يوصى أصحابه بإركابهم، فكانوا يفخرون بركوبهم على مركب رسول الله صلى الله عليه وآله (المحجّة البيضاء، ج ٣، ص ٣٦٦)

[٢٦٣] (١). «يخصف» من مادة (خصف) على وزن وصف، رقع الشيء وخياطة القطع. وتعني هذه المفردة في الأصل ضم الشيء إلى آخر ومن هنا تطلق على خياطة الحذاء والثوب

[٢٦٤] (٢). «يرقع» من مادة (رقع) على وزن رفع، بمعنى وصل الشيء

[٢٦٥] (٣). «يردف» من مادة (ردف) على وزن حرف الكون خلف شيء، ومن هنا يقال لمن يركب خلف غيره رديف

[٢٦٦] (٤). اصول الكافي، ج ٢، ص ٢٧١ بتلخيص

[٢٦٧] (٥). تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ج ٢، ص ٢٩٣ ولكن ورد في هذا الحديث كلمة النمرقة بدل الستر

[٢٦٨] (١). «رياش» جمع ريش، تعني في الأصل، ريش الطيور، ولما كان ذلك الريش ثوبه الطبيعي الجميل فإنها تطلق أحياناً على كل ثوب جميل كما تطلق على كل زينته، والمعنيان محتملان في العبارة المذكورة

[٢٦٩] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٤ (لابد من الالتفات هنا إلى أنّ العبارة (قال تحتها) من القيلولة، بمعنى الاستراحة والنوم عند منتصف النهار)

[٢٧٠] (٣). «أشخصها» من مادة (شخص) على وزن خلوص، تعني في الأصل التركيز في النظر على نقطة، ويفيد عادةً الخوف ثم اطلقت على اخراج شخص من مكانه فجأة

[٢٧١] (١). «خاصة» بمعنى (قراءة الإنسان)، شرّاح نهج البلاغة فسّروا (خاصة) اسم الفاعل بالمعنى المصدرى والمفهوم أنّه جاع رغم خصوصيته عند الله تعالى، لكنه لا يبدو مستقيماً

[٢٧٢] (٢). «زويت» من مادة (زى) على وزن حى، قبض الشيء وأبعاده

[٢٧٣] (٣). «زلفه» بمعنى المقام والمنزلة

[٢٧٤] (٤). سورة الزخرف، الآية ٣١

[٢٧٥] (٥). سورة الزخرف، الآيات ٣٣-٣٥

[٢٧٦] (٦). «فتأسى» وردت في أغلب نسخ نهج البلاغة (تأس) كفعل ماضٍ، لكن استفاد منها معنى الأمر بقرينه العبارة (وإلا فلا يأمن الهلكة)، لكنّها وردت بصيغته فعل الأمر في بعض النسخ «فتأسى»

[٢٧٧] (١). «رقت» من مادة (ترقيع) معروفة، وتستعمل اليوم بخصوص تطعيم الأعضاء

[٢٧٨] (٢). «مدرعة» ثوب الصوف

[٢٧٩] (٣). «اغرب» من مادة (غروب) اذهب وابتعد

[٢٨٠] (١). كتب أغلب شرّاح نهج البلاغة كلمة «يحمد» على شكل فعل معلوم، لأنهم اعتبروا لكلمة (سرى) معنىً مصدرياً، يعنى (السير في الليل) وفي هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: يحمد السير في الليل والسائرون يحمدون الله تعالى عندما يصلون إلى

مقاصدهم، ولكن في بعض النسخ «يحمد» جاءت بشكل فعل مجهول، عندئذ تكون كلمة (سرى) بمعنى الوصف، يعني (السائرين في الليل)، وفي هذه الصورة يكون مفهوم الجملة: عند الصباح يحمد السائرين في الليل، البتة النتيجة في المفهومين واحدة [٢٨١] (٢). روى المرحوم الكليني في أصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٧ حديثاً في باب حب الدنيا عن الإمام السجاد عليه السلام شرح فيه المصادر السبعة للذنب حتى ورد في آخره: «فقال الأنبياء والعلماء بعد معرفته ذلك: حب الدنيا رأس كل خطيئة»

[٢٨٢] (١). الغدير، ج ٨، ص ٢٨٢

[٢٨٣] (٢). أصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٨

[٢٨٤] (١). سند الخطبة:

يبدو أن لهذه الخطبة سنداً غير نهج البلاغة، كما لم يعثر صاحب مصادر نهج البلاغة على سند آخر، مع ذلك رواها بعض الأعلام ممن عاش بعد المرحوم السيد الرضى كالعلامة المجلسي وآخرين (نحن أيضاً بحثنا في الحاسوب ولم نعثر على مصادر أخرى لهذه الخطبة)

[٢٨٥] (١). «البادي» على وزن (النادي)، بمعنى الواضح والجلي بصورة تامة، ووصف شريعة النبي بالبادية إشارة إلى أن أوامره وتعاليمه تحظى بقبول العقلاء

[٢٨٦] (١). «طيبة» بمعنى الطاهرة، ويستفاد من لسان العرب أن النبي صلى الله عليه وآله دعاها بهذا الاسم (بمناخها المعتدل وكثرة أشجارها وإيثار أهلها) ونهى عن بقاء اسم يثرب لأنه يعني في الأصل الفساد

[٢٨٧] (١). «متلافي» من مادة (تلافي) بمعنى تدارك، وتأتي بمعنى معالجة الفساد، وهذا هو المعنى المراد بها في هذه العبارة

[٢٨٨] (٢). «مدخولة» من مادة (دخول) إشارة هنا إلى البدع التي كانت تنسبها الجاهلية إلى الله. أو من مادة دخل، على وزن دخل، بمعنى الفساد، لأن هذه البدع مصدر فساد الفرد والمجتمع

[٢٨٩] (٣). «المفصولة» من مادة (فصل) واطلقت على الكلام والقضاء الذي يميز الحق من الباطل ويمكن أن يكون المراد بها المعنيان معاً؛ الأول إن أحكام الشريعة يبينت بصورة منفصلة والآخر، فصل الحق عن الباطل، (تكون الجملة في الأول اسم المفعول وفي الثاني اسم الفاعل)

[٢٩٠] (١). وردت هذه الكلمة في غرر الحكم، ح ١٠١٨٩ على عليه السلام أنه قال: «لا تَنْظُرْ إِلَى مَنْ قَالَ وَأَنْظُرْ إِلَى مَا قَالَ»

[٢٩١] (٢). سورة التوبة، الآية ١٢٨

[٢٩٢] (١). سورة الأعراف، الآية ١٥٧

[٢٩٣] (١). «منجاة» من مادة (نجا) اسم مكان بمعنى موضع النجاة، ولها معنى مصدرى، ونجاة، بمعنى الخلاص

[٢٩٤] (١). «رهب» من مادة (ترهيب) بمعنى التخويف.

[٢٩٥] (٢). «أسبغ» من مادة (اسبغ) بمعنى الإتيان بالعمل بصورة تامة، واطلقت على النعمة التامة والوضوء التام.

[٢٩٦] (٣). سورة الحديد، الآية ٢٠

[٢٩٧] (١). سورة آل عمران، الآية ١٤٠

[٢٩٨] (٢). «غضوا» من مادة (غض) على وزن حظ، بمعنى الحد والتقليل، وغض البصر، بمعنى عدم تركيز الإنسان على الشيء في النظر إليه، بل يخفض عينيه إلى الأسفل

[٢٩٩] (٣). «كادح» من مادة (كدح) على وزن مدح، السعي المصحوب بالمشقة

[٣٠٠] (٤). أصول الكافي، ج ٢، ص ٣١٦

[٣٠١] (٥). حاشية الكافي، ج ٢، ص ٣١٦، كدود في البيت الثاني صيغة مبالغة من مادة (كد) يعني الجهد

- [٣٠٢] (١) «مصارع» جمع مصرع، موضع الوقوع على الأرض ويطلق أيضاً على المقتل
- [٣٠٣] (٢) «أوصال» جمع وصل، على وزن قفل، العظام وانسجة الأعصاب التي تربط الأعضاء
- [٣٠٤] (٣) «منهاج البراعة» ج ٩، ص ٤١٢
- [٣٠٥] (٤) «جدد» من مادة (جد) على وزن خط، القطع وطى الطريق المستوي، ويقال للطريق المحكم والمستوي، الجادة
- [٣٠٦] (١) «منهاج البراعة» ج ٩، ص ٤١٢
- [٣٠٧] (١) «سند الخطبة»:
- ذكر هذا لعل عليه السلام قبل السيد الرضى، المرحوم الشيخ الصدوق فى كتابه الامالى فى سبب ترك الناس لعل عليه السلام والطبرى فى المسترشد والمرحوم الشيخ المفيد فى الإرشاد، كما ذكروا أن السائل هو (ابن دودان). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٧٧)
- [٣٠٨] (١) «سدد» بمعنى الاستقامة
- [٣٠٩] (٢) «ذمامة» الحق والحرمة
- [٣١٠] (٣) «بنو أسد» قبيلة معروفة بالقتال بالجاهلية والإسلام. عاشت هذه القبيلة قرب نجد واعتنقت الإسلام وقاتلت إلى جانب سعد بن أبى وقاص فى القادسية وقدمت العديد من القتلى. وتاريخ بنى أسد ملئ بالأحداث وقد سارعت فئه من بنى أسد لدفن أجساد شهداء كربلاء، كما كانت فئه منهم فى جيش عبيد الله بن زياد
- [٣١١] (١) «نوط» بمعنى التعلق والالتصاق
- [٣١٢] (٢) «أثرة» بمعنى الاختصاص بالشىء (الاحتكار) دون الغير المستحق على العكس من الإيثار الذى يعنى تقديم الغير على الذات
- [٣١٣] (٣) «شحت» من مادة (شح) بمعنى البخل
- [٣١٤] (٤) «سخت» من مادة (السحاء)
- [٣١٥] (٥) «معود» اسم مكان، موضع العودة
- [٣١٦] (١) «حجرات» جمع حجرة، على وزن ضربة، بمعنى الناحية
- [٣١٧] (٢) «شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٤٤
- [٣١٨] (١) «هلم» تركيب من هاء التنبيه ولم، بمعنى اجمع، وتستعمل هذه المفردة كلمة واحدة بمعنى تعال إلينا وإلى جانبنا
- [٣١٩] (٢) «خطب» على وزن ختم، بمعنى الأمر العظيم، ومنه الخطاب والمخاطبة حيث الحوار المهم
- [٣٢٠] (١) «غرو» بمعنى، التعجب
- [٣٢١] (٢) «يستفرغ» من مادة (فراغ) تعنى هنا، الاخراج ومعنى العبارة، يستفرغ العجب أنه يزيل أى عجب ولا يترك له من مكان
- [٣٢٢] (٣) «أود» من مادة (أود) على وزن قول، بمعنى العوج، وأود على وزن سند، بمعنى الاعوجاج
- [٣٢٣] (٤) «شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٤٧
- [٣٢٤] (٥) «فوار» صيغة مبالغة بمعنى كثير الفوران، كما تعنى عين الماء والثقب الذى يخرج منه الماء بشدة
- [٣٢٥] (٦) «جدحوا» من مادة (جدح) على وزن مدح، بمعنى، الخلط والمزج
- [٣٢٦] (٧) «وبيثا» الشىء الذى يكثر فيه الوباء، طبعاً يطلق الوباء أحياناً على مرض خاص، وأخرى على كل مرض، والمعنى الثانى هو المراد فى الخطبة
- [٣٢٧] (١) «سورة الصف، الآية ٨.

[٣٢٨] (١). سورة النحل، الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء، الآية ٧

[٣٢٩] (٢). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٨٢

[٣٣٠] (٣). الكافي، ج ١، ص ٤١

[٣٣١] (١). الكافي، ج ١، ص ٤٠

[٣٣٢] (٢). ميزان الحكمة، ج ٤، ح ٨٠٣٩

[٣٣٣] (٣). المصدر السابق، ح ٨٠٤١

[٣٣٤] (٤). راجع كتاب توحيد الصدوق، ص ٨٣ باب «معنى الواحد والتوحيد»

[٣٣٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٤٨

[٣٣٦] (١). ورد في شرح ابن أبي الحديد أنه قال: لا والله إله إلا الله

[٣٣٧] (٢). مروج الذهب، ج ٣، ص ٤٥٤؛ شرح نهج البلاغة، ج ٥، ص ١٢٩

[٣٣٨] (١). تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٥ حوادث عام ٢٨٤ هجرية لرسالة كتبت للمعتضد العباسي في فضائح معاوية

[٣٣٩] (٢). مروج الذهب، ج ١، ص ٤٠٣

[٣٤٠] (٣). الاستيعاب، ج ٢، ص ٦٩

[٣٤١] (١). سند الخطبة:

ذكر أبو نعيم الإصفهاني في حلية الأولياء والواسطي في عيون الحكم والمواعظ والزمخشري في ربيع الأبرار جوانب من هذه الخطبة

[٣٤٢] (١). «ساطح» من مادة (سطح) بمعنى معروف، ويقال ساطح، لمن يجعل الشيء مسطحاً

[٣٤٣] (٢). «مهاد» و«مهد» بمعنى الفراش، وتطلق على الأرض موضع السكن والاستراحة، وهذا هو المعنى المراد

[٣٤٤] (٣). «وهاد» جمع وهدة، بمعنى الأراضي المنخفضة

[٣٤٥] (٤). «مخصب» من مادة (خصب) على وزن غضب، بمعنى كثرة النبات، وعليه فالمخصب تطلق على الشخص الذي يملأ

الأرض نباتاً وبركة

[٣٤٦] (٥). «نجد» جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ومصدرها نجد

[٣٤٧] (٦). سورة النبأ، الآية ٦

[٣٤٨] (١). سورة الحديد، الآية ٣

[٣٤٩] (٢). وردت هذه العبارة ضمن خطبة أخرى وبصيغة أخرى في أصول الكافي والتي تدعم التفسير الأول وهي «حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ

خَلْقِهَا لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهَةٍ، وَإِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهَهَا» (أصول الكافي، ج ١، ص ١٣٥)

[٣٥٠] (١). بحار الأنوار، ج ٦٦، ص ٢٩٢

[٣٥١] (٢). «شبح» بمعنى الشخص، وتطلق أحياناً على الشخص الذي لا يبدو واضحاً من بعيد

[٣٥٢] (٣). «يتقصى» من مادة (قصو) على وزن قصد، بمعنى الإبتعاد، وتعني أيضاً، البحث والتحرى عن الشيء

[٣٥٣] (٤). «يحوى» من مادة (حوأه)، الاستيلاء على الشيء

[٣٥٤] (١). «شخص» بمعنى التركيز في النظر على الشيء

[٣٥٥] (٢). «ازدلاف» بمعنى الاقتراب والصعود من نقطة مرتفعة، ويقال (المزدلفة) للمشعر الحرام لاقتراب الناس هناك من منى أو

اقترابهم من الله بهذه العبادة

[٣٥٦] (٣). «ربوة» الموضع المرتفع

- [٣٥٧] (٤). «داج» من مادة (دجو) على وزن علو، المظلم، وليل داج، الليلة المظلمة الخالية من القمر
- [٣٥٨] (٥). «غسق» شدة الظلمة، وتطلق هذه المفردة على منتصف الليل لشدة ظلمته
- [٣٥٩] (٦). «ساج» الساكن، والمراد من الغسق الساج، الظلام الطويل والمستمر
- [٣٦٠] (٧). «يتفياً» من مادة (فيئ) على وزن غيب، العودة، وتفياً بمعنى، الإنتقال والذهاب والإياب
- [٣٦١] (٨). «كرور» له معنى مصدرى، الرجوع
- [٣٦٢] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة التستري، ج ١، ص ٢٧٣
- [٣٦٣] (٢). إعتبر أغلب شراح نهج البلاغة أن هذه العبارة مستقلة تشير إلى عدم حدود الذات المقدسة، إلّا أنّ هذا التفسير لا يبدو صحيحاً، لأنه لو كان كذلك لقال (بعد كل غاية ومدّة) أى أنّ ذاته موجودة بعد كل نهاية كما هي موجودة قبل كل بداية. أمّا من فسّرها كما أوردنا فهو العالم المعروف محمد عبده في شرحه لنهج البلاغة حيث ربط هذه العبارة بعبارة (لا يخفى) وهذا ما عليه ظاهر عبارة العلامة الجعفرى
- [٣٦٤] (٣). «تائل» بمعنى عمران المسكن، ومن مادة ائل على وزن أمل، شجرة معروفة
- [٣٦٥] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ١٠٠ باب النهي عن الصفء
- [٣٦٦] (٢). بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٥ للوقوف على المزيد راجع نفحات القرآن، ج ٣، ص ١٤٩
- [٣٦٧] (١). سورة يونس، الآية ٦١
- [٣٦٨] (٢). سورة فاطر، الآية ٤٤
- [٣٦٩] (٣). سورة الحجر، الآية ٢٤
- [٣٧٠] (١). «سوى» من مادة (تسوية) التنظيم والرعاية لتناسب أجزاء الشيء
- [٣٧١] (٢). «مرعى» على وزن منفى، بمعنى الشيء الذى يرمى ويحافظ عليه
- [٣٧٢] (٣). «سلالة» من مادة (سل) على وزن حل، عصارة الشيء وخلاصته، ومنه معنى الإختيار أيضاً
- [٣٧٣] (٤). «مكين» من مادة (مكانة) بمعنى المنزلة وبمعنى الشخص أو الشيء الذى له منزلة واستقرار وثبات وتحت تصرفه جميع وسائل العمل
- [٣٧٤] (٥). «تمور» من مادة (مور) على وزن قول، بمعنى الحركة السريعة، كما وردت بمعنى الذهاب والإياب. وورد هذا التعبير بشأن الجنين بسبب كونه دائم الحركة داخل الرحم
- [٣٧٥] (٦). «تحير» من مادة (حور) على وزن غور، بمعنى الذهاب والإياب، وكذلك وردت هذه المادة بمعنى الحوار فى الكلام، فعليه (لا تحير) فى العبارة المذكورة بمعنى أن الجنين لا يردّ على أى كلام ولا يقدر على بيان حاجاته
- [٣٧٦] (١). «اجترار» من مادة (جر) بمعنى الجر الشيء وسحبه
- [٣٧٧] (٢). «هيهات» اسم فعل يفيد البعد
- [٣٧٨] (١). سورة الزمر، الآية ٦
- [٣٧٩] (٢). سورة المؤمنون، الآيات ١٢-١٤
- [٣٨٠] (٣). بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢
- [٣٨١] (١). بحار الأنوار، ج ٣، ص ١٦٢
- [٣٨٢] (١). سند الخطبة:

كما ورد سابقاً حين إزداد حجم المخالفات فى أجهزة حكومة عثمان وظهرت للقاصى والدانى، اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه

السلام وطلبوا منه أن يكون سفيرهم إلى عثمان فيعطه وينصحه. وقد نقل هذا الكلام قبل السيد الرضى، البلاذرى في (أنساب الأشراف) والطبرى المؤرخ المعروف (في حوادث سنة ٣٤ هجرية)، وابن عبد ربّه في (العقد الفريد) والمرحوم الشيخ المفيد في (الجمال). (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٨٧)

[٣٨٣] (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٠٠ و ٤٠١، في بيان حوادث سنة ٣٥

[٣٨٤] (٢). «استسفروني» من مادة (سفارة) والسفير، يقال لشخص يقوم بالوساطة بين شخصين أو بلدين

[٣٨٥] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٦٣

[٣٨٦] (١). الغدير، ج ٦، ص ٢٦٣

[٣٨٧] (٢). الغريب أن كلمة «أبي» التي وردت في نسخة صبحى الصالح لم ترد في أى من سائر النسخ. فلم ينقلها هنا المرحوم الشارح البحرانى والخوئى والعلامة الجعفرى ومحمد عبده وابن أبي الحديد ومغنية والتستري وصاحب مصادر نهج البلاغة، ويبدو أنها من زلات صبحى الصالح، سيما بالنظر إلى أن مثل هذه التعبيرات لم ترد في كلمات على عليه السلام بالنسبة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله

[٣٨٨] (١). كان عثمان زوج رقيه بعد أم كلثوم بنتى النبي صلى الله عليه وآله

[٣٨٩] (١). ميزان الحكمة، ج ٦، ح ١١٩٧٣

[٣٩٠] (١). روى الطبرى هذه الخطبة مع الحديث في (تاريخه)، ج ٣، ص ٣٧٦ حوادث سنة ٣٤

[٣٩١] (٢). «أنشد» بصورة ثلاثى مجزّد على وزن أقتل من مادة (نشد)، على وزن قتل، بمعنى التذكير والطلب وإنشادضالته، بمعنى كسب الإطلاع من الناس بشأن الضالّة

[٣٩٢] (١). سنن أبى داود، ج ٤، ح ٤٢٥٢

[٣٩٣] (٢). «يموجون» من مادة (موج) بمعنى الحركة، كما تستعمل بمعنى الاضطراب والحيرة والكنايّة

[٣٩٤] (٣). «يمرجون» من مادة (ورج) على وزن فلج، بمعنى الاختلاط أو البعث والترك، ولما كان الاختلاط وترك الشىء يؤدى إلى الفساد، فإنّ هذه المفردة تستعمل بمعنى الفساد

[٣٩٥] (٤). يفهم من بعض كلمات شراح نهج البلاغة أنّ هذه العبارة جزء من حديث النبي صلى الله عليه وآله لكن بالنظر إلى أنّ الحديث المذكور ورد في بعض المصادر المعروفة (كسنن أبى داود) دون ذيلها، فالذى يستفاد أنّ حديث النبي صلى الله عليه وآله ينتهى بالعبارة (إلى يوم القيامة)

[٣٩٦] (١). نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٤٤ علل القيام ضد عثمان، ج ٢، ص ١٥٢ عوامل قتل عثمان وكذلك الجزء الثانى بعنوان الأعمال التى مارسها عثمان ودعت إلى الغضب العارم

[٣٩٧] (٢). «سيقة» على وزن (سيده) صفة مشبهة من مادة سوق، على وزن فوق، بمعنى ما يستاق من الدواب إلى هذا الجانب أو ذاك، وتعنى أحياناً ما يستاقه العدو من الحيوانات

[٣٩٨] (٣). «جلال» بمعنى الكبر، وجلال السن، بمعنى السن الرفيعة

[٣٩٩] (٤). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٤١ وهنالك أقوال أخرى فى سن عثمان آنذاك وأغلبها ترى أنّ عمره كان ٨٢ سنة

[٤٠٠] (١). تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ٤٠٤ حوادث سنة ٣٥ هجرى

[٤٠١] (١). تاريخ الطبرى حسب نقل ابن أبي الحديد، ج ٨، ص ٢٦٤

[٤٠٢] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٦٥

[٤٠٣] (٢). راجع بشأن قتل عثمان وأسباب القيام عليه وأعماله التى جعلت العامة تنقم عليه الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب فى

الصفحات التي ذكرتها سابقاً

[٤٠٤] (١). سند الخطبة:

روى الزمخشري من أعلام القرن السادس بعض هذه الخطبة في كتابه «ربيع الأبرار» حيث نقل أغلب كلمات الإمام عليه السلام باختلاف بحيث يفهم أنه رواها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ورغم أنه عاش بعد الشريف الرضى لكن من المستبعد أن يستند إلى كتب الشيعة لموقفه المعادي لهم، وفسر ابن اثير بعض مفردات هذه الخطبة في كتابه (النهاية)، ويفهم من عباراته أنه اقتبسها من مصدر آخر، ذلك لأنه ذكر كلمات لم ترد في الخطبة التي رواها السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٠)

[٤٠٥] (١). «نعقت» من مادة (نق) على وزن برق، تعنى فى الأصل صوت الغراب، ثم أطلقت على الأصوات التى تقال لأمر الحيوانات ونهيتها عن الحركة

[٤٠٦] (٢). «ذراً» من مادة (ذراً) على وزن زرع، الخلق والإيجاد

[٤٠٧] (٣). «أخاديد» جمع (أخدود) الشق الواسع والعميق فى الأرض ويطلق على الوادى

[٤٠٨] (٤). «خروق» جمع (خرق) على وزن زرع، الصحراء الواسعة، كما تعنى الشقوق

[٤٠٩] (٥). «فجاجها» جمع (فج) على وزن حج، الطريق الواسع، وتعنى فى الأصل الوديان الواسعة بين الجبال التى كانت تجتازها القوافل

[٤١٠] (٦). «رواسى» جمع (راسية) تعنى الثابت والراسخ، ولذلك تطلق على الجبل

[٤١١] (٧). «أعلام» جمع (علم) على وزن قلم، بمعنى العلامة وتطلق على القمم والجبال

[٤١٢] (٨). احتمال البعض بشأن إعراب ما ذراً أنها عطف على (ما انقادت)، كما قالوا إنها معطوفة على الضمير فى دلائله أو كلمة دلائله، ولا يبدو هذا الاحتمال مستبعداً أنها مبتدأ لخبر محذوف وتقدير الجملة وما ذراً ... من آثار صنعه وعظمته

[٤١٣] (١). «مصرفه» من مادة (صرف) على وزن حرف، بمعنى التغيير وتأتى معرفةً بمعنى الأشكال المختلفة

[٤١٤] (٢). «مرفرفة» من مادة (ررفة) بمعنى الجناح، وبسطه، كما وردت بمعنى القماش الجميل والملون، والمعنى الأول هو المراد فى العبارة

[٤١٥] (٣). «مخارق» جمع (مخرق) على وزن مشرب، الفلاة والصحراء الشاسعة

[٤١٦] (٤). «منفسح» من مادة (فسح) على وزن مسح، بمعنى الواسع

[٤١٧] (٥). سورة النحل، الآية ٧٩

[٤١٨] (٦). «حقاق» جمع (حق) على وزن، حب، مجتمع المفصلين

[٤١٩] (٧). «عبالة» بمعنى الثقل والضخامة

[٤٢٠] (٨). «خفوف» السرعة والخفة التى تكون غالباً لازماً وملزوماً

[٤٢١] (١). «دفيف» بسط الجناح و لما كانت الطيور تبسط اجنحتها قرب سطح الأرض فإنّ هذه المفردة تطلق على مرور الطائر فوق الأرض.

[٤٢٢] (٢). «نسقها» من مادة (نسق) على وزن غسق، الترتيب سواء فى الصفوف أو العبارات والكلمات وغيرها.

[٤٢٣] (٣). «أصبايغ» جمع اصباغ، و اصباغ جمع صبغ، على وزن فعل اللون.

[٤٢٤] (٤). «مغموس» من مادة (غمس) على وزن لمس، غمر الشيء فى الماء، وقد شبه الإمام لون الطيور و كأنّها مرتبة فى قالب من اللون فأخرجت بهذا الشكل.

[٤٢٥] (٥). «قالب» على وزن فالج، ما يصب فيه الفلز ليظهر بالشكل المطلوب

- [٤٢٦] (١). القاموس الثقافي وكتب أخرى
- [٤٢٧] (١). في ضلال نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٦٧
- [٤٢٨] (١). «نضد» من مادة (تنضيد) بمعنى نظم الأشياء وترتيبها مع بعضها
- [٤٢٩] (١). «اشرج» من مادة (اشراج) بمعنى خلط الأشياء مع بعضها أو إدخال الحبال والخيوط بكيس أو صندوق مع بعضها وإحكام غلقها
- [٤٣٠] (٢). «قصب» بمعنى ساق النبات الأجوف
- [٤٣١] (٣). «مسحب» من مادة (سحب) على وزن (سهو) السحب على الأرض، وله هنا معنى المصدر أو اسم المصدر
- [٤٣٢] (٤). «درج» من مادة (درج) على وزن خرج، المشى إلى موضع معين أو صعود السلم، والمعنى الأول هو المراد في عبارة الخطبة، كما يطلق على حركة الطفل البطيئة
- [٤٣٣] (٥). «طى» بمعنى اللوى من طيه، وفي الخطبة بمعنى بعد طيه، إشارة إلى أن الطاووس يفتح جناحيه المركبين
- [٤٣٤] (٦). «مطل» من مادة (طل) على وزن حل، بمعنى المشرف والنظر من الأعلى والمعنى الأول هو المراد في العبارة
- [٤٣٥] (٧). «قلع» شراع السفينة
- [٤٣٦] (٨). «دارى» ينسب إلى (دارين) فى البحرين مركز تجارة المسك ومفهوم العبارة أن الطاووس ينشر مظلته كأنه شراع السفينة التى تجلب العطر من دارين
- [٤٣٧] (٩). «عنج» من مادة (عنج) على وزن رنج، السحب والغلق
- [٤٣٨] (١٠). «نوتى» ربان السفينة من مادة (نوت) على وزن فوت الحركة هنا وهناك واطلاق هذه المفردة على الربان لأنه يحرك السفينة كيفما يشاء
- [٤٣٩] (١). «يختال» من مادة (اختيال) بمعنى التكبر والغرور الذى يظهر عادة من الخيال الفارغ
- [٤٤٠] (٢). «يميس» من مادة (ميس) على وزن حيث الحركة والغرور
- [٤٤١] (٣). «زيفان» المشى المتبختر تأكيد لعبارة يميس
- [٤٤٢] (٤). «يفضى» من مادة (افضاء) كناية عن اللقاح وتعنى فى الأصل التوسعة
- [٤٤٣] (٥). «يؤر» من مادة (أر) على وزن شر، الجماع واللقاح
- [٤٤٤] (٦). «ملافتح» جمع ملقحة، من مادة (اللقاح)، الآلة التناسلية وتعنى الحمل
- [٤٤٥] (٧). «مغتملة» من مادة (غلمة) على وزن لقمة، شدة الشهوة، وفحول مغتملة بعض الحيوانات التى تندفع من شبقية الشهوة
- [٤٤٦] (٨). «الضراب» لقاح الفحل لأنثاه
- [٤٤٧] (٩). «تسفع» من مادة (سفع) على وزن محو، نبع الدموع والسفاح، سفك الدم
- [٤٤٨] (١٠). «مدامع» جمع مدمع، على وزن منبر، مجرى الدمع
- [٤٤٩] (١١). «ضفة» ساحل النهر أو البحر، حيث شبه الأجنان بجانبى النهر
- [٤٥٠] (١٢). «جفون» جمع جفن، معروفة فى العين
- [٤٥١] (١٣). «منبجس» من مادة (انبجاس) وأصله بجس على وزن نحس، نبع الماء بصورة رقيقة وشفافة
- [٤٥٢] (١٤). «مطاعم» من مادة (طعم) بمعنى تناول الطعام مع الآخرين، ومن ثم أطلق على عمل الطيور التى تضع مناقيرها فى مناقير الأخرى وكأن كل واحد يطعم الآخر
- [٤٥٣] (١). وعليه فما ذكر جواب القضية الشرطية «ولو كان ...» جملة «لما كان ذلك بأعجب ...»

[٤٥٤] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٧٠

[٤٥٥] (١). «قصب» بمعنى عمود الريش

[٤٥٦] (٢). «مدارى» جمع مدرى، على وزن املاء، بمعنى المشط

[٤٥٧] (٣). «دارت» جمع داره، بمعنى الحلقة أو الهالة لطرف القمر

[٤٥٨] (٤). «عقيان» بمعنى الذهب

[٤٥٩] (٥). «فلذ» جمع فلذة، على وزن بدعه، بمعنى القطعة

[٤٦٠] (٦). «زبرجد» حجر ثمين للزينة له عدة ألوان و أشهره الأخضر، و من هنا يُشبه كل شيء أخضر اللون جميل بالزبرجد

[٤٦١] (١). «جنى» بمعنى الحصاد، وقيل باقء الزهور

[٤٦٢] (٢). «ظاهيته» من مادة (مظاهاه) بمعنى، التشبيه

[٤٦٣] (٣). «موشى» بمعنى المنقوش من مادة (وشى)، بمعنى النقش والنميمة أيضاً

[٤٦٤] (٤). «موتق» بمعنى الجميل والعجيب من مادة اتق

[٤٦٥] (٥). «فصوص» جمع فص على وزن نص، فص الخاتم

[٤٦٦] (٦). «لجين» بمعنى الفضة

[٤٦٧] (٧). «مكلل» ذواتج من مادة (إكليل)، بمعنى التاج، كما يطلق على ما يزين بالمجوهرات

[٤٦٨] (١). «مرح» بمعنى سكر النعمة والقدرة، من مادة (مرح) على وزن فرح، بمعنى شدة السرور

[٤٦٩] (٢). «مختال» المتكبر والزاهى بنفسه، من مادة (خيال)

[٤٧٠] (٣). قال الراغب فى المفردات: الثوب ويطلق على مطلق اللباس

[٤٧١] (٤). «أصايغ» جمع أصباغ، و «أصباغ» جمع صبغ، بمعنى اللون

[٤٧٢] (٥). «وشاح» شريط عريض جميل يلقى على الكتف ويحمل

[٤٧٣] (٦). «زقا» من مادة (زقو) على وزن ضعف، بمعنى الصيام

[٤٧٤] (٧). «معول» بمعنى رفع صوته بالبكاء، وأصله عويل

[٤٧٥] (٨). «حمش» جمع أحمش الشخص أو الشيء النحيف الرجل كما وردت بمعنى اللون الغامق

[٤٧٦] (٩). «الخلاسى» الديك المتولد من دجاجتين هندية وفارسية

[٤٧٧] (١٠). «نجمت» من مادة (نجم) على وزن حجم، بمعنى نبتت

[٤٧٨] (١١). «ظنوب» الإنحراف والإعوجاج

[٤٧٩] (١٢). «صيصية» شوكة فى رجل الديك وتعنى أيضاً، المشط الذى يصفف به القماش قبل نسجه

[٤٨٠] (١). «العرف» ما على الرأس من شعر

[٤٨١] (٢). «قنزعة» الخصلة من الشعر

[٤٨٢] (٣). «موشاة» بمعنى منقوشة

[٤٨٣] (١). «ابريق» وقال البعض فيها أن أصلها فارسى (أبريز) الذى يستعمل لغسل اليد أو الفم قبل تناول الطعام أولرش الورد فى

الضيافة وقد صنع أنبوبها بانحناء خاص وشكل جميل

[٤٨٤] (٢). «مغرز» بمعنى موضع الغرز

[٤٨٥] (٣). «وسمة» لون خاص تخصب به اللحية والحاجب

- [٤٨٦] (٤). «صقال» بمعنى الجلاء
- [٤٨٧] (٥). «متلفع» بمعنى الملفوف، من مادة (لفع) على وزن نفع، الاحاطة وستر جميع الأشياء
- [٤٨٨] (٦). «معجر» بمعنى المقنعة والربطة
- [٤٨٩] (٧). «اسحم» بمعنى الأسود
- [٤٩٠] (٨). «مستدق» بمعنى النحيف والرقيق، من مادة (دق)، على وزن حق
- [٤٩١] (٩). «الاقحوان» بمعنى البابونج
- [٤٩٢] (١٠). «يقق» بمعنى شديد البياض، من مادة (يقوقه)
- [٤٩٣] (١١). «يأتلق» بمعنى يلمع، من مادة (التق)، على وزن دلق
- [٤٩٤] (١٢). «بريق» بمعنى لمعان، من مادة (برق)
- [٤٩٥] (١٣). «بصيص» بمعنى اللمعان
- [٤٩٦] (١٤). «رونق» بمعنى الحسن، من مادة (رنق)، على وزن فتق
- [٤٩٧] (١٥). «قيظ» بمعنى شدة الحرارة
- [٤٩٨] (١). «ينحسر» يعني يعرى ويتكشف، من مادة (حسر)، على وزن حشر، بمعنى الثرى
- [٤٩٩] (٢). «تترى» من مادة (وتر)، بمعنى الواحد، وتأتى بمعنى الواحد تلو الآخر
- [٥٠٠] (٣). «ينحت» يعني يتقشر، من مادة (نحت)، على وزن تخت، التقشر
- [٥٠١] (١). «عسجديه» من عسجد، الذهب
- [٥٠٢] (٢). «عمائق» جمع عميقة، الدقيق والعميق
- [٥٠٣] (٣). «قرائح» جمع قريحه، بمعنى الذهنية والذكاء الذى أودعه الله فى الفطرة
- [٥٠٤] (٤). على ضوء التفسير المذكور فإن جميع الضمائر تعود إلى الطاووس، وهذا ما فهمه أغلب شراح نهج البلاغة وإن مروا عليه بنوع من الإجمال والإبهام، كما يحتمل أن يعود الضمير فى العبارة (أعجز الألسن عن تلخيص صفته) وكذلك العبارة (عن تادية نعته إلى الله تعالى). وعليه فمفهوم العبارة: أتى للعقل بإدراك كنه الذات والصفات وهى عاجزة عن إدراك صفات المخلوق
- [٥٠٥] (١). «بهر» من مادة (بهر)، على وزن نهر، بمعنى الغلبة والقهر
- [٥٠٦] (٢). «جلاه» يعنى أظهره، من مادة (جلاه)
- [٥٠٧] (٣). «تلخيص» ورد بمعنى الشرح، وكذلك الخلاصة والمعنى الأول الأول هو المراد هنا
- [٥٠٨] (١). جواهر الكلام، ج ٣٦، ص ٣٠٩؛ راجع حياة الحيوان للدميرى، وقاموس دهخدا، والزولوجى الحديث
- [٥٠٩] (١). «ادمج» من مادة «دموج»، بمعنى الاستحكام
- [٥١٠] (٢). «قوائم» جمع قائمة، بمعنى العمود، وهنا إشارة إلى الأيدى والارجل التى تعتبر أعمدة البدن
- [٥١١] (٣). «ذرة» صغار النمل، وبمعنى الغبار، كما تطلق على الذرة فى الكيمياء
- [٥١٢] (٤). «همج» ذباب صغير، وجمعه همج
- [٥١٣] (٥). «حيتان» جمع حوت معروفه
- [٥١٤] (١). سورة يوسف، الآية ١٠٥
- [٥١٥] (٢). «وأى» من مادة «وأى»، على وزن سعى، بمعنى الوعد
- [٥١٦] (٣). «شبح» بمعنى الشخص، وكل شىء يترأى للإنسان ويدركه الحس

[٥١٧] (١). «الموسوعة» المسماة (موسوعة ومفردات قاموس عميد)

[٥١٨] (١). «عزفت» من مادة (عزف)، على وزن حذف، الترك والانصراف عن شيء، كما وردت بمعنى اللعب واللهو

[٥١٩] (٢). «ذهلت» من مادة (ذهل)، بمعنى غفلة العقل وترك الشيء ونسيانه

[٥٢٠] (٣). «اصطفاق» بمعنى اضطراب شيء بحيث يحدث صوتاً كالتصفيق أو تضارب أوراق الأشجار

[٥٢١] (٤). «كثبان» جمع كتيب، بمعنى التل، من مادة (كثب)، على وزن حرب، بمعنى الجمع

[٥٢٢] (٥). «كبائس» جمع كباسة، على وزن حماية، بمعنى عنقود الفاكهة وما شابهه

[٥٢٣] (٦). «عساليج» جمع عسلوج، على وزن بهلول، بمعنى غصن الشجرة

[٥٢٤] (٧). «أفنان» جمع فن وفنن، على وزن قلم، بمعنى الغصن الطرى المليء بالأوراق، ويقال الفنون لمختلف فروع العلم والمعرفة

والصناعة وما شاكل ذلك

[٥٢٥] (٨). «غلف» جمع غلاف، من مادة (غلف)، على وزن قصر، بمعنى الغطاء

[٥٢٦] (٩). «اكمام» جمع كم، على وزن جن، بمعنى الوعاء الذي يغطي الفاكهة، وجمع كم على وزن أم بمعنى الرदन التي تغطي اليد

[٥٢٧] (١٠). «تجنى» من مادة (جنى) على وزن نهي، بمعنى قطف الثمار

[٥٢٨] (١١). سورة الحاقة، الآية ٢٣

[٥٢٩] (١). سورة الرحمن، الآية ٥٤

[٥٣٠] (٢). «افنية» جمع فناء، على وزن غناء، بمعنى الساحة ومقدمة الدار

[٥٣١] (٣). «مروقة» بمعنى المصفاء، من مادة (روق)

[٥٣٢] (٤). سورة الدهر، ٥ و ٦ و ١٧ و ١٨ و ٢١

[٥٣٣] (٥). سورة الواقعة، الآية ١٩

[٥٣٤] (٦). «نقلة» من النقل وتأتي أحياناً بمعنى النميمة

[٥٣٥] (٧). سورة الاسراء، الآية ٧٠

[٥٣٦] (١). «مونقة» بمعنى المعجبة، من مادة (أثق)، على وزن شفق، الإعجاب بالشيء

[٥٣٧] (٢). «زهقت» من مادة (زهوق) على وزن غروب، بمعنى الهلكة

[٥٣٨] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣

[٥٣٩] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٢٨٠

[٥٤٠] (٢). المصدر السابق

[٥٤١] (١). سند الخطبة:

نقل هذه الخطبة قبل المرحوم السيد الرضى، مسلم ابن قيس فى كتابه، كما روى صاحب الكافى جوانب منها فى الجزء الثامن. وقال

صاحب مصادر نهج البلاغة يستفاد من رواية الكافى والشيخ المفيد فى الإرشاد أن هذه الخطبة وما ورد فى الخطبة ٨٦ (طبق نسخة

صبحى الصالح ٨٨) خطبة واحدة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٣)

[٥٤٢] (١). «ليتاس» من مادة (اسوة) على وزن عروء، بمعنى اتباع الغير والاقتداء به

[٥٤٣] (٢). «ليرأف» من مادة (رأفة) بمعنى العطف والشفقة

[٥٤٤] (١). «جفاء» جمع جافٍ، من مادة (جفاء)، بمعنى الغلظة، ويقال للشخص العنيف، الجافى

[٥٤٥] (٢). «قيض» قشرة البيضة، وتأتى بمعنى كسر البيضة أيضاً

- [٥٤٦] (٣). «أداح» جمع دَحَى، على وزن نَهَى، بمعنى مبيض الانعام فى الرمال، ومن مادة (دحو) على وزن سَهَو، بمعنى السعة
- [٥٤٧] (٤). «حضان» بمعنى البيض تحت بطن الطائر ليفقس عن فرخ، ومن مادة (حضانة) بمعنى ما تحت الجناح والريش
- [٥٤٨] (١). «قزع» جمع قزعة، على وزن ثمره، بمعنى قطعته من السحاب، كما تطلق على الأشياء التى لها قطع متناثرة
- [٥٤٩] (٢). «الخريف» هو أحد فصول السنة المعروفة
- [٥٥٠] (٣). «ركام» من مادة (ركم) على وزن مكر، بمعنى الأشياء المتراكمة
- [٥٥١] (٤). «مستثار» بمعنى موضع الغليان والخروج، من مادة (ثور)، على وزن فور، بمعنى الهيجان
- [٥٥٢] (٥). قارة بمعنى الجبل الصغير
- [٥٥٣] (٦). «أكمة» بمعنى التل والهضبة
- [٥٥٤] (٧). «سنن الطرق» بمعنى المسير المادى والمعنوى
- [٥٥٥] (٨). «رص» من مادة (رصاص) بمعنى المحكم
- [٥٥٦] (٩). «طود» بمعنى الجبل العظيم
- [٥٥٧] (١٠). «حداب» جمع حدب، على وزن هدف، بمعنى الأرض المرتفعة
- [٥٥٨] (١١). «يدعذع» من مادة (ذعذعة) بمعنى التفرق
- [٥٥٩] (١٢). «أودية» جمع وادٍ، معروف
- [٥٦٠] (١). «الألية» بمعنى الشحم المعروف
- [٥٦١] (١). نفحات الولاية، ج ٣، ص ٣٥٨-٣٦٠
- [٥٦٢] (٢). راجع كتاب المعارف والمصاريف، ج ١، ص ٤٨١ والموسوعة الإسلامية الكبرى، ج ٦، ص ٢٢٧
- [٥٦٣] (١). بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣١٠
- [٥٦٤] (١). «تهتم ومناه» كلاهما من مادة (تیه)، تعنى فى الأصل، الزهو والتكبر، ثم استعملت بمعنى الحيرة والضلال عن الطريق وهذا هو المراد بها فى العبارة، أى احترتم كحيرة بنى إسرائيل (مناه مصدر ميمي)
- [٥٦٥] (٢). «أضعاف» جمع ضعف، على وزن فعل، معروف
- [٥٦٦] (٣). «اعتساف» من مادة (عسف) على وزن وصف، بمعنى الضلال
- [٥٦٧] (٤). «فادح» بمعنى ثقيل وشاق، وهى هنا تأكيد لكلمة ثقل
- [٥٦٨] (٥). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٢٨٦؛ منهاج البراعة، ج ١٠، ص ٨٣
- [٥٦٩] (١). سند الخطبة:
- قال المرحوم عبد الزهراء الحسينى: لم أعثر فى كتاب مصادر نهج البلاغة على سند قبل السيد الرضى للخطبة سوى ما ذكره المؤرخ الطبرى فى حوادث سنة ٣٥ هجرية (ج ٥، ص ١٥٧). وبنبغى الإلتفات إلى أن بعض هذه الخطبة مر سابقاً فى الخطبة ٢١
- [٥٧٠] (١). «النهج» بمعنى الطريق الواضح، من مادة (نهج)، على وزن خرج، الواضح
- [٥٧١] (٢). «اصدقوا» من مادة (صدف) على وزن صبر، بمعنى الإعراض
- [٥٧٢] (١). «مدخول» بمعنى معيب، من مادة (دخل) على وزن نخل، بمعنى الفساد من الداخل. ولهذه المفردة معانٍ أخرى منها الدخول فى المكان
- [٥٧٣] (٢). سورة الأعراف، الآية ١٥٧
- [٥٧٤] (٣). «حرم» بفتح الراء جمع حرمة بمعنى الاحترام، وحرم بضم الراء، جمع حرام بمعنى الممنوع، و«احرام» جمع حرم على وزن

قلم، بمعنى الناحية الممنوعة

[٥٧٥] (٤). «معاهد» جمع (معقد) على وزن مجلس، بمعنى موضع اغلاق الشئ، كالحزام الذى يربط الظهر، وفى العبارة إشارة إلى

رابطة الإخلاص والتوحيد لحقوق المسلمين

[٥٧٦] (١). بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٢٢٧

[٥٧٧] (٢). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣١٢ (الحديث الثالث من الباب الثالث من أبواب مقدمات الحدود)

[٥٧٨] (١). «تحدوا» من مادة (حدو) حدى، على وزن حذو، بمعنى طرد الشر أو الصوت الخاص للحادى ثم أطلق على كل سوق

[٥٧٩] (٢). لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الضمير «هو» مذكر يعود إلى أمر وعليه لا بدّ أن تكون خاصة مجرورة لا مفتوحة كما ورد فى

النص

[٥٨٠] (١). نفحات الولاية، ج ٢، ص ٥

[٥٨١] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩٧

[٥٨٢] (٣). «بقاع» جمع (بقة) بمعنى مساحة من الأرض متميزة عنها، ووردت فى العبارة بمعنى مطلق الأرض العامرة

[٥٨٣] (٤). «بهائم» جمع (بهيمة) بمعنى الحيوانات، ويشتمل السباع والطيور

[٥٨٤] (١). وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣٩٤

[٥٨٥] (٢). ورد فى بعض المصادر اللغوية أن التورك على الدابة، وضع الرجل على الأخرى فوق سرج الدابة

[٥٨٦] (٣). اصول الكافي، ج ٦، ص ٥٣٩

[٥٨٧] (٤). المصدر السابق، ص ٥٣٧، ح ١

[٥٨٨] (٥). وسائل الشيعة، أحكام الخلو، الباب ١٥

[٥٨٩] (٦). المصدر السابق، كتاب الجهاد، الباب ١٦ و ١٥ باب جهاد العدو

[٥٩٠] (١). سند الخطبة:

المصدر الوحيد الذى ذكرها غير نهج البلاغة، تاريخ الطبرى فى حوادث سنة ٣٥هـ (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٠٦)

[٥٩١] (١). «مجلبون» من مادة (جلب) على وزن كلب، بمعنى السوق والطرود وتطلق على الأفراد الذين يغيرون مواقفهم بسهولة،

وجلب، على وزن غضب، وإجلاب، بمعنى الجمع، ومجلبون، هنا إشارة إلى الثوار الذين جمعوا الناس ضد عثمان

[٥٩٢] (٢). منهاج البراعة، ج ١٠، ص ١٠٢. روى الحديث المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣

[٥٩٣] (٣). «يسومونكم» من مادة (سوم) على وزن قوم، بمعنى البحث عن الشئ، كما وردت بمعنى تكليف الآخرين بعمل

[٥٩٤] (١). «يهدأ» من مادة (هدوء)، معروفة

[٥٩٥] (٢). «مسمح» من مادة (سماح وسماحة) السهولة واليسر، وتعنى أحياناً السخاء والكرم أو الموافقة، والمعنى الأول هو المراد بها

فى العبارة

[٥٩٦] (٣). «تضعض» من مادة (ضعضة) بمعنى الهدم والتخريب

[٥٩٧] (٤). «منه» بمعنى القوة

[٥٩٨] (٥). نفحات الولاية، ج ١، ص ٢٨٩

[٥٩٩] (٦). «كى» على وزن حى، احراق بدن الإنسان أو الحيوان بحديده ساخنة وما شابه ذلك

[٦٠٠] (١). قال المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار إنها وردت فى أغلب النسخ: آخر الداء الكى، بمعنى أن ختام الألام الصعبة

الحرق، لكن هذا المعنى مستبعد (بحار الأنوار، ج ٣١، ص ٥٠٣)

[٦٠١] (٢). العقد الفريد، ج ٥، ص ١١٣

[٦٠٢] (١). سند الخطبة:

لم يذكر هذه الخطبة، سوى الطبري في حوادث سنة ٣٦ في تاريخه ج ٣، ص ٤٦٥ (ذكر الطبري، القسم الأول من الخطبة فقط)

[٦٠٣] (١). «هالك» من مادة (هلاك) تعنى فى الأصل الموت والفاء، لكنّها ترد أحياناً بمعنى الهلكة المعنوية وهى الضلال والبؤس

والشقاء، والمراد بها فى العبارة الهلكة المعنوية، فمعنى لا يهلك عنه إلّا الهالك أنّه لا يضل ألاً من استعد للضلال والهلكة

[٦٠٤] (٢). «مبتدعات» من مادة (بدع) على وزن بدر، ظهور الشىء دون سابقه، وتطلق فى الردّ على ما خالف الكتاب والسنة، وعليه

فالمبتدعات الطرق المخالفة للكتاب والسنة

[٦٠٥] (٣). «مشبهات» البدع التى تلبس ثوب الدين وتوجب الضلال

[٦٠٦] (١). «ملومة» من مادة (لوم) على وزن قوم، معروفة

[٦٠٧] (٢). «أرز» من مادة (أرز) على وزن فرض، بمعنى الجمع

[٦٠٨] (٣). سورة إبراهيم، الآية ٧

[٦٠٩] (١). «تمالؤوا» من مادة (ملاؤ) تعاونوا على أمر، وعليه فمفهوم تمالؤوا أنهم اتحدوا وتعاونوا

[٦١٠] (٢). «سخطة وسخط» بمعنى واحد الغضب

[٦١١] (٣). «فيالئ» ضعف الفكر

[٦١٢] (١). «نعش» بمعنى الرفع والحمل، ويقال لجسد الميت، النعش، لرفعه على الأيدي وحمله إلى القبر

[٦١٣] (١). سند الخطبة:

أوردها العديد قبل السيد الرضى، ومنهم المرحوم الشيخ المفيد فى كتابه الجمل عن جمل الواقدي (كتاب الجمل للشيخ المفيد، ص

١٥٦) ورواها الطبري فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٦ هجرية، والزمخشري فى ربيع الأبرار فى باب الجوابات المسكتة

[٦١٤] (١). «رائد» من مادة (رود) على وزن ذوب، بمعنى اللقاء، وتطلق عادة على من ينطلق أمام القافلة أو الجيش ويستطلع المكان

المناسب من حيث الماء والغذاء

[٦١٥] (٢). «كلاء» النبات الطويل

[٦١٦] (٣). «معاطش» جمع (معطش) الموضع الذى يعطش فيه الإنسان

[٦١٧] (٤). «مجادب» جمع (مجدب) المكان الذى لم ينزل إليه المطر فهو جاف لا نبات فيه

[٦١٨] (١). شرح نهج البلاغة للخوئي، ج ١٠، ص ١١٥ بتلخيص طفيف

[٦١٩] (١). اصول الكافي، ج ١، ص ٣٤٣

[٦٢٠] (٢). سورة الأعراف، الآيات ٥٤-٥٦

[٦٢١] (١). سند الخطبة:

روى هذا الدعاء قبل السيد الرضى، كل من نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، وحسين بن سعيد الأهوازي فى كتاب الدعاء والذكر،

حسب نقل السيد ابن طاووس رحمه الله فى منهج الدعوات، والطبري فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ هـ. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢،

ص ٤١١)

[٦٢٢] (١). «جو» بمعنى السماء، وردت بمعنى الهواء

[٦٢٣] (٢). «مكفوف» بمعنى المتراكم، كما جاء بمعنى المقيد، ومن مادة (كفّ)، بمعنى الجمع أو المنع

[٦٢٤] (٣). «مغيض» بمعنى موضع نفوذ الماء، كأنّ الجو كالأرض يتلغ فى صدره الليل والنهار، وهذه المفردة من مادة (غيض) على

وزن فيض، بمعنى استقرار الماء في عمق الأرض

[٦٢٥] (١). «سبط» بمعنى القبيلة والطائفة، وتعنى في الأصل، اتساع الشيء بسهولة، ولما كانت الطوائف تتسع فقد اطلقت عليها هذه المفردة

[٦٢٦] (٢). «يسأمون» من مادة (سأمة) بمعنى التعب عن مواصلة العمل

[٦٢٧] (٣). راجع التفسير الامثل، ذيل الآية ٣٢ من سورة سبأ

[٦٢٨] (١). «مدرج» من مادة (دروج) بمعنى طى الطريق، ومدرج، يطلق على موضع طى الطريق

[٦٢٩] (٢). «هوام» جمع (هامء) الحيوانات الصغيرة كالفأرة والحية

[٦٣٠] (٣). «رواسي» جمع (راسية) الثابت والراسخ

[٦٣١] (٤). «أوتاد» جمع (وتد) على وزن نمذ، المسمار، ومن مادة (وتد)، على وزن وقت، بمعنى تثبيت الشيء

[٦٣٢] (٥). سورة النبأ، الآية ٧

[٦٣٣] (١). «ذمار» ما يجب على الإنسان حفظه كالأهل والعرض والوطن، ومن ذمر، على وزن رمل، بمعنى اللوم والتوبيخ، فهي تطلق بهذا المعنى على من يقصر في حفظ الأهل والشرف والوطن حيث يستحق اللوم

[٦٣٤] (٢). «غائر» بمعنى الغيور

[٦٣٥] (٣). «حقايق» جميع حقيقة، تشير هنا إلى النوازل التي تحل بالإنسان أو المجتمع والوطن

[٦٣٦] (٤). «حفاظ» من مادة (حفظ) تعنى هنا، الوفاء بالعهد ورعاية الذمة

[٦٣٧] (١). سورة البقرة، الآية ١٩٣

[٦٣٨] (٢). سورة البقرة، الآية ١٩١

[٦٣٩] (٣). نهج البلاغة، الرسالة ١٤

[٦٤٠] (١). سند الخطبة:

يبدو أن هذه الخطبة جانب من كتاب كتبه الإمام عليه السلام في أواخر أيام خلافته ذكر فيه الأحداث التي وقعت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر أن تقرأ على الناس، وقد رد الإمام عليه السلام على عبدالرحمن بن عوف حين قال له يوم الشورى: إنك على هذا الأمر لحريص، بذلك الجواب الذي ورد في الخطبة. رواها الطبري في كتاب المسترشد (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٤)

[٦٤١] (١). «قرعته» من مادة (قرع) على وزن فرع، بمعنى ضرب الشيء على آخر بحيث يتولد صوت شديد. وتستعمل هذه المفردة في الأمور المعنوية، أى تستعمل بشأن الأدلة الواضحة والدامغة كالخطبة المذكورة

[٦٤٢] (٢). «هب» من مادة (هبوب) بمعنى حركة الرياح، أحياناً، وأخرى بمعنى الهيجان، وكذلك البهت أو النهوض من النوم، والمعنى الثانى هو المراد فى العبارة

[٦٤٣] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥

[٦٤٤] (٤). «استديك» من مادة (استعداء) بمعنى الشكوى وطلب العون

[٦٤٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٠٦ و ٣٠٧

[٦٤٦] (٢). سورة الفتح، الآية ١٠

[٦٤٧] (١). «حبس» من مادة (حبس) بمعنى المحبوس، وإشارة إلى عائشة زوج النبي صلى الله عليه وآله التي كانت منهيئة عن الاشتراك فى الحرب والخروج إلى المسرح الاجتماعى، لكن طلحة والزبير دفعها لذلك العمل

[٦٤٨] (١). سورة الأحزاب، الآية ٣٣

- [٦٤٩] (٢). «صبر» تعنى فى الأصل الحبس، ومن هنا يطلق الصبر على مسك النفس وحبسها عن المكارة. المعنى الآخر للصبر أن يحبس الإنسان أو الحيوان فى موضع، ثم يرمى بحجر أو سهم، بالتالى يقال، قتل صبراً لمن يقتل بالزجر والتعذيب
- [٦٥٠] (٣). «السبابجة» جمع (سبيج) قال صاحب لسان العرب، من مادة (سبج) طائفة شجاعة من السند استؤجروا للقتال (الدفاع عن بيت المال). وقيل: كلمة فارسية تعنى الشبان الصغار وألوانهم سوداء
- [٦٥١] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٠
- [٦٥٢] (٢). سورة المائدة، الآية ٣٣
- [٦٥٣] (١). شرح التجريد، ص ٢٤٠
- [٦٥٤] (٢). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٣٢٢
- [٦٥٥] (١). سند الخطبة:
- ذكر صاحب تحف العقول قبل السيد الرضى، الفصل الأخير من الخطبة (إلما وأن هذه الدنيا...) باختلاف، كما نقلها أبو جعفر الإسكافى (المتوفى عام ٢٤٠ هـ) فى رسالته (نقض العثمانية) (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٧)
- [٦٥٦] (١). سورة البقرة، الآية ٢٤٧
- [٦٥٧] (٢). سورة النحل، الآية ١٢٥
- [٦٥٨] (٣). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٩، ص ٣٢٧
- [٦٥٩] (١). «شغب» من مادة (شغب) على وزن شرق، بمعنى إثارة الفتنة والشر والفساد
- [٦٦٠] (٢). «استعتب» من مادة (عتب) وعتاب بمعنى اللوم والتوبيخ بقصد الرجوع إلى الحق، وإن استعملت فى باب الإستفعال أفادت معنى الإسترضاء
- [٦٦١] (٣). سورة الحجرات، الآية ٩
- [٦٦٢] (١). سورة طه، الآية ١٣٢
- [٦٦٣] (٢). سورة الأعراف، الآية ١٢٨
- [٦٦٤] (١). «غير» بمعنى الحوادث والتغيرات التى تقع فى حياة الإنسان، وأريد بها فى الخطبة، مطلق التغيير
- [٦٦٥] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ٦، ص ٢٥٦ بتصريف وتلخيص، وقد نقل هذه الواقعة نصر بن مزاحم فى كتاب صفين، ص ٣٢١
- [٦٦٦] (١). سورة العنكبوت، الآية ٦٤
- [٦٦٧] (٢). «زوى» من مادة (زى) على وزن حى، بمعنى الجمع والأخذ والحمل والإبعاد، وتعنى فى العبارة الإبعاد والفقدان لأنها وردت بصيغة الفعل المجهول فى العبارة ومعها الحرف عن
- [٦٦٨] (١). اصول الكافى، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٤
- [٦٦٩] (١). سند الخطبة:
- يرى صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أن هذه الخطبة متصلة بالخطبة ٢٢ و ١٣٥ (وحسب أرقامنا، الخطبة ١٣٧)، وأضاف: رواها باختلافات) المرحوم الشيخ الطوسى فى كتابه الأمالى، والخوارزمى فى المناقب وشرح ابن أثير فى كتابه اللغوى (النهاية) كلماتها الصعبة (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤١٩)
- [٦٧٠] (١). سورة غافر، الآية ٥١
- [٦٧١] (٢). أوردنا شرحاً مفصلاً، ذيل الخطبة ١٣ فى الجزء الأول

[٦٧٢] (٣). «متجرد» من مادة (تجرد) بمعنى الإستعداد للقيام بعمل بجد واجتهاد، ومنه السيف المجرد

[٦٧٣] (٤). «أجلب» من مادة (اجلاب) بمعنى، الجمع والعون

[٦٧٤] (٥). «يوازر» من مادة (موازره) ينصر ويعين

[٦٧٥] (٦). «ينابذ» من مادة (منابذة) بمعنى، المدافعة والمقاتلة

[٦٧٦] (٧). «منههين» بمعنى، الزجر والمنع من العمل، من مادة (نههه)، على وزن قهقهه

[٦٧٧] (٨). «يركد» من مادة (ركود) السكوت والصمت

[٦٧٨] (٩). معذرين من يصطنع العذر لنفسه أو غيره

[٦٧٩] (١). الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٨٨ ذكرنا مطالب أخرى في الجزء الخامس من هذا الكتاب، ذيل الخطبة ١٣٧

[٦٨٠] (١). شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٦، كما ذكر هذه القصة دون ذكر اسم طلحة، الطبرى في الجزء الثالث من

تاريخه في حوادث سنة ٣٥ ص ٤٣٨ ثم كتب: أمر معاوية أن يهدم جدار حش كوكب ويوصل بالبقيع

[٦٨١] (١). سند الخطبة:

من المصادر التي نقلت بعض هذه الخطبة، غرر الحكم للآمدى (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٢٢) ويفهم من كتاب تمام نهج

البلاغة أن هذه الخطبة وردت في مصادر أخرى وفيها إضافات: ومنها إخبار على عليه السلام عن الحجر الأسود ونقله من مكة إلى

بلاد أخرى من قبل الأعداء ثم يعاد إلى موضعه الاصلى (كتاب تمام نهج البلاغة، ص ٢٨٧)

[٦٨٢] (١). «أراح» من مادة (إراحة) بمعنى إعادة الحيوانات عند المساء إلى الإصطبل، وتطلق أحياناً على حركة الحيوانات في كل

زمان، وهذا هو المراد بها في العبارة

[٦٨٣] (٢). «سائم» تعنى فى الأصل الشخص الذى يتابع الشىء، ثم استعملت بمعنى الراعى الذى يحمل الحيوانات إلى المرعى،

والحيوانات التى ترعى، وتعنى فى العبارة، الراعى (وعليه لها معنى المتعدى واللازم)

[٦٨٤] (٣). «وبى» من مادة (وباء) بمعنى، الشخص المصاب بالوباء أو أى مرض معدٍ، ومرعى وبى، فى العبارة المذكورة بمعنى

المرعى الذى يجلب الوباء أو الملوث بالمرض

[٦٨٥] (٤). «دوى» من مادة (داء) بمعنى، المرض، ودوى، يقال للماء والغذاء الذى يجلب المرض

[٦٨٦] (١). «مدى» جمع (مدية) على وزن لقمه، بمعنى السكين

[٦٨٧] (٢). «مولج» بمعنى الدخول إلى الشىء، من مادة (ولوج)، على وزن، ورود

[٦٨٨] (٣). اصول الكافى، ج ٨، ص ٥٧

[٦٨٩] (١). «مفضية» فى الأصل، من مادة (فضاء)، بمعنى السعة، وعليه فالإفضاء، بمعنى، التوسعة، وحين يتصل شخص بآخر بصورة

تامة يكون فى الحقيقة قد وسع الوجود بمعونة الآخر. وتعنى هذه المفردة الاختلاء بالشخص لبيان الأسرار وهذا هو المعنى المراد بها

فى العبارة

[٦٩٠] (١). «أفرغه» من مادة (إفراغ) تعنى فى الأصل، سكب شىء سيال من الظرف بحيث يخلو ممّا فيه، ثم استعملت بمعنى إلقاء

المطالب المختلفة على الآخر

[٦٩١] (٢). للوقوف على المزيد بشأن علم الغيب وعلم الأنبياء والأئمة عليهم السلام راجع إلى هذا الكتاب ج ٥، ص ٣٦٦

[٦٩٢] (٣). ميزان الحكمة، ج ١، ح ١٢٧٧٦ هناك قضية، وهى أن الإنسان إن دعى الآخرين إلى المعروف ونهاهم عن المنكر ولم

يلتزم هو بذلك فإنه يشعر بالخجل من نفسه، وهذا الخجل يسوقه بالتالى إلى المعروف والإبتعاد عن المنكر

[٦٩٣] (١). سورة طه، الآيتان ١ و ٢

[٦٩٤] (٢). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٢٢٦

[٦٩٥] (١). سند الخطبة:

صرّح ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، وابن ميثم بأن هذه الخطبة أولى خطبة بعد البيعة وقتل عثمان. وهذا يدل على أنّ هذين الشارحين وجداهما في مصدر آخر، غير نهج البلاغة، لأنّ المرحوم السيد الرضى لم يشتر إلى ما قالاه، كما روى الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار) بعضها باختلافات متعددة، وقد بين البعض الآخر من هذه الخطبة في أربعة كتب ألفت قبل نهج البلاغة (كتاب الكافي، والمحاسن، للبرقي، والأمالى للصدوق، وتفسير العياشي)، (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٠)

[٦٩٦] (١). «محاب» جمع (محب) من مادة الأمر المحبوب

[٦٩٧] (٢). «حفت» من مادة (حف) على وزن كف، بمعنى الاحاطة بالشيء

[٦٩٨] (٣). «نزع» من مادة (نزع) على وزن نبض، تتعدى هذه المادة بحرف (إلى) أحياناً فيقال: نزع عنه أى ألق عن هذا العمل، وقد وردت في العبارة بالمعنى الثانى، واستعملت بالمعنى الأول في العبارات اللاحقة (تنزع إلى المعصية). وتتعدى أحياناً دون حرف الجر كقولهم نزع الشيء أى، إبطاله وهدمه

[٦٩٩] (٤). «قمع» من مادة (قمع) على وزن منع، بمعنى، القهر والغلبة

[٧٠٠] (١). سنن أبى داود، ج ٢، ص ٤٢٢، ح ٤٧٤٤؛ وبحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٧٢

[٧٠١] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٨٣

[٧٠٢] (٣). سورة البقرة، الآية ٤٥

[٧٠٣] (١). «ظنون» صيغة مبالغة من مادة (ظن) ترد في مثل هذه الحالات بمعنى سوء الظن، وعليه، تعنى هنا، من ينظر إلى نفسه بالنقد ويتهمها، كما وردت مادة ظن بمعنى الشيء القليل، وعليه فالظنون تطلق على الفرد الضعيف، والمعنى الأول هو المراد

[٧٠٤] (٢). «زارى» بمعنى عائب، من مادة (زرى)، على وزن جرى

[٧٠٥] (١). «قوضوا» من مادة (قويض) بمعنى الهدم، والمراد هنا نزع أعمدة الخيمة وإطناها لرفعها وجمعها

[٧٠٦] (٢). «طووها» من مادة (طى) بمعنى الاجتياز

[٧٠٧] (١). تعيش البلاد الإسلامية حالة من العزاء بسبب الزلزال الذى ضرب مدينة (بم) ونواحيها وخلف آلاف الضحايا، حيث أحالت هذه الزلزلة خلال ١٢ ثانية (نعم، فقط ١٢ ثانية) هذه المدينة النضرة إلى كئيبان من التراب كأنها مدينة مهجورة منذ آلاف السنين. نعم، نعلم أن لا اعتبار لهذه الدنيا، لكننا لم نر مثل هذا، حدث ذلك في ٢ ذى القعدة عام ١٤٢٤ هـ

[٧٠٨] (١). نهج البلاغة، الرسالة ٤٧

[٧٠٩] (٢). «لأوى من مادة (لأى) على وزن سعى، بمعنى الشدة والمحنة

[٧١٠] (٣). «غى» بمعنى العمل الطائش أو الجهل التابع من الاعتقاد الفاسد، حسب الراغب في المفردات

[٧١١] (١). اصول الكافي، ج ٢، ص ٦٠٧ (باب من حفظ القرآن ... ذيل الحديث)

[٧١٢] (١). «محل» من مادة (محل) على وزن نحل، بمعنى الشكوى الممزوجة بالسعاية والعيب، لكنّها وردت هنا بمعنى الشكوى

[٧١٣] (٢). «حارث» تطلق على الفلاح، من مادة (حارث)، على وزن غرس، بمعنى الزراعة

[٧١٤] (١). «استغشوا» من مادة (غش) على وزن مسّ، بمعنى، الخداع والأعمال غير الصالحة، وأريد به في العبارة، الظن بالغش في

العمل

[٧١٥] (٢). وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٣٩

[٧١٦] (٣). بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٠٧

- [٧١٧] (١) «الاستقامة» ملازمة الطريق المستقيم والثبات على المسار الصحيح، وفُسره بعض أرباب اللغة، بالإعتدال، وكلاهما بمعنى واحد، كما وردت بمعنى الثبات والرسوخ، والاحتمالان واردان بشأن العبارة ولا مانع من الجمع بينهما
- [٧١٨] (١). شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي، ج ١، ص ٢٠٤
- [٧١٩] (٢) «اخرجوا» من مادة (خرج) ولما كان أداء الحق يخرج الإنسان من المسؤولية فقد وردت بهذا المعنى، وإذاعتدت هذه المفردة بالحرف (من) عنت أداء الحق
- [٧٢٠] (٣) «حجيج» من مادة (حج) وردت بمعنى الغلبة، ويطلق الحجيج على من يغلب الخصم بالدليل والبرهان
- [٧٢١] (١). سورة الاسراء، الآية ٧١
- [٧٢٢] (٢). سورة النحل، الآية ٨٩
- [٧٢٣] (١) «تورّد» من مادة (ورود) بمعنى، الدخول، وتستعمل حين يكون الدخول تدريجياً
- [٧٢٤] (١) «للقوف على المزيد، راجع شرح آيات القضاء والقدر في التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٩ من سورة القمر، وكتاب دوافع ظهور الدين
- [٧٢٥] (٢) «مروق» تعنى فى الأصل، مرور السهم من الهدف، ويطلق المارقين على الخوارج الذين أفرطوا فى الدين حتى خرجوا منه
- [٧٢٦] (٣) «منقطع» بهم: بمعنى الفرد الذى انتهى متاعه أو أوقف مركبه وسط الطريق ولم يصل الهدف
- [٧٢٧] (١) نقل ذلك الكلام الكثير من مصادر المحدثين والمؤرخين ومنها: مصنف ابن أبي شيبة، ج ٧، ص ٢٥١؛ وتاريخ دمشق، ج ٥٢، ص ٣٨٠؛ والبداية والنهاية لأبن كثير، ج ٨، ص ١٤؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٥١٠ وورد إلى جانب ذلك، قوله: كل شرط أعطيته فهو تحت قدمي (إشارة إلى عدم التزامه بالشروط فى صلحه مع الإمام الحسن عليه السلام)
- [٧٢٨] (٢). سورة فصلت، الآية ٣٠
- [٧٢٩] (٣). مجمع البيان ذيل الآية ١٢٤
- [٧٣٠] (١). سورة آل عمران، الآية ١٢٤؛ سورة الأحزاب، الآية ٩
- [٧٣١] (٢). مجمع البيان، ذيل الآية المذكورة
- [٧٣٢] (١) «تصريف» بمعنى، التغيير
- [٧٣٣] (١). سورة البقرة، الآية ١٤
- [٧٣٤] (٢) «جموح» من مادة (جمع) الفرس، الذى يغلب صاحبه
- [٧٣٥] (١). نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ٤٠
- [٧٣٦] (٢). سورة البقرة، الآية ١٣
- [٧٣٧] (١). سورة الاحزاب، الآيتان ٧٠ و ٧١
- [٧٣٨] (١). ميزان الحكمة، ح ٨٧٧٨
- [٧٣٩] (٢). بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٥١، ح ٣
- [٧٤٠] (١). وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣، ح ٣
- [٧٤١] (١). بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٢٥٠
- [٧٤٢] (١). راجع النص والاجتهاد للمحقق المرحوم السيد عبدالحسين شرف الدين
- [٧٤٣] (٢) «ضرستموها» من مادة (ضرس) على وزن درس، بمعنى، العض أو البعض أو العض الشديد بالأسنان، ثم وردت بمعنى الدراسة الدقيقة للشيء، وهذا هو المراد بها فى العبارة

- [٧٤٤] (٣). ذكرنا قَصِيَّةَ أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة الذي شكى مظالم المغيرة إلى عمر فلم يُصنع له فشرع بالبغض والكرهية له حتى قتله. راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة الشقشقية
- [٧٤٥] (١). «أمامه» تعنى فى الأصل جهة الأمام والعبارة (أتاه التقصير من أمامه)، أى، أتاه التقصير علانية
- [٧٤٦] (٢). سورة الكهف، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤
- [٧٤٧] (١). سورة البقرة، الآية ١١٧
- [٧٤٨] (٢). سورة الأحقاف، الآية ٩
- [٧٤٩] (٣). ميزان الحكمة، ح ١٦٢٩
- [٧٥٠] (٤). المصدر السابق، ح ١٦٣٢
- [٧٥١] (٥). المصدر السابق، ح ١٦٣٥
- [٧٥٢] (١). «متين» من مادة (متن) يعنى فى الأصل العضلتان القويتان على طرفى العمود الفقرى، ثم أطلق على كل موضوع محكم
- [٧٥٣] (١). «يتابع» جمع ينبوع، على وزن مقبول، العين
- [٧٥٤] (١). «جواد» تعنى فى الأصل، الفرس السريع، ومن مادة (جود)، معروف، ثم أطلقت على الإنسان المجرد والمستقيم
- [٧٥٥] (٢). «قاصد» من مادة (قصد) بمعنى الإعتدال، وعليه فالقاصد، مَنْ يسير على الدرب دون إفراط وتفريط
- [٧٥٦] (١). سورة النساء، الآية ٤٨
- [٧٥٧] (٢). «هنات» جمع (هن) على وزن من، بمعنى الأمر المهم والحادثه الشديده، كما ورد فى لسان العرب، مادة (هن)، وتطلق أحياناً على الموضوعات الصغيرة قليلة الأهميه، وهذا هو المعنى المراد بها فى العبارة
- [٧٥٨] (٣). «مدى» جمع (مدية) على وزن، بنية، السكين
- [٧٥٩] (٤). سورة النساء، الآية ٣١
- [٧٦٠] (١). سورة الهزرة، الآيتان ٦ و ٧
- [٧٦١] (٢). اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٣٣، ح ١٤
- [٧٦٢] (٣). المصدر السابق، ح ١٥
- [٧٦٣] (١). سورة مريم، الآية ٤٨
- [٧٦٤] (١). سورة الكهف، الآية ١٦
- [٧٦٥] (٢). ميزان الحكمة، ح ١٢٨٨٤
- [٧٦٦] (٣). غرر الحكم، ح ١٤١٤ و ٦٥٠٥
- [٧٦٧] (٤). المصدر السابق
- [٧٦٨] (٥). كنز العمال، ج ١، ص ٢٠٦، ح ١٠٢٨
- [٧٦٩] (٦). نهج البلاغه، الخطبة ١٢٧
- [٧٧٠] (١). بحار الأنوار، ج ٤٧، ص ٦٠، ح ١١٦
- [٧٧١] (٢). غرر الحكم، ح ٨١٥١
- [٧٧٢] (١). سند الخطبة:

روى هذه الخطبة مع اضافات كثيرة، المؤرخ المعروف، الطبرى، فى تاريخه فى حوادث سنة ٣٧ هجرية عن أبى مخنف، وقد خاطب بها أصحاب النهروان. وقد ذكر الإمام على عليه السلام فى بداية الخطبة أموراً بشأن الحكمين وأخطائهما، ثم بين (باختلاف) ما رواه

- المرحوم السيد الرضى (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٢٨) ولا يبعد أن تكون هذه الخطبة جزءاً من الخطبة ١٢٨ [٧٧٣] (١). «ملاء» تعنى لغوياً، ما يملأ العين ويشير إعجاب الناظر، ومن هنا تطلق على الجماعة الكثيرة المتفقهة فى الرأى والعقيدة والتي يملأ تجمعها العين، ومادة هذه الكلمة وكلمة مملوء واحدة
- [٧٧٤] (٢). «يجعجع» من مادة (جعجعة) تطلق فى الأصل على بروك البعير، ثم استعملت بمعنى الخضوع والإستسلام
- [٧٧٥] (٣). «تاه» من مادة (تبه) بمعنى، الحيرة والضلال
- [٧٧٦] (١). سورة المائدة، الآية ٥٥
- [٧٧٧] (١). راجع من ذكر سبب نزول الآية فى على عليه السلام ومنهم، الطبرى وابن هشام والحلبى واليعقوبى وأحمد بن حنبل وابن الجوزى وابن الصبأغ المالكى (الغدیر، ج ٢، ص ٤٨-٤٩)
- [٧٧٨] (٢). سورة البقرة، الآية ٢٠٧
- [٧٧٩] (٣). سورة البينة، الآية ٧
- [٧٨٠] (٤). راجع شواهد التنزيل والصواعق المحرقة والدر المنثور ونور الأبصار وتفسير الطبرى وكتاب آيات الولاية لسماحة المؤلف
- [٧٨١] (١). سند الخطبة:
- روى الشيخ صدوق، إلى جانب كتابه الخصال، جانباً من هذه الخطبة، وشرح ابن أثير فى كتابه (النهاية) مفرداتها الصعبة، كما روى بعضها الزمخشري، فى (ربيع الأبرار) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٤٣٥)
- [٧٨٢] (١). «يحوى» من مادة (حواية) على وزن شفاعه، بمعنى الإحاطة بالشىء
- [٧٨٣] (١). أصول الكافى، ج ٣، ص ٣٢٤، ح ١٢. مناجاة النبى عند سجوده منتصف الليل
- [٧٨٤] (٢). «يعزب» من مادة (عزوب) على وزن غروب، بمعنى الإبتعاد والإختفاء، ومن هنا يقال، الأعزب
- [٧٨٥] (٣). «سوافى» جمع سافية، بمعنى، الريح الشديدة
- [٧٨٦] (٤). «ديب» المشى البطيء
- [٧٨٧] (٥). «صفا» جمع صفاة، على وزن وفا، بمعنى، الحجر الأملس الضخم
- [٧٨٨] (٦). «مقيل» من مادة (قيلولة) النوم قبل الزوال، ومقيل اسم مكان بمعنى، موقع الراحة والنوم منتصف النهار
- [٧٨٩] (٧). «ذر» جمع ذرة، وهى صغار النمل
- [٧٩٠] (٨). «طرف» بمعنى جفن العين، وترد بمعنى النظر وتحريك الأجفان
- [٧٩١] (١). سورة لقمان، الآية ٢٧
- [٧٩٢] (٢). «معدول» من مادة (عدل) على وزن علم، بمعنى التشبيه والمثيل
- [٧٩٣] (٣). «صفت» من مادة (صفا) بمعنى طهرت
- [٧٩٤] (٤). «دخله» بمعنى، باطن الشىء
- [٧٩٥] (١). «معتام» من مادة (عيم) على وزن غيب، تعنى فى الأصل الشغف باللبن، والمعتام هنا، الشخص الشديد الحب لإتيان الوظيفة المكلف بها
- [٧٩٦] (٢). «عقائل» جمع عقيلة، بمعنى اقتطاف كل شىء، ومن هنا يقال للجوهرة الثمينه عقيلة البحر
- [٧٩٧] (٣). «غريب» تعنى الشىء الأسود المعتم، وتعنى هنا، ظلمة الجهل
- [٧٩٨] (١). كثر العمال، ج ٣، ص ١٦، ح ٥٢١٧٥
- [٧٩٩] (١). «مخلد» من مادة (خلد وخلود) الشخص الذى يسكن مكاناً بصورة دائمية وتشير فى العبارة إلى من التصق بالدنيا

[٨٠٠] (٢). «تنفس» من مادة (نفساً) بمعنى الثمين، ووردت هنا، بمعنى الأهمية

[٨٠١] (١). «غض» النظر والجديد

[٨٠٢] (٢). «اجترحوا» من مادة (جرح) وما يصيب البدن من ضرر ويبقى أثره، واجترح، بمعنى، الإتيان بالذنب، وكأنّ الإنسان يجرح نفسه، ثم توسع هذا المعنى ليطلق على كل اكتساب وارتكاب

[٨٠٣] (٣). سورة الرعد، الآية ١١

[٨٠٤] (٤). سورة الاعراف، الآية ٩٦

[٨٠٥] (٥). وردت في كلمات العلماء وهي مقتبسة من الأحاديث الإسلامية، مثل قول الإمام الصادق عليه السلام «إنّ أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثمّ الذين يلونهم ثمّ الأمثل فألأمثل». (أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٥٢ باب شدة ابتلاء المؤمن)

[٨٠٦] (١). سورة الشورى، الآية ٣٠

[٨٠٧] (٢). سورة البقرة، الآية ١٥٥

[٨٠٨] (٣). سورة الروم، الآية ٤١

[٨٠٩] (٤). «وله» بمعنى الحيرة، من شدة الحزن حتى يفقد الإنسان أحياناً عقله ووعيه، ومن هنا اطلقت على العشق الذي يسلب عن الإنسان سكونه وواعيته

[٨١٠] (٥). شارّد الشخص الذي يفر من الطريق أو ينحرف

[٨١١] (٦). أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٦٩، باب الدعاء يرد البلاء، ح ٥

[٨١٢] (١). «فترة» تعنى فى الأصل، التوقف والضعف والعجز، ومن هنا هى تطلق على الفاصلة بين برنامجين لإيقاف الأعمال، وحيث تمتزج بالغفلة استعملت لهذا المعنى

[٨١٣] (٢). ذهب كأغلب شرّاح نهج البلاغة و مترجميه، إلى ترجمه هذه العبارة بمعنى: «إذا أردت أن أقول شيئاً قلت، عفا الله عمّا سلف»، ولكن هذا المعنى بعيد، لأنّه ما ورد فى كلام الشيخ المفيد فى كتاب «الجمال» وفى كتاب «مناقب» حسب ما نقله كتاب «تمام نهج البلاغة» بوجود (لكن) قبل العبارة «عفا الله عمّا سلف»، فعليه أنّ جملة «عفا الله عمّا سلف» دعاء لأولئك، وهذا ما تقتضيه العلاقة بين هذه الجملة والجمال التى سبقتها: واختار عدده من الشرّاح هذا المعنى، راجع الكتب، معارج نهج البلاغة، تأليف البيهقى، بحار الأنوار، العلامة المجلسى، ج ٢٩، ص ٥٩٩، وشرح حدائق الحقائق، البيهقى، ج ٢، ص ٩٤، وشرح المرحوم الخوئى، ج ١٦، ص ٣٥٩ [٨١٤] (١). سند الخطبة:

وردت العبارة المذكورة (باختلاف فيها) فى عدده كتب معتبرة من كتب علماء الشيعة بطرق متعددة قبل تأليف نهج البلاغة، ومنها المرحوم الكلينى فى الجزء الأول من أصول الكافى حيث نقلها فى بايين، والمرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد والمرحوم الشيخ المفيد فى الإرشاد. ومن علماء العامة ابن الجوزى الحنفى فى كتابه (التذكرة) عن ابن عباس (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٧)

[٨١٥] (١). توحيد الصدوق، ص ٣٠٥ الباب ٤٣، ح ١ و ٢

[٨١٦] (١). سورة الأنعام، الآية ٧٥

[٨١٧] (١). سورة يوسف، الآية ٩٤

[٨١٨] (٢). الكامل لابن أثير، ج ٢، ص ١٧٩

[٨١٩] (٣). أصول الكافى، ج ٢، ص ٥٣ (باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٢)

[٨٢٠] (٤). للوقوف على المزيد وفهم معنى الشهود وأسبابه وموانعه (راجع نفحات القرآن، ج ١، ص ١٩٣)

[٨٢١] (٥). «ملايس» اسم فاعل من مادة (ملايسه) بمعنى، الإختلاط والإلتصاق بشيء

- [٨٢٢] (١). «روية» من مادة (تروية) تعنى، أحياناً، الشبع من الماء، كما وردت بمعنى التفكير
- [٨٢٣] (٢). «همة» من مادة (هم) بمعنى العزم على الإتيان بشيء، كما تعنى، الهم الذى يشغل فكر الإنسان، والنوع الأول هو المراد
- [٨٢٤] (٣). نهج البلاغة، الخطبة ١
- [٨٢٥] (١). «تعنو» من مادة (عنو) على وزن غلو، بمعنى، تذلل وتخضع
- [٨٢٦] (٢). «تجب» من مادة (وجوب) تعنى أحياناً، الثبوت، وأخرى السقوط والوقوع ولازمته الثبوت والاستقرار، وإن وردت بشأن القلب عنت الاضطراب
- [٨٢٧] (٣). سورة المؤمنون، الآية ٦٠
- [٨٢٨] (١). سند الخطبة:
- روى هذه الخطبة قبل السيد الرضى، إبراهيم بن هلال الثقفى، فى (الغارات) عن حبيب بن عبد الله. (مصادر نهج البلاغة، ج ٢، ص ٤٣٩ و ٤٤٠)
- [٨٢٩] (١). «خضتم» من مادة (خوض) على وزن حوض، قال الراغب فى المفردات، الورود شيئاً فشيئاً فى الماء والمشى فيه، ثم وردت بالمعنى الكنائى للشروع بالأعمال السيئة أو الأقوال القبيحة
- [٨٣٠] (٢). «خرتم» من مادة (خوار) الصراخ وحيث ينشأ الصراخ من الضعف فهى تعنى الضعف أو العجز
- [٨٣١] (٣). «أجتتم» من مادة (أجاء) وجذرها مجىء، جلب الشخص أو الشيء، وعليه إن اجتتم بمعنى أن جلبوكم
- [٨٣٢] (٤). «مشافة» بمعنى الصعوبة أو الخصومة والعداء من مادة (شق) على وزن حق
- [٨٣٣] (٥). «نكصتم» من مادة (نكص) على وزن عكس، الرجوع إلى الوراء، القهقرى
- [٨٣٤] (٦). اعتبر أغلب شراح نهج البلاغة العبارة «الموت أو الذل» لكم نوعان من اللعن والدعاء عليهم، أى متم أو ذللتهم، وهى ليست كذلك فقد أراد الإمام عليه السلام أن يبين وهنهم وضعفهم فى الجهاد، أى أن نتيجة عملكم إما الموت أو الذلة، لاسيما أن العبارة التى وردت قبلها «لا أبا لغيركم!» والعبارة اللاحقة «لله أتم!» تفيد أنه لم يكن فى مقام الدعاء عليهم، وقد أذعن الشراح بأنه تطف من الإمام عليه السلام بتوجيه الدعاء لغيرهم
- [٨٣٥] (٧). نهج البلاغة، الخطبة ٥١
- [٨٣٦] (١). «قال» بمعنى العدو، ومن مادة (قلا)، على وزن ندا، بمعنى، شدة البغض والعداء
- [٨٣٧] (١). «حمية» بمعنى الغيرة والشخصية والتعصب، كما وردت بمعنى التكبر وأصلها من مادة (حمية)، لأن مثل هذه الصفات سبب لحماية الشخص أو الشيء
- [٨٣٨] (٢). «تشخذ» من مادة (شخذ) على وزن قبض، بمعنى حد، وتستعمل فى المسائل المعنوية كالذكاء والفطنة
- [٨٣٩] (١). «الجفأة» جمع جافٍ، الشخص الغليظ والسيء الخلق، من مادة (جفاء)
- [٨٤٠] (٢). «الطغام» جمع طغامه، بمعنى، ضعاف الفكر وأراذل الناس
- [٨٤١] (٣). «تريكة» من مادة (ترك) والمراد به، الشخص أو الشيء المتبقى، والمراد هنا المتبقون من شخصيات صدر الإسلام
- [٨٤٢] (١). «دارستكم» من مادة (مدارسه) بمعنى، التدريس والتعليم والتفهيم
- [٨٤٣] (٢). «حجاج» جمع حجة، بمعنى الدليل والبرهان، ولها أحياناً معنى مصدرى وتستعمل بصيغة المفرد
- [٨٤٤] (١). «سوغتكم» من مادة (تسويغ) جعلت الشيء سائغاً، ثم استعملت بمعنى، الأذن
- [٨٤٥] (٢). «مججتم» من مادة (مج) على وزن حجج، بمعنى رمى الماء أو شيء آخر من الغم، ثم استعملت بمعنى كنائى هو إبراز الكراهية من شيء

[٨٤٦] (٣). «أقرب» بقوم من قبيل صيغته التعجب، حيث يبدى الإمام عليه السلام تعجبه بهذه الصيغة من الأفراد الجهال الذين استسلموا لخطط معاوية

[٨٤٧] (٤). «نابغة» تعنى فى الأصل الفرد المشهور والعبرى، من مادة (نوغ)، وتطلق أحياناً على الفرد المشهور بالفساد، ليس لها داع هنا

[٨٤٨] (٥). تاريخ الطبرى، ج ٤، ص ٣١ حوادث سنة ٣٧ هجرية

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - فى تليخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصبهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رحمه الله" - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذى قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبى (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام على بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، فى سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريفة لم ينطفئ مصباحها، بل تتبع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحرى الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرى الأدق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلاميه، إناله منابع اللزومه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى جامعه، و...

- منها العدالة الاجتماعيه: التى يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانية - فى أنحاء العالم - من جهه أخرى.

- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعىة و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جَمكران و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع " ما قبل المدرسة " الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد/ " ما بين شارع " پنج رمضان " و "مفترق" و "فائى" / "بنايه" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (=١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلميه الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً مترائداً لإعانتهم - فى حد التمكن لكل احد منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولى التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان

الغامدية

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الأخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للإيحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

